كارل يونغ

2

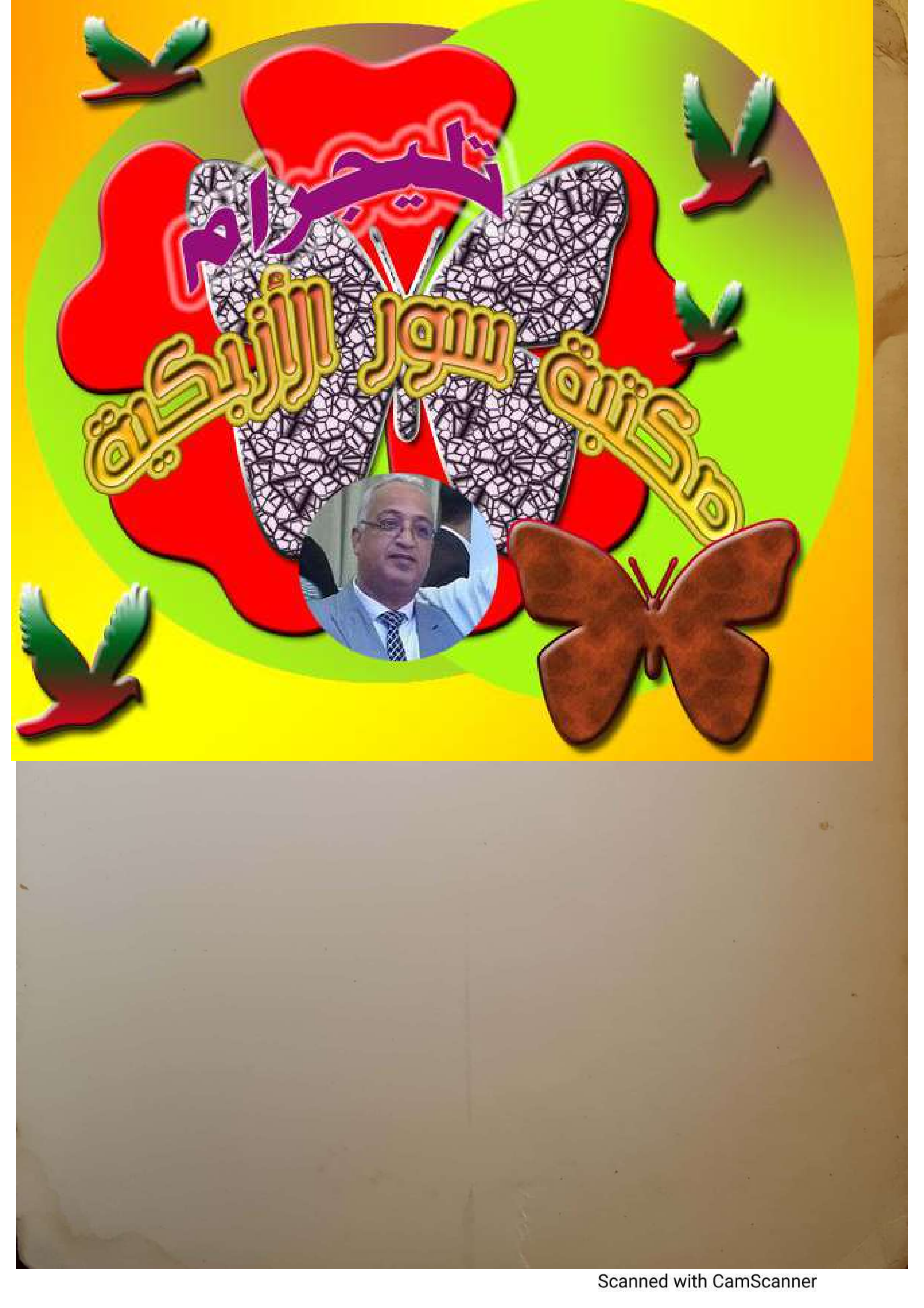
الانسان يبحث عن نفسه



ترجمة

سامي علام ديمتري أڤييرينوس

Scanned with CamScanner



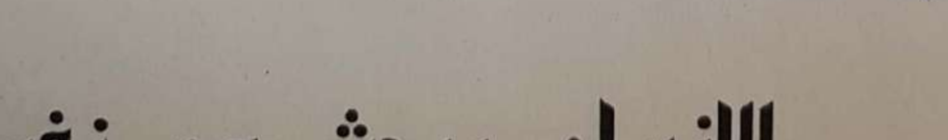
Scanned with CamScanner

22/4/2004

https://t.me/kotokhatab

https://t.me/kotokhatab

الانسان يبحث عن نفسه



Scanned with CamScanner

كارل يونغ

الانسان يبحث عن نفسه

ترجمة

سامي علام		ديمتري أڤييرينوس

Scanned with CamScanner

عنوان الكتاب الأصلي :

https://t.me/kotokhatab

L'Homme à la découverte de son âme

أُنجزت هذه الترجمة اعتماداً على الطبعة الصادرة
في باريس عام ١٩٦٦ عن دار Payot .

Scanned with CamScanner

الحقوق محفوظة للمترجمين
الطبعة الأولى ١٩٩٣
هاتف : ٤٥٩٥٠٩
٤٤٣٨٨١

دار الغربال - دمشق

الإهداء

إلى الذين وجدوا كنزهم ، فليهنأوا به ؛
وإلى الباحثين عنه ، فليعثروا عليه ؛
وإلى روح يونغ ، ممهّد السبيل إلى كنوز النفس ؛
نهدي ترجمتنا العربية هذه .

https://t.me/kotokhatab

المترجمان

إن البحر لا يميت قطرة من الماء عندما يستردها من جوف صهريج في الصحراء إلى جوفه . إنما تميت قطرة ذاتها إن هي توهمت أن الحياة كل الحياة في الصهريج ونسيت أنها أبداً في حوزة البحر حيثما انطلقت وأنى استقرت .

ميخائيل نعيمه ، المراحل

Scanned with CamScanner

أجل ، عندما قال الإنسان : «أنا - و - العالم» عندئذٍ خلق من نفسه ضداً لنفسه . وإذ خلق لنفسه ضداً خلق ضداً لكل شيء . وأصبح ينظر إلى كل شيء بعينين : عين يرى بها «أنا» ، وأخرى يرى بها «غير أنا» . وهكذا ازدوجت الأشياء في نظره وهي واحدة . فأضحى لا يبصر شيئاً إلا أبصر معه في الحال نقيضه . ولأن النقيض يمحو نقيضه ، فالإنسان لا يبصر في الواقع إلا خيالات أوهامه .

هكذا جزّأ الإنسان نفسه التي لا تتجزأ ، وبعثرها في كل أنحاء الكون .

وهكذا يسير هذا الإنسان المبصر - الأعمى متلمساً سبيله في الكون ، وملتقطاً عن جوانب السبيل ذرات نفسه المبعثرة . غير أنه لا يلتقط ذرةً من «أنا» إلا التقط ذرة من شطرها الثاني الذي يدعوه «العالم» أو «غير أنا» . وكلما التقط ذرة قال في نفسه : سأحتفظ بما في هذه الذرة من «أنا» وأطرح ما «ليس أنا» . وإذ يحاول ذلك يجد أنه قد طرح «أنا» مع ما «ليس أنا» . لأن الاثنين لا يفترقان . فيتألم ويعود يلتقط ذراته من جديد .

ميخائيل نعيمه ، صوت العالم

Scanned with CamScanner

توطئة

هو ذا الكتاب الثاني في سلسلة أعمال يونغ بعد أن صدر الكتاب الأول بعنوان علم النفس المركب حيث قام شارل بودوان بتقديم شخصية يونغ وحياته وأعماله جملةً وتفصيلاً بحيث لم نعد نجد مسوّغاً للكلام في الكتب التالية عن موقع الرجل وحياته والبيئة التي نشأت فيها نظرياته .

الإنسان يبحث عن نفسه هو الكتاب الذي اعتبره يونغ نفسه بمثابة تمهيد مباشر يضع القارىء المطلع والمهتم بشؤون النفس في خضم البحث ويعرض المناهج المؤدية إليه . فـ تجاوب التداعيات الشهيرة هي أولى ابتكارات يونغ التي برهنت على وجود الخافية (اللا شعور) وجعلتها في متناول الإجراءات العلمية الملموسة في ا لوقت الذي ما يزال الكثيرون إلى اليوم يشككون بوجودها .

وهناك الأحلام ومناهج تفسيرها التي تميَّز بها يونغ . في هذا الكتاب يعرض لنا أبحاثه المعمقة في هذا الشأن بأمثلةٍ محسوسة وشروح متكاملة على مستويين ظاهرين : مستوى الموضوع ومستوى الذات بكل التدقيق والتأني وروح المنقِّب الذي يعطي كل التفاصيل حقها .

يضاف إلى ما تقدم المفاهيم الجديدة التي طرحها عن الأعيان الثابتةالتي كان له فيها سبق الاكتشاف مع ما رافق تلك الطروح من صعوبات الإثبات والبرهان . فحيث إنها غير مرئية كان عليه أن يسعى بكل الطرق غير المباشرة لتأكيد فعاليتها فكانت أشبه بخطوط المجال المغنطيسي التي يُثبِت تراكمُ برادة الحديد وجودَها .

ويتوجّه هذا الكتاب إلى الأطباء حيث يمكنهم اكتشاف مدى تداخل الآلام البدنية مع أوصاب النفس وأمراضها بحيث تصبح نظرتهم لشخصية المريض أكثر شمولية ذلك أن الألم ألم الشخص بكلّيته وليس ألم عضو بمعزلٍ عن سائر الأعضاء .

Scanned with CamScanner

ويتوجه أيضاً إلى الأدباء والأخلاقيين الذين يبحثون عن تحديد مسؤولية الإنسان في أعماله وسلوكه فيكتشفون أن المعرفة النظرية الخارجية والمبادىء الأخلاقية ليست وحدها ما يشكل عوامل القرار والفعل وأن ثمّة عوامل خافيّة تحوك مصير الإنسان وتنسج سلوكه على غير وعي منه . هنا تنطرح مسألة الحرية وكيف يراها المحلِّلون النفسيون الذين يجابهون أولاً الجانب الخافيّ من شخصية الإنسان : ما هو دور المركّبات في تحديد المسؤولية وإلى أي مدى يشعر الإنسان بأنه حرٌ في أعماله ؟

غير أنه لا مندوحة لقارىء يونغ من أن يتسلَّح بمعرفة عددٍ من المصطلحات النفسانية التي قد تبدو غريبة للوهلة الأولى على غير المختص . لذلك فقد أرفقنا مع النص حواشي تشرح تلك المصطلحات على نحومقتضب أو أحلنا إلى شروحاتٍ مطولةٍ وافية عنها في كتبنا النفسانية التي صدرت سابقاً وخاصةً إلى كتاب علم النفس المركب حيث نرى أن من الضروري لكل قارىء أو مهتمٍ بنظريات يونغ النفسانية أن يرجع إلى الشروح والتفسيرات التي قدَّمها لها شارل بودوان في كتابه المذكور .

لقد اعتمدنا الترجمة الفرنسية لأعمال يونغ التي قام بها كل من رولان كاهن Roland Cahen وإيف لوليه Yves Le Lay وهي ترجمة كان يونغ قد نظر فيها ووافق عليها . غير أننا لم نعفِ نفسنا من العودة إلى المصطلحات أو التعابير الواردة بالألمانية وتقصي فروقاتها الدقيقة عند اللزوم . كما أننا أخذنا بعين الاعتبار الملاحظات التي أوردها المترجمان المذكوران سواء في المقدّمات أو في الحواشي العديدة التي ذيّلا بها النصوص .

وتسهيلاً للباحثين ، علماء ودارسين ، قمنا في الترجمة العربية بوضع عناوين فرعية تلخص فكرة معينة في النص وتحيل في الوقت عينه إلى عناوين ونظريات جرى شرحها وتقديمها في كتاب علم النفس المركب بحيث يستطيع الباحث ربط أفكار يونغ الواردة في هذا الكتاب بالأفكار الأخرى في الموضوع عينه في كتبه الأخرى دونما بحث كثير أو عناء .

يضاف إلى ذلك ، إلى جانب الفهرس العام للكتاب ، فهرس بالمواضيع الواردة فيه ، وهو جانب تميَّزت به كل مؤلفات يونغ ، بحيث يكون عوناً لكل باحثٍ يسعى للإحاطة بفكرة أو بمصطلح ما بالصيغ والعبارات المتعددة التي ورد فيها على

Scanned with CamScanner

لسان المؤلف .

أما ما يتعلّق بالمكافِئات العربية للمصطلحات فقد اعتمدنا لذلك مقياساً نطبّقه في ترجمتنا لكل مصطلح أجنبي ألا وهو :

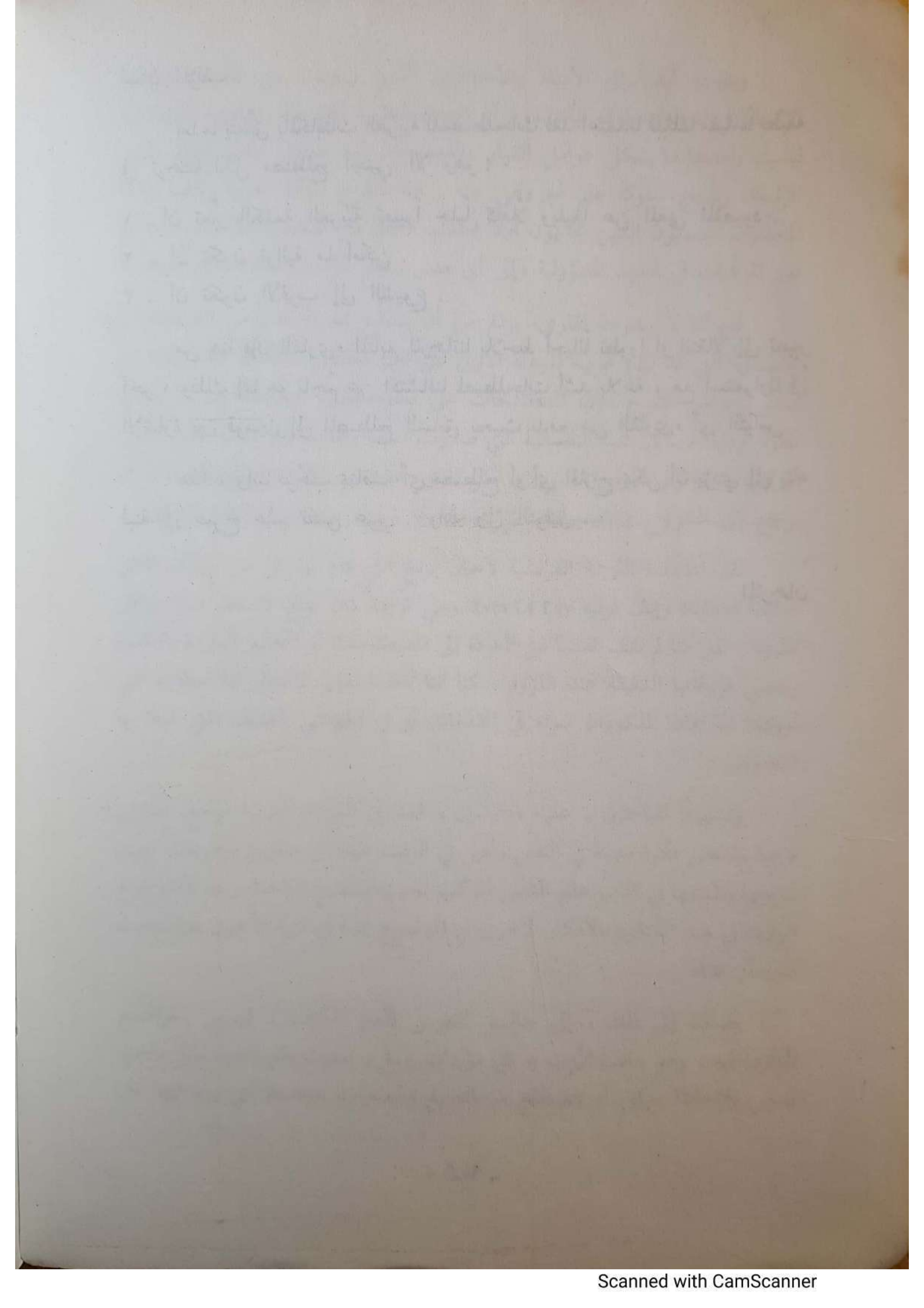
١ ـ أن تعبّر الكلمة العربية تعبيراً جلياً كاملاً وبليغاً عن المعنى المقصود .
٢ ـ أن تكون تراثية ما أمكن .
٣ ـ أن تكون الأقرب إلى الشيوع .

من هنا فإن القارىء المتابع لترجماتنا يلاحظ أحياناً تطوراً أو انتقالاً إلى تعبيرٍ آخر ؛ وذلك إنما هو ناجمٌ عن اكتشافنا لمصطلحاتٍ أشد بلاغةً ، مع استمرارنا في الإشارة بين قوسين إلى المصطلح السابق بحيث ندفع عن القارىء أي التباس .

هذا ، وإننا نرحّب بمناقشة أي مصطلح أو أي اقتراح يمكن أن يؤدي إلى بناء لبنة في صرح علم نفس عربي . والله وليّ التوفيق .

المترجمان

Scanned with CamScanner



Scanned with CamScanner

١
أوجه النفس المعاصرة[١]

روح العصر[٢]

بينما كانت العصور الوسطى والقديمة بل البشرية برمَّتها منذ ثغاءاتها الأولى تهنأ في الإيقان بنفسٍ ذات جوهر إذا بنا نرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بزوغ نفسانياتٍ «لانفس لها» ذلك أن كل ما لايستطيع المرء معاينته أو أخذه باليد قد أصبح موضح شك أو تخمينٍ غيبي مثير للجدل . وحده كان «علمياً» ومحطَّ قبول ما كان بتأثيرٍ من المادانية matérialisme العلمية مادياً على نحوٍ ظاهر أو قابلاً للاستنتاج من عللٍ في متناول الحواس . بيد أن هذا الانقلاب قد تمَّ الإعداد له منذ زمنٍ بعيد بفعل مخاض بطيء سابق بكثير للمادانية . فعندما راح العصر الغوطي المشرئب نحو السماء والمتوضع على قاعدة جغرافية وتصورٍ للعالم دقيقي التحديد ينهار مزعزعاً بالكارثة الروحية للإصلاح الديني كان التوسعُ الأفقي للوعي الحديث يخترق ذاك العروج العمودي للعقل الأوروبي . لم يعد الوعي ينمو ارتفاعاً بل أخذ بالتمدد أفقياً على الصعيدين الجغرافي والفكري معاً فكان عصر الاكتشافات العظيمة والتوسيع التجريبي لمفاهيمنا عن العالم . وراح الإيمان بجوهرية الروح يتراجع رويداً رويداً أمام التأكيد المتفتت المتنامي لجوهرية العالم الطبيعي على

(١) ألقيت هذه المحاضرة في ڤيينا عام ١٩٣١ في الرابطة الثقافية ثم نشرت في **فعالية النفس** (Rascher, Zurich, 1934) تحت عنوان حرفي هو **المشكل الأساس في علم النفس المعاصر** . (رك)

(٢) انظر الفصل الأول من كتابنا المترجم **علم النفس المركب** لمؤلفه شارل بودوان ، ذلك أن المؤلف يقوم بمقارنة كافة نصوص يونغ الواردة في كتبه والمتعلقة بفكرة أو موضوع واحد ونعتقد بأن في ذلك فائدة للقارىء . (م)

Scanned with CamScanner

امتداد أربعة قرونٍ من التنازع تمكن فيها قادة الوعي الأوروبي مفكرين وعلماء من تثبيت تبعية الروح المطلقة للمادة وللأسباب المادية .

ولعلَّه من الغلط الأكيد عزو أسباب انقلاب بمثل هذا الشمول إلى الفلسفة والعلوم الطبيعية. فقد كان ثمة فلاسفة وعلماء أذكياء يحدوهم حدسهم النافذ وعمق تفكيرهم إلى أن يكونوا شهوداً على ذلك الانقلاب اللاعقلي دونما احتجاج . بيد أنهم كانوا عبثاً يقاومون لأن الشعبية كانت تجانبهم فبدوا عاجزين عن قهر الإيثار العاطفي الشامل الذي حمل ـ كمثل أمواج القعر ـ النظام المادي إلى الذروة. فلا يحسبنَّ أحدٌ بأن انقلاباتٍ بمثل هذه القوة في تصور الإنسان للأشياء يمكن أن تحدث نتيجةً لإعمالٍ عقلي؛ إذ هل من تأملاتٍ عقلية يمكنها أن تثبت أو تنفي الروح أو المادة ؟ إن هذين المفهومين (وهي معرفةٌ يحق نسبتها إلى كل معاصرٍ مثقف) ليسا سوى رمزين دالَّين على عوامل مجهولة يُعلَن وجودها أو يلغى تبعاً للأهواء والأمزجة الفردية وتبدلات روح العصر المباغتة . وليس من شيء يمنع التأمل الفكري من اعتبار المنظومة النفسية psyché[1] ظاهرة أحيائية كيميائية مركَّبة وردِّها على هذا النحو في التحليل الأخير إلى لعبة كهارب أو بالعكس تقرير الغياب الظاهر للقاعدة في محور الذرة على أنه حياةٌ روحية .

لقد اضطرت فلسفة الروح الماورائية في القرن التاسع عشر إلى التراجع أمام ما ورائيات المادة ، ولئن كان هذا الكلام يشكل نكتةً على صعيد الفكر إلَّا أنه من الناحية النفسانية يشكل ثورة صامتة في نظرة الإنسان إلى العالم ذلك أن الغيب بكليته قد اتخذ له مكاناً في هذه الدنيا فلا يجوز لأسس الأشياء وتحديد الأهداف والمعاني القصوى أن تتجاوز الحدود التجريبية بل يبدو إذا ماصدَّقنا العقل الساذج أن جوّانية الإنسان المعتمة قد أصبحت برّانيةً مرئية ولم تعد القيمة تخضع سوى للواقع المزعوم .

إن السعي إلى مقاربة هذا الانقلاب اللاعقلي بفضل الفلسفة لهو توجهٌ نحو فشلٍ محتم . فمن الأجدى العدول عن محاولة كهذه لأنه إذا ما ارتأى إنسانٌ في

(١) يقصد يونغ بـ «المنظومة النفسية» كل الأفاعيل النفسية الخافية والواعية على السواء . أما عن النفس في مقابل الجسد أو النفس ككل بما هي مبدأ حياة فهو يستعمل كلمة âme (بالألمانية Seele) . (م)

Scanned with CamScanner

أيامنا استخلاص الظواهرية الفكرية أو الروحية من النشاط الغددي فليكن على يقين مسبقاً من إصغاء الحضور وخشوعهم. أمَّا إذا طاب لإنسانٍ آخر أن يرى في الانفطار الذري للمادة النجمية انبثاقاً للروح الخالق للعالم فهذا الحضور نفسه لن يتورع عن رثاء الشذوذ الذهني للمؤلف. ومع ذلك فإن هذين التفسيرين منطقيان كلاهما وغيبيان واعتباطيان ورمزيان . فمن الجائز على حدٍ سواء من وجهة النظر المعارفية جعل الإنسان يتحدَّر من السلالة الحيوانية أو السلالة الحيوانية من الإنسان . ولكن كان لخطيئةٍ كهذه ضد روح العصر كما نعلم عواقب أكاديمية مؤلمة عند داكه Dacqué[1] . فليس ثمَّة مجالٌ للمزاح مع روح العصر ذلك أنه يشكل ديانةً بل بالحري اعترافاً أو فعل إيمانٍ لا غبار على لا عقليته وله من جهة أخرى الصفة المؤسفة بأنه يسعى ليكون المقياس المطلق لكل حقيقة مدّعياً امتلاك امتياز الحس الفطري .

إن **روح العصر** ليفلت من مقولات العقل البشري . فهو ميلٌ ونحوٌ عاطفي يطغى بقوة إيحائه لأسباب خافية (= لا شعورية) على ضعاف العقول جارفاً إياهم في تياره . فأن تفكر خلافاً لما يُفكَّر به اليوم عموماً هو أمرٌ تعوزه دائماً مشروعية راهنة ويبعث على الضيق بل يكاد لا يكون سليماً ينم عن مرض وتجديف وينبىء بمخاطر اجتماعية على ذاك الذي يسبح ضد التيار على هذا النحو اللا معقول . لقد سادت في الماضي مسلَّمة تقضي بأن كل موجود إنما يستمد حياته من الإرادة الخلَّاقة لإلهٍ روحي أما القرن التاسع عشر فقد وضع حقيقة بديهية بالمثل هي شمولية الأسباب المادية. فليست النفس هي اليوم مَن تبتني الجسد ولكن المادة بالعكس هي التي تولِّد النفس بكيميائيتها. ولعلَّ في هذا الانقلاب ما هو خليق بالسخرية لو لم يكن واحدةً من المسلَّمات الرئيسة لروح العصر . إنها طريقة شعبية في التفكير ولذلك

(١) إحاثي وفيلسوف ولد في عام ١٨٧٨ ، أستاذ في ميونخ . صاغ داكه في مؤلفه **الطبيعة والنفس** نظرية مبتكرة في الارتقاء مذكراً إيانا بفلسفة شيللنغ التأملية . والإنسان تبعاً لهذه النظرية ليس منتهى التطور العضوي ولكنه «شكل أصلي» انسلخت عنه عبر الأرض الأنواع الحيوانية الرئيسية . ولعل الشكل الراهن للإنسان قد تنقى تدريجياً خلال هذا الارتقاء . لذا فإن ظهوره قد لا يكون حصل في العصر الجليدي وحسب بل ربما كان حاضراً في عصور سابقة على شكل زواحفي ولم يظهر بين الثدييات إلا في العصر الثاني . إن خرافات التنانين قد أعادت إلينا ذكرى العهد الذي كان الإنسان يعيش فيه في العصر الثاني . (رك)

فهي مقبولة ومعقولة وعلمية وسوية وعلينا بالتالي أن نتصور بأن الروح ظاهرةً عارضة انبثق من المادة . إن كل شيءٍ يؤدي بنا إلى هذا التصور حتى لو تكلمنا عن «النفس» بدلاً من «الروح» وعن «المخ» و «الحواث» و «الغرائز» و «الجمحات» بدلاً من المادة ذلك أن روح العصر يمتنع عن منح النفس جوهراً ذاتياً لأن أمراً كهذا يُعدّ هرطقةً في نظره .

والآن أصبح جلياً بأن أجدادنا إنما كانوا يزهون بادِّعاءٍ فكري اعتباطي بافتراضهم أن للإنسان نفساً ذات جوهر وطبيعةً إلهية وبالتالي خالدة وأن قوة خاصة بالنفس تبتني الجسد وتصون حياته وتشفي أسقامه متيحة هكذا للنفس وجوداً منعزلاً عن الجسد ، وأن ثمّة أرواحاً غير جسمانية تتواصل النفس معها وعالماً روحياً فيما وراء دنيانا التجريبية يسبغ على النفس علمها بالأشياء الروحية التي لا نملك أن نعثر على أصولها في عالمنا المرئي .

بيدَ أن وعينا المعاصر لم يكتشف بعد أن ثمّة ادعاءً نزوياً مماثلاً في الاعتقاد بأن المادة تولّد النفس على نحو طبيعي وبأن القردة تلد الإنسان وأن مزيجاً متناغماً من الجوع والحب وإرادة القوة هو الذي أنتج **نقد العقل المحض** لكنط وأن الخلايا المخيَّة تصنع الخواطر والاعتقاد بالتالي بأن كل هذا يستجيب لضرورة الأشياء الأخيرة ولا يملك أن يكون خلاف ذلك .

إذاً ما هو أساس هذه المادة الكلية القدرة ؟ إنها هي أيضاً إله خلَّاق ولكن نُزعت عنه هذه المرة تأنيسيته وصيغَ بالمقابل في شكل مفهومٍ شامل يحسَب كلٌّ منا نفسه مكتنهاً لمعناه . إن الوعي العام قد توسع بالتأكيد توسعاً هائلاً ولكن للأسف من وجهة النظر المكانية لا الزمانية وإلاّ لكان شعورنا التاريخي على نحوٍ مختلف من التوقد . فلو لم يكن وعينا العام مجرَّد ظاهرة عابرة ولو كان تاريخياً بعض الشيء لكنّا عرفنا بأنه حصلت في عصر الفلسفة الإغريقية تبدلات مماثلة في الألوهة بوسعها أن تحثنا على مواقف نقدية إزاء فلسفتنا المعاصرة. بيد أن روح العصر يتصدى بعنفٍ لمثل هذه الافتكارات لأن التاريخ بالنسبة إليه مجرَّد مصنعٍ للحجج الملائمة يتيح لنا القول مثلاً : إن أرسطو العجوز كان يعرف في حينه أن . . إلخ .

إن موقفاً كهذا ليحملنا على البحث بنزاهةٍ عن مصدر قدرة روح العصر

Scanned with CamScanner

المحيّرة هذه. فهي دون أي شك ظاهرة نفسية بالغة الأهمية وحكم مسبق وبالتالي مضرة هي في كل الأحوال من العمق بحيث لا نملك التوصل إلى مشكلة النفس قبل أن تمرَّ علينا مقاصلها الحادة.

تجلي النفسية الجمعية

وكما كنت أقول فيما سبق فإن الاستعداد الجموح إلى تفضيل استقاء المبادىء التفسيرية من النظام الطبيعي كان متفقاً مع التوسع الأفقي للوعي على مدار القرون الأربعة الأخيرة. لقد كان هذا **الاتجاه الأفقي** بمثابة رجعٍ على **الاتجاه العمودي** المانع للعصر القوطي. إنه تجلٍ للنفسانية الجمعية التي بهذه المثابة تجري دائماً على هامش الوعي الفردي .فنحن تماماً **على مثال البدائيين** نتصرف في البداية تصرفاً خافياً بالكلية ولا نفيق على دوافع أعمالنا إلَّا بعد زمن طويل من إنجازها وفي غضون ذلك نكتفي بحشدٍ من التسويغات التقريبية. ولو كنا واعين لروح عصرنا وأكثر استشعاراً لتاريخيته لأقررنا أننا بسبب اللجوء المفرط في الماضي إلى الروح إنما نؤثر اليوم التفسيرات المستقاة من النظام الطبيعي .لعلَّ وعياً كهذا يستحث ملكة النقد لدينا وقد نقول في أنفسنا : من المرجَّح أننا نرتكب اليوم الخطأ المقابل الذي هو عينه في الأساس. إننا نبالغ في اعتبارنا للأسباب المادية ونتصوَّر بأننا واجدون في هذا كلمة السر فنتهدهد بوهم معرفةٍ للمادة أفضل من معرفتنا «لروحٍ» «غيبي».غير أن المادة مجهولة تماماً بالنسبة إلينا كما هو الروح فنحن لا نفقه شيئاً من الغايات القصوى وهذا الإقرار هو وحده ما يردّ إلينا التوازن.

النفس والبدن

ولا يعني هذا من جانبنا نكران التداخل الوثيق بين النفس وطبائعية physiologie المخ وبينها وبين الغدد وعموم البدن فنحن مقتنعون كل الاقتناع بأن معطيات وعينا تحكمها إلى حد بعيد إدراكاتنا الحواسية وليس بوسعنا الشك بأن الوراثة الخافية تطبع فينا سماتٍ طبعية مادية ونفسيةً لا تمحى. كما أننا متأثرون



على نحوٍ لا فكاك منه بقدرة الغرائز التي تعيق بشتى الطرق تطورنا الروحي وتشدُّ من أزره أو تعدّل فيه . بل علينا أيضاً أن نعترف بأن النفس الإنسانية تستبين لأول وهلة ومن أي جانب أُخِذت وخاصةً من جهة أسبابها وغاياتها ومعناها كنسخةٍ صادقة عن كل ما نسمِّيه مادةً وتجريبية هنا في الدنيا.وأخيراً يتساءل المرء في ختام هذه التسليمات عمَّا إذا كانت النفس خلقاً من درجةٍ ثانية وضرباً من ظاهرة عابرة ملازمةٍ على نحوٍ مطلق لقوامها المادي . فكل ما فينا من عقل عملي ومشاركة في أشياء هذه الدنيا يحثنا على القبول . وحده الشك في القدرة الكلية للمادة يدفعنا إلى إمعان النظر الناقد في هذه الترسيمة العلمية للنفس .

علم نفس بلا نفس

لقد عيب على هذا التصور تشبيهه الجانب النفسي بإفرازات غدية فالأفكار إن هي إلَّا إفرازات مخية وهذا هو **علم النفس بلا نفس** .فالنفس ليست في هذا التصور **كياناً قائماً بذاته** لمجرَّد تفتح الجوهر عن أفاعيله الطبيعية . وأما أن يكون لهذه الأفاعيل صفة الوعي فذلك واقع يجب في النهاية أخذه كما هو لأن الأمر لو لم يكن على هذا النحو فقد لا نستطيع الكلام عن منظومةٍ نفسية بل لا يكون في وسعنا الكلام عن أي شيء لأن اللغة نفسها سوف تكبو . إذاً فالوعي هو الشرط الذي لامندوحة عنه للحياة النفسية أي أنه النفس عينها . لذا فإن كل «علوم النفس بلا نفس» الحديثة هي نفسانيات في الوعي تستثني كل منظومة نفسية خافية .

ليس ثمَّة بالفعل علم نفسٍ واحد بل علومٌ نفسية حديثة متعددة . إن في ذلك لعجباً في وقتٍ لا يوجد فيه إلَّا علمٌ **واحد** في الرياضيات وعلم **واحد** في الإراضة [الجيولوجيا] وواحدٌ في الحيوان وواحد في النبات .. إلخ ! لقد أحصي عددٌ هائل من العلوم النفسية الحديثة إلى حدٍّ أن جامعة أمريكية راحت تنشر كلَّ سنة مجلداً ضخماً مثلًا بعنوان : «نفسانيات ١٩٣٠» الخ . وأنا أعتقد بأنه يوجد من العلوم النفسية بقدر ما يوجد من الفلسفات لأنه لا توجد فلسفة واحدة بل فلسفات . وإذا كنت ألمع إلى هذا فلأنه تسود بين الفلسفة وعلم النفس روابط لا انفكاك لها قائمة على ما بين أغراضهما من تداخل . وباختصار أقول إن علم النفس موضوعه النفس والفلسفة موضوعها العالم . وقد كان علم النفس حتى هذه الآونة الأخيرة يشكل

Scanned with CamScanner

جزءاً من علوم الفلسفة بيدَ أن انطلاقة لعلم النفس كان نيتشه قد تنبَّأ بها تهدد اليوم بابتلاع الفلسفة . وسبب ذلك أن التشابه الداخلي بين هذين العلمين يقوم على أنَّ كلاً منهما يؤسس لبناء مواقف شاملة إزاء مواضيع تفلت من السيطرة التامة للتجربة وبالتالي من لحمة العقل التجريبي ومن هنا بالذات فإنهما يحفِّزان العقل النظري على صياغة تصوراته،تلك الصياغة التي تتخذ أحجاماً وهيئاتٍ مختلفة سواء في الفلسفة أو في علم النفس بحيث نحتاج إلى جملة مجلَّدات لتلخيص آرائها المتنوعة . إن أياً من العلمين لا يستطيع الاستغناء عن الآخر الذي يمدُّه على نحو متبادل صامت وخافٍ على العموم بالمبدأ عينه الذي يتحدَّر منه .

والاعتقاد الحديث بأولية الجانب المادي يفضي في نهاية التحليل إلى علم نفس لا نفس له أي إلى نفسانية لا يكون النفسي فيها شيئاً آخر سوى وقعٍ أحيائي كيميائي . وفضلاً عن ذلك فليس ثمَّة اليوم نفسانية حديثة علمية يعتمد نظامها التفسيري على الروح وحده . ولعلَّ أحداً لا يجرؤ اليوم على تأسيس علمٍ نفسي انطلاقاً من فرضية نفسٍ مستِقِلٍّ منعزلةٍ عن الجسد . إن فكرة روحٍ قائمٍ بذاته وكونٍ روحي يشكل منظومة مغلقة بما هي المسلَّمة الضرورية لوجود أنفس فردية منفصلة هي فكرة لا تلقى الرواج إطلاقاً لدينا على الأقل.وعليَّ بغية الإنصاف أن أضيف بأنني حضرت في عام ١٩١٤إبّان ندوةٍ ضمَّت «الجمعية الأرسطوية» و «الاتحاد الفكري» و «الجمعية النفسانية البريطانية» في معهد بدفورد بلندن حلقة دراسية كان موضوعها : «هل الأنفس الفردية قائمة في الله أم لا ؟» .

لو كان أحدٌ في إنكلترا يشك في الصفة العلمية لهذه الجمعيات التي تضم صفوة المفكرين الإنكليز فقد لا يلقى أذناً صاغية من المستمعين . وفي الواقع فإني كنت واحداً من قلائل بين الحضور أدهشهم نقاش كهذا تتقارع فيه حججٌ خليقةٌ بالقرن الثامن عشر . ويبينٌ هذا المثل بأن فكرة روحٍ مستِقِلٍ يُسلَّم بوجوده تسليماً تلقائياً ليست بعد مطرودة من الذهنية الأوروبية ومتحجرة إلى مستحاثات من القرون الوسطى .

قد يكون بوسع هذه الذكرى أن تحفزنا على إمعان النظر في إمكان تشييد علم نفس بنفس أي نظرية في النفس تقوم على التسليم بوجود روحٍ مستِقِلّ . ولا داعي للهلع من ضآلة مشروع كهذا لأن فرضية الروح ليست في شيءٍ أشدَّ غرابةً

Scanned with CamScanner

من فرضية المادة . وحيث أننا نجهل كل شيءٍ عن الطريقة التي يمكن لما هو نفسي أن يتحدَّر بها من المادي وحيث إن النفسي مع ذلك واقعٌ اختباري لا يمكن إنكاره فمن حقنا أن نقلب الفرضيات ولو مرَّة واحدة ونفترض بأن النفس تتحدَّر من مبدأ روحي يمتنع على مداركنا كما هو أيضاً أصل المادة في الفرضية المعاكسة . إن علم نفس كهذا قد لا يكون حديثاً في الحقيقة من حيث انه يعاكس الواقع الراهن . لذا فإن علينا شئنا أم أبينا أن نعود صعداً إلى عقيدة النفس كما كان يتصورها أجدادنا الذين تقوتوا بهذه الفرضية .

النفس في التصور القديم

كانت النفس بحسب التصور القديم تمثل الحياة المثلى للجسد ، نفحةَ الحياة ، ضرباً من قوة حيوية تنفذ في النظام الطبيعي المكاني إبَّان الحمل أو الولادة أو الإنجاب ثم تعود فتترك الجسد المحتضر عند النَّفَس الأخير[١]. وهكذا فإن النفس بما هي قائمةٌ بذاتها وكيانٌ لا يشارك في المكان لأنها المبادِرة إلى الواقع الجسدي والمدبرة عنه قد كانت لذلك تتموقع على هامش الأجل وتتمتَّع عملياً بالخلود .

هذا التصور هو بالطبع من وجهة نظر علم النفس العلمي الحديث وهمٌ صرف . وما دمنا لا ننوي هنا الخوض في بحوث «غيبية» حديثة كانت أم قديمة فلنفتش دون تحيُّز عمَّا هو مسوّغ تجريبياً في هذا التصور البائد .

الأسماء التي يسبغها الإنسان على تجاربه هي في الغالب ذات دلالاتٍ مبينة .فما أصل كلمةSeele(نفس) الألمانية ؟ إنها كالانكليزية soulمشتقةٌ من الغوطية Saiwalaأما saiwalôفي الجرمانية البدائية فترادف الإغريقية aiolosالتي تعني متحرِّك مبرقش متموِّج وتعني الإغريقية psychéأيضاً كما نعلم فراشة . saiwalôهي من جهةٍ أخرى مركَّبة من السلافية القديمة sila = قوة. هذه العلاقات تلقي الضوء على الدلالة الأصلية لكلمة نفس : **النفس قوة محرِّكة ،قوة حيوية .**

الكلمتان اللاتينيتان animus = روح و anima = نفس هما عين الإغريقية

(١) راجع في ظاهرة الاطباق الطائرة توسيعاً لهذا الموضوع (رك) - بترجمة نهاد خياطة ، دار المنارة ، اللاذقية ١٩٨٩ . (م)

Scanned with CamScanner

anemos = ريح . والكلمة الإغريقية الأخرى pneumaالتي تدلّ على الريح تدل أيضاً كما نعلم على الروح . ونجد في الغوطية المصطلح عينه تحت شكل ausatmen=us-anam = زفر . وباللاتينية an-halare = تنفّس بصعوبة. وفي الجرمانية العليا القديمة تُرجمت spiritus sanctusإلى Atem, atum = نَفَس . وبالعربية هناك الريح والروح والنَفَس والنَفْس ،كذلك توجد صلة للإغريقية psychéمع psucho = نفخ و psychos = منعش و psychros = بارد و physa = منفاخ . إن هذه الإدناءات [الألسنية] تبيِّن لنا تبياناً جلياً باللاتينية كما وبالإغريقية والعربية أن الإسم المطلق على النفس يستدعي تصوراً لريح متحركة ، «نَفَس الأرواح البارد»[1].

وعلى نحوٍ مقابل يملك البدائيون رؤية للنفس تعزو إليها جسماً متشكلاً من أنفاسٍ غير مرئية .

ويُدرك المرء بسهولةٍ أن التنفس الذي هو علامة الحياة يُستخدم للدلالة على النفس في مستوى الحركة عينها أو القوة الخالقة للحركة . وثمّة تصور بدائي آخر يرى النفس مثل نار أو شعلة لأن الحرارة هي الأخرى من خصائص الحياة . وهناك أيضاً تصورٌ مثير للفضول لكنه متواتر يواحد بين النفس والإسم بحيث يكون اسم الفرد هو نفسه ؛ فمن هنا عادة تجسيد أنفس الأجداد في المولودين الجدد من خلال تسميتهم بأسماء أجدادهم . ويرجع أصل هذا التصور إلى مواحدة الجزء بالكل والنفس بالأنا الواعية التي تعبرّ عنها ، ذلك أن النفس غالباً ما تلتبس هي الأخرى بأعماق الفرد المظلمة وظلّه ومن هنا منشأ الإهانة لأحدهم بوطء ظلّه . لذلك فإن الظهر ساعة خطرة (ساعة الأرواح في نصف الكرة الجنوبي) حيث انحسار الظل يكافىء خطراً على الحياة[2] . الظلُّ يعبِّر عمّا كان الإغريق يدعونه سينوپاذوس

(١) كذلك ka المصرية ، و nefeshو ruah العبريتان ، و prâna السنسكريتية ، و ch'i الصينية ، و mana الهولينيزية ، و orenda الإروكوية ، التي تتضمن جميعاً معنيي «النفس» (أو الروح) و«النفَس» (أو الريح) ، تبين ان لموضوع النَفس منزلة خاصة في طلب الإنسان لمعرفة النفس . زد على ذلك ان التصورات اللاهوتية للنفس قد حدت بالعديد من التراثات العالمية الكبرى إلى صوغ تمارين ورياضات تنفسية في مناهجها الباطنية . (م)

(٢) تنبَّه الكهنة على مرِّ العصور إلى خطر تلك الساعة وما يتجلى خلالها من اضطرابات فوضعوا لها

Scanned with CamScanner

synopados ، ذلك الشيء الذي يتعقبك ، شعورٌ حاد عصي على الإدراك لحضورٍ ما : لذا فقد دعيت نفس الأموات ظلاً أيضاً .

هذه التنويهات كافية لكي تبيِّن لنا كيف اختبر الحدس الأصلي النفس . فالنفسي يظهر كينبوع للحياة ، **محرك أول** ، كمثل حضورٍ فائق للطبيعة لكنه موضوعي .وهذا مايفسِّر أن البدائي يعرف كيف يناجي نفسه . إنها صوت في داخله غير متواحدٍ تماماً بشخصه وواعيته . **النفسي في الخبرة الأصلية ليس كما هو بالنسبة لنا لُباب الذاتي والاعتباطي ولكنه انبجاس عفوي موضوعي يحمل في ذاته علَّة وجوده .**

إن لهذا التصور مايسوِّغه فعلاً من وجهة نظرٍ تجريبية ليس على صعيد البدائي وحسب ولكن أيضاً على صعيد الإنسان المتحضر ، ذلك أن النفسي ينكشف كشيءٍ موضوعي يفلت إلى حدٍ بعيد من تحكُم واعيتنا : فعلى هذا النحو نحن عاجزون مثلاً عن كبح معظم انفعالاتنا واستبدال مزاجٍ سوي بمزاجنا السيء وتطويع أحلامنا جذباً أو طرداً . إن أذكى إنسان في العالم قد يكون هو نفسه أحياناً ضحية أفكار لا يستطيع التخلص منها على الرغم من جهوده الإرادية المضنية . وتستسلم ذاكرتنا هي الأخرى إلى أشدِّ الانقلابات جنوناً فلا نستطيع التدخل إلا باندهاش سلبي وتتلبَّسنا تخلّقاتٌ لا نريدها ولا نتوقعها ومع ذلك نؤثر التبجُّج بأننا أسياد بيتنا . لكننا في الواقع مرتهنون إلى حدٍ **بعيد مقلق لعمل نفسيتنا الخافية المنتظم وطفراتها وكبواتها الطارئة.** ولو أننا درسنا من جهةٍ ثانية نفسانية المعصوبين لوجدنا مدعاةً للسخرية إدِّعاء بعض النفسانيين أيضاً وضع الوعي والمنظومة النفسية على الصعيد نفسه . غير أن نفسانية المعصوبين لا تختلف كما هو معروف عن نفسانية الأفراد المدعوين أسوياء إلاَّ بسماتٍ طفيفة ومنْ ثم مَنذا في أيامنا يستطيع التأكيد حتماً بأنه غير معصوب ؟

الوضع في راهنيته يسوِّغ تسويغاً صريحاً التصور القديم الذي كانَ يرى في النفس واقعاً مستِقِلاً[1] ليس موضوعياً وحسب ولكن اعتباطياً أيضاً على نحوٍ مباشر

= الصلوات المؤاتية واستعاذوا بالله مما دعوه «شيطان الظهيرة» . (م)

(١) على وزان «مِفْعِلّ» ، «مِفْعِلّى» ؛ يشير إلى القائم بذاته ، المتفرد باستقلاليته ، وهي ترجمة لكلمة autonome . أما كلمة indépendant فترادفها بالعربية مُستقل ، مُستقلة . (م)

Autonomous

Scanned with CamScanner

خطر . والافتراض الملازم بأن هذا الكيان الخفي والمخيف هو في الوقت نفسهَ ينبوع حياة أمرٌ مفهوم أيضاً في ضوء علم النفس إذ تدل الخبرة أن الأنا والوعي إنما ينبعثان من الحياة الخافيّة : فالطفل الصغير يبدي حياةً نفسية دون وعى منه للأنا الظاهرة ولذلك قلّما تترك السنون الأولى من حياته آثاراً تذكر . إذاً ، من أين تنبجس كل الأفكار الجيدة والمسعفة التي تثب إلى عقلنا ؟ ومن أين ينبجس الحماس والإلهام والشعور المليء بالحياة ؟إن البدائي يشعر بالحياة تنبع من أعماق نفسه ويتأثر حتى جذور كيانه بنشاط نفسه المولِّدة للحياة ولذلك فهو يقبل مصدِّقاً كل ما يؤثّر في النفس كالعوائد السحرية بكل أشكالها. فالنفس عنده هي الحياة المطلقة التي لا يتصور نفسه ضابطها بل يشعر بإرتهانه لها من جميع النواحي .

إن فكرة خلود النفس مهما بدت لنا عجيبةً ليس فيها ما يدهش الخبرة البدائية . والأكيد أيضاً أن النفس شيءٌ غير مألوف فهي ليست متموضعةً في مكان بينما كل موجودٍ سواها يشغل حيِّزاً مكانياً ما . نحن نحسب عن يقين بأن أفكارنا تقع في رأسنا أما بالنسبة لعواطفنا فيعترينا التردد لأنه يبدو أنها تنبعث أكثر من جهة القلب . أما أحاسيسنا فمنتشرةٌ في جسمنا كله . تزعم نظريتنا بأن الرأس هو مركز الواعية أما هنود البويبلو فقد أكدوا لي من جهتهم أن الأمريكيين قومٌ مجانين لأنهم يعتقدون بأن الأفكار قائمةٌ في الرأس في حين أن كلَّ عاقل إنما يفكِّر بقلبه . وثمَّة بعض قبائل من الزنوج ترى بأن موقع النفس في البطن لا في القلب ولا في الرأس .

يُضاف إلى هذه الحيرة في التحديد المكاني المظهرُ غير المتمدِّد للحالات النفسية الذي يتعاظم بقدر ما تبتعد هذه الأخيرة عن الإحساس . أية أبعادٍ مثلاً ننسب إلى فكرةٍ ما ؟ هل هي صغيرة كبيرة طويلة دقيقة ثقيلة سائلة مستقيمة دائرية أو ماذا أيضاً ؟ لو بحثنا عن تمثيل حي لكيان غير مكاني ذي أربعة أبعاد فقد يكون الفكر بالتأكيد أفضل مثال عليه .

ومع ذلك فقد يهون علينا كل شيء هوناً عظيماً فيما لو كان بالإمكان إنكار المنظومة النفسية ببساطة! بيدَ أننا نصطدم هنا بخبرةٍ مباشرة إلى أقصى حد لشيءٍ ما وجودي ومتأصل في قلب عالمنا الواقعي ذي الثلاثة أبعاد ، شيءٍ قابل القياس والوزن ، وهو من كلٍّ وجهات النظر وفي كل واحدٍ من عناصره مفارقٌ لهذا الواقع

Scanned with CamScanner

مفارقة معجبة على الرغم من أنه يعكسه. في وسع النفس أن تكون نقطة رياضية ومتمتعةً في الوقت عينه باتساع عالمٍ كوكبي . فهل نلوم الحدس الساذج (البدائي) لاعتباره كياناً مفارقاً كهذا متاخماً لما هو إلهي ؟ إذا كانت النفس قائمة على هامش المكان فهي غير متجسمة . الأجسام تموت ولكن كيف يمكن لغير المرئي وغير المادي أن يضمحل ؟ زد على ذلك بأن الحياة والنفس تسبقان الأنا إلى الوجود وتستمران بعدها كما يشهد على ذلك الحلم ووجود الآخرين عندما تختفي الأنا خلال النوم أو الغيبوبة . إذاً ، لماذا ينفي الحدس البدائي أمام هذه الوقائع وجود النفس على هامش الجسد ؟ إني أقرُّ بأني لا أبصر في هذه الخرافة المزعومة سخافةً أكثر مما أبصر في نتائج البحوث الوراثية أو تلك المتعلقة بنفسانية الغرائز .

لو تذكرنا مبلغ ما كانت الثقافات القديمة وحتى الأكثر بداءةً ترى في الأحلام والرؤى ينبوع معارفها لفهمنا لماذا أناط التصور القديم بالنفس علماً سامياً بل إلهياً . إن الخافية تتمتّع في الواقع بإدراكات وصيدية تقارب الخوارق في وتيرتها واتساعها . لقد اعتُبرت الأحلام والرؤى في المراحل البدائية من خلال تعرُّفٍ دقيقٍ إلى واقع الحال كمصادر معلوماتٍ هامة فثمّة ثقافات راسخة قامت على هذه القاعدة النفسانية منذ القدم كالثقافتين الهندوسية والصينية اللتين رسمتا سويةً فلسفياً وعملياً وفي أدق التفاصيل طريق المعرفة الداخلية .

النفس الخافية الجمعية[1]

ونحن حين نعلي شأن النفس الخافية ونرفع من قيمتها إلى حدًّ اعتبارها جديرةً بأن تكون ينبوعاً للمعرفة لسنا إطلاقاً في توهمٍ كما تزعم عقلانيتنا الغربية . إننا مدفوعون إلى الظن بأن كل معرفةٍ إنما تأتينا من الخارج في نهاية المطاف بيد أننا نعلم اليومَ علم اليقين بأن الخافية تمتلك مخزونات لو أُظهرت إلى حيِّز الوعي لشكلت ازدياداً هائلاً في المعرفة. فالدارسات الحديثة لغرائز الحيوانات كالحشرات مثلاً قد حصدت غلّة تجريبية وفيرة تثبت في أقل التوقعات بأن كائناً إنسانياً لو سلك بالمناسبة مسلكَ حشراتٍ معينة لامتلك قاعدة سلوكية لا تخطىء . ويستحيل بالطبع

(١) راجع علم النفس المركب ، ص ص ٥٨ـ٦٢ . (م)

Scanned with CamScanner

إثبات وعي الحشرات بعلمها بيدَ أن ما يقضي به الحس السليم هو أن **هذه الدوافع الخافية تشكل بالقدر عينه وظائف نفسية على نحوٍ لا شك فيه** . فعلى النحو عينه تحوي الخافية الإنسانية كل أشكال الحياة والوظائف الموروثة من سلالة الأسلاف بحيث أن كل طفلٍ ينطوي على استعدادٍ نفسي وظيفي ملائم وسابقٍ للوعي . هذه الوظيفة الخافية الغريزية تؤكد على الدوام حضورها ونشاطها في خضم الحياة الواعية عند الراشد ذلك أن كل وظائف النفس الواعية هي منذ الآن متشكلةٌ فيها على نحوٍ مسبق . الخافية مثلها مثل الواعية تدرك وتقصد وتحدس وتشعر وتفكر . ذلك ما تثبته بغزارةٍ خبرتنا في الأمراضيات النفسية ودراستنا للوظيفة الأحلامية. فليس بين الوظيفة الواعية للنفس ووظيفتها الخافية إلَّا فرقٌ جوهريٌ واحد . الواعية زوَّالةٌ éphémère ومتكيفةٌ مع محيطها وحاضرها المباشر على الرغم من توترها وتركيزها وليس في جعبتها بطبيعة الحال سوى أدوات خبرة فردية موزعة على بضعة عقودٍ من السنين. زد على ذلك ذاكرتها المصطنعة المتكوِّنة أساساً من ورقٍ مطبوع . أما الخافية فبالاختلافها! **إنها غير متوترة وغير مكثفة لكنها شفقية تغور جذورها في الظلمة إلى أمداء شاسعة وتحوي جنباً إلى جنب على نحوٍ مفارق أشدَّ العناصر تبايناً وتمتلك بالإضافة إلى كتلةٍ غير متعيّنة من الإدراكات الوصيدية كنزاً هائلاً من ترسبات الأجيال المتراكمة التي ساهمت بمجرَّد وجودها في تمايز النوع** . وإذا كان لنا أن نشخِّص الخافية فقد نسبغ



عليها سمات كائن بشري جمعي يعيش على هامش تحديد الجنسين فوق الشباب والشيخوخة والولادة والموت وفي حوزته خبرة بشرية تكاد تكون خالدة عمرها مليون أو مليونان من السنين . ولعلّه كائن يستوي بلا منازع فوق تصاريف الزمان لا يعني الحاضر بالنسبة إليه أكثر من أي سنةٍ من سني الألف المئوية قبل المسيح وفي ثنايا حافظته أحلام الدهور وقد يغدو بفضل خبرته اللامحدودة نبيئاً لا يضاهى لأنه يُتوقع أن يكون قد عاش حياة الفرد والعائلة والقبائل والشعوب مراتٍ لا تحصى مستشعراً بحسه النابض إيقاع الصيرورة والإزدهار والانحطاط .

لكن هذه الخافية الجمعية لسوء الحظ أو بالحري لحسنه تحلم وكأنها كما تبدو لنا على الأقل غير واعية لمحتوياتها . بيدَ أننا لسنا على يقين من هذا بأكثر ممَّا نحن عليه إزاء الحشرات . زد على ذلك أن هذا الكائن الجمعي لا يبدو لنا شخصاً

Scanned with CamScanner

وإنما هو أشبه بسيل لا ينضب ، محيطٍ من الصور والأشكال التي تظهر على ساحة الواعية في الأحلام أو في حالات الاختلال الذهني .

ولعلَّه من المؤسف أن نسمِّي هذا النظام الشاسع من خبرات النفس الخافية وهماً ذلك أن جسدنا المرئي والمحسوس هو الآخر نظامُ خبراتٍ مماثلٌ تماماً ولَمَّا يزل ينطوي على آثار تطورات العصور الأولى ويشكل بلا ريب مجموعاً مرهوناً لهدفٍ هو الحياة التي تتعذر بخلاف ذلك . وكما أنه لا يخطر على بالِ أحدٍ أن ينكر كل فائدةٍ في التشريح المقارن أو في الطبائعيات physiologie كذلك لا نملك أن ننظر إلى دراسة الخافية الجمعية واستخدامها كمصدر للمعرفة على أنه وهم .

الواعية وليدة الخافية

ومن وجهة نظرٍ سطحية تبدو لنا النفس بصفة أساسية انعكاساً لأفعولاتٍ خارجية لا تشكل أسبابها الموجبة وحسب بل أصلَها الأول . وعلى النحو نفسه لا تبدو لنا الخافية فسَّراء[1] إلَّا من الخارج انطلاقاً من الواعية . ومن المعروف أن فرويد قام في «علم نفسه» بهذه المحاولة لكنها محاولة لم تكن لتنجح حقاً إلَّا أن تكون الخافية ناجمةً بالفعل عن وجود الفرد وواعيته . **مع ذلك فإن الخافية موجودة دوماً على نحو بَدَري بما هي استعداد وظيفي موروث عبر الأجيال أما الواعية فقد جاءت بمثابة مولود متأخر للنفس الخافية** . ولئن كان من فادح الغلط تفسير حياة أسلافنا بالنظر إلى أحوالنا نحن أخلافهم فمن الضلالة أيضاً في رأيي اعتبار الخافية وليدة الواعية فالعكس بلا شك هو الأصح .



الله والنفس[2]

إن وجهة النظر المناقضة هذه كانت بالتحديد وجهةَ النظر التقليدية ، ضرباً من نفسانية قديمة استشفت كنزاً لا يثمَّن من الخبرات المعتمة الخبيئة تحت عتبة

(١) «فسَّراء» على وزن فَعَلاء ، أي قابلة للتفسير . (م)

(٢) انظر علم النفس المركب ، «من الذات إلى الله» ، ص ٢٠٣ و «نسبية الله» ، ص ٢٧١ .
انظر علم النفس الجديد ، «الإحساس بالله» ، ص ٢١٥ . (م)

Scanned with CamScanner

الوعي الفردي الزوَّال فلم تنظر إلى النفس إلَّا على أنها متلازمة مع نظام كوني روحي . لم يكن ذلك مجرَّد فرضية بل إنها قد رأت في هذا النظام على نحو بدهي لا جدال فيه كياناً متمتعاً بإرادةٍ ووعي بل كائناً أطلقت عليه اسم الله ـ الذي أضحى هكذا لباب الوقائع كافة .

لقد كان الله الكائنَ الأكثر واقعية **والعلة الأولى** التي بفضلها وحدها كان يمكن فهمُ النفس . ولهذه الفرضية ما يسوِّغها نفسانياً فلا شيء أجدر بالنسبة إلى الإنسان من إطلاق الألوهية على كائن شبه خالد يتمتَّع بخبرة تكاد تكون أبدية .

رسمتُ فيما تقدَّم إشكالية علم نفسٍ لا يعتمد النظام الفيزيائي كمبدأ تفسيري بل نظاماً روحياً **محرِّكه الأول** ليس المادة وصفاتها وليس حالةً طاقوية وإنما الله ونتعرَّض هنا لإغراء تستبعثه فينا فلسفة الطبيعة الحديثة بتسمية الله طاقةً أو اندفاعاً حيوياً وبذلك نواحد بين الطبيعة والروح . ولكن ما دامت هذه المبادرة وقفاً على الأعالي الضبابية للفلسفة التأملية فليس ثمَّة كبير ضرر . أما إذا أردنا القيام بالإجراء عينه في الأفلاك الأدنى للتجارب العلمية فلن يطول بنا الوقت حتى نجد أنفسنا ضائعين في متاهاتٍ لا مخرج لنا منها ذلك أن تفسيراتنا مدعوة لمطاوعة التطبيقات العملية ، إذاً فنحن لا نجري وراء علم نفسٍ مقتصر على طموحاتٍ أكاديمية حيث لا تعدو تفسيراتنا عملياً كونها حرفاً ميتاً بل نحن أحوج إلى علم نفس تطبيقي يصح في الممارسة بحيث تأتي النتائج داعمةً تفسيراتنا للأشياء .. إننا نبحث في حلبة العلاج النفسي التطبيقي عن نتائج ملموسة ولاقِبَلَ لنا بصياغة نظريات لا تعني مرضانا بل قد تكون ضارة بهم . هناك تطالعنا غالباً مسألة تتقاطع فيها الحياة والموت ـ مسألة ما إذا كان علينا أن نبني تفسيراتنا على أساس المادة أو الروح . ولا ننسينَّ بأن كل ما هو روح من وجهة نظر طبيعانية وهمٌ وأن على الروح أن ينفي غالباً واقعاً مادياً ملحفاً ويتجاوزه لكي يثبت وجوده الخاص . فإذا كنت لا أعترف بغير القيم «الطبيعية» فأنا أعيق وأقلل بل أعدم بفرضيتي المادية النمو الروحي لمريضي . وإذا كنت بالعكس أعيد كل شيء لدى التحليل النهائي إلى الطبقات الأثيرية فسأتجاهل وأعنف الفرد الطبيعي في شرعية وجوده المادي . إن معظم الانتحارات التي تحصل خلال علاجٍ نفساني إنما تنجم عن هذا الضرب من المناورات المزيفة . فأن يكون الله هو الطاقة أو تكون الطاقة هي الله ذلك أمرٌ قلَّما

يعنيني لأنه سيبقى عصيّاً على الفهم رغم معرفة الوقائع الأخرى . أما أن أكون على اطلاع بإمكان تقديم تفسيراتٍ نفسانية فذلك ما ينبغي عليَّ فعله .

لم يعد النفساني الحديث متشيّعاً لهذا الاتجاه أو ذاك لكنه يجد نفسه في موقف خطير متذبذب وعُرضةً لإغراء الوقوع في انتهازية عديمة النفع ! إنه بلا ريب الخطر العظيم في الجمع بين الأضداد والتحرر من مأزق الضدين بفضل العقل الذي يتجاوزهما .هل يمكن أن ينتج شيء عن تكافؤ فرضيتين متناقضتين سوى ترددٍ لا جدوى منه ؟ ذلك يبيّن بوضوح أفضلية اعتماد مبدأٍ تفسيري أوحد لأنه يتيح اتخاذ موقف محدَّد لا لبس فيه . هنا تواجهنا لا محالة مشكلةٌ في غاية الصعوبة . لا بدَّ لنا من واقع ، مبدأٍ تفسيري واقعي نستطيع الاستناد إليه ولكن مع ذلك يستحيل على النفساني الحديث أن يتمسَّك باعتماد النظام الفيزيائي وحده بعدما عرف تمام المعرفة ما لدى التفسير الروحاني من مسوِّغات . وهو لن يستطيع من باب أولى اعتماد التفسير الروحاني وحده لأنه سيخاطر بتجاهل مقوِّمات الصحة النسبية لوجهة النظر الفيزيائية فبأي شفيع نلوذ إذاً ؟

الواقع النفسي

لقد أوصلتني دراستي لهذا المأزق والبحث عن حلٍ له إلى الأفكار التالية :

الصراع بين الطبيعية والروح إن هو إلا تعبير عن الجوهر المفارق للنفس ، ذلك أنها تتمتع بمظهر فيزيائي وبمظهر روحي لا ينجم تناقضهما في التحليل الأخير إلَّا عن فشلنا في إدراك جوهرها ، ويتعيَّن على الذهن البشري كلما أراد ضبط شيءٍ لا يفهمه أو لا يستطيع في النهاية فهمه (إذا كان صادقاً) ولكي يدرك بعض مظاهره أن يخضع نفسه للتناقض ويقسِّم غرضه إلى مظاهره المتعارضة. ويكشف لنا الصراع بين الجانب الروحي والجانب المادي في النفس أن الواقع النفسي هو في الأساس شيءٌ غير مندرك ، وهو بلا ريب خبرتنا الوحيدة المباشرة . إن كل ما أختبره أمرٌ نفسي حتى الألم الفيزيائي الذي لا أستشعر منه سوى النسخة النفسية . كل إدراكات حواسي التي تفرض عليّ عالماً من أغراضٍ حيِّزية كتيمة هي صورٌ نفسية تمثل وحدها خبرتي المباشرة لأنها وحدها معطيات وعيي المباشرة . زد على ذلك أن

Scanned with CamScanner

نفسي تغيُّر الواقع وتزيُّفه بنسبٍ تضطرني إلى استخدام وسائل أستعين بها للتحقق من طبيعة الأشياء الخارجة عني فأكتشف مثلاً بأن الصوت ذبذبة هوائية بترددٍ قدره كذا وأن اللون أحد أطوال الأمواج الضوئية . إننا حقاً ملتحفون بصورنا النفسية إلى حدٍ لا نستطيع معه النفاذ إلى طبيعة الأشياء الخارجة عنا فكل ما نعرفه إن هو إلاَّ وقائع نفسية متشكلَّة . النفس كيان واقعي إلى أعلى مستوى لأنها وحدها الواقع المباشر . من هنا ينبغي على عالم النفس أن يستند إلى هذا الواقع الذي هو في النهاية **واقع نفسي** .

إذا ماحاولنا التعمق في هذا المفهوم الأخير اتضح لنا بأن بعض التصورات أو الصور تتحدَّر إلينا من العالم الفيزيائي الذي تشكل أجسامنا جزءاً منه في حين أن بعضها الآخر لا يقل عنها واقعية يتحدَّر إلينا من عالم روحيٍ مختلفٍ على ما يبدو عن العالم الفيزيائي. فسواء تصورت السيارة التي أرغب بشرائها أو الحالة التي هي فيها الآن نفس أبي المتوفى أم أسخطني عائقٌ خارجي أو فكرةٌ داخلية فإن الواقعين كلاهما من مستوى واحد في المنطوق النفسي. والفارق الوحيد بينهما أن أحدهما ينتسب إلى العالم المادي والآخر إلى العالم الروحي . فإذا أزحت مفهومي للواقع وركَّزته على النفس عندها فقط يحتل هذا المفهوم مكانه ويجد الصراع بين الطبيعة والروح بما هما مبدآن تفسيريان حلَّه من تلقاء نفسه ويصبح كلُ منهما عندئذٍ **تعييناً لمصدر المحتويات النفسية** التي تزدحم في واعيتي . فلو أن ناراً أحرقتني لما شككت البتة في واقعية النار أما إذا اعتراني الخوف من مواجهة شبحٍ ما لوجدت ملاذي في فكرة أن الأمر وهمٌ ليس إلا . بيدَ أن النار صورة نفسيةٌ لأفعولةٍ موضوعية نجهل في النهاية طبيعتها الفيزيائية وكذلك خوفي من الشبح الصورةُ النفسية لأفعولةٍ ذهنية هو واقعي بمستوى واقعية النار ذلك أن الخوف الذي أستشعره منه واقعي هو أيضاً بمستوى واقعية الألم الناجم عن النار . أما العملية الذهنية التي يرجع إليها في التحليل الأخير خوفي من الشبح فإني أجهلها مثلما أجهل الطبيعة النهائية للمادة فكما لا يخطر لي أن أفسرَّ طبيعة النار بغير مفاهيم فيزيائية وكيميائية كذلك لا يخطر لي أن أفسّر خوفي من الشبح بغير عوامل نفسية .

أما ما يفسِّر استشعار الإنسان البدائي للأرواح والتأثيرات السحرية

بالملموسية عينها التي يستشعر بها الأحداث الخارجية هو أن الخبرة النفسية خبرة مباشرة وأن الواقع الوحيد المباشر لا يمكن أن يكون إلاَّ من نسق نفسي .فالبدائي لم يمزِّق بعد خبرته الأصلية إلى تناقضاتها القصوى . وما يزال الروح والمادة متداخلين في عالمه والآلهة تعمر الغابات والحقول . إنه أشبه بطفل مولودٍ لتوِّه ملتحفٍ كالنغفة في شرنقتها بأحلام نفسه وبالعالم كما هو في واقعيته ، العالم السابق للتشويه الذي تلحقه به صعوباتُ معرفةٍ يمارسها فهمٌ مستهل . وحين انفصم العالم الأصلي إلى روحٍ وطبيعة آثر العالم الغربي الطبيعة التي كان أميلَ إليها مزاجياً وطالما تخبط فيها عبر كل محاولاته المضنية اليائسة لكي يتروحن .

أما العالم الشرقي فقد اختار الروح معتبراً المادة مايا [وهماً] ليس إلاَّ متخدراً في حلمه وسط البؤس والقذارة الآسيويين .

بيدَ أن الأرض واحدة ، وكما أن الشرق والغرب لم يتوصلا إلى تمزيق البشرية الواحدة إلى نصفين متناوئين كذلك فقد بقي الواقع النفسي كما هو في وحدته الأصلية منتظراً أن يتطور الوعي البشري من إيمانٍ بالواحد وإنكارٍ للآخر إلى الاعتراف بالإثنين معاً كعنصرين مكوِّنين للنفس الواحدة .

لعلَّ فكرة الواقع النفسي فيما لو أعطيت الاهتمام الذي تستحق تشكل بلا ريب الفتح الأعظم في علم النفس الحديث . وأعتقد بأن انتشار هذه الفكرة مسألة وقت ليس إلا . وهي صيغة تحظى بقبولٍ متزايد لأنها تتيح لنا أن نقوِّم التجليات النفسية المتعدِّدة في خصائصها الجوهرية . ويستحيل خارج هذا التصور عدم إلحاق الإجحاف في كل حالةٍ نوعية بنصفٍ كاملٍ من النفسي المطلوب تفسيره في حين نتوصل بهذه الفكرة إلى إنصاف مظهر النفسي المعبَّر عنه في الخرافات والأساطيريات والديانات والفلسفة . وبالتأكيد ليس ثمَّة مجال للتقليل من شأن مظهر النفس هذا وربما كانت الحقيقة الحواسية تكفي العقل بيدَ أنها لا تكشف أبداً عن معنى الوجود الإنساني الذي إذ يحرِّك القلب ويعبِّر عنه يتمكن من انتزاع رضاه . إن قوى القلب هي غالباً العوامل التي تنتزع القرار في نهاية المطاف في الخير كما في الشر . وإذا ماأبت هذه القوى أن تهبَّ لنجدة العقل فإنه يبقى عاجزاً في أغلب الأحيان .فهل حمانا عقلنا ومقاصدنا الخيرة من اندلاع الحرب العالمية أو من اية سخافةٍ كارثية اخرى ؟ وهل نجمت أعظم الانقلابات الروحية والاجتماعية

عن العقل ؟ وهل كان العقل هو الذي بادر إلى تحويل الحياة الإقتصادية القديمة مانحاً إياها الصيغة التي كانت لها في العصر الوسيط أو أنه هو الذي أدى إلى الانتشار شبه الانفجاري للثقافة الإسلامية ؟

شمولية المعالجة[1]

أنا لست بالطبع كطبيب معنياً مباشرةً بهذه المسائل العالمية لأن المريض هو موضوع اهتمامي . كان ثمَّةَ إلى هذه الساعة زعمٌ شائع في الطبابة مؤداه أننا نستطيع وأن علينا مداواة المرض ومعالجته بحدٍّ ذاته بيدَ أننا صرنا نسمع في الآونة الأخيرة أصواتاً مسؤولة تخطِّىء هذا الرأي داعيةً إلى معالجة الشخص المريض لا إلى معالجة المرض . تلك ضرورة تفرض نفسها علينا أيضاً في معالجة الأدواء النفسية . فإمعان النظر في المرض المرئي لا يشكل شيئاً إذا لم تشمل نظرتنا الفرد بكليته . ذلك أنه وجب علينا الإقرار بأن المعاناة النفسية لا تنحصر تحديداً في ظواهر متموضعة ومحدَّدة بدقة بل إن هذه الظواهر أعراضٌ لموقف خاطىء في الأساس اتخذته الشخصية برمّتها . لعلّنا إذاً نحجم عن توقع شفاءٍ صحيح من خلال معالجة الأعراض وحدها فما من أملٍ لنا إلّا بمعالجة الشخصية بكليتها .

تحضرني بهذه المناسبة حالة قوية الدلالة : إنها حالة شاب لامع الذكاء كان قد توصل إلى تحليلٍ مؤاتٍ لعصابه من خلال انكبابه على دراسةٍ متأنية له في الأدب الطبي . وذات يوم جاءني حاملاً إليَّ دراسته في صيغة سيرةٍ ذاتية محبوكة السبك تصلح مقالاً للنشر .وقد رجاني أن أقرأ مخطوطه وأقول له لماذا لم يُشفَ بعد في حين أن معارفه العلمية تؤكد له وجوب ذلك . ورأيت بعد قراءتي للمخطوط بأن عليَّ الإقرار بوجوب شفائه الأكيد من معاناته لو كان يكفي المريض لكي يُشفى أن يعرف البنيان السببي لعصابه . أما وأن الشفاء لم يحصل فلأن السبب كان قائماً بلا شك في خطأ أساسيٍ يتعلّق بموقفه العام إزاء الحياة ويتموقع على ما يبدو خارج مناشئية أعراض العصاب . بيدَ أنه اتضح لي من ادِّكاره anamnèse وليس دون دهشة بأنه كان في الغالب يمضي الشتاء في سان موريتز أو في نيس ولمَّا سألته عمَّن



(١) راجع علم النفس المركب : «الأصالة العلاجية» ، ص ٢٠٧ . (م)

Nis

The Serbs & the Turks

Scanned with CamScanner

كان يؤمّن له نفقات الإقامة تبيّن لي أن ثمّة معلمة فقيرة كانت تحبه وتقتصد من طعامها اليومي المال الضروري لمتطلباته السياحية . لقد كانت هذه اللاأخلاقية مبعثَ العصاب وهي ما يفسّر عدم فاعلية الفهم العلمي . كان خطأ الأساس يكمن هنا في الموقف الأخلاقي . بيدَ أن المريض وجدَ رأيي بعيداً عن العلمية من حيث إن الأخلاق لا تمت إلى العلم بصلة . لقد كان يعتقد أنه يمكننا باسم العلم إلغاء فسق لم يكن هو نفسه في قرارة نفسه يتحمله ؛ فحسبه الادعاء بعدم وجود نزاع بما أن حبيبته هي التي كانت تمنحه المال بطيبة خاطر . يمكن للمرء أن يستعرض شتى المماحكات العلمية لكنَّ ذلك لا يمنع أن الأكثرية العظمى من الأفراد المتحضرين لا يتحمّلون مثل هذا الموقف .الموقف الأخلاقي عامل واقعي على النفساني أن يأخذه بالحسبان إذا كان يريد ألّا يقع في أفدح الأخطاء . وهناك أيضاً معتقدات دينية غير مبنية على العقل ليست أقلَّ من ضرورة حياتية لبعض الأشخاص . نحن هنا مرةً أخرى بإزاء وقائع نفسية قد تسبب أمراضاً وقد تشفي منها ؛ فكم من مرضى سمعتهم يقولون : «لو كنت أعرف معنى وجودي وغايته إذاً لما حصل لي كل هذه الاضطرابات العصابية !» . وسواء أكان هذا الشخص غنياً أو فقيراً ، ذا أسرة ومركز اجتماعي أم لا ، ليس هذا ما يهم ولكن هل يكفي هذا ليعطي معنىً لحياته ؟ الأمر هنا يتعلق بالحري بما نسمّيه حياةً روحية تقتضيها ضرورة لا عقلية ، حياةً لا يجدها في الجامعات ولا في المكتبات ولا حتى في الكنائس إذ ليس بإمكانه أن يقبل ما يقدَّم له فيها ، شيئاًما يخاطب العقل لكنه لا يحرِّك القلب . ففي حالاتٍ كهذه يصبح اعتراف الطبيب بالعامل الروحي ذا أهمية حيوية مطلقة ، أهمية سوف تشير الخافية إليها بإنتاجها في الأحلام مثلاً مضامينَ ذات طبيعة دينية في جوهرها ، لذلك فإن تجاهل المصدر الروحي لهذه المضامين قد يؤدي بالطبيب إلى معالجة غير موفقة وإلى إخفاق .

إن التصورات الروحية العامة هي في الواقع عنصر مكوِّن لا غنى عنه في الحياة النفسية ونجدها لدى كل الشعوب المتمتّعة بوعي ثاقب إلى حدٍ ما ، لذلك يجب اعتبار غيابها النسبي أو حتى نكرانها الموجب عند شعوبٍ علامةً على الانحلال .

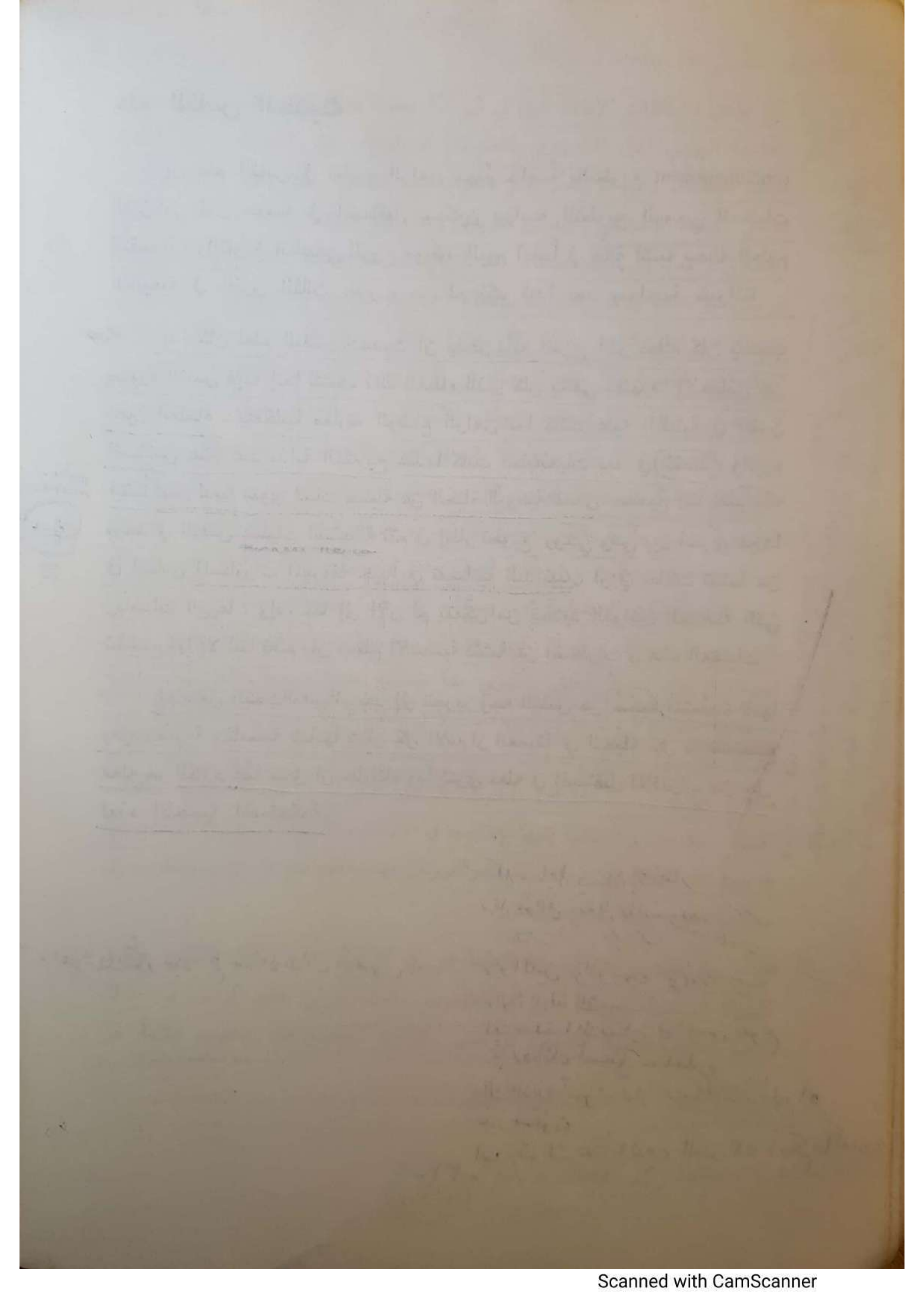
علم النفس الحديث

إن علم النفس في تطوره الراهن مهتمٌ خاصةً بالتطويع conditionnement الفيزيائي لكن مهمته في المستقبل ستكون دراسة التطويع الروحي للعمليات النفسية . والتاريخ الطبيعي للروح موجود اليوم أيضاً في حالةٍ أشبه بحالة العلوم الطبيعية في القرن الثالث عشر ونحن لم نكد نبدأ بعد بمواجهة خبراتنا .

إذا كان لعلم النفس الحديث أن يفخر بأنه انتزع آخر غطاء كان يحجب صورة النفس فإنه إنما كشف ذلك الغطاء الذي كان يخفي مظهرها الأحيائي عن أعين العلماء . بإمكاننا مقارنة الوضع الراهن بما كانت عليه الطبابة في القرن السادس عشر عند بداية التشريح عندما كانت الطبائعيات بعدُ في القمط واليوم أيضاً ليس لدينا سوى لمحات ضئيلة عن الحياة الروحية للنفس. صحيحٌ أننا نعلم بأنه يوجد في النفس عمليات استحالة تتم في إطار تطويعٍ روحي وهي بين أخرى غيرها في أساس المسارَرات المعروفة جيداً في نفسانية البدائيين أو في حالاتٍ تنشأ عن رياضات اليوغا . وإذا كنا إلى الآن لم نتمكّن من تحديد القوانين الخاصة التي تخضع لها إلا أننا نعلم بأن معظم الأعصبة تنشأ عن اضطرابٍ في هذه العمليات .

لم يوفق البحثالنفسانيبعد إلى تحرير وجه النفس من حُجُبه المتعدِّدة لأنها بعيدة منيعة وغامضة شأنها شأن كل الأسرار العميقة في الحياة .كل ما نستطيع فعله هو الكلام عمّا سبق أن حاولناه وما ننوي فعله في المستقبل للاقتراب من حلٍ لهذه الأحجية المستحكمة .

Scanned with CamScanner



Scanned with CamScanner

٢

استعادة الوعي[1]

تداخل العام والفردي

لطالما شعرت في الميدان النفساني بضيقٍ شديد لدى تقديمي لمستمعيَّ أشياء سهلة المنال على الجمهور العريض . كنت أصادف هذه الصعوبة عندما كنت بعد طبيباً شاباً في مأوى المعتوهين . وبالفعل فإن كل طبيب نفسيٍ يكتشف بدهشةٍ أن رأيه في الصحة العقلية هو رأيٌ غير كفؤ في حين يدَّعيٍ عامة الشعب معرفةً أكثر في هذا الموضوع . يُقال له مثلاً إن المريض لم يصل بعد إلى حد تسلق الجدران فهو يدرك موقفه ويتعرَّف إلى ذويه حتى أنه لم ينس اسمه لذا فإن إصابته ليست جدِّية لكنه حزين أو مهتاج بعض الشيء وحسب وما فكرة الطبيب النفسي بأن مريضه يتألم من هذا المرض أو ذاك إلَّا ضلال مبين .

هذا الإستنتاج المتواتر يمسُّ الميدان النفساني . هنا تسوء الأمور أكثر أيضاً إذ يدَّعي كل واحدٍ بثقةٍ أن علم النفس هو خير ما يعرف . فعلم النفس هو دائماً لدى أول الأدعياء علمَ نفسه الخاص الذي هو وحده يعرفه رغمَ أنه علمُ النفس وحسب ، وكل إنسانٍ يفترض غريزياً أن تركيبه النفسي مهما كان شخصياً لا يقل ارتباطاً بـ «الوضع البشري» وأن كل واحدٍ على العموم مشابه للآخر وأعني لنفسه . فالرجل يتوقع هذا التشابه من زوجه والزوج من رجلها والآباء من الأبناء والأبناء من الآباء وهكذا دواليك . ويجري الأمر كما لو كان كلُّ واحدٍ يقيم مع عالمه الداخلي

(١) ظهرت في **فعالية النفس** (Wirklichkeit der Seele(Rascher, Zurich, 1934 تحت عنوان حرفي هو **علم النفس والأزمنة الحاضرة** . (رك)

Scanned with CamScanner

العلاقات الأكثر مباشرةً والأكثر صميميةً والأكثر تلاؤماً وكما لو أن النفس الشخصية تمثل النفس البشرية بكاملها على نحوٍ لا يحول دون تعميمه ما يجده في نفسه كقيم شاملة . وتعترينا دهشة لا حدود لها بل نحزن ونخاف ونفقد صبرنا كل مرةٍ تفقد فيها هذه القاعدة بيانها أي كلَّ مرةٍ نكتشف فيها أن كائناً آخر هو فعلاً آخر . ولا تثير الاختلافات النفسية بشكل عام الاهتمام الذي نوليه لفضولاتٍ بسيطة جذّابة إلى حد ما لكنّنا نستشعرها بالحري كمزعجاتٍ يصعب تقبُّلها بل هي غير محتملةٍ خاطئة ومدانة . فالسلوك المنحرف على نحوٍ علني عن القاعدة العامة المسلَّم بها يحدث اضطراباً موجَّهاً ضد نظام العالم مثله مثلُ خطأٍ يجب إصلاحه بأسرع ما يمكن وإساءةٍ يجب التنديد بها وقمعها .بل ثمَّة كما نعرف نظرياتٌ نفسانيةٌ هامة يفترض مبدؤها تشابه النفس البشرية في كل زمانٍ ومكان ؛ هناك إذاً مجالٌ لتفسيرها ـ مهما تكنِ الظروف ـ من وجهة النظر الواحدة عينها .بيدَ أن الرتابة الساحقة الناجمة عن نظرياتٍ كهذه تصطدم بالتنوع الفردي الذي يبلغ اللامتناهي في المجال النفسي . مع ذلك وبغض النظر عن هذه التمايزات الفردية فإن واحدةً من النظريات التي أُلمحُ إليها تفسِّر مبدئياً الظواهرية النفسية بفضل أحيائية الغريزة الجنسية (فرويد) بينما تمثل الأخرى (أدلر) التي ليست بأقل شهرةً إرادة القوة . هذا التعارض يؤدي بكلٍ من هاتين النظريتين إلى التحصن خلف مبدئها الأوّلي مدَّعيةً أنه لا يوجد خارجها خلاصُ البتة . ذلك أن كلًّا من النظريتين تنكر صحة الأخرى فنتساءل عبثاً لأول وهلة أيّاً من الإثنتين هي الأصوب . ومهما تمادى المنظرون في الحزبين في التجاهل المتبادل فإن هذا الموقف غير كافٍ لإزالة التناقض . وكلمة لغز هي مع ذلك سهلةٌ للغاية : إن كلًّا من النظريتين على حق في المعنى الذي ترتئيه لأنها إنما ترسم علم نفسٍ يتوافق مع علم نفس مؤيديها [1] . الكلمة الشهيرة لفاوست توضح ذلك : «إنَّك أشبه بالروح الذي تتصوره» .

ولكن لنعد إلى هذا الادِّعاء الذي لا يُردُّ إن جاز القول للحس المشترك وهو أن كلَّ ما لدى الآخر هو كمثل ما لدينا ! وعلى الرغم من أننا متفقون عموماً على الإقرار بدون صعوبةٍ بتمايز النفوس البشرية إلَّا أننا ننسى دائماً في الممارسة أن «الآخر» هو

(١) نذكر هنا بقول الفيلسوف لبنِتْس : «كل منهاج صحيح فيما يثبت وخاطىء فيما ينفي» . حقاً إن كل نفي ليقتطع من الواقع جزءاً من الممكن الذي يقع على عاتق العلم توضيحُه . (م)

Scanned with CamScanner

في الواقع كائن آخر يختلف عنا في مشاعره وأفكاره وإدراكاته ورغباته بل إننا رأينا نظرياتٍ علمية تذهب إلى حدٍّ الافتراض بأن البردعة إنما تجرح كل واحدٍ في الموضع نفسه . وثمَّة إلى جانب هذه النزاعات الداخلية بين الآراء النفسانية (المسلية إجمالاً) العديدُ من بديهيَّات المساواة الحبلى بالنتائج اجتماعياً وسياسياً التي تنسى بكل بساطة وجود النفوس الفردية .

مساهمة علم نفس الشعوب البدائية (١)

إني ، بدلاً من التأفف دون جدوى من ضيق نظرٍ كهذا ، تعجبتُ من وجودها ورحتُ أفتش عن البواعث المؤدية إلى ذلك .وقد دفعتني هذه الطريقة في مواجهة المشكلة إلى دراسة علم نفس الشعوب البدائية حيث إنني كنت مدهوشاً بالفعل منذ زمن بعيد من أن ضرباً من سذاجةٍ طفلية - إلى حدٍ ما - هي التي تدفع الإنسان أكثر ما تدفعه نحو حكمٍ مسبق بالمساواة في البنيان النفساني والهوية .هذا الحكم المسبق لدى البشرية البدائية لايطال البشر فعلاً وحسب ولكن أيضاً أشياء الطبيعة والحيوانات والنباتات والأنهار والجبال الخ . كل شيء فيه مسحةٌ من نفسانية الإنسان حتى الأشجار والأحجار بما تتمتع به من نطق .وكما أنه يوجد بين الناس من يعزفون علناً عن القاعدة العامة ويجعلون من أنفسهم مشعوذين وسحرةً ورؤساء قبائل أو علماء طب كذلك يوجد بين الحيوان طيور قائدة وذئاب علّامة وقيوط أطباء الخ ، ألقاب شرفٍ لا تغدق على حيوانٍ إلاَّ إذا شذَّ في سلوكه متحدياً الزعم الصامت بالمساواة . هذا الزعم هو أثرٌ قويٌ واضحٌ متحدِّرٌ من حالةٍ نفسية بدائيةٍ تقوم في الأساس على تمييز ضعيفٍ للوعي الفردي . إن الوعي الفردي أو وعي الذات تحقيقٌ متأخرٌ للتطور ، شكله الأصلي هو **وعيٌ بسيطٌ للجماعة** لا يزال بدائياً جداً لدى بعض القبائل المعاصرة إلى حدٍّ أنها لا تتبنى إسماً خاصاً يميِّزها عن الأقوام المجاورة .هكذا وجدتُ في أفريقيا الشرقية قبيلةً صغيرةً تسمي نفسها : «القوم المقيمون هنا» . هذا الوعي البدائي الجمعي يستمر في **الوعي الأسروي** الحديث وغالباً ما نصادف من هذه العائلات مَن نجد حرجاً في تمييز أعضائها إفرادياً إلا من خلال اسم العائلة الذي لا يبدو مع ذلك أنه يعنيهم أبداً .

(١) راجع في هذا الكتاب : «الواعية وليدة الخافية» ، ص ٢٤ . (م)

Scanned with CamScanner

لايمثل الوعي الجمعي الذي يجري تبادل الأفراد ضمنه بحرية تامة أدنى درجة في الوعي بل على العكس يشهد منذ الآن على شيء من التمايز . إن البداءة الأشدَّ بساطةً تملك بلا شك **ضرباً من وعيٍ مشتَّتٍ بالأشياء والكون** Allbewusstsein مرتبطٍ بلا وعيٍ تام للموضوع الخاضع للتصورات . وعند هذا المستوى **ليس ثمّة شخص فاعل بل أحداث وحسب** .

عندما أجزم ضمناً أن ما يروق لي يناسب أيضاً غيري فإن هذا الافتراض يشكِّل أثراً موروثاً من زمنٍ كان الوعي بعدُ في ليله البدئي ، زمنٍ لم يكن فيه أيُّ اختلافٍ بين الأنا والأنت وكانت كل الكائنات تفكر وتحس[1] وتريد على السواء . فهل حدث أن القريب لم يكن «متوجهاً» على نحو موازٍ ؟ثمَّة اضطراب بدأ ينشأ . لاشيء عند البدائيين يثير الهلع كالخارج عن المألوف إذ يستشعرون في الحال بأن خطراً محدقاً يكمن خلفه . هذا الرجْعُ الأولي ما يزال حياً فينا :فكم نشعر بالإهانة عندما لا نجد من يشاركنا قناعتنا ! ويا للخذلان عندما لا نجد من يرى جميلاً ما نمتدح نحن جماله . واليومَ أيضاً نطارد أياً كان لا يفكر مثل أفكارنا ونظل نسعى لنفرض على غيرنا الرأي الذي يجب أن يكون رأيه ونريد أن نردَّ الوثنيين المساكين لكي ننقذهم من جهنم ، المصير الذي - نحن ندَّعيه مؤكداً - ينتظرهم بل إننا نستشعر خوفاً كريهاً إذا خطر لنا بقاؤنا وحدنا وجهاً لوجه مع قناعتنا !

المساواة النفسية بين البشر هي محصلة ضمنية ، اتفاق قائم وإن غير معلن يتحدَّر إلينا من الخافية الأصلية للكائن البشري ، كان ثمَّة شيء ما في البشرية الأصلية أشبه بنفسٍ جمعية بدلاً من وعينا الفردي الذي لم يبرز إلاّ على نحوٍ تدريجي خلال مسيرة التطور . إن الشرط الأولي لوجود الوعي الفردي هو تمايزه عن

(١) لعل تعاسة الإنسان تعود إلى انفصام فكره عن إحساسه . أليس هذا ما تسعى عموماً العلاجات النفسية لتحقيقه ؟ !

الطفل كالإنسان البدائي يفكر ويحس ويريد في آنٍ معاً وتبدأ مأساته عندما يبلغ التباعد بين فكره وإحساسه حد الصراع فيفعل ما لا يريد ويرغب في ما لا يستطيع . وتلكم هي حالات العصاب بدرجاتٍ متعددة قد تبلغ حدَّ الذهان ... غير ان هذا لا يعني الاستقرار في وعي جماعي بدائي لا يفرِّق ولا يميز إنما المطلوب هو التمايز الفردي مع استمرار الشعور بالإنتماء والوحدة الجماعية . (م)

Scanned with CamScanner

وعي الآخر لذلك فإن بوسعنا مقارنة نشوء الارتقاء النفسي بصاروخ يتوزع عند نقطة انفجاره إلى حزمةٍ من النجوم المتعدِّدة الألوان . (تمايز)

إن علم النفس من حيث هو علم تجريبي إنما ظهر منذ زمنٍ قريب جداً ولمّا يتجاوز عمره خمسين سنةً وهو بعدُ ما يزال في القمط . ذلك أن فرضية المساواة السائدة حتى ذلك الحين قد حالت دون تفتحه المبكر . من هنا يمكننا قياس مبلغ حداثة تمايز الوعي فهو ما يزال يعاني مشاق البزوغ من رقاده البدئي محتازاً الإلمام بنفسه على نحو متثاقل ضعيف الدراية .ولعلَّ من الحماقة الانسياق لأوهام البلوغ إلى القمَّة في الوقت الذي يبدو فيه وعينا المعاصر أشبه بطفلٍ لم يكد يبدأ بالنطق بـ «الأنا» .

الوعي الفردي والخافية الجماعية (١)

كان اعترافي بالفارق المذهل بين الأنفس البشرية واحدة من أبلغ الخبرات في حياتي . فإذا لم تكن المساواة الجمعية واقعاً أصلياً والمنبعَ الأول الأم لكل الأنفس الفردية فقد لا تكون حينئذ سوى وهمٍ مطبق . لكنها على الرغم من كل وعينا الفردي ليست أقلَّ ثباتاً في استمرارها في حضن **الخافية الجماعية** مثلها في ذلك مثلُ بحرٍ يعوم فوقه وعينا الفردي شبيهاً بالسفينة. لذا فإنَّ لا شيء تقريباً اندثر من عالمنا النفسي الأصلي ، وكما أن الأمواج تفصل القارات الشاسعة وتطوقها كالجزر كذلك خافياتنا البدئية تحاصر واعياتنا الفردية من كل صوب. فالذي يجري في كارثة الجنون هو أن البحر الأصلي يأخذ شكل اندفاعاتٍ متفجرَّة ضد الجزيرة التي لم تكد تظهر ويبتلعها . وفي أثناء الاضطرابات العصبية هناك على الأقل سدودٌ تتحطَّم وحقول خصبةٌ يجتاحها الطوفان . العصابيون بلا استثناء هم سكان السواحل الأكثر تعرضاً لأخطار البحر أما الأسوياء المزعومون فيسكنون في الداخل على أرضٍ يابسة مرتفعة قرب البحيرات والأنهار العذبة لايطالهم أيُّ مدٍ مهما تعالى في اندفاعه لأن البحر من النأي عنهم بحيث يصل بهم الأمر إلى إنكار وجوده وقد يبلغ التواحد بالأنا حداً تنفرط فيه الأواصر التي تشدُّ الإنسانية ويودي بالبشر إلى مهلكة

(١) راجع **الواعية وليدة الخافية** ، ص ٢٤ . (م)

Scanned with CamScanner

الاصطراع لكن أمراً كهذا يفوق حدود التوقع إذ ليست الإرادات الفردية على اتفاقٍ تام قط . وواضح ما آلت إليه الأنانية البدائية من أنه ليس ثمَّة «أنا» قط ولكن الآخر هو دائماً من «يجب» عليه .

الوعي الفردي مطوَّق بأغمار الخافية كما ببحرٍ هادر . إنه لا يوحي بالأمان والطمأنينة إلَّا ظاهرياً لأنه في الواقع شيء عطوب متأرجح على قاعدته ويكفي لانفعالٍ قوي أن يعطل عند المناسبة بالشكل الأكثر ملموسيةً حالة توازن الوعي . ذلك ماتعبّر عنه اللغة تعبيراً جلياً كالتالي : «لقد أخرجني الغضب عن طوري» ؛ «لم يعد يُعرَفْ» ؛ «يتمنى الخروج من جلده» ؛ «ثمة أشياء تُنبِت الشيب في رأسك» ؛ «لم نعد ندري ماذا نعمل» الخ .كل هذه التعابير الشائعة تبيِّن السهولة الني يهزُّ بها وعيٌ ما الأنا . ولا تطرأ هذه الاضطرابات الوجدانية للأسف سوراً وحسب لكنها قد ترتدي طابعاً مزمناً يولِّد تبدلاتٍ راسخةٍ في الوعي ، وبالفعل فإنه يمكن لجوانب كاملةٍ من طبيعتنا أن تغور في الخافية بفعل التزعزعات وتمَّحي من صفحة الواعية لسنين بل لعشراتٍ من السنين . ويمكن أن ينجم عن ذلك تغيُّرات في الطبع طويلة الأمد . من هنا ما يُقال بحقٍ : منذ هذا الحادث أو ذاك «أصبح شخصاً آخر» . ومثلُ هذه الحوادث ليست وقفاً على أشخاص مثقلين بعبءٍ وراثيٍ أو عصبيين لكنها تطال الأسوياء أيضاً . إن الإضطرابات الناجمة عن الوجدانات تدعى بلغةٍ تقنية **ظواهر تفكك** .فخلال الصراعات النفسية تظهر صدوعٌ من هذا النوع تهدِّد بتدمير البنيان المهتز للوعي .

بيدَ أن المقيم في الداخل ساكن العالم السوي الذي كان يتبجَّح بنسيانه للبحر لا يقف هو الآخر على أرضٍ صلبة بل على مدرة هشة حيث يمكن للبحر في كل لحظة أن يندفع إليها هائجاً بفعل صدع قاري ما . إن البدائي يدرك هذا الخطر من خلال حياة قبيلته وبفضل نفسانيته الخاصة ؛ إنها «مهالك النفس» تبعاً للمصطلح الفني حيث يميِّز ما بين ضياعَ النفس المزعوم والمس possessionفكلاهما علامةٌ على التفكك .ففي الحالة الأولى يقول البدائي إن نفساً هجرته أما في الثانية فيقول بامتعاضٍ ظاهر أن نفساً قد هاجرت إليه . لاشكَّ بأن هذه الطريقة في التعبير عن الأشياء غريبةٌ بعض الشيء غيرَ أنها تبرز على نحو كاف الأعراض التي ندعوها

Scanned with CamScanner

اليوم ظواهر تفكك أو حالات فصامانية schizoïdes[1] وهذه الظواهر ليست أعراضاً مرضية بالتأكيد فنحن نجدها أيضاً في مناطق الأسوياء . إنها تلك التحولات في الشعور العام بالأشياء والتبدلات اللاعقلية في المزاج والوجدانات غير المتوقعة والكراهية المفاجئة والتعب النفسي الخ .بل يمكن للمرء أن يلاحظ ظواهر فصامانية عند الإنسان المسمّى سوياً مشابهةً للمسّ عند البدائيين ذلك أنه هو الآخر ليس منيعاً دون شيطان الهوى ولا بمعزلٍ عن الاستحواذ أقلّه من خلال صعقة حب وعيب واعتقاد متهور وجملة إمكانات تحفر هوةً بينه وبين الآخرين محدثةً تمزقاً مؤلماً في نفسه .

إن تصدُّع النفس هو عند البدائي كما هو عندنا شيء فظٌ ومرضي . نحن نسمِّيه صراعاً وعصبيةً وخبلاً . وليس خطأً أن السيرة الكتابية للخلق قد جعلت التناغم شاملاً تاماً بين النباتات والحيوانات والبشر والله في رمز الفردوس في بداية كل صيرورةٍ نفسية ، وأنها ميَّزت الخطيئة اللعينة في ذلك البزوغ الأول للوعي بقولها : «ستصيران كالآلهة عارفين الخير والشر»[2] . فالفكر الساذج كان يرى الخطيئة قائمةً حتماً في انتهاك الشريعة ، الوحدة المقدسة للَّيل البدئي المتشكل من وعي غامض مبعثرٍ للأشياء والكون .كان ذلك تمرداً شيطانياً من الفرد ضد الوحدة وعملاً عدائياً من اللاإنسجام ضد الانسجام ونقضاً للعهد الشامل لذلك جاء في اللعنة الإلهية : «هاأنذا أجعل العداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهي تسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه .»[3]

ومع ذلك فقد كان **الفوز بالوعي** أنفس ثمار **شجرة الحياة** والسلاح السحري الذي عقد للإنسان النصر على الأرض والذي سيتيح له كما نتمنى انتصاراً أعظم على نفسه .

الوعي الفردي يعني الانشقاق والعداوة وقد جعلت منه البشرية مراتٍ عديدة في مجموعها أو من خلال أفعالٍ فردية خبرتها الحية المضنية . فمرحلة التفكك عند الفرد مرحلةُ مرض وحالٌ تنطبق على حياة الشعوب أيضاً ونحن نكاد لا نستطيع

(١) الحالة «الفصامانية» هي حالة الإنطواء على الذات الأقرب إلى حالة الفصام المعروفة . (م)
(٢) العهد القديم ، سفر التكوين ٣:٥ . (م)
(٣) سفر التكوين ٣:١٥ . (م)

Scanned with CamScanner

الإنكار بأن الأزمنة الحاضرة أيضاً واحدة من عصور التفكك والمرض تلك . فالوضع السياسي والاجتماعي والتفتت الديني والفلسفي والفن وعلم النفس الحديثان كلها تدعم هذا الرأي .فهل لإنسانٍ يملك ذرةً من الشعور بالمسؤولية الإنسانية أن يحسَّ بنفسه مرتاحاً ؟ إن علينا أن نقرّ بكل صدق بأنه لا يوجد شخص مرتاح كل الارتياح في هذا العالم المعاصر لا بل إن الضيق يأخذ منحىً متزايداً وكلمة «أزمة» مصطلحٌ طبيٌ يُشير دوماً إلى ذروة مرضية خطيرة .

لقد انقضّت بذرة الشر المفكِّك على النفس الإنسانية يومَ بزغ الوعي خيراً أسمى ومصدراً لكل الشرور في آن معاً . ومن الصعب على المرء أن ينطلق في أحكامه من الحاضر المباشر الذي يعيش فيه . أما إذا عدنا إلى تاريخ المرض الروحي للبشرية فإننا نصادف عوارض سابقة نحيط بها بنظرة على نحوٍ أيسر . فإن إحدى أخطر الأزمات قد تمثلت في مرض العالم الروحاني خلال القُرون الأولى للعصر المسيحي . فقد تكشفت ظاهرة التفكك من خلال صدوعٍ شاسعة لا مثيل لها راحت تفتت الكيان السياسي والاجتماعي والمعتقدات الدينيةَ والفلسفية وعبرَ انحطاطٍ يرثى له في الفنون وفي العلوم . فلنقلص الآن بشرية ذاك الزمن إلى أبعاد فردٍ واحد فإذا نحن بإزاء شخصيةٍ رفيعة التمايز من كل الأوجه قد نجحت في البداية بثقة عالية بالنفس في مدِّ اقتدارها على جميع محيطها إلاّ أنَّها بعد أن حقَّقت النجاح عادت فتفتتت إلى عددٍ كبيرٍ من الاهتمامات والمصالح المختلفة إلى حدٍّ أنها انتهت إلى نسيان أصلها وتقاليدها وحتى ذكرياتها الشخصية بل تخيَّلت ذاتها مماثلةً لهذا الشيء أو ذاك الأمر الذي أوقعها في نزاع مع نفسها لا براء منه . وهذا النزاع سبَّب في النهاية حالةً بلغت من الضعف ما جعل العالم المحيط الخاص إلى ذلك الحين يندفع هائجاً ماحقاً فعجَّل سيرورة تفككها .

مبدأ التضادّ [1]

لقد الزمتني دراسة طبيعة النفس التي كرَّستُ لها عشراتٍ من سني عمري كما الزَمت غيري من الباحثين بمبدأ عدم النظر إلى الواقع النفسي من جانب واحد

(١) انظر علم النفس المركب : الفصل الثامن («الأقطاب المتضادة») . (م)

قط بل أخذ وجهة النظر المناقضة دائماً بعين الاعتبار . ذلك أن خبرةً مهماً كانت ضآلة مداها تثبت بأن للأشياء وجهين على الأقل وغالباً أكثر . وما شعار دزرائيلي[1] بعدم الاستخفاف بالأشياء التافهة وعدم المبالغة في تقدير الأشياء الهامة إلا تعبير آخر عن الحقيقة عينها . ولعلَّ النص الثالث لهذه الحقيقة قائم في الافتراض بأن كلَّ تجلٍ نفسي يعوِّض داخلياً بضده أو «إن الأطراف تتعانق» كما يقال في الأمثال و «لكلِّ مشقةٍ عوض» .

إذاً فإن كلَّ مرض يفكِّك عالماً يشكِّل في الوقت عينه أفعولة شفاء أو هو بعبارة أخرى بمثابة ذروة الحمل المنبىء بمخاض الولادة . ومرحلة التفتت كتلك التي حدثت للامبراطورية الرومانية هي في الوقت عينه مرحلة ولادة وليس بغير ما أسباب تأريخنا لعصرنا منذ عهد قيصر ففي ذلك الحين حصلت ولادة شخصية المسيح الرمزية التي كرَّمها المسيحيون الأوائل في رمز **السمكة** أي بمثابة سيِّد الشهر العالمي للأسماك الذي أصبح الروح الموجِّه لعصرٍ يكاد يطوي ألفين من السنين .لقد خرج من البحر إذا جاز القول شأن النبي الخرافي يونس البابلي الذي بزغ هو الآخر عند امتلاء الليل الأصلي الذي بانتفاخه انفجر مولِّداً حقبةً عالمية جديدة . صحيح أنه قال : «لم آتِ لألقي سلاماً لكن سيفاً» بيدَ أن الذي يفكِّك يولِّد الروابط أيضاً ولذلك فقد كان تعليمه دعوةً إلى المحبة الشاملة .

يمنحنا الارتداد قليلاً في الزمن امتياز القدرة على مشاهدة تلك الصورة التاريخية بكل الوضوح المرغوب . بيدَ أننا لو كنا معاصرين لها لكنَّا على الأرجح في عداد الذين لم يبصروا شيئاً ذلك أن عدداً قليلاً من المجهولين أدرك في حينه حقيقة الإنجيل أو البشرى الصالحة من حيث إن البشر كانوا مأخوذين بالسياسة والقضايا الاقتصادية والألعاب الرياضية أما الأوساط الدينية والفلسفية فكانت تجتهد أن تتمثَّل الكنوز الروحية التي كانت تتدفق إلى العالم الروماني قادمةً من الشرق الأدنى المفتوح حديثاً . وحدهم بضعة أفرادٍ انتبهوا إلى حبَّة الخردل التي قُيِّض لها أن تولد الشجرة العظيمة .

(١) بنيامين دزرائيلي (١٨٠٤ـ١٨٨١) روائي ورجل دولة إنكليزي ، تزعم حزب التوري (المحافظ) وجسّد الامبريالية البريطانية في العصر الفكتوري . (م)

Scanned with CamScanner

ثمَّة في الفلسفة الصينية التقليدية مبدآن شاملان متضادان هما اليَنْغ المضيء والينْ المعتم وهي تقول بأن أحد المبدأين اذا ما بلغ ذروة حَوْله يتولَّد المبدأ المضاد منبعثاً من جُوّاه . وإننا لواجدون في هذا تعبيراً تصويرياً على نحو خاص لمبدأ المعاوضة النفساني الناشىء عن التضاد الداخلي وعليه فإن ثقافةً تبلغ أوجها لا شكَّ مقبلٌ عاجلاً أم آجلاً زمنُ انحلالها . غير أن هذا التحلُّل غير المفهوم والمحزن ظاهرياً إلى كثرةٍ لا نظام لها ولا توجُّه والقادر على بعث الاشمئزاز والقنوط يطوي في داخله المعتم بذرة نور جديد .

تشخيص

والآن لنعد هنيهة إلى محاولتنا السابقة في تشخيص تاريخ الانحطاط القديم في فردٍ وحيد .لقد بينت لكم كيف يتم انحلاله النفساني وكيف تفاجئه أعراض ضعفه المحتَّمة التي تسلبه السيطرة على الظروف المحيطة وتتركه في النهاية نهباً للدمار . لنفرض أن هذا الفرد جاءني يطلب المشورة وعساني أقوم بالتشخيص التالي : «إنَّك تشكو من إرهاقٍ ناجمٍ عن انشغالاتك البالغة التنوع وعن انبساطك غير المحدود . كثرة التزاماتك التجارية والشخصية والإنسانية وتعقُّدها يُفقِدانك صوابك .أنت ضربٌ من إيفار كرويغر الذي كان ممثلاً مميَّزاً للروح الأوروبي الحديث وعليك أخيراً سيدي العزيز أن تقرَّ أمام نفسك بأنك في حالٍ تعسة» .

لهذا الاعتراف الأخير أهمية خاصة في ميدان الممارسة ذلك أن ميلاً أكيداً يتملَّك المرضى هو متابعة التخبط على أشدّ ما تكون المضرة في شباك المناهج القديمة التي أمعنت في إثبات عدم نجوعها وزادت على هذا النحو خطورة وضعهم . الانتظار لا يفيد شيئاً والسؤال : «ماالعمل ؟» يفرض إذاً نفسه في الحال .

مريضنا إنسان ذكي سبق له أن تذوَّق كل أدوية الطبابة صالحها وطالحها ومن كل المواصفات وأصغى لكل نصائح الناس الخيِّرين لذلك لم يبق لدينا سوى أن نفعل ما فعله تِلّ أويْلنْشپيغل الذي كان يقهقه لدى تصاعد الطريق ويتباكى عند تنازلها وذلك بعكس الحس الفطري المزعوم .بيدَ أن حكيماً كان يختبىء تحت قبعة جنونه هو الذي كان يتهلَّل للنزول اللاحق . إن الحكمة والجنون ليتجاوران في

Scanned with CamScanner

صداقة دقيقةٍ للغاية .

علينا أن نقود مريضنا إلى تلك المنطقة التي تنبعث فيها وحدته وصلته بالكون حيق تتمّ الولادة الخلاقة التي «تُمازِق الأم» والتي هي بالمعنى الأعمق سبب كل التفككات الحاصلة على السطح . **الثقافة لا تتفكك بل تلد**. ولعلَّ حكيماً كان بمقدوره أن يصيح في السنين الأولى لعصرنا في مدينة روما عاصمة العالم السياسية المستسلمة لكل المضاربات وجنون العظمة والمنتشية بألعاب المدرَّجات : «إن بذور عصر عالمي مستقبلي قد تفتَّحت منذ الآن في ظلِّ هذه الفوضى الصاخبة ، زرعَ الشجرة التي ستحضن بأغصانها بفضل **قناعة وثقافة ولغة** الشعوبَ بدءاً من التوليه Thulé[1] الغربية وحتى بولونيا ومن رأس الشمال إلى صقلية» فذلك قانون نفساني .

إني أرجِّح بأن مريضي لن يؤمن بكلمة واحدة من كل هذا لكنه على كل حال يطالب باختبار ما سمع بنفسه . وههنا تبدأ المصاعب لأن العنصر المعوِّض ووعد التجديد ينبعثان دائماً كما لو كان الأمر مقصوداً من حيث يكون أدنى توقع لانبعاثهما وأقلّه معقوليةً من وجهة نظر موضوعية . فلنفرض الآن بأن مريضنا لم يعد بعدُ ذلك التشخيصَ المصطنع لثقافةٍ مبتلعة وأننا بإزاء إنسانٍ من عصرنا بلحمه وعظمه منحه قَدَره المرموق أن يكون ممثلاً نمطياً على نحوٍ خاص للثقافة الأوروبية الحديثة ؛ فلسوف نتحقَّق في الحال بأن نظريتنا في المعاوضة لا تعني له شيئاً ذا أهمية . فهو يشكو خاصةً من مرض «المعرفة المسبقة لكل شيء» خيراً من أيٍ كان وأنه لا يوجد شيء إطلاقاً لم يقم بعدُ بتصنيفه على النحو المطلوب أما نفسه فهي أساساً **اكتشافه الخاص** وإرادته الحرَّة المشرَّعة الخاضعة لعقله حصراً ومع ذلك فهي حين تكبو إنما يحدث ذلك حيث يشكو مثلاً من أعراضٍ نفسية وحالات حصر واستحواذ ، الخ ، فالأمر يتعلَّق ولا يمكن أن يتعلَّق إلَّا بأمراض ثبتاء[2]

(١) اسم أطلقه الأقدمون على جزيرة واقعة شمال أوروبا ، ترمز روحياً واساطيرياً إلى الإقليم الذي انطلق منه الدين القديم ، أصل الأديان قاطبة . ألهمت قصصها غوته في أسطورته الشعرية ملك توليه . للإطلاع على حلم إنقلابي عظيم تتراءى فيه هذه الجزيرة برموزها الروحية راجع : پيير داكو ، من السجون إلى الحرية ، بترجمة سامي علام ، دمشق ١٩٩٢ : ص ص ١٨٩ــ٩٣ . (م)

(٢) على وزان «فَعَلاء» ، أي قابلة الإثبات . (م)

Scanned with CamScanner

سريرياً ولها تسميات علمية وشبه صحيحة . إن الجانب النفسي بما هو خبرة صحيحة أصلية لا تُختزل سيبقى بالنسبة إليه حرفاً ميتاً ولن يفهم أوّل كلمة مما سأقوله له مهما تظاهر بتمام الفهم وألّف مقالاتٍ وكتباً ينعى فيها «النفسانوية» psychologisme الحديثة .

الأحلام باب السر[1]

ما من جدوى لأيٍ كان يريد أن يتصدى مجابهةً لهذه الحالة العقلية المتمترسة خلف حصون منيعةٍ من الكتب والجرائد والآراء والمؤسسات والمهن . فما السبيل إذاً لكي تقدم على ذلك بذرةُ التجديد الموحِّد الضئيلة هذه بل البالغة الضآلة إلى حدٍّ أنها قد تفضِّل انزهاق روحها ؟ إلى أين يجب علينا أن نقود مريضنا لكي نمنحه بصيص ضوء أو استشعاراً بشيء آخر قادر على موازنة عالمه التافه المضجر ؟ إن علينا غالباً أن نقوده عبر انعطافات طويلةٍ إلى موقعٍ من نفسه معتمٍ مضحكٍ تافهٍ عارٍ في الظاهر عن كل مغزى وعن كل قيمة وإعادته عبر طريق منسية منذ زمن طويل إلى وهمٍ مستوضحٍ منذ زمن طويل يعرف العالم كله أنه ليس شيئاً سوى .. هذا الموقع يسمَّى **الحلم** ، خلقُ لياليـنا العابر الساخر وغير الأكيد أما الطريق إليه فيسمَّى **فهم الأحلام** .

إن مريضي المستاء ليصرخ مع فاوست :

كل آلة السحر هذه تثير قرفي !
هل تعدني بأني سأجد الشفاء
في كومة الغرائب هذه ؟
وهل لي أن أطلب المشورة من عجوز خبيثة ؟[...]
يا لتعسي إذا كنت لاتعرف شيئاً أفضل

ألم يسبق لك أن جرَّبت كل شيء ؟ ألم تتحقق بنفسك أن محاولاتك تعيدك كل مرَّة إلى حلقة اضطرابك الراهن المفرغة ؟» ذلك ما سيكون ردِّي السريع . من أين تستقي إذاً أمل التجدد إذا لم يكن ممكناً أن يزهر في زاوية ما من عالمك ؟

(١) راجع علم النفس المركب : «الحلم والرمز وتفسيرهما» ، ص ٦٩ . (م)

cause & effect = close system ⇒ heat death

Scanned with CamScanner

هنا سوف يثرثر مفيستوفاليس الذي لم يتمكن من إخفاء رضاه مناجياً نفسه :

لم يبق إذاً من سبيل سوى الذهاب إلى الساحرة

مشوهاً بذلك على طريقته الشيطانية «السر المقدَّس الشائع» القديم بأن الحلم رؤيا داخلية . الحلم هو باب السر المختبىء في الموقع الأكثر عتمةً والأكثر صميميةً من النفس والمنفتح على ذلك الليل الأصلي الكوني الذي كان يشكِّل النفس قبل وجود وعي الأنا بكثير والذي سيخلِّدها أبعد بكثير مما يمكن لوعي فردي أن يبلغ إليه . ذلك أن كل وعيٍ من فعل الأنا هو وعي مشتت لأنه يميِّز وقائع معزولة إذ يعمد إلى فصلها واستخراجها ومفاضلتها ولا يبصر إلَّا ما يمكن أن يدخل في علاقاتٍ مع الأنا . وهذا الوعي نفسه حتى عندما يلامس أقصى السُدُم فإنه يبقى متشكلاً من مساحاتٍ واضحة المعالم ليس إلَّا . كل وعيٍ يفصل . أما في الحلم فنحن بالعكس ننفذ إلى الكيان البشري الأعمق والأعم والأصح والأدْوَمْ الذي ما يزال غامضاً في وميض الليل الأصلي حيث كان فيه كلاً وحيث كان الكل فيه في قلب الطبيعة اللامتمايزة وغير المشخصنة .ومن هذه الأعماق التي يتوحَّد فيها الكل الشامل ينبجس الحلم متلبِّساً حتى المظاهر الأكثر طفولية وسخرية وفسقاً . إن سذاجته النضرة لتجعل تملُّقاتنا السيرية الذاتية تتوارى خجلاً . إذاً ليس من العجب في شيء أن كل الثقافات القديمة قد استشعرت في الحلم المؤثر «العظيم» رسالةً إلهية .



لقد كان من الموجب أن تتميَّز عقلانيتنا بتفسير الحلم وتركيبه من خلال مخلَّفات الحياة النهارية وحدها أي من خلال الفتات الساقطة إلى القاع عن المائدة الفاخرة للحياة كما لو أن هذه الأعماق المظلمة ليست سوى جعبةٍ فارغة لا تحوي قط إلا ما يتساقط عليها من الأعلى ! ولماذا ينسى المرء دائماً بأن لا شيء عظيمٌ أو جميل في المجال الشاسع للثقافة الإنسانية إلَّا ويُردُّ بدايةً إلى إلهام موفَّق مفاجىء ؟ وماذا عساه يحلُّ بالبشرية لو حدث أن نضبت منابع الإلهام ؟ لعلَّ الجعبة الأخرى هي بالعكس الوعي الذي لا يحوي أبداً سوى ما يخطر في البال .!

بيدَ أننا لاندرك مبلغ ارتباطنا بإلهاماتنا إلا في تلك اللحظة التي تهرب فيها أفكارنا منا ونحاول عبثاً البحث عنها . الحلم إن هو إلَّا إلهامٌ يدلف إلينا من تلك النفس المظلمة والموحَّدة . فهل ثمَّة ، عندما نضيع في التفاصيل اللامتناهية وفي متاهة ظاهر العالم ، ما هو طبيعي أكثر من التوقف عند الحلم نفتش فيه عن وجهات

Scanned with CamScanner

نظر من شأنها أن تعيدنا مجدداً إلى مقربةٍ من الوقائع الأساسية لوجودنا البشري ؟ بيدَ أننا نتعرَّض إلى أشدِّ الادعاءات رسوخاً مثل قولهم : «أضغاث أحلام» أو الأحلام أوهام ، فإما أنَّها تكذب وإما أنها تحقيق لرغبات الفرد ليس إلَّا .. تلك هي المهارب المزعومة لكي يتفادى المرء مواجهة أحلامه بجديةٍ الأمرُ الذي قد يكون شاقاً للغاية . إن جرأة الوعي الدعيَّة تؤثر الفصل على الرغم من الشوائب التي تستثيرها . من هنا تأتي قلة اكتراث الإنسان بمنح حقيقة الحلم مسحةً من واقع . ثمَّة قديسون تحصل لهم أحلامٌ فاسدة . ماذا عساه يحلُّ بقداستهم ـ التي ترفعهم عالياً فوق عامَّة البشر ـ فيما لو كان لفجور الأحلام أدنى قيمةٍ واقعية ؟ إن تلك الأحلام الأكثر إزعاجاً هي بالتأكيد التي بوسعها أن تقرِّبنا أكثر ما يمكن من البشرية المجبولة من دمنا وتلطِّف بأكثر ما يمكن من النجوع عجرفة الخروج على الغرائز .ولعلَّ عالماً بكامله سوف يحتدُّ محتَّجاً بأن الشمولية الموحِّدة للنفس المعتمة لن تكون قط مجزَّأةً فيه بل بالعكس لأن صدوع السطح كلما كثرت وعظمت توطّدت قوَّة الواحد في الأعماق .

العامل الخافيّ الجمعي

صحيح أن أحداً لايمكن أن يقتنع بوجود نشاط نفسي مستقل في الإنسان يجري على هامش وعيه إلَّا أن يختبر ذلك بنفسه وتزداد صعوبةُ تحصيل هذا الاقتناع كلَّما تعلَّق الأمر بنشاطٍ يجري لا فيَّ وحسب بل عند كلِّ واحدٍ منا .مع ذلك فإننا لدى مقارنتنا لنفسانية الفن الحديث بنتائج العلم النفساني ومن بعدُ مقارنة هذه الأخيرة بالأساطيريات والفلسفة سوف تتجمَّع لدينا حججٌ لا يمكن دحضها تؤكد وجود هذا العامل الخافيّ الجمعي .

غير أن مريضي المعتاد جداً أن يرى في نفسه ذلك العسف الذي يتلاعب به سراً سوف يقول لي إنه لم يدرك بعد قط بأنَّ لتجليّاته النفسية أدنى موضوعية . إنها على العكس تدلُّ بحسب رأيه على الذاتية في أوجها . وإذَّاك أجيبه : «إذن يمكنك في الحال أن تلغي بإرادتك كروبك وهجاساتك . ولتختفِ حالاً الأمزجة السيئة التي تعجُّ في نفسك إذ يكفي لكَ أن تنطق بالكلمة السحرية» .

وبالطبع فإنه في سذاجته كإنسان حديث لم يلحظ بأن حالاته المرضية

Scanned with CamScanner

تستحوذ عليه استحواذاً كلياً كما لو كان الأمر يتعلّق بممسوس من أعماق القرون الوسطى . الفارق بينهما لا يذكر فما كان يُقال عنه في الماضي شيطاناً يسمَّى اليوم عصاباً بيدَ أن الأمر هو عينه ؛ إنها دائماً تلك التجربة القديمة قِدَمَ آدم وحواء : ثمَّة معطى نفسي موضوعي غريب يستحيل تجاوزه نفذ كمثل كتلة راسخة إلى قلب سيادتنا الاعتباطية . إنها المغامرة الفاشلة عينها التي جرت مع المخايل في فاوست :

ها أنتم ماتزالون هنا ! لا ، ذلك لم يحدث قط !
فلتغربوا إذن ! فنحن في عصر الأنوار !
هذه العصابة الشيطانية لاتبالي بأي نظام !
إننا في غاية التعقل ومع ذلك فنحن نرى أشباحاً في تيغل .

لو كان مريضنا يتقبَّل منطقاً كهذا فإن خطوة كبيرة تكون قد أنجزت . الطريق الذي يقود إلى خبرة النفس الداخلية سالك بيدَ أنه لم يُطرَق بعد لأن ثمَّة ادعاءً جديداً ينبجس لتوِّه : فعلى افتراض أننا نقوم باختبار قدرةٍ نفسية خارجةٍ عن نطاق مسرَّتنا الاعتباطية ، اختبار ذلك الجانب المسمَّى **نفسية موضوعية** ، لا يجوز أيضاً أن نرى في ذلك سوى معطى نفساني صرف متَّصف بعوزٍ بشري خالص غير منتظمٍ ويستحيل اقتحامه .

إن مبلغ تمسُّك الناس بأقوالهم أمرٌ لا يصدق فهم دائماً يتصورون أنَّ ثمَّة واقعاً يختبىء خلف كلٍ منها كما لو أنَّ ضربةً محكمةً قد سدِّدت إلى الشيطان منذ أن أُطلق عليه اسم العصاب ! إن هذه الثقة الطفولية المؤثرة لهي أيضاً من مخلَّفات الزمن الغابر حين كان الإنسان يتصرَّف مستعيناً إلى حد كبير بالتعازيم السحرية . فالذي يفعل من خلال اسم الشيطان أو العصاب لا يتأثَّر البتة بالاسم الذي نمنحه إيَّاه . ذلك أننا لا نعرف ماهية المنظومة النفسية ونحن لا نسمِّي الخافية خافيةً إلَّا لأنها خافيةٌ عنا . القليل الذي نعرفه عن المنظومة النفسية يعادل القليل الذي يعرفه الفيزيائي عن المادة فهو لا يملك عنها سوى نظرياتٍ أي تصوراتٍ وصور . وحتى زمنٍ مضى كان الناس يفترضونها مطابقة لما تمثّل ثم حدث اكتشاف جديد فقلب التصور السابق فهل تأثَّرت المادة بذلك أو تقلَّص واقعها ؟

Scanned with CamScanner

نحن لانعرف إطلاقاً ماالذي يجابهنا عندما نصادف هذا العامل الاضطرابي المتميِّز الذي نسمِّيه علمياً **الخافية** أو **النفسية الموضوعية** ، لقد أرادوا أن يروا فيه بما يشبه التسويغ غريزة الجنس أو إرادة القوة غير أن ذلك يعني إهمال الدلالة النوعية للشيء . ألا نتساءل ماالذي يوجد خلف هذه الغرائز التي ليست بالتأكيد طرف العالم بل هي تحديدات أطلقها العقل ؟ إن المجال مفسوح لكل التفسيرات . نستطيع أيضاً أن نتصور الخافية كتجلّ للغريزة الحيوية عينها وبإمكاننا تقريب القوة الخالقة للحياة والحافظة لها من المفاهيم البرغسونية في «الاندفاع الحيوي» و «الأجل المبدع» وثمَّة مقاربة أخرى ممكنة لعلَّها الإرادة عند شوبنهاور . وإني أعرف أشخاصاً استشعروا تلك القوة الغريبة في صميم نفسهم وكأنها تجلٍّ إلهي انطلاقاً من سببٍ عظيم هو أن ذلك السبيل قد أتاح لهم بلوغ التجربة الدينية وفهمها .

وإني أصرِّح بطيبة خاطر عن تفهمي غير المقيَّد لخيبة أمل مريضي أو جمهوري عندما في خضم تشوش العقل الحديث ألفتُ - ويالها من مفارقة ! - انتباهه إلى الحلم على أنه مصدر معلومات . ولا شيء يبدو في البداية طبيعياً أكثر من النظر إلى إشارةٍ كهذه على أنها سخرية خالصة . إلاَمَ يمكن للحلم إذاً أن يرمي وهو المتشكِّل من أشدِّ الأشياء ذاتيةً والمرهون للعدم خاصةً في عالمٍ يفيض بوقائع تفتنك ؟ علينا أن نقابل الوقائع بوقائع أخرى ملموسةٍ مثلها لا بأحلامٍ ذاتية صالحةٍ تماماً لإقلاق النوم وتعكير المزاج . إننا بالأحلام لا نبني عمائر ولا نسدّد ضرائبنا ولا نربح معارك ولا نلغي الأزمة العالمية . لذلك فإن مريضي وأشخاصاً آخرين أيضاً ينتظرون أن أقول لهم كيف يمكن السيطرة على ذلك الوضع العسير وبأية وسيلة ملائمة . بيدَ أن شقاءنا كامنٌ في أنه سبق أن جُرِّبت كل الوسائل ذات المنحى التطبيقي دون جدوى أو أنها تقوم على رغباتٍ وهمية غير قابلة للتحقّق عملياً . وقد اختيرت هذه الوسائل تبعاً للوضع الراهن . فإذا لاحظ أحدهم شغله مثلاً يواجه مأزقاً خطيراً فإنه سيبحث تلقائياً بين كل الوسائل التي يُعوِّم بها أمرٌ ما عن تلك التي يرى فيها الحظ الأوفر في النجاح . ولكن ما العمل عندما يكون المرء قد استنفد كل الوسائل المعقولة وأن هذه قد سمّمت الوضع بعكس كل ما كان يتوقع . في مثل هذه الحال يجب التوقف بأسرع ما يمكن عن استخدام تلك «الوسائل

Scanned with CamScanner

الصالحة» المزعومة .

مريضي - وربمًا عصرنا بكامله - هو في مثل هذا الوضع ويسألني مَكْروباً : «ماالعمل ؟» وعليَّ أن أجيبه : «إني لا أعرف من الأمر أكثر منك» - «إذاً لم يعد هناك أمل ؟» وأجيب أيضاً : «إن البشرية على مدى الأزمنة قد حشرت نفسها مراتٍ عديدة في مآزق مماثلة حيث لم يعد أحدٌ يجد لنفسه مخرجاً لأنَّ كل واحدٍ كان منهمكاً بوضعه الشخصي ينسج مخطَّطاتٍ متحذلقة . لم يكن أحد يجرؤ على إعلان الإخفاق العام . ومع ذلك فجأةً وعلى نحوٍ غير متوقع عادت الآلة الثقيلة إلى وظيفتها بحيث ظهر دائماً أن البشرية القديمة نفسها ما زالت تتابع وجودها على الرغم من تحوُّلاتها» .

عندما نمعن النظر في تاريخ البشرية لا نميِّز في الأحداث سوى الطبقة الأكثر سطحية التي سبَّبت اضطرابَها المرآةُ المشوَّهة للتراث . إن ما حدث في الأعماق ليغرب حتى عن عين المؤرِّخ الأشد تقصياً ذلك أن مسيرة التاريخ الذاتية مستترة على نحوٍ عميق بحيث يعيشها الكل وتنحجب عن نظر الأفراد . إنها متشكِّلة من حياةٍ نفسية ومن خبراتٍ خاصةٍ وذاتيةٍ إلى أبعد الحدود . فالحروب والسلالات الشهيرة والانقلابات الاجتماعية والفتوح والديانات إن هي إلا الأعراض الأكثر سطحية لموقفٍ روحي أساسي وسرِّيٍ للفرد ، موقفٍ لا يعيه هو نفسه ويفلت بالتالي من المؤرِّخ ؛ ولعل مبدعي الديانات أعظم الكاشفين لهذه الحقيقة . إن الأحداث العظيمة في العالم هي في الأساس غير ذات معنى عميق . وحدها جوهريةٌ في النهاية التحليل حياة الفرد الذاتية . إنها وحدها التي تصنع التاريخ وفيها أولاً وتُحاك كل التحولات العظيمة وما التاريخ برمَّته ومستقبل العالم في النهاية إلَّا المحصلة الهائلة لهذه المنابع الفردية المستترة . نحن لسنا فيما هو الأكثر خصوصيةً وذاتيةً في حياتنا ضحايا زماننا وحسب بل الصانعون له أيضاً . زماننا - هو نحن !

عندما أنصح لمريضي بالقول : «أعر اهتماماً لأحلامك» فإنما أقصد : «عد إلى ما هو الأشد ذاتيةً في نفسك إلى منبع وجودك وحياتك إلى تلك النقطة التي تشارك فيها من حيث لا تدري في تاريخ العالم . الحاجز الممتنع في الظاهر الذي تصطدم به لا بدَّ أن يكون بالفعل صعوبة مستعصية لكي لا تستمر بعد مستهلكاً نفسك في

Scanned with CamScanner

البحث عن أدوية ثبت مسبقاً عدم نجوعها . أحلامك هي التعبير عن طبيعتك الذاتية ولذلك فإن بإمكانها أن تكشف لكَ خطأ الموقف الذي حشرت نفسك به في مأزق» .

الأحلام هي في الواقع نتاج النفس الخافية ؛ عفوية غير متحيِّزة وبمنأى عن اعتباطية الوعي . إنها طبيعة صرف وبالتالي ذات حقيقة طبيعية لاتصنُّع فيها لذلك فهي تتمتَّع بامتياز لا مثيل له لكي تعيد إلينا موقفاً يتلاءم مع الطبيعة الأساسية للإنسان كلَّما ابتعدت واعيتنا عن قواعدها وتخبطت في حمأة أوحالٍ أو في بعض المستحيلات .

تأمل الأحلام هو فعل **عودةٍ إلى الذات** . وخلال تلك الافتكارات لا يقوم وعي الأنا بتأمل نفسه وحسب بل يتوقف عند المعطيات الموضوعية للحلم وكأنها بلاغ أو رسالة متحدِّرة إلينا من نفس الإنسانية الخافية والوحيدة . إن المرء ليتأمل في ذاته Soi لا في **أنانته** moi ، في تلك الذات الغريبة الجوهرية فينا التي تشكل قاعدتنا والتي ولَّدت الأنا فيما مضى ثم عادت فأصبحت غريبةً عنا لأننا تغرَّبنا عنها باتباع ضلالات وعينا .

تفسير الأحلام[1]

وإذا ماقبلنا على نحو عام فكرة أن الأحلام ليست من اختراع أهوائنا بل أنها نتاجٌ طبيعيٌ لنشاط نفسنا الخافية فالأحلام **الواقعية** لن تكون أقلَّ إحباطاً لرغبتنا بأن نرى فيها رسالة لا أدري من أي مستوى . إن تفسير الأحلام جزءٌ من مسالك الشعوذة وهو بهذه الصفة يصنَّف بين الفنون اللعينة التي تحرِّمها الكنيسة . ومهما بلغت حرية الفكر التي نتمتع بها نحن أهل القرن العشرين بهذا الخصوص فإن فكرة تفسير الأحلام ما تزال مع ذلك موسومة بالزعم التاريخي بحيث أننا نعاني صعوبة في التآلف معها .وفضلاً عن ذلك يجب أن نتساءل عمَّا إذا كان ثمَّة منهجُ تفسيرٍ يمكن الوثوق به ؟ وهل يستطيع المرء أن يترك نفسه لأولى الافتكارات الوافدة ؟ إني أشارك دون تحفظ في هذه التوجسات بل أنا مقتنعٌ بأنه لا يوجد أي منهج تفسيري مجرَّب تجريباً مطلقاً .

(١) راجع **علم النفس المركب** : «تقنية أم منهج ؟» ، ص ٢٠٩ . (م)

Scanned with CamScanner

زد على ذلك بأنه لايوجد يقين مطلق في تفسير الوقائع الطبيعية إلّا في أضيق الحدود أي بمقدار ما لاتتجاوز النتائج فيه المقدّمات وأعني المقدار الذي لا نجد به في الأشياء سوى ما سبق أن ادخلنا فيها . إن كل تفسيرنا للطبيعة تفسيرٌ متهوِّر فالمناهج لا تتطوَّر إلّا بعد زمنٍ طويل من عمل الروَّاد . من المعروف أن فرويد ألَّف كتاباً في **علم الاحلام**[1] بيدَ أن تفسيره يرتبط بما قلنا أعلاه : أي أن علمه لا يُخرج إلى النور شيئاً سوى ما هو قابل بحسب نظرياته للارتسام في الحلم . إن تصوراً كهذا ليس في أي مكانٍ وعلى نحوٍ طبيعي على مستوى الحرية الفائضة للحياة الأحلامية وبالتالي فهو يغيِّب معنى الحلم أكثر مما يضيئه .وفيما عدا هذا لا نتمكن إلّا بصعوبة بعد أن تكونت لدينا فكرة عن تنوعية الأحلام اللامتناهية من التفكير بأنه يمكن أن يوجد قط منهجٌ في هذا المجال ، أي طريق يمكن اتباعه مرسومٌ فنياً وقادرٌ أن يوصلنا إلى نتيجة معصومة . ومع ذلك فمن المستحسن لمنهجٍ كهذا أن يخطىء لأنه إن وُجد فقد يسيء إلى معنى الحلم الذي وقد وُجد محدداً منذ البداية ربما فقد بالدقة هذه الخاصية أو القابلية لكشف وجهة نظر جديدة وهو ما يجعله بالغ القيمة في علم النفس .

إن أفضل ما بإمكاننا فعله هو معالجة الحلم كغرض مجهولٍ بالكلية فنتفحصه من كل جوانبه ونتناوله بأيدينا إذا جاز القول ونروزه ونحمله معنا ونطلق العنان لخيالنا فيه ونأتمن أشخاصاً آخرين عليه . إن البدائيين يروون دائماً أحلامهم المؤثرة أمام القبيلة مجتمعة . وقد استمر هذا التقليد مع العصور القديمة حيث كان الأقدمون جميعاً يسبغون على الأحلام معانٍ عظيمة . إن منهجاً كهذا سيثير جمّاً من الإشكالات في عقل الحالم ويقود منذ الآن إلى حافة معنى الحلم . اكتشاف هذا الأخير هو - إذا جاز القول - مهمَّة اعتباطية في جوهرها ذلك أن التهور إنما يبدأ من هنا لدى فك الجُفُر . وتبعاً لخبرةِ المرء ومزاجه وتذوقه فإنه سيحدِّد لمعنى الحلم حدوداً تضيق أو تتوسع .فبعضهم يكتفي بالقليل بينما يجد آخرون بأن الكثير غير كافٍ . ويرتبط المعنى أيضاً أي خلاصة تفسير الحلم إلى حدٍ بعيد بمقصد المفسِّر وتوقعه وتطلّباته . **والدلالة**[2] المتحصِّلة ستكون دائماً موجَّهة على نحوٍ

(١) ترجمه مصطفى صفوان وطبعته دار المعارف بمصر عام ١٩٥٨ بعنوان **تفسير الاحلام** . (م)

(٢) Bedeutung الألمانية مشتقة من فعل Bedeuten المركبة هي نفسها من فعل deuten = أشار إلى

Scanned with CamScanner

"- A frog in a well doesn't Know about the great sea."

ص٣٧ ص٤٢١ → see Ugarit's dream Mon 7:30 AM 27-8-2018 Damascus

لا إرادي تبعاً لبعض المقدِّمات ، وعلى مصداقية المفسِّر وضميره في تفسير الحلم يتوقف الربح الممكن الذي يستخلصه منه أو الارتباك الأعمق أيضاً في الأخطاء التي يرتكبها .فبإمكاننا فيما يتعلَّق بالمقدِّمات أن نعوِّل بثقة على كون الحلم ليس اختراعاً من الوعي لا خير فيه ولكنه ظهورٌ طبيعي عفوي ؛ ولعلَّ هذا الواقع يبقى بمنأى عن التبدل في شيء فيما لو ثبت فيما بعد بأن الأحلام تتعرَّض لبعض التحولات عندما تبلغ الوعي . وإذا ما حدثت هذه الأخيرة فإنها ستكون بالغة السرعة والحراكية بحيث تكاد لا تلحظ . إذاً فإنَّ لنا كل الحرية في اعتبارها مرتبطة بوظيفة الحلم الطبيعية . وبإمكاننا الافتراض بيقين مماثل أيضاً أن الأحلام تنبجس انبجاساً جوهرياً من طبيعتنا الخافية ؛ وهي في أقل تعديلٍ أعراض لها تسمح على نحوٍ استدلالي باستشعار جبلَّتها . لذلك فإن الأحلام أنسب الأدوات لدراسة جوهر الإنسان نفسه .

على المرء أن يحذر في مجرى تفسيره خليطاً من المزاعم والخرافات ؛ أولاً من فكرة أن الأشخاص الظاهرين في الحلم لا يجسِّدون شيئاً آخر سوى أولئك الأشخاص أنفسهم في الحياة الواقعية فلا يجوز أبداً أن ننسى بأن المرء إنما يحلم أولاً وحصراً تقريباً بنفسه وعبر نفسه . (ثمَّة بعض القواعد المحدَّدة لما يشذّ عن ذلك لست هنا بصدد ذكرها) . وإذا ما سلَّمنا بهذه الحقيقة فلسوف تعترضنا سريعاً مسائل بالغة الأهمية . وإني لأتذكَّر هنا حالتين مفيدتين بنوع خاص : في الأولى كان الفاعل يحلم بمتشرِّد سكران نائمٍ في مسقاة الطريق وكان الفاعل في الثانية يحلم بمومس ثملة تتدحرج في مجرى صخري . كانت الحالة الأولى حالة لاهوتي أما الثانية فحالة سيدة مرموقةٍ في المجتمع بيدَ أن كلاهما رافض وممتعض من فكرة أن المرء ينحلم عبر نفسه ويرفضان رفضاً قاطعاً الإقرار لنفسيهما بذلك . وقد نصحت لكليهما برفق بمنح نفسيهما ساعة تأملٍ يبحثان فيها بتؤدة واجتهاد أين وكيف لم يكونا البتة أثمن من ذلك الأخ السكران في المسقاة ومن تلك الأخت المومس في المجرى الصخري . غالباً ما تبدأ بطلقة مدفع كهذه أفعولة معرفة الذات الرهيفة : فـ «الآخر» الذي نحلم به ليس صديقنا ولا جارنا إنه الآخر فينا الذي

شيء ، المع إليه ، ومن السابقة be التي تجعل فعل deuten متعدياً وتعطيه معنى اشد قطعاً وإطلاقاً كفعل «دلَّ» . ذلك أن معنى الشيء هو ذاك الذي نسبغه عليه بفعل من العقل . (رك)

Scanned with CamScanner

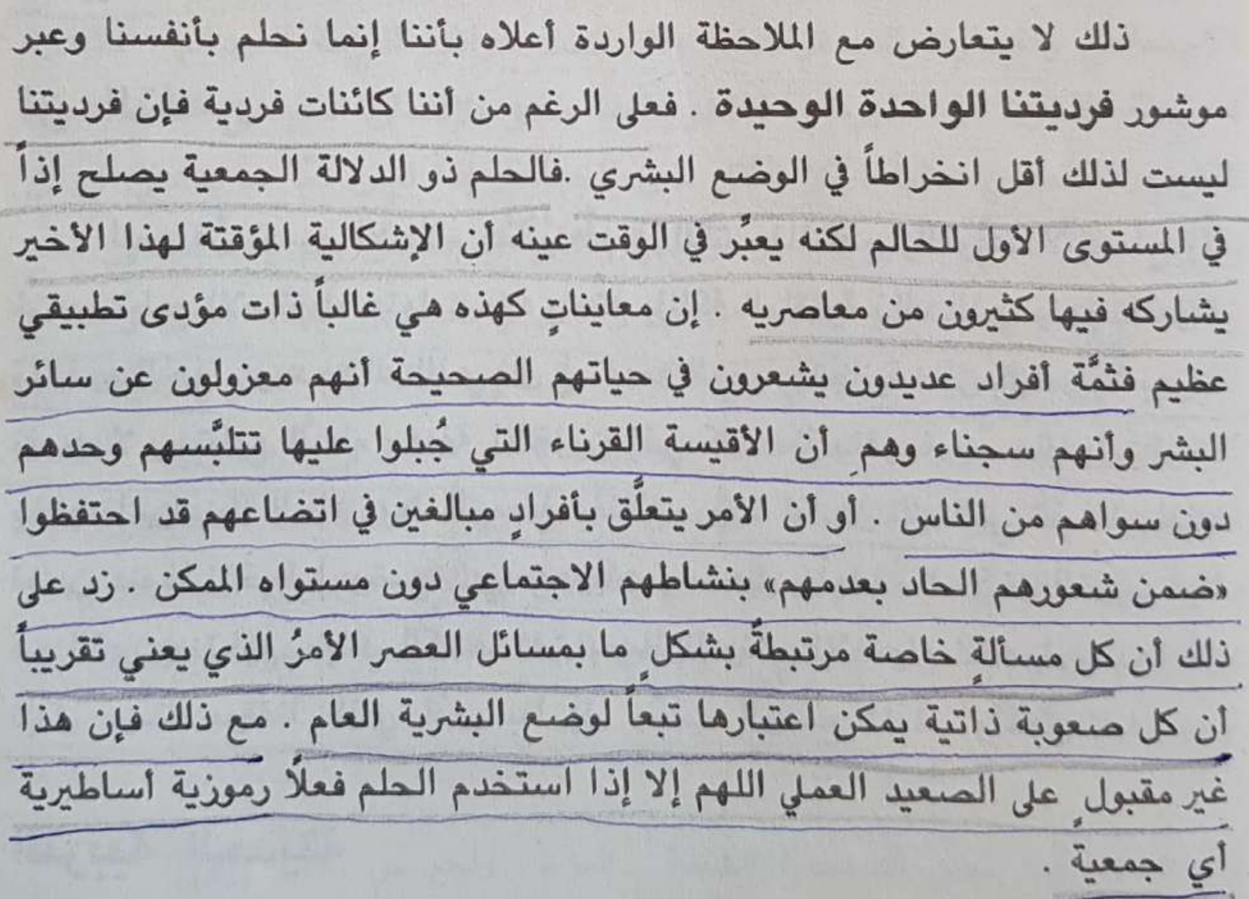
نقول عنه بتفضُّلٍ : «أشكرك اللهُم أنك لم تجعلني مثله[1] !» . الحلم ، بالتأكيد ، سقطُ الطبيعة هذا يجهل المقاصد الأخلاقية لكنّه يعبِّر هنا عن القانون القديم المعروف القائل إن الأشجار لا تنبت في السماء بل تخبىء جذورها القوية في الأرض .

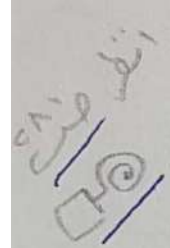
الأحلام العظيمة



إذا ماحفظنا في بالنا بأن الخافية تحوي بغزارةٍ كلَّ ما ينقص الوعي وأن لها بالتالي منزعاً تعويضياً فبإمكاننا حينئذٍ استخلاص نتائج من الحلم شريطة ألّا ينبجس من طبقاتٍ نفسية بالغة العمق . أما إذا جاء بالعكس على هذا النحو الأخير فإن الحلم يحوي كقاعدةٍ عامة ما يسمّى مواضيع أساطيرية أي تداعيات صورٍ وتمثيلاتٍ أشبه بتلك التي يصادفها المرء في أساطير شعبه أو أساطير الشعوب الغريبة . ففي مثل هذه الحال يحوي الحلم **معنى جمعياً** أي معنىً عاماً بشرياً .







ذلك لا يتعارض مع الملاحظة الواردة أعلاه بأننا إنما نحلم بأنفسنا وعبر موشور **فرديتنا الواحدة الوحيدة** . فعلى الرغم من أننا كائنات فردية فإن فرديتنا ليست لذلك أقل انخراطاً في الوضع البشري .فالحلم ذو الدلالة الجمعية يصلح إذاً في المستوى الأول للحالم لكنه يعبِّر في الوقت عينه أن الإشكالية المؤقتة لهذا الأخير يشاركه فيها كثيرون من معاصريه . إن معايناتٍ كهذه هي غالباً ذات مؤدى تطبيقي عظيم فثمَّة أفراد عديدون يشعرون في حياتهم الصحيحة أنهم معزولون عن سائر البشر وأنهم سجناء وهمٍ أن الأقيسة القرناء التي جُبلوا عليها تتلبَّسهم وحدهم دون سواهم من الناس . أو أن الأمر يتعلَّق بأفرادٍ مبالغين في اتضاعهم قد احتفظوا «ضمن شعورهم الحاد بعدمهم» بنشاطهم الاجتماعي دون مستواه الممكن . زد على ذلك أن كل مسألةٍ خاصة مرتبطةٌ بشكلٍ ما بمسائل العصر الأمرُ الذي يعني تقريباً أن كل صعوبة ذاتية يمكن اعتبارها تبعاً لوضع البشرية العام . مع ذلك فإن هذا غير مقبولٍ على الصعيد العملي اللهم إلا إذا استخدم الحلم فعلاً رموزية أساطيرية أي جمعية .

(١) انظر العهد الجديد : لوقا ١٧ : ١١ . (م)

Scanned with CamScanner

هذه الأحلام يسمِّيها البدائيون أحلاماً «عظيمة» . ولقد كان بدائيو أفريقيا الشرقية الذين لاحظتهم يعتبرون بأن الأحلام «العظيمة» لا تخطر إلَّا للشخصيات «العظيمة» أي السحرة والرؤساء . لاشيء من هذا القبيل لا يصح على الصعيد البدائي . وتحدث عندنا هذه الأحلام أيضاً لدى أفرادٍ بسطاء خاصةً لدي أولئك الذين يحصرون أنفسم في ذهنية قيادية ضيقة . ومن نافلة القول إن دراسة واحدٍ من هذه الأحلام العظيمة يقتضي من أجل البلوغ إلى نتيجةٍ مرضية أكثر بكثير من مجرد تخمينات حدس تكهني إلى حد ما ، فلا مندوحة عن معارف واسعة لا يجوز أن يفتقر إليها أي اختصاصي . ومع ذلك فالمعارف وحدها لا تكفي هي الأخرى ولا يجوز أبداً أن تكون ذكرياتٍ محنَّطة بل أن تحافظ عند من يتعامل معها على مذاق الخبرة الحيَّة . ماذا تعني مثلاً المعارف الفلسفية في مخ إنسانٍ ليس فيلسوفاً بقلبه ؟ إن على كل من يريد أن يفسِّر حلماً أن يمتلك سعة شخصية تعادل سعة الحلم ذلك أن المرء ـ وهذا أمرٌ مطلق ـ لا يتعرَّف قط في أيِّ شيء كان إلى أكثر ممَّا هو إياه .

فن التفسير

ليس فنُّ تفسير الأحلام ممَّا يُتعلَّم في الكتب فالمناهج والقواعد لا تصلح إلَّا لمن يستطيع الاستغناء عنها .وحده يتمتَّع بالملكة الواقعية ذاك الذي ينعم بالمعرفة وبالفهم الحي ، وحده ذاك الذي نال في تفهمه العطية المجَّانية . إن كل من لا يعرف نفسه لا يستطيع ادِّعاء معرفة الآخرين ففي كلٍ منا يغفو غريبٌ مجهول الوجه يخاطبنا بواسطة الحلم ويعلمنا بمبلغ اختلاف رؤيته لنا عن تلك التي تلذُّ لنا . لذلك فنحن عندما نتخبط في وضعٍ ذي صعوبات يستحيل حلُّها فهذا الآخر الغريب فينا هو الذي يستطيع حينئذ الكشف عن بصائرنا ونشر الأضواء القادرة وحدها أن تبدِّل برمَّته موقفنا الذي أدَّى بنا إلى صُلب الوضع المعقَّد وأخفق فيه .

التربية الحديثة

إني بقدر ماتعلَّقت بهذا المسائل عبر السنين رسخ لديَّ الانطباع بأن تربيتنا

Scanned with CamScanner

الحديثة ذات أحاديةٍ مرضية . من المفيد بالتأكيد فتح أعين الشباب وآذانهم على مناظر العالم الواسع بيدَ أن من للجنون الاعتقاد بأننا قد هيَّأنا بذلك الكيانات الشابة للحياة تهيئة كافية ! إن هذه التربية تتيح بالتمام للفرد الشاب تكيفاً خارجياً مع وقائع العالم غير أن أحداً لا يفكر بالتكيف مع ذاته[1] أي مع قدرات النفس التي تتجاوز كليةً قدرتها بكثير كل ما يستطيع العالم الخارجي أن يخبئه من قدرات عظيمة . هناك أيضاً بالطبع نظام تربوي يتحدَّر في جزءٍ منه من العصور القديمة وفي جزئه الآخر من بداية العصر الوسيط ألا وهو الكنيسة المسيحية . ومع ذلك فلا يمكن للمرء أن يفكر بأن المسيحية ـ خلال القرنين الأخيرين وكذلك الكونفوشية والبوذية في الصين ـ قد فقدت قسطاً كبيراً من فاعليتها التربوية . ليس فساد الناس هو المسؤول عن ذلك لكنه التطور الروحي التدريجي العام الذي كان الإصلاح عندنا أول أعراضه .فقد أدى إلى زعزعة السلطة التربوية وبدأت مذاك سيرورة هدم مبدأ السلطة . وكانت النتيجة التي لا مفرَّ منها تزايدُ أهمية الفرد الذي عبَّر عن نفسه بأكثر ما يمكن من القوة في الأهداف الحديثة بالإنسانية والرفاه الإجتماعي والمساواة الديمقراطية . ولقد كانت عواقب النزعة الفردانية الظاهرة للمرحلة الأخيرة من تطورنا **ردَّةً تعويضية نحو الإنسان الجمعي** الذي يشكل تأكيده السلطوي حالياً مركز الثقل لدى الجماهير إذاً ليس ثمَّة ما يدهش في أن يسود حالياً مناخٌ كارثي كما لو أنَّ انهياراً ثلجياً قد حصل ولم يعد بمقدور أحدٍ إيقافه .فالإنسان بما هو عنصر مجهول الاسم في الجمهور يهدِّد بخنق وابتلاع الكائن الإنساني المنفرد الذي مع ذلك يحمل على عاتقه كل المآثر المشيَّدة بيدِ الإنسان . فالجمهور بما هو كذلك مجهول الاسم دائماً وغيرُ مسؤول . القادة المزيفون هم الأعراض المحتَّمة لكل حركةٍ جماهيرية . أما القادة الحقيقيون فهم دائماً أولئك الذين بتفكُّرهم في أنفسهم يخففون في الأقل عن وزن الجماهير وطأة وزنهم ببقائهم بعيدين عن وعيٍ منهم عن العطالة الطبيعية العمياء المتلازمة لكل جمهورٍ متحرِّك[2] .

(١) «الذات» هنا بمعنى الشخصية الشاملة . للمزيد ، راجع ص ٢٨٥ . (رك)

(٢) راجع :

C.G. Jung: **Présent et avenir**, trad. R. Cahen, Edit. Buchet– Chastel, Paris, 1962.

Scanned with CamScanner

ولكن مَن إذن بإمكانه أن يقاوم تلك القوة الجاذبة الماحقة التي يتشبَّث كلٌّ في خضمِّها بجاره والكلُّ يجرُّون بعضهم بعضاً ؟ وحده يستطيع أن يقاوم من لا ينحصر في الخارج بل يرتكز على عالمه الداخلي ويمتلك فيه مرفأً آمناً .

ضيِّقٌ ومستتر الطريق الذي ينتفح على الداخل أما المزاعم والتحيُّزات والآراء والمخاوف التي تمنع البلوغ إليه فلا تحصى فما ينتظره المرء هو دائماً برامج كبيرة سياسية واقتصادية ـ وهو بالتحديد ما كان دائماً يورِّط الشعوب . لذا فإن الكلام عن أبواب مستترة للحلم وللعالم الداخلي يعطي نبرةً بالغة السخرية . ماالذي تأمله إذاً هذهً المثالية الضبابية إزاء برنامج إقتصادي هائل وإزاء مسائل الواقع ـ المزعومة ؟

أنا لاأتوجّه إلى الأمم بل أخاطب حفنة من الناس هي فئة ضئيلة جداً متفقة فيما بينها بأن حقائق ثقافتنا لم تنزل من السماء بل أنها في التحليل الأخير صنعُ ندرةٍ من الناس فإذا كان الشيء العظيم الذي هو الثقافة منحرف المسار فذلك بكل بساطة لأن الناس كلاًّ على حدة منحرفو المسار وأني أنا نفسي منحرف المسار .التصرف العاقل يوجب عليَّ أن أبدأ بتصحيح نفسي .ولكن حيث إن السلطة لم يعد بعدُ لديها قضاءٌ أعلى وقد فقدت هكذا نواتها وبالتالي لم تعد لها أيضاً دالةٌ على الفرد فإني إذاً أحتاج إلى معرفة وإلى اعتراف بالأسس الأشد نوعيةً وصميميةً لكياني الذاتي من أجل أن يقوم بنائي على المعطيات الأزلية للنفس الإنسانية .

خبرة الله

إذا كنت فيما تقدم قد تكلمت عن الحلم بصورة رئيسية فلأني كنت أبغي أن أذكر ببساطة إحدى نقاط الإنطلاق الأكثر معرفة وقرباً من الخبرة الداخلية . ثمَّة نقاط أخرى غير الحلم لا أستطيع الآن الكلام عنها . ذلك أن استطلاع أعماق النفس يُخرج إلى النور أشياء كثيرة نكاد على السطح لا نجرؤ على تخيُّلها ولا شيء يثير العجب إذا ما اكتشفنا فيها بالمناسبة أقوى الأنشطة الروحية وأكثرها عفوية

Scanned with CamScanner

وأقصد به النشاط الديني للروح . ذلك أنها حتى لدى الإنسان الحديث أكثر عمقاً من الجنسية أو التكيف الاجتماعي . وعلى هذا النحو فإني أعرف أشخاصاً يمثِّل عندهم اللقاء الداخلي بالقدرة الغريبة فيهم تجربةً يطلقون عليها اسم «الله» . «الله» أيضاًبهذا المعنى نظريةٌ أو تصورٌ أو صورةٌ يخلقها العقل البشري الناقص لكي يعبِّر عن خبرته الداخلية مع شيء يفوق الوصف والتفكير . الخبرة الحية هي وحدها الواقع والعنصر الوحيد الذي لا يقبل النقاش أما الصور فمعرَّضة للتمزيق والاتساخ .

الأسماء والكلمات إن هي إلا لُبوسٌ فقيرة لخبراتنا بيدَ أنها على الأقل تشفُّ عن طبيعتها . فأن يسمَّى الشيطان اليومَ عصاباً ذلك يعني أن التجربة الشيطانية قد استُجِسّت كمرض هو سمة عصرنا المتميزة ؛ وأن نسمِّيها أيضاً كبتاً للجنسية أو غريزة القوة فذلك يبيِّن بأن هذه النوازع الأساسية تعاني من اضطرابٍ عميق . وأن نسمي تجاربنا الصميمة الله يعني أننا نتمسَّك بالدلالة الشاملة والعمق اللامتناهي الذي استشعرنا صداه في ذاتنا . وإذا ما نظرنا إلى الأمر نظرةً صافية فإن هذه التسمية الأخيرة بسبب خلفية قوامها المجهولة هي الأكثر فطنة وفي الوقت عينه الأكثر تواضعاً لأنها هي التي تفسح للخبرة الصحيحة مجال الحركة الأوسع فلا تقيِّدها في أيِّ مكان بحجم ١٢/١ من ترسيمةٍ مفاهيميةٍ ما إلَّا بالطبع إذا خطرت لأحدهم الفكرة الشاذة بادِّعاء معرفة ماهية الله على نحوٍ دقيق .

قدرة النفس

أن نسمي خلفية النفس بما يحلو لنا من الأسماء لا يقلِّل أن وجود الوعي وطبيعته نفسها هما بصورةٍ مذهلة تحت سيطرتها وبقدر يزداد اطراداً بازدياد جهلنا بما يجري . صحيحٌ أن غيرَ المطَّلع صعبان ما يستطيع تمييز مبلغ تأثره في ميوله وأمزجته وقراراته بالمعطيات العتِمة لنفسه ، تلك القدرات الخطرة أو الخيِّرة التي تحرك قدره . إن وعينا العقلي أشبه بممثلٍ نسيَ أنه يقوم بدوره فعندما ينتهي العرض عليه أن يتذكَّر واقعه الذاتي لأنه لن يستطيع الاستمرار في عيش شخصية يوليوس قيصر أو عطيل وأن يعود إلى خاصته الطبيعية التي تخلَّى عنها مؤقتاً بحيلةٍ

Scanned with CamScanner

من وعيه وعليه أن يعرف مجدداً بأنه لم يكن سوى شخصية على خشبة المسرح وأن مسرحيةً لشكسبير قد جرى تمثيلها وأنَّ هناك وكيلاً للمسرح ومديراً تصنع آراؤهما قبل التمثيل وبعده المطر والصحو.

Scanned with CamScanner

٣

وظائف الواعية والخافية وبنياناهما

١

طبيعة الخافية

ليس علم النفس سحراً أسود بل هو علم . إنه علم الوعي ومعطياته وهو أيضاً علم الخافية ولكن فقط في المرتبة الثانية لأن الخافية غير مندركة اندراكاً مباشراً وذلك بالتحديد لأنها خافية inconscient . ثمَّة بالفعل أشخاص لا يخشون التأكيد لكم بأنَّ : «الخافيةلا تخفي عنهم سراً فهم يعرفونها كما يعرفون قعر جيوبهم !» وأنا أرد على هؤلاء فأقول : «ربمًا قمتم باستعراض واعيتكم أما خافيتكم فتجهلونها كل الجهل لأن الخافية هي حقاً خافية . إنها بالتحديد الشيء الذي لم نبلُغ به .» ولا ننسينَّ هذا التمهيد لأن الناس يستعملون مصطلح «الخافية» بعدم اكتراث عندما يتحدثون مثلاً عن معطياتٍ خافية وأفكار وصور وتخلّقاتٍ خافية الخ وتلك عادة كلامية مؤسفة . كل جماعة لها كما تعلمون اختزالاتها ورطاناتها وعاميتها لذلك لا تحنقوا عليَّ إذا ما اتفق لي أن كلمتكم عن تصور خيالي خافٍ inconscient . ولعلَّه من الأوجب أن نقول على نحوٍ أدق : تصوراً خيالياً قد كان خافياً ذلك لأن الخافية تطرح على شواطىء الواعيةِ جمّاً من الجلائب التي عندما نسمِّيها «خافية» لا نفعل شيئاً سوى أننا ندلُّ على أصلها . إن كل ما نعيه هو بالطبع مرتبطٌ بالأنا بواسطة الوعي . أما الخافية بالمقابل فلا تُدرك إدراكاً مباشراً وعلينا الاستعانة بمناهج خاصة من أجل نقل المحتويات الخافية إلى حيِّز الوعي . نحن نجهل كل الجهل طبيعة المنظومة النفسية الخافية لأن الوعي هو الذي يعبِّر عمَّا تنتجه بلغة الوعي وهذا كل ما نستطيع فعله . نحن لا نستطيع تخطي ذلك وعلينا دائماً أن نجعل هذه الظروف حاضرةً في ذهننا كمعيارٍ أخير لأحكامنا عندما نحاول الاستدلال من خلال النوعية الخاصة لإنتاجات الخافيَة علِى طبيعة ذلك الشيء الذي انبثقت عنه .



Scanned with CamScanner

عندما نتساءل عمّا يمكن أن تكون عليه طبيعة الواعية ـ رائعة الروائع ـ فإن الواقع الذي يؤثر فينا أعمق التأثير هو أن حدثاً يجري في العالم ينجم عنه بالتناوب صورة في نفسنا حيث يجري على نحو موازٍ وقد أصبح هكذا واعياً.



الوعي ليس متصلاً. صحيح أن الناس يتكلمون عن اتصالية الوعي بيد أن هذه الاتصالية هي في الواقع غير موجودة والانطباع الذي يستشعرها المرء به إنما هو من فعل الذاكرة. **الوعي وامض متقطع**[1] فإذا ما أحصينا الأطوار الواعية لحياة كائن إنساني نحصل منها على نصف أجله أو على ثلثيه أما الباقي فهو عبارة عن حياةٍ خافية فنحن طوال الليل فريسة النوم وعلى مدى النهار عديدة هي أيضاً الساعات التي لا يكون المرء واعياً فيها إلا بمقدار النصف أو الثلاثة أرباع. وفي الواقع ليس ثمّة سوى لحظات قليلة يكون المرء واعياً فيها حقاً حيث يبلغ الوعي مستوىً وشدةً معينين. أما الوعي الذي يظهر في الأحلام فليس سوى بقية بائسة من الوعي لأننا في الأحلام نمارس بالضرورة دوراً منفعلاً ذلك أننا نتلقّاها.

أما الخافية فهي بالمقابل حالة ثابتة مستديمة تتأبّد في جوهرها متشابهةً مع ذاتها وراسخة[2] في استمراريتها الأمر الذي لا نملك أن نزعمه عن الواعية. وأحياناً يهبط نشاط الواعية على نحوٍ ما إلى ما دون الصفر ويذوب في الخافية حيث يتواصل على شكل نشاطٍ خافٍ. وعندما تبلغ واعيتنا مستواها العادي أو حتى عندما تبلغ درجة متميِّزة من الحدة فإن نشاط الخافية أي حلمها الخالد لا يتضاءل بالنتيجة. فنحن عندما نصغي ونتكلّم ونقرأ تتابع خافيتنا أداءها وإن كنا لا نلاحظ ذلك. بيد أننا نستطيع بواسطة مناهج ملائمة تبيان أن الخافية تستمر ناسجةً حلماً رحباً يتابع سيره تحت الواعية غير مضطرب وقد يبزغ أثناء الليل في رؤيا أو يسبب في النهار اضطراباتٍ صغيرة فريدة. ثمّةَ أشخاص يتمتعون بحدسٍ قوي وبملكة إبصار أفعولاتهم الداخلية أو استشفافها على الأقل ويروون أنَّ بإمكانهم أيضاً إمعان النظر في قطعٍ من هذا الحلم في حالة اليقظة تحت شكل أفكارٍ مفاجئة

(١) راجع علم النفس المركب: «بنيان الخافية والخافية الجماعية»، ص ٥٥. (م)

(٢) الأمر الذي عبر عنه ديكارت بقوله: «النفس دائمة التفكير.» (رك)

Scanned with CamScanner

وتخيلاتٍ وأجزاء صغيرةٍ متناهية لا تطاوع عملية ضبطها في مجموعٍ متصل.[1]
ويمكننا أيضاً أن نبيّن بأنَّ هذه النتف تكشف عن نفسها في الحياة النهارية عبر أعراض واضطرابات في النطق وهفواتٍ وأن هذه الاضطرابات لها جميعاً فيما بينها علاقات سرِّية مثلها مثل جذورٍ جوفية متشابكة .

محتويات الخافية

وبما أن محتويات الخافية ليست في متناولنا على نحوٍ مباشر شأن معطيات الوعي فإن علينا أن نوزعها على مستويات ثلاثة :

١ـ المحتويات الخافية المندركة .
٢ـ المحتويات الخافية المندركة بالواسطة .
٣ـ المحتويات الخافية غير المندركة .

١ـ **المحتويات الخافيّة المندركة** تتشكل من عناصر نستطيع وعيها على الرغم من أن الأمر عموماً ليس كذلك . فنحن مثلاً لا نملك وعياً واضحاً عن وضع جسمنا في المكان وبعض حركاتنا وتعابير وجهنا ، الخ على الرغم من أن لا شيء يمنعنا من ذلك (غير أن بعض الأشخاص يجدون صعوبةً في الأمر أكثر من سواهم[2] .

ثمَّة أيضاً جمهرة من الأشياء التي ننجزها على نحوٍ خافٍ . فإذا سألتكم مثلاً عن عدد الأشخاص الذين صادفتموهم اليوم في الطريق أو أولئك الذين تجنّبتموهم فلن تقدروا على إجابتي وذلك أنكم لم تعيروهم انتباهاً وبالتالي لن تتذكروهم . وكل منا يعرف حالة الشخص الذي ينتضي ساعته من جيبه فينظر إليها ثمَّ يعيدها وإذا ما سأله أحدٌ فيما بعد كم الساعة اضطر مجدداً إلى استشارة ساعته فاعلاً كلَّ تلك الحركات من حيث لا يدري دون أن يحيط علماً بالوقت المنقضي . زد على ذلك أن **التوجه في الزمن** يكشف عن **استمرارية خافيّة** .فنحن نملك غالباً حساً دقيقاً بالزمن المنقضي حتى إبان النوم دون مؤازرةٍ من أية وسيلة . يمكننا مثلاً بفضل التنويم إجراء التجربة التالية : نوحي إلى الشخص المنوَّم بإحصاء عدد الثواني بدءاً من لحظةٍ معينة ، فيعمد الفاعل وقد استيقظ إلى عدِّها دون علمٍ منه بالأمر ؛

(١) Léon Daudet, **Le Rêve éveillé.**

(٢) يلعب مفهوم الصورة الجسمية ، الساكنة والزخمية ، المتضمنة في كل منا دوراً عظيماً في الصحة والمرض . (رك)

Scanned with CamScanner

وإذا ما أعدناه من وقتٍ لآخر إلى النوم وسألناه كم مضى من الثواني فسيكون بمستطاعه إعطاؤنا الرقم بدقة !

ثمَّة أيضاً من جهة أخرى كتلة أغراض حياتنا وأحداثها التي طواها النسيان على نحوٍ طبيعي والتي لا نعيها في لحظة محددة لكننا قادرون على إدراكها في كل آن شريطة أن نصب انتباهنا عليها .

٢- **المحتويات الخافية المندركة بالواسطة** هي أشدُّ عناداً من سابقتها . فلقد اتفق لكم بالتأكيد أن عرفتم اسم شخص دون أن تتمكنوا من العثور عليه ؛ لقد كان كما يُقال «على طرف لسانكم» ومع ذلك لم تتوصلوا إلى لفظه :لقد كان عصيّاً مؤقتاً غير أنكم تتمكنون ببعض الحيل الصغيرة من اصطياد الاسم الذي فاتكم . هناك أيضاً من يعمد إلى عقد منديله كيما يتذكّر عندما يراه أنه نسي هذا الشيء أو ذاك ممَّا يشكل ذكرى وسيطة .ويمكن أن تحدث أيضاً وقائع مماثلة على نحوٍ تلقائي . هاكم المثل التالي : كان نفساني يتنزَّه في الريف فمرَّ أمام حظيرة . تابع نزهته غير أنه فجأةً وجد نفسه محاصراً بذكريات طفولية متأصلة إلى حدٍّ أنها استحوذت على انتباهه ؛ كان ذلك مفاجأة له فتساءل : «لماذا رجعت فجأةً بفكري إلى تلك الحقبة ؟ منذ متى بدأ ذلك ؟» وبالعودة في مجرى أفكاره خطر له أن ذكريات الطفولة بدأت تنبجس في نفسه قبل خمس ثوانٍ من مروره أمام الحظيرة . فعاد حينئذٍ أدراجه بحثاً عن الباعث الممكن لذكرياته . وعندما اقترب مجدداً من الحظيرة شمَّ رائحة خاصة جداً هي رائحة قطيع البط التي ارتبطت بسني شبابه وتركت فيه انطباعها .فلمَّا مرَّ للمرَّة الأولى تنشَّقها دون أن يلاحظها ؛ بيدَ أن الرائحة كانت مع ذلك قد أثّرت على خافيته التي راحت منذئذٍ تسترجع ذكريات عمر الشباب . إذاً كان الأمر يتعلق بمحتوياتٍ مندركة بالواسطة .

٣- فلننتقل الآن إلى **المحتويات الخافية غير المندركة** . يمكن ان يبلغ وجودها عدداً غير محدَّد ذلك أننا نجهل الاتِّساع الذي يمكن للخافية ان تبلغه وغنى محتوياتها الممكن . نحن نعلم بأن بعض الآثار التي بوسعنا حقاً تذكّرها خافيةٌ فينا كذكريات الحياة الطفولية ، فنتذكر بالتأكيد جمهرة من حوادث عمر الطفولة لكننا بالمقابل ننسى الكثير منها : ففي حدود الخمس أو الست سنوات وربمَّا بلغ الأمر عند بعض الأشخاص حدود السنوات العشر بل الخمس عشرة سنة تكون قد رانت على

Scanned with CamScanner

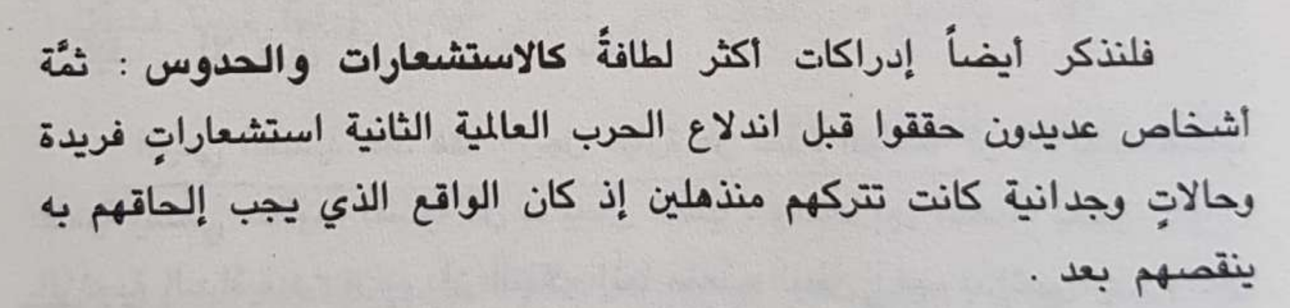
سنوات الطفولة ظلمةٌ كثيفة . ثمّة أشخاصٌ مثل سپيتلر قادرون على تذكُّر أحلام تعود إلى سنتهم الثانية ؛ولكن حتى لو عادت ذكريات طفولتهم إلى عمرٍ فتيٍ جداً فالشرائح الطويلة من وجودهم المعاش التي تتخلَّلها قد اضمحلَّت بالكلية . إن **الوعي الطفولي منظوراً إليه مع تقهقر الزمن اشبه بارخبيل من الصور المعزولة يبرز بين الأمواج .**

ثمَّة ايضاً لدى الإنسان أعراض عصابية تدل على وجود محتويات خافية لا يستطيع الفاعل تحديدها ولا التعريف بها .

وثمَّة أيضاً حالات يكون المرء فريستها وعواطف وأمزجة ذات نبرة معينة إنما يصعب وصفها ذلك أنها تضرب بجذورها في أفلاك لا يطالها الوعي .

ويوجد في الخافية فضلاً عن هذا أحداث غير مندركة إطلاقاً في لحظةٍ معينة لسبب واحدٍ هو أنها لم تبلغ أبداً إلى الواعية ؛ الأفكار المبدعة مثلاً التي تنبجس في عقلنا انبجاساً غير متوقع والتي لم تكن في السابق بأيٍّ شكل من الأشكال منضمَّةً إلى واعيتنا ؛ لقد كنا منقطعين عن العلاقات معها ولذلك فإنها كانت تغفو منغلقةً في أغلفة الخافية نظير شقيقاتها المستمرأت في ذلك .





فلنذكر أيضاً إدراكات أكثر لطافةً **كالاستشعارات والحدوس** : ثمَّة أشخاص عديدون حققوا قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية استشعاراتٍ فريدة وحالاتٍ وجدانية كانت تتركهم منذهلين إذ كان الواقع الذي يجب إلحاقهم به ينقصهم بعد .

الوعي وطبيعته

الوعي بطبيعته ضربٌ من طبقة سطحية ، أدمة تطفو على الخافية التي تمتد في الأعماق مثل محيط شاسع ذي اتصالية كاملة .لقد استشعر كنط ذلك فكانت الخافية بالنسبة إليه موطن التصورات المعتمة التي تشكل نصف عالم . فإذا ما قرنَّا الواعية إلى الخافية أحطنا عندئذٍ تقريباً بميدان علم النفس . إن الوعي يتميَّز بشيءٍ من الضيق ؛ يُقال : **ضيق وعي** فلان إشارةً إلى كونه لا يستطيع الإحاطة في آنٍ واحد إلاّ بعددٍ ضئيلٍ من التصورات .لقد مرَّت بي حالةٌ تشهد تماماً

Scanned with CamScanner

على هذا الواقع :كانت معاودة تشكو من عصابٍ هجاسيٍ ركبت فيه رأسها مصرةً على عزف مقطوعتين موسيقيتين في آن واحد وقد أعيت نفسها في ذلك التمرين حتى أغمي عليها . هذه حالةٌ تبيّن مبلغ عجز وعينا عن الإمساك بتصورين في آنٍ واحد .

الوعي ضربٌ من عضوٍ إدراكيٍ توجُّهي متَّجهٍ في خطه الأول نحو العالم المحيط . وهو يتموقع في نصفي الكرة المخية التي يشكل إحدى وظائفها في حين أن باقي المنظومة النفسية لا يتموقع على الأرجح في النصفين المخيين بل في مكانٍ آخر . وأفضل ما يقنعنا بذلك هو التحدث إلى البدائيين . فقد أجريت ذات مرة حديثاً مع رئيس قبيلة من هنود البويبلو كنت اكتسبت ثقته بقولي له إني أيضاً من قبيلة تعنى بتربية الحيوان بيدَ أنها لا تعيش في القارة الأمريكية حينئذٍ كلّمني بقلبٍ منفتح عن خصائص الأمريكيين وقال لي أشياء غاية في التشويق تنطبق أيضاً على الأوروبيين وهاكم ذروة حديثنا :

- الأمريكيون مجانين !
- ولم ذلك ؟
- إنهم يزعمون التفكير برأسهم !
- أليس هذا هو واقع الحال ؟
- كيف ، ألا ترى أن المرء يفكر بقلبه !

الوعي الشديد عند هذا الرجل عبارة عن شدَّة العاطفة أو أنه بمصطلحاتٍ علمية يسمّي منظومةً نفسيةً كل ما يمسُّ القلب . وهناك بين أعضاء بعض القبائل الزنجية البدائية من يزعم بأن التفكير إنما مقعدُه البطن ؛ فهم بدائيون وغير واعين إلى حدٍّ أن النشاط النفسي الذي يصيب أحشاءهم هو وحده الذي يبلغ الوعي مشكِّلاً بذلك عنصراً في المنظومة النفسية . وهكذا عندما يثقل شيء على معدتهم أو «يدب على كبدهم» فيسبب لهم بعض الاضطرابات الوظائفية في البطن يلاحظون ذلك ويستنتجون بأن المنظومة النفسية إنما تتموقع هناك في البطن .ذلك هو أيضاً في أساس بعض مناهج التأمل الهندوسية المثيرة للفضول التي تعرض سلسلةً من درجاتٍ تبدأ في منطقة المثانة (إن أولى التجليّات النفسية قد تمَّ إدراكها في علاقتها باضطرابات في المثانة) وتتسنم ذروتها في الراس بعد أن تعبرَ مراحل المعدة والقلب والرقبة . أما عندنا فالوعي يتموقع في المخ . بيدَ أن الوعي لا يشكِّل وحده كل

المنظومة النفسية فهذه الأخيرة هي بالأصل وظيفة في النظام العصبي المتوزِّع على الجسم كلِّه والذي لم يكن مركزه من وجهة نظر انسالية في الرأس بل في البطن عند التجمّعات العقدية اللمفاوية . وهذه الأخيرة تشكِّل دون ريب قاعدة الكيان النفسي الأصلية بينما ساهم نصفا الكرة المخية أساساً في صياغة الوعي الذي يشير تموقعه من الآن أنه يشكِّل وظيفة إدراكية وعضو إدراك .فالأعصاب الحواسية الرئيسية تؤدي جميعاً إلى المخ الذي فيه تُسجَّل وتتجمّع كل الاتصالات المرسلة عبر صفحة الحواس . وبالتالي فإن ما يمكن فهمه تاريخياً هو أن علم النفس بما هو علم تعود بداياته إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر قد بدأ يهتم بإدراكات الحواس وأن النفسانيين قد بدأوا باشتقاق الوعي من الحواس كما لو أنه لم يكن يتألَّف إلَّا من معطياتٍ حواسية .لقد قام علم النفس العلمي في بداياته على الأحاسيس ودام ذلك كما نعلم حتى منتصف القرن التاسع عشر بل إن التصور المركزي الذي نجم عنه ، أي أسبقية الحواس والوعي ، قد استمرَّ سائداً حتى أيامنا على نحوٍ ما في أعمال فرويد مثلاً الذي تقوم نظريته على استخلاص الخافية من الواعية . إن الأمور تظهر لنا في الواقع بصورةٍ مختلفةٍ اختلافاً جوهرياً فالوظائف النفسية الأصلية بما هي متعاضدة على نحووثيق مع الجهاز العصبي الودي تجعلني أقول بطيبة خاطر إن العنصر الأول بالطبع هو الخافية التي ترتفع الواعية فوقها شيئاً فشيئاً .

الأنا محور الوعي

ما الوعي ؟ وعي المرء هو إدراكه العالم الخارجي وتعرُّفه إليه وفي الوقت نفسه إدراكه لذاته وتعرُّفه إليها في علاقاتها بهذا العالم الخارجي . وليس ههنا مقام الكلام عن هذا الأخير ذلك أن الإنسان هو الغرض الخاص لعلم النفس . إن رؤية الإنسان لنفسه في علاقاتها بالعالم الخارجي إنما تعني تعرُّفه إلى ذاته في محيطها .فما هي هذه «الذات» ؟ إنها أولاً **الأنا** محور الوعي . فعندما لا يكون غرض ما قابلاً للانضمام إلى الأنا أو لا يكون ثمة جسرٌ يصل الغرض بالأنا فإن الغرض يكون حينئذ خافياً أي أنه بالنسبة إلى الأنا بمثابة غير الموجود . ويمكننا بالتالي تحديد الوعي كعلاقة نفسية بواقعٍ مركزيٍ يدعى الأنا . **ولكن ما هي الأنا ؟ إنها مقدارٌ مركَّبٌ للغاية ، شيء ما أشبه بتجميعٍ للمعطيات**



والأحساسيس وتكويم لها ينطوي في المقام الأول على إدراك الوضعية المكانية التي يشغلها الجسم ووضعية الحرارة والبرودة والجوع الخ ثمَّ إدراك الحالات الوجدانية (هل أنا مثار أم هادىء ، هل يسرُّني هذا الشيء أم يزعجني ؟ الخ) إضافةً إلى أن الأنا تنطوي على كمٍ هائلٍ من الذكريات : فإذا استيقظت غداً صباحاً دون أي ذكرى فقد لا أعرف نفسي . لذا لابدَّ لي من كنز يكون قيدَ تصرُّفي ، رأسمالٍ من الذكريات هي بمثابة صلاتٍ أو ملاحظاتٍ تخبرني بما جرى وبدون هذا كلّه لن يكون ثمَّة وعي . ومع ذلك يبدو بأن **الحالة الوجدانية** هي العنصر الجوهري : لأننا إنما نعي أنفسنا كأشد ما يكون الوعي وندرك ذواتنا كأشد ما يكون الإدراك عندما نكون فريسة وجدانٍ ما . ومن هنا لا يستعصي علينا إثبات الاعتقاد بأن الوعي الأصلي قد رأى النور إبان لبوسٍ وجداني حيث قد يكون في وسع لطمةٍ على الوجه مثلاً أن تكون في الأصل أولى تفكُّرات الفرد في نفسه !



الوجدان مبعث الوعي[1]

ثمَّة أفرادٌ عديدون لم يبلغوا إلَّا إلى وعيٍ جزئي فنحن نصادف حتى بين الأوروبيين الأكثر تمدُّناً عدداً عظيماً من الأفراد غير الواعين على نحوٍ سوي يمضون جزءاً كبيراً من حياتهم بصورةٍ غير واعية . إنهم يعلمون ما يصدُر عنهم لكنهم لا يتصورون ما يعملون وما يقولون إلَّا تصوراً ناقصاً وهم عاجزون عن استخلاص مغزى أعمالهم ، فما الذي يجعلهم بالتالي واعين ؟ فليفاجئهم أمرٌ غير متوقع أو ليصطدموا بعرفٍ ما أو بعادةٍ ما ثابتين ثبوتاً راسخاً وليؤدِ هذا الاصطدام إلى عواقب لعينة ترَ النور ينبعث في عقلهم مضيئاً بواعث عملهم فينتفضون وقد أصبحوا واعين . إن كثيرين من الناس لا يبلغون الوعي إلا على هذه الشاكلة ذلك أن أناهم لا تكون واعية وعياً شديداً إلَّا خلال لحظات وجدانية من هذا النوع . كذلك فإن الحيوانات أيضاً تكتسب تعاليمها خاصةً من الحالات الوجدانية . فعندما يأكل حيوانٌ شيئاً ما سائغاً أو عندما يتلقى ضربة يبقى لديه منهما انطباع مؤثر يخلق بامتزاجه مع الخبرات الأخرى من الفئة عينها بعضَ الاستمرارية . لذا يجب أن نعتبر بأن للحيوانات أيضاً بمعنىً ما أنا . وكما ترون فإن هذه الأنا السابقة

(١) راجع علم النفس المركب : «العامل الوجداني» ، ص ١١٧ . (م)

Scanned with CamScanner

شرطٌ لابدَّ منه لكل وعي . وهامٌ جداً من هذا الجانب أن يكون المرء أنانياً أو محورياً لكي يعي ذاته . الأنانية هي إلى حدٍ ما ضرورةٌ خالصة فقد لا نستطيع بدون هذا الجموح الأساسي القوي ضبط وعينا وقد نقع مجدَّداً في حالةٍ غسقية . نحن لا نكوِّن فكرةً عن ذلك إلَّا بصعوبة ولكن أمعنوا النظر في إنسان بدائي تتحققون أن شيئاً لا يجري في نفسه ما دام غير مستكدٍ بحدثٍ ما : إنه يبقى جالساً في المكان عينه طوال ساعات في حالةٍ من السكونية التامة ؛ فإذا ما سألته عما يفكر فيه شعر بالإهانة لأنَّ التفكير في نظره وقف على المجانين! ليس ثمَّة إذن مجال للافتراض بأن فكرةً ما تعتمل في نفسه ومع ذلك فإن حالته أبعد ما تكون عن الراحة المطلقة لأن الخافية تمارس في داخله نشاطاً عارماً يمكن أن تنبثق منه أفكار فجائية شيِّقة فالبدائي سيدٌ في «فن» استنطاق خافيته وإعارتها أذناً صاغية .

وظائف الوعي : التوجّه في الفضاء الخارجي

يستخدم الوعي عضو التوجه بعضَ الوظائف **لكي يهتدي في الفضاء الخارجي أو في بيئته** (ويقع على عاتقه أيضاً التوجه في الفضاء الداخلي وستكون لنا عودة إلى ذلك) . ففي الفضاء الخارجي تنتصب أغراضٌ مختلفة عنا في الظاهر . فنحن لكي نعاينَ أغراض هذا العالم ونهتدي فيه نعتمد اعتماداً خاصاً على الانطباعات الحواسية . لن أتحدث فيما يلي عن هذه الانطباعات واحدةً فواحدة بل أجملها تحت عنوان «الإحساس» الذي يشملها جميعاً .

وظيفة الإحساس

يدلنا الإحساس مثلاً عما إذا كان الفضاء الذي نقيم فيه فارغاً أو أنَّ فيه غرضاً ما وعما إذا كان هذا الأخير ساكناً أو متحرِّكاً . الإحساس بما هو وظيفة نفسية **لا عقليٌ**[1] في جوهره . لماذا ؟ سوف نرى إلى ذلك . إذا ما أردتم إدراك،

(١) الوظائف العقلية والوظائف اللا عقلية تتناق بالتبادل جزئياً في ادائها المتعاقب . إن إطلاق الأحكام ، أحكام الفكر والعاطفة إنما يعني الانغلاق دون معطيات الواقع (الإحساس) أو معطيات الصيرورة (الحدس) . وبالعكس فإنها تغتني أيضاً على نحوٍ متبادل . (رك)

Scanned with CamScanner

إحساسٍ بقدر ما يمكن من العفوية والصفاء فإن عليكم أن تتجرَّدوا من كل توقعٍ يمتُّ إلى ما تزمعون إدراكه لأن هذا التوقع قد يسيء من الآن في معظم الأحوال إلى الإحساس المنتظر . إذا كنتم ترغبون في استدراك إحساسٍ فقط ليس غير فإن عليكم أن تبعدوا كل ما من شأنه أن يعكِّر ذلك الاستدراك . وعليكم أن تكونوا أعيناً يقظة وآذاناً صاغية وألَّا تفعلوا شيئاً ولا تسمحوا بأقلّ تدخل : حذار مثلاً من التفكير في أصل الإثارة الحواسية . ليس لكم أن تعرفوا شيئاً عن كل ذلك وإلَّا فقد يغدو إدراككم مصطنعاً ومشوَّهاً بل مقموعاً . فعندما يأسر مشهدٌ ما انتباهكم لا يخطر لكم أن تصغوا إليه والعكس صحيح أيضاً . فالإحساس لكي يكون صافياً حياً عليه ألَّا يتضمَّن أيَّ حكم أو يخضع لتأثيرٍ أو لتوجيه بل يجب أن يكون لا عقلياً .

وظيفة الفكر Thinking

وتفيدنا وظيفة أخرى بعد أن يكون الإحساس قد تحقَّق من وجود غرضٍ في الفضاء الذي نحن فيه عن **ماهية ذلك الغرض** . هذا الفعل ، الوظيفة المعرفية ، هو على مستوى أولي ما نسمِّيه **الفكر** . فالفكر وظيفة عقلية تحكم وتستثني ؛ إنها مهمَّته الأولية لأن عليه أن يحدِّد ماهية الشيء . عليه أن يضبط نوعيته ويميِّزه عمَّا يغايره الأمر الذي هو إجراء حكمي ووظيفة عقلية .

وظيفة الحدس Intuition

وما أن نتحقَّق من وجود الغرض في محيطنا ونعلم أنه هذا أو ذاك فإن استعلاماتنا تتحدَّد ايضاً بالانطباع المستشعَر في اللحظة الحاضرة . غيرَ أن لهذا المعطى الراهن المؤقت ماضياً ومستقبلاً فقد كان وسوف يصير . إنه يمثل إذاً في هذه اللحظة طوراً من سيرورة استحالية ذلك أن لا شيء في النهاية يدوم فالكل يتحوَّل . ثم إن الشيء الذي تحققنا من وجوده ينطوي على سماتٍ تشير إلى الماضي وتنبيء بالمستقبل .ومع ذلك فإن هذه السماتَ غير مندمجة في شكله الراهن بل هي أشبه بمناخ يطفو ويطوّقه . يمكن للحواس هنا بالتأكيد أن تقدِّم لنا بعض الفائدة والفكر قد يستسلم لموضوع المعاينات ولكن يوجد من جهة أخرى مجال التخمينات

Scanned with CamScanner

والاستشعارات و «الانطباعات المبهمة» كما نسمّيها . إننا نملك ضرباً من شمّ لأصل الأشياء ونستشعر تطورها وصيرورتها المستقبلية وذلك هو فلك **الحدس** .والحدس وظيفة قلّما يستخدمها المرء عادةً ما دام يعيش حياةً منتظمة مرتبطاً بعملٍ نمطي بين أربعة جدران . أما إذا كان يهتمُّ للبورصة أو وجد نفسه في أفريقيا الوسطى فسوف يستخدم «حدوسه» كأي شيءٍ آخر .فليس بإمكانكم مثلاً أن تضبطوا على نحو حسابي ماإذا كنتم ستجدون أنفسكم عند منعطف دغلٍ في مواجهة نمرٍ أو كركدن بيدَ أن لكم حدساً بذلك وهذا ما سوف ينقذ ربّما حياتكم . إن الناس المعرَّضين للظروف الطبيعية يستخدمون الحدس على نحو واسع . ويستخدمه أيضاً كل أولئك الذين يغامرون بشيءٍ ما في ميدانٍ مجهول ، أولئك الرواد بشكلٍ أو بآخر كالمبتكرين والقضاة الخ . فحالما يجد المرء نفسه إزاء ظروف جديدة ما تزال نقيةً خالية من المفاهيم والقيم الموضوعة يصبح مرهوناً بملكة الحدس هذه .

وظيفة العاطفة

Feeling

لايجوز أن يغيب عن نظرنا بعد أن عاينّا الأشياء في موضوعيّتها بأنها ليست وحدها في الكون فنحن أيضاً متضمنون فيه . ثمّة صلات وروابط تمتدُّ من الشيء إليَّ أو مني إلى الشيء وأجد نفسي بشكلٍ أو بآخر منفعلاً إزاء كل غرض لذيذ أو كريه ، جاذب أو منفِّر ، سواء رغبته أو كرهته فذلك هو فلك العاطفة . إن العاطفة تملي عليَّ القيمةَ التي يتمتّع بها غرضٌ ما بإزائي . إنها وظيفةٌ عقلية تصوغ حكماً دقيقاً في حين أن الحدسَ ذلك الإدراك العفوي للإمكانات الغامضة هو وظيفة **لا عقلية** .

التوجّه في الفضاء النفسي

إننا ونحن مجهزون بهذه الوظائف الأربع التي تفيدنا فيما إذا كان شيءٌ ما موجوداً وعن ماهيته وعن مصادره ومآله وعمّا يمثله بالتالي بالنسبة إلينا ، نتوجَّه إذاك في فضائنا النفسي . وعلى هذا النحو أيضاً تتحدَّد ضروروات توجُّهنا[1] .

(١) لماذا يتعلق الأمر بأربع وظائف تحديداً وليس بثلاث أو بخمس مثلاً ؟ ثمّة واقع اختباري : فيما يتعلق بتوجهنا في المكان حيث نعتمد أربع نقاط رئيسية أو من وجهة نظر نفسانية ـ يث نستخدم

Scanned with CamScanner

نستطيع عموماً استخدام هذه الوظائف الأربع كما يحلو لنا فأريد أن أنظر وألاحظ وأسمع (إحساس) واريد أن أعرف ما هو هذا الشيء (فكر) وما هي قيمته بالنسبة إليَّ (عاطفة) الخ .ولكننا نعرف أيضاً بالخبرة أن هذه الوظائف عينها تستطيع أن تؤدي فعلها على نحو حِراكي automatiqueكأن ينبجس إحساسٌ مثلاً فجأةً في قلب غفوتنا خارجاً عن كلِّ رغبة منَّا لابل فارضاً نفسه علينا على مضض منَّا . فإذا مادوَّت في الخارج طلقة مدفع ولم يكن شيءٌ ما قد هيَّأني لسماعها فإن الانفجار يصمُّ أذنيَّ وأنا أدركها دون إرادةٍ مني[1] .

لا تمارس هذه الوظائف كلها فعلها في الواعية وحسب ولكن أيضاً في الخافية .فإذا مادوَّى انفجار خلال نومي فقد يكون بإمكاني إدراكه ومزجه بحلمٍ ما لأني حينذاك أكون منفعلاً على نحوٍ تام . كذلك فإن علاقاتٍ وأحكاماً فكرية يمكن أن تتشكَّل في الخافية خلال نومي وتجري فيها بمعزلٍ عن إرادتي . إذاً فإن وظائفنا الأولية الأربع ليست فقط عدَّة الواعية . إنها بحدِّ ذاتها وظائف نفسية جديرة بأن تمارس فعلها دون مشاركة الوعي[2] .

الطاقة النوعية

إن كلًّا من هذه الوظائف مجهزٌ بطاقة نوعية ،فثمَّة توترٌ طاقي ملازمٌ لها يترأس نشاطها وهناك بالتأكيد هامش واسع من التلوينات الفردية . ولعلَّ الحالة المثالية هي تلك التي تكون فيها الوظائف الأربع مزوَّدةً بالمصادر الطاقية عينها فقد تمارس أربعتها حينئذٍ فعلها بنسب متساوية . هناك درجات نشاطٍ متفاوتةٌ جداً يمكن من جهتها أن تكون في أساس الاضطرابات . بذا لا يجوز ولا يحق لنا أن نكتفي بالتحقق من وجود الشيء وحسب بل علينا أيضاً أن نتعلَّم ما هو هذا الشيء ونحس بالقيمة التي يمثلها بالنسبة لنا وأن نستشفَّ ونتقصى مصدره ومآله . إذا

وظائفنا الأربع ؛ فأن الناس يستخدمون دائماً هذا العدد عينه للمعايير الأربعة . إنه يمثل الحد الأدنى الذي نحن متكيفون معه بنيوياً . (رك)

(١) «إن حواسنا منفتحة تلقائياً على العالم الخارجي» (بودان) . (رك)

(٢) وهكذا فإن الوعي لا يملك أن يوجد بدون أنا كما سبق أن قيل أعلاه ؛ بيد أن الوظائف الأولية الأربع يمكن أن توجد بدون الوعي . (رك)

Scanned with CamScanner

كانت واحدة من هذه الوظائف غير متسخدمة فإنها تجري وتضيع في الخافية وتستثير عندئذٍ تنشيطاً قليل الطبيعية فيها ذلك أن الارتقاء الإنساني قد بلغ مرحلةً تستطيع فيها هذه الوظائف بل عليها أن تؤدي فعلها في الوعي .فثمَّة عند الأكثرين من الأشخاص واحدة من هذه الوظائف محقَّقةٌ ومطوَّرة ومتمايزة بعناية على حساب الوظائف الأخرى التي تقبع في حالة لا واعية إلى حدٍ ما الأمر الذي يستبعث عند هؤلاء الأفراد اتجاهاً أحادياً فريداً . ومع ذلك فلنشر بأنه من غيرِ الممكن أن نجعل بالتتالي كل هذه الوظائف واعيةً إلى درجةٍ رفيعة وأن نميِّزها كلَّها مجابهةً . إننا عموماً نمنح تفضلينا لواحدةٍ منها وعلى الأرجح لأن مؤهلاتنا وتمايزنا المخِّي أو الطاقة التي نتمتَّع بها لا تكفي لإمداد الوظائف الأربع بالتساوي دفعةً واحدة . وينجم عن هذا تمايزات فردية ونوعية في المنظومة النفسية البشرية .

دور الانتباه والإدارة

يمكن للطاقة الخاصة الملازمة لواحدةٍ عاملةٍ من هذه الوظائف أن تتضاعف عشرات المرات بفعل ما نسمِّيه الانتباه والإرادة . إن الانتباه لا يشكل سوى مظهر للإرادة . فنحن نستطيع أن نزيد الطاقة النوعية لوظيفةٍ بفعلٍ إرادي يتيح لنا توجيهها واستمناعها بتهذيب بعضٍ من نبراتها على حساب بعضها الآخر . فهكذا نحن نصبُّ انتباهنا على حفلةٍ موسيقية فنصبح بكليتنا آذاناً وحسب . **إن الأنا مجهزةٌ بقدرةٍ وبقوة خلَّاقة هي فتحُ إنساني متأخر نسمِّيه الإرادة** .فالإرادة على الصعيد البدائي غير موجودة بعد والأنا غير مشكلَّه إلا بالغرائز والجمحات والرُجُع réactions ولا يُستدل بعد على أقل أثر من الإرادة . وعند الحيوان أيضاً نجد جمهرة من الغرائز ولكن كمّاً ضئيلاً من الإرادة . وهاكم مثالاً على ضعف الإرادة لاحظته بنفسي لدى البدائيين عندما أقمت بعض الوقت في أفريقيا الشرقية بين ظهراني قبيلةٍ بدائيةٍ جداً . كانوا حقاً أناساً طيبين أخلصوا لي المساعدة . فلقد اضطررت مرةً أن أبعث برسائل واحتجت لذلك إلى عدّاء . فالتمست رئيس القبيلة راجياً إياه أن يبعث إليَّ بأحدهم . وبعد قليلٍ أتاني شاب من أهالي المنطقة معلناً أنه العداء المطلوب . كانت المسافة تعادل مائةً وعشرين كيلومتراً يجب اجتيازها حتى آخر خط أوغندا الحديدي حيث يقيم الأقربون من البيض . سلَّمت العداء الرسائل

Scanned with CamScanner

في مغلفٍ وقلت له : «احمل هذه الرسائل إلى محطة الناس البيض في المكان الفلاني» . غير أن العداء لم يُحر جواباً وظل يرمقني بعينٍ سادرةٍ فارغة بل لم يمدَّ يده إلى المغلَّف فكررت القول : «خذ الرسائل واذهب» . لقد فهمني العدّاء بالتأكيد بيدَ أنه لم يتوصل إلى الانفعال بهذا الطلب الفريد . وفكرت في البداية أن الأمر لم يوافقه . في تلك اللحظة مرَّ زنجي صومالي فأخذ الرسائل من يديَّ وقال : «إنك تتصرَّف على نحو أخرق أحمق . سأريك كيف يتم هذا الأمر» . ثم أخذ سوطاً وتقدَّم مهدِّداً الرجل وقائلاً له : «أنت العداء خذ الرسائل وهي ذي العصا (لقد كان للعصا شقٌ تُدخل فيه الرسائل وكانت هي «عصا الساعي» التي تحمل الرسائل بها) وعليك أن تأخذها» . ثم طفق يحكُّ أضلاعه بالعصا ويهزُّه ويلعنه هو وأسلافه حتى الجيل السابع! وكان زنجيُّنا الصومالي يصرخ مومئاً لابن المنطقة من خلال رقصةٍ إلى ما كان عليه أن يفعل صائحاً به : «هكذا يجب عليك أن تعدو» . وراح الرجل يستيقظ شيئاً فشيئاً فلمعت عيناه وانفرجت أساريره أخيراً عن ابتسامةٍ عريضة أضاءت محيَّاه :لقد فهم . وإذا به ينطلق كقذيفة المدفع مجتازاً المائة والعشرين كيلومتراً حتى المحطة دون توقف . ماذا جرى ؟ليس باستطاعة البدائي أن يريد إذ يجب أن تحشد طاقاته أولاً . لقد وجب أن يُوضع الرجل في مزاج ساعي البريد ومن هنا مسوِّغ هذا الاحتفال وضرورته . فقد أيقظ فيه حالةً نفسيةً حولته إلى ساعي بريد . لقد حمل بعدئذٍ رسائل الرجل الأبيض بيديه ليصل بها إلى مآلها وكل أهل المنطقة الذين مرَّ بهم في طريقه كانوا يقولون : «هوذا البريد ، هوذا ساعي البريد» . لقد جعل ذلك منه رجل الساعة القدير» وأسبغ عليه كرامةً لم يكن ليحظى بها لولم يوضع منذ البداية وبدعمٍ قوي من ضربات السوط في الحالة الذهنية لحامل الرسائل وعلى أية حال فإنَّ إيحاءً قد جرى حقاً لأن أبناء تلك القبائل يحتاجون بشكلٍ ما لكي يباشروا أيَّ عملٍ كان أن ينوَّموا على الشكل الصحيح المطلوب . ويبينِّ هذا المثال أن العلاقة بين الكلمة والعمل ناقصة وأن وظيفة الإرادة غير مهذَّبة فيهم وأنهم لا يفعلون إلَّا بتأثير الأمزجة والوجدانات .لقد كنت أعجب في بداية إقامتي في أفريقيا من القسوة التي يُعامل بها أولئك المواطنون فالسوط كان عملةً رائجة وقد بدا لي ذلك في البداية أمراً نافلاً غير أني اضطررت إلى الاقتناع بضرورته ورحت منذئذٍ أحتفظ دائماً بسوطي المصنوع من جلد الكركدن على جانبي . ثم تعلَّمت أن أتصنَّع وجدانات لم أكن أستشعرها وأصرخ بملء حنجرتي وأضرب

Scanned with CamScanner

الأرض بقدميّ غضباً[1] فيجب على هذا النحو التعويض عن الإرادة الضعيفة لدى أولئك المواطنين . ويثبت هذا التصورَ العديدُ من الطقوس التي يسمح وحده بفهمها . فأبناء تلك البلاد يقيمون قبل مباشرتهم الصيد رقصاتٍ ويحاكون الصيد الذي يزمعون مباشرته : إنهم يتمِّمون «طقس الدخول» اللازم لكي يخلقوا في أنفسهم المزاج والحالة النفسية والانفعال الضروري للعمل المطلوب ولتركيز طاقتهم المشتتة واهتمامهم على العمل المزمع إنجازه أي لإيقاظ الإرادة فيما تفسح العودة من الصيد المجال أيضاً لاحتفالاتٍ معقدةٍ ومماثلة تتابع الهدف معكوساً وهو استرجاع المزاج السلمي اليومي .فعندما يقتل دنكا النيل الأبيض مثلاً فرس النهر يبقرون جوفه ويدخل فيه أحدهم ويجثو أمام العمود الفقري ويرفع إلى نفس فرس النهر التي يحسبها قابعةً في النخاع الشوكي الصلاة التالية التي لا مناص من التفّوه بها : «أيا فرس النهر العزيز الصالح إغفر لنا قتلك فنحن لم نفعل ذلك عن خبثٍ بل لأننا نقدِّر لحمك . لا تقل لإخوتك وأخواتك بأنك قد قُتلت ولكن قل لهم بأنك تحب البشر كثيراً . نحن أيضاً نحبك كثيراً ونأكلك بطيبة خاطر . أما إذا كنت مستاءً فعساك تقول لإخوانك وأخواتك أن يبتعدوا وعند ذاك لن نحصل على اللحم» . ولا مناص من التفوه بهذه الصلاة ثم تأتي بعد ذلك رقصات «طقس الخروج» التي تهدف إلى تحرير الصيادين من شهواتهم ومن مناخ الصيد الدموي وإعادتهم إلى فتور «الحياة اليومية» . وبعد ذلك يُعرض أمامنا مشهدٌ فريدٌ وكاشف للغاية عندما يقاتل المحاربون ويكون أحدهم قد جندل ضحية ـ الأمر الذي هو نادر جداً ذلك أن الصراعات هناك عموماً قلَّماً تكون دامية . يعود القاتل منتصراً كمحارب مقدام . ولكن بأية طريقة سيُكرَّم ؟ يمسك به أمثاله فيحبسونه ويخضعونه على مدى شهرين لنظامٍ نباتي لكي يتخلّى عن عادة إراقة الدماء!

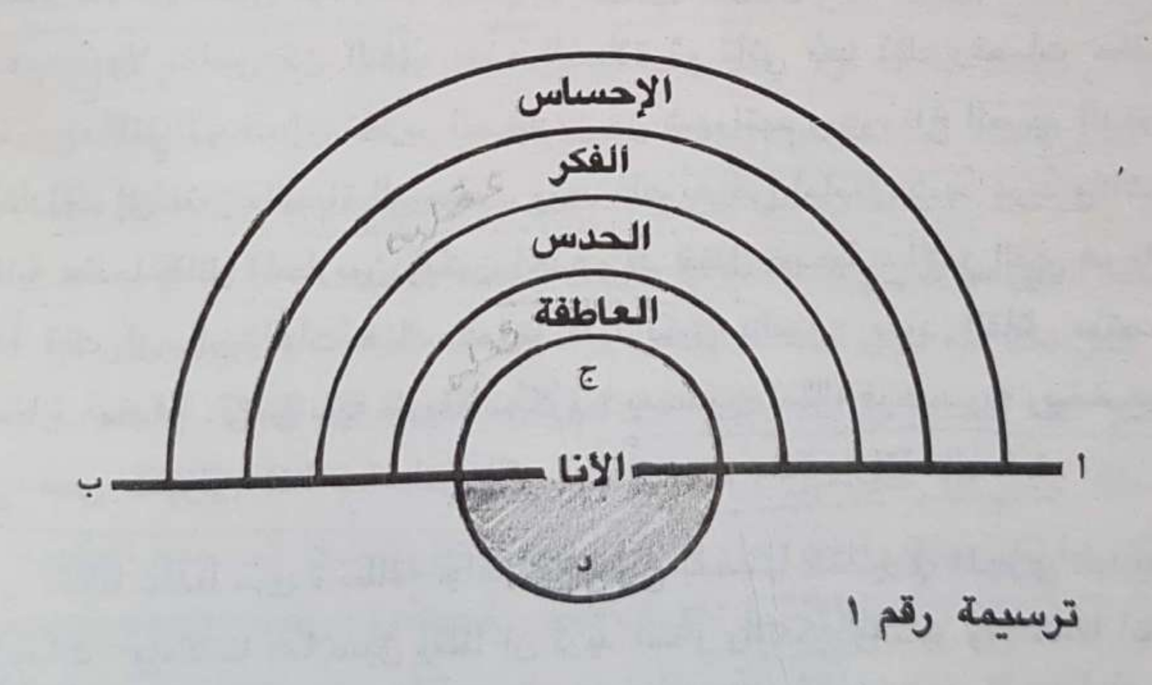
الأنا عندنا مزودةٌ بطاقةٍ جاهزة نستطيع بفضلها التأثير في المجرى الطبيعي للأحداث . بإمكاننا كما سبق وقلنا أن نريد النظر والتفكير والتنبؤ وبإمكاننا أيضاً أن نريد استشعار هذه العاطفة أو تلك . الإرادة ساحرةٌ عظيمة تضيف فضلاً عن هذا إلى مفاتنها مفارقة استحساس ذاتها وادِّعاء الحرية . نحن نستحس الشعور بالحرية حتى في الوقت الذي نستطيع فيه إثبات وجود أسبابٍ محددةٍ كان يجب أن تستتبع بكل ضرورةٍ هذه النتيجة أو تلك التي حققناها على نحوٍ دقيق ؛وعلى الرغم

Scanned with CamScanner

من هذا فإن الشعور بالحرية متوقِّد فينا ! ونحن نعلم فضلاً عن هذا بأن شيئاً لا يحصل دون سبب الأمر الذي يرغمنا على التفكير بأن الإرادة هي أيضاً لابدَّ لها من بعض المحدِّدات! ماذا إذن ؟ إذا كانت الإرادة متميزة بهذه الحرية السامية التي هي واقعها فذلك لأنها جزءٌ من تلك القوة الغامضة المبدعة التي تقبع فينا وتشكلنا وتبني كياننا وتحكم بدننا وتصون بنيانه أو تدمِّره وتخلق حيواتٍ جديدة . هذه الطاقة تبرز على نحوٍ ما في قلب الإرادة وحتى في فلك الواعية الإنسانية جالبةً معها هذا الشعور المطلقَ والسامي بحرية لا تفنى ولا تسمح بأن تُمسَّ أو يُضيَّق عليها بأي فلسفة كانت . نحن نستطيع استدعاء كل النظم الفلسفية التي نريد لكن الشعور بالحرية يبقى حاضراً في قلب الإنسان منيعاً على الهتك هازئاً بالنظم مشكلاً ربَّما معطىً فريداً في الطبيعة لكنه أصلي .

خلاصة

فلنحاول أن نلخص في ترسيمةٍ المعارف التي اكتسبناها إلى الآن عن الواعية.



ترسيمة رقم ١

تبدو الأنا في هذه الترسيمة التي تبرزها مختَرَقةً بخطٍ أ ـ ب يقسمها إلى جزئين .الجزء الأدنى من هذه الأنا موجود دون علم مني وليس لي وعي به (د) وثمَّة أشياء فيه أجهلها جهلاً تاماً . ونحن مرغمون على الافتراض بأن أجزاء لا تتجزأ

Scanned with CamScanner

من كليتنا النفسية ككائنٍ حي أي من ذاتنا تعيش حياةً معتمةً خافية (لاواعية)[1] وهذه تشغل المكان المتموضع تحت الخط أ ـ ب . أما الدائرة الأكثر مركزيةً فتمثل الأنا التي يمكن أن نرتِّب حولها وظائفها الأولية الأربع في نظامٍ يختلف اختلافاً طبيعياً من فردٍ لآخر . ولا تشكل هذه الترسيمة سوى اللحمة التي تنطبق عليها الأغلفة الشخصية المختلفة التي تحيط بالأنا . فإذا كنتم تعرفون شخصاً معرفةً سطحية تتلاءم وظائفه والاستعداد الذي مثلناه هنا فستعتقدون في البداية أنكم بإزاء كائن حواسي إحساسي ثم تكتشفون بعد قليل بأنه لا يتوقف عند المظهر الحواسي المتجلي للأشياء بل أنه يفكر في طبيعتها ومن بعدُ تتحققون رويداً رويداً بأن هذا الشخص يتمتَّع بحدسٍ وأخيراً بعاطفة . وقد لا يكون الأمر في مثل هذه الحال غير ذلك .بيدَ أن الضرورة الفريدة التي تجعل وظيفة عقلية تعقب وظيفةً لا عقلية لم يُعبَّر عنها بما يكفي في هذه الترسيمة . لكن ترسيماً آخر سيُبرز قيمتها إبرازاً أفضل ، ترسيماً يصدر صدوراً طبيعياً عن كون الواعية هي المرتبة التي ترأس توجهنا ، فإذا ما أردنا التوجه على سطح الأرض وجب علينا معرفة الجهات الأربع الرئيسية ؛»ومنذئذٍ لن يكون من باب قسر المقارنات أن نموقع في الفلك النفسي الوظائف الأربع التي تكشف لنا المظاهر الأربع الأساسية للأشياء في زوايا أفقنا الروحي الأربع»[2] .

لابدَّ من الملاحظة بأن هذه الوظائف تُظهر فيما بينها بعض التنافر الذي يؤخذ بعين الاعتبار من خلال ترتيبها الثنائي المتقابل . ولنا في الإحساس والحدس أوضح مثال على ذلك .ولسوف تدركون تعارضهما بإمعانكم النظر في الشكل الذي يتفحص فيه الأشياء فردٌ حواسي من جهة وآخر حدسيٌ من جهةٍ أخرى . إن

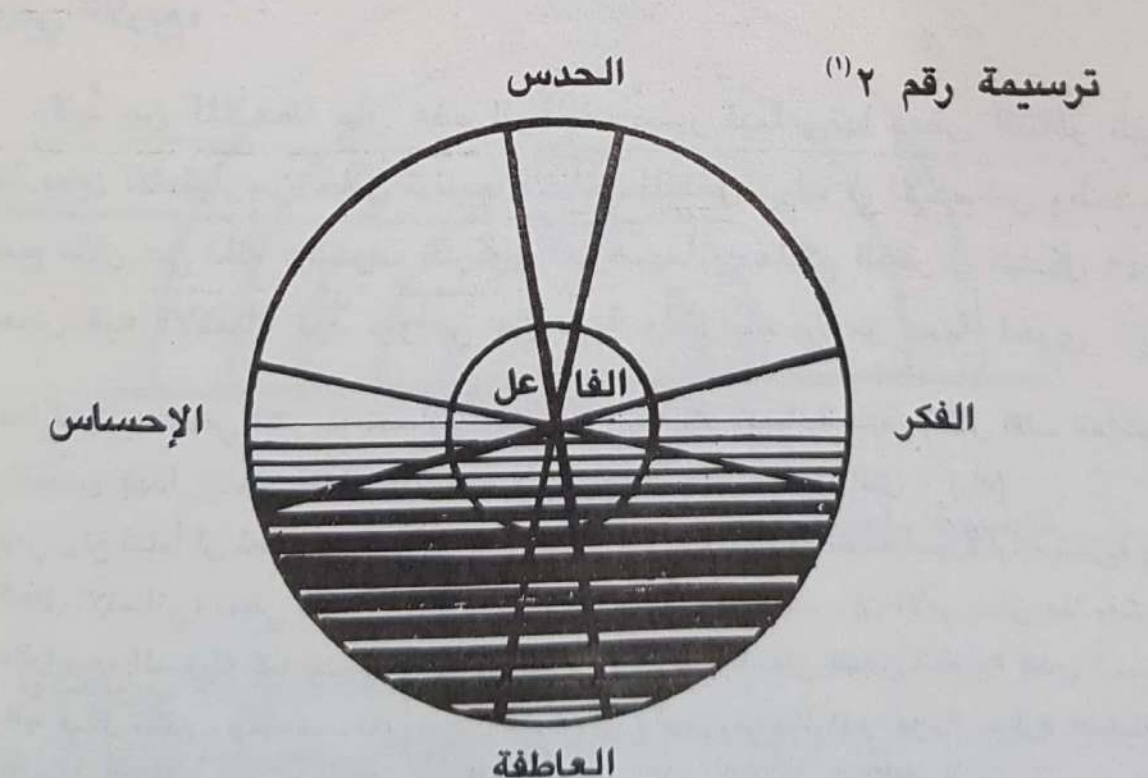
(١) هذا الترتيب منطقي أكثر منه نفساني . فثمة من وجهة نظر نفسانية صرف إمكان لقلب العاطفة والحدس فهذا الأخير يقابل هنا الوظيفة الرئيسية المرتَّبة آخر الكل . (رك)

(٢) يعي يونغ تماماً أن تصوره يستند إلى عين ثابتة (أي كما حدَّدها هو نفسه صورة أولية فطرية في العقل الإنساني) تعطي للنفس ارتكازها وصداها في نفس كل واحد . إن الأمر يتعلق هنا بفكرة «الرابوع» المسؤولة كما يبدو عن الوجود العالمي للصليب وللمعنى الفائق الطبيعة الذي أُسبغ عليه في كل مكان . ولنضف ، لكي نبرهن على أن يونغ ليس وحده الواقع تحت السيطرة الشاملة للأعيان الثابتة ، بأن علم النفس التقليدي الذي يتلذذ بالتفريق في الفلك الذهني بين حياة تصورية وانفعالية وفاعلة إنما يستند إلى عين ثابتة هي «الثالوث» ! (رك)

Scanned with CamScanner

استعداداتهما الأساسية تنكشف عبر نظراتهما .فالذي ينظر إلى الأشياء كما هي فيضبطها ويتشبث بها نوعاً ما بين محوريه البصريين هو الحواسي . أما الحدسي فيحيط بالأشياء ويلفُّها بلحظه المشعّ الملتمع (عينا غوته مثال رائعٌ على ذلك) . وبإمكانكم الاستنتاج ممَّا أقول بأن الحدسي لا يرى الأشياء أساساً ولا يدرك سوى جوّها فهو يتطلَّع إلى ما وراء الغرض ولا يعبأ بالنظر إليه لأنه قلَّما يشكل معطىً هاماً بالنسبة إليه . فما يثير فضول معرفته هو مناخ الأشياء وأصلها ومآلها لذلك فهو يتعلَّق بمجموعها منتظراً توضيحاتٍ عن طبيعتها الخاصة وحياتها النوعية والشكل الذي ينساب فيه هذا المجموع على سرير الأحداث وفي لحمة الصيرورة . وبإمكانكم فيما بعد أن تتحققوا لأول وهلة مما إذا كان شخصٌ ما ينتمي إلى النمط الحدسي أم لا تبعاً لما إذا كانت نظرته تبث أولاً تلك الهالة الفريدة ، ذلك الضربَ من الإشعاع الذي يجس الأغراض ويسعى إلى اختراق سرٍّ تعقُّدها وهذا هو الشيء الذي يفتقر إليه الحواسي كل الافتقار . إن الأمر لكذلك لأنكم إذا ما شئتم النظر إلى الأشياء كما هي فليس لكم أبداً أن تنظروا إلى جانبها ولا أن تركزوا انتباهكم على ما يحيط بها . عليكم أن تثبتوا نظركم على الأشياء وتبعدوا بقدر ما يمكنكم كل ما يكشف عن تداخلها المتبادل .

ترسيمة رقم ٢[1]



(١) الحدس ممثل في هذه الترسيمة على أنه الوظيفة الرئيسية . وإذا ما قلبنا الترسيمة ٩٠ درجة كل مرة حصلنا على الترسيمات التي تجعل من كل من الوظائف الأخرى الثلاث وظيفة رئيسية . (رك)

Scanned with CamScanner

ثمَّة تنافرٌ مماثل يقوم بين الفكر والعاطفة .فإذا ما شئتم التفكير على نحو صحيح بحسب المنطق السليم فلا يجوز لكن أن تنساقوا في الوقت عينه مع عاطفتكم لأن منطق القلب قد يجازف بجرِّ فكركم خارج دروبه الخاصة! إذا ما فكّرتم بأحيائية الضفدع فلا يجوز لكم أن تنساقوا في آنٍ معاً إلى القول : «يالجمال هذا الحيوان الصغير!» . عليكم في هذه الحال استثناء العاطفة من أفكاركم لذا يجب على الأغراض الخاضعة للتفكير أن تبقى مؤقتاً على هامش القيم حتى ولو كانت بحدٍّ ذاتها تشكل قيماً . إن معرفتي بما إذا كان شيء ذو قيمة أم لا بالنسبة إليَّ لا يدخل في مقولات الفكر بل في مقولات العاطفة . فالعاطفة تحتاز قيمة الشيء بالنسبة إلى الفاعل sujet احتيازاً لا يعمل الفكر ـ الذي يشكل وظيفةً حياديةً في هذا النقاش والذي قد يعيق المجال المحدَّد للوعي ـ سوى على إعاقته . ويجب باختصار إبعاد الوظيفة المعاكسة سواء تعلَّق الأمر بالفكر أو بالعاطفة . وقد رأينا أيضاً تنافي الحدس والإحساس . هذه الوظائف الأربع متعارضة إذاً مثنى مثنى وفي هذه الترسيمة يتموقع الفاعل في المركز ؛ إنه الأنا التي علينا أن نتمثَّلها مزوَّدة بطاقةٍ نوعية تسمَّى الإرادة ؛ وكل وظيفة بمفردها مزودة أيضاً بقسطٍ من الطاقة خاص بها أما توزيع الطاقة فهو الذي يجرُّ التنوعات الفردية التي ذكرنا أعلاه .

لاتشكل هذه التوسيعات طبعاً سوى ترسيماتٍ لا يمكننا بواسطتها شرح كل شيء بيدَ أن لها كمثل جداول التوجيه فائدتها في متاهة الوقائع النفسانية ذلك أن هذه الاختلافات تلعب دوراً عظيماً في علم النفس التطبيقي . ولا تظنوا بأني أصرف الوقت في فرز الناس إلى هذا الصنف أو ذاك كأن أقول : «هذا حدسي» أو «هو من النمط المفكر العقلي» . فالآخرون غالباً هم الذين يسألونني : «إلى أي نمطٍ ينتمي الشخص الفلاني ؟» وفي غالب الأحيان أجدني مضطراً للإجابة بأني لم أفكر في الأمر وهذا هو واقع الحال . وإنه لأسلوب عقيم إلى حد ما أن نضع للناس عناوين ونحشرهم في فئات . ومع ذلك فإذا ما وجد المرء نفسه بحضور العديد من الوثائق الإنسانية فسيحتاج إلى مبادىء نقدية تتيح له إدخال شيء من النظام عليها . ولهذا الموضوع أهمية خاصة عندما يكون الأشخاص الذين نتعامل معهم ذوي نفسية مضطربةٍ أو غامضة أو عندما يتطلب الأمر شرح شخصٍ لشخصٍ آخر . فإذا اتفق لكم مثلاً أن تشرحوا امرأةً لزوجها أو رجلاً لزوجه فستجدون عوناً كبيراً في

Scanned with CamScanner

حيازة معايير موضوعية . وبغير ذلك فإننا نبقى عند حدود عباراتٍ مثل : «يقول إن .. تقول إن .. الخ».[1]

التوجّه في الفضاء الداخلي[2]

فلننتقل الآن إلى ميدان آخر هو ميدان التوجه في الفضاء الداخلي وأقصد بذلك التوجه في قلب الأحداث النفسية التي تحصل حقاً فينا في قلب أنيتنا كما لو كان الفلك المركزي في ترسيمتنا مقعَّراً ومحطاً لأحداث طارئة ذات دلالة يجب أن نكوِّن فكرةً عنها .فالخط أ ـ ب (ترسيمة أ .ص ٧٤) يمثل عتبة الواعية وتمثل (ج) الجزء الواعي من الأنا و (د) جزءها الخافي عالمَ الظل . الأنا مظلمة في (د) ونكاد لا نميِّز فيها شيئاً بل نشكِّل فيها لغزاً لأنفسنا . نحن نعرف الجزء من أنيتنا المتمثل في (ج) ولكننا لا نعرف الجزء الذي تمثله (د) . وهذا هو ما يفسِّر أننا نكتشف دائماً شيئاً جديداً في أنفسنا . فكل سنةٍ تقريباً ينبعث فينا شيءٌ لم يخطر لنا قبلاً . نظن دائماً بأننا انتهينا من اكتشافنا لأنفسنا ونتابع مع ذلك الاكتشاف بأننا هذا الشيء أو ذاك محققِّين أحياناً استنتاجاتٍ مذهلة . وذلك يبيِّن بلا شك بأن هناك جزءاً خافياً من شخصيتنا وأنه في سبيله إلى التشكل الأمر الذي يعني بأننا خالدون في عدم الاكتمال وأننا ننمو ونتغيَّر . الشخصية المستقبلية التي سنصير إليها موجودةٌ منذ الآن لكنها مختبئة في الظل . والأنا هي بمعنى ما أشبه بشقٍ متحرِّك يتنقَّل تدريجياً على شريط . إن الإمكانيات المستقبلية للأنا مرتبطةٌ بظلِّها الحاضر . فنحن نعرف ما كنا عليه لكننا نجهل ما سنكون عليه .

(١) «عند أي تعيين أو تصنيف توقعنا يجب دائماً عدم التسليم لها بغير قيمة تجريبية صرف ذلك أن كل طبع فرديٌ حتماً . إن الشخصية كالحياة تحتفظ دائماً بعمق ممتنع لا يعبَّر عنه .» (بودان) إن للأنماطية الوظائفية التي يقترحها يونغ ،عدا الفائدة التي يشير إليها أعلاه ، فائدة أخرى اساسية جداً . إن من الأهمية بمكان بل لا غنى لكل من يهتم بالحياة النفسية أن يعرف وظيفته **النفسانية الرئيسية** . وإنها لمهمة أبعد من أن تكون سهلة على ما يبدو . إن تحديد الطراز النفساني للرجُع الأكثر إلفة والأكثر تلقائية لدينا لذو أهمية بالغة بالنسبة إلى النقد الذاتي وإلى فهم الذات ومحدِّداتها ومحيط المعادلة الشخصية كما لإبراز ما نحن مدفوعون لتركه في الظل أي ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، لخلعه على الآخرين . (رك)

(٢) انظر **علم النفس المركب** : «الأنا وشركاؤها» ، ص ١٨٩ . (م)

Scanned with CamScanner

فلنترك الآن الظل جانباً والجزء (د) من أنيتنا ولنسعَ إلى قائمة العناصر المدركة في حياتنا الداخلية . نصادف أولاً **الذكرى والذاكرة** اللتين تنبجسان من الداخل بلا شك . إنهما تتألفان من أشياء اختزنّاها فينا وتعود فتنبعث من الداخل أمام عقلنا فتشغلنا وتعذبنا أو تسرُّنا . وظيفة الذاكرة أنها تربطنا بالأشياء التي غابت عن وعينا وأصبحت وصيدية وأُبعدت أو كُبتت . ما نسمِّيه الذاكرة هو ملكة استدعاء المحتويات الخافية . إنها الوظيفة الأولى التي نستطيع تبيّنها تبيُّناً واضحاً في العلاقات القائمة بين وعينا والمحتويات التي ليست حاضرةً فيه حالياً . ولا يعني تثبيت وجود الذاكرة وحشيد الذكريات في الفلك الداخلي للأنا استنفاداً لمحتوياته على الرغم من أن فلكنا الداخلي منظوراً إليه من جهة الوعي يبدو فقير المظهر . فضيق الوعي لا يسمح لنا بأكثر من بضعة تصورات متزامنة وبالتالي لا يتيح أكثر من بضع ذكريات متواقتةٍ أيضاً . إننا بحق منطبعون دائماً على ما يبدو بفراغ المملكة الداخلية التي نحملها فينا وعوزها . ولكن إذا ما أمعنّا النظر وسجّلنا خلال مدة من الزمن مقدار الذكريات التي تصعد إلى وعينا ثم نعود فنهملها حالاً فيما بعد لتحققنا أن هذه الفسحة تنطوي على ثروات تفوق بكثير تلك التي نمنحها إياها للوهلة الأولى . ومع ذلك فالأشخاص الذين يقومون بهذه التجربة نادرون وحيث إن الإنسان ما يزال محتفظاً من حياته الداخلية بانطباعه الأول عن فقرها فهذا هو ما يشكِّل أحد أسباب الاستهانة المفرطة التي تصيب عموماً أشياء النفس .لن يكون بمقدورنا أن نتصور في لحظةٍ كياننا النفسي بكليته حتى ولا ذكرياتنا بكليتها فإن تصوراً شاملاً من هذا النوع يفترض حالةً من توتر أقصى كتلك التي تحدث أحياناً إبان حادث اصطدام . يذكر الأستاذ هايم Heim[1] كيف أن حياته بكاملها خلال حادث وقع له في الجبل قد مرَّت أمام عينه في فسحةٍ لا تتعدَّى بضعة أجزاءٍ من الثانية . إن الأمر يجري كما لو أن الوعي في هذه اللحظات من التوتر الذي لا يمكن وصفه يتمدَّد تمدُّداً انفجارياً بحيث يكتسب شعاعه اللامع فجأة اتساعاً غير مألوف فيلفّ عدداً هائلاً من الذكريات والتصورات (فرط التذكر) أما في الظروف العادية فلا شيء من هذا القبيل لأن اللوحة التي تمر في ذاكرتنا عفويةً كانت أم إرادية لوحة فقيرة . فنحن نشاهد كما من خلال كوَّةٍ مستديرة بعضاً من ذكرياتنا لا كلها

(١) مستطلع سويسري مشهور . (رك)

Scanned with CamScanner

ولا ملء الصور التي صنعت منها حياتنا . فلو كنا حائزين على ذاكرة كهذه لظهر لنا الجانب النفسي على ضوء جدُّ مختلفٍ ولتمتَّع بتقدير مختلفٍ كل الاختلاف [١] .ولقد كتب القديس أغوسطينوس في **اعترافاته** فصلاً موحياً في الذاكرة .

Saint Augustine's Confessions

المساهمات الذاتية

تنطوي الحياة الداخلية إلى جانب الذكريات على عناصر أخرى ؛ فلنتمسك الآن ـ عبر نظام جوّانية متنامية ـ بما أسمِّيه **المساهمات الذاتية للوظائف** :فنحن لسنا في حالةٍ تسمح لنا بالعمل والتفكير والإحساس وإرادة أيِّ شيء كان دون أن يختلط معه في الحال جانب ذاتي [٢] . فلنفترض بأنكم تشاهدون غرضاً موضوعياً تماماً وليكن قاطرة فأنتم تزعمون بأن غرض إدراككم هو قاطرة . هذا التصور بحد ذاته هو من الآن ثمرة تأليف إحساسات وصور أيضاً يستدمج في نظر الفكر سماتٍ

(١) لا ريب أن «ذاكرةً خامة ذات صلابة مطلقة قد لا تنسى شيئاً . ولكنها ستكون من الفكر الأداة الأقل استعمالاً ذلك أنها ستعيد بلا انقطاع الماضي دون اختزاله : فذكرى تتعلق بساعة ستقتضي ساعة لاستعادتها . فكِّر تعني اختزل وبسِّط وأبرز المهم وحذف النافل . لذلك فإن النسيان تبعاً للحالة ميزة للذاكرة أو غلط فيها .» (بودان)

النقاش هام ، وبإمكاننا الظن كتقريب أولي بأنه إذا كانت الطبيعة قد زودتنا بالشكل المعروف للذاكرة فذلك لأنها أفضل أداة ممكنة يمكن للإنسان أن يتجهز بها .
لقد استنجدت ببودان كما لو كنت أريد الاحتجاج على فكرة يونغ التي بدت لي في البداية مجحفةً بحق النظام الطبيعي .
بيد اني لدى إعمال النظر استدركت بأن ثمة مصطلحاً وسطاً بين موقفي يونغ وبودان : إن الذاكرة التي تستعيد لنا حياة الماضي حيث تدعو الحاجة وذلك باختزاله قد تشكل وسيلةً هامة جداً في الآلية الذهنية .
واعتقد ايضاً انه يمكن أن نستبق بقولنا إنه من أجل تلافي ثغرات الذاكرة ونتائجها الإعصابية قد تمَّ اختراع **التحليل** . فهذا الأخير بإعادته إلى الحياة «ماضياً منسياً» أو ذلك الحدث المكبوت أو تلك المناسبة التي تواطأ المرء على إخفائها عن نفسه يمكن اعتباره أفعولة إنسانية وذهنية مخصصة على نحوٍ اصطفائي لتلافي ضعف الذاكرة وثغراتها إزاء معيوش أسيء تمثُّله .
(رك)

(٢) كان وليم جيمس ينسب إلى كل فكرة عن «التوافقيات» و«القطع» «هالة» من علاقات مستقرة على نحوٍ غامض وغير ملحوظة على نحوٍ طبيعي . (رك)

Scanned with CamScanner

متعدِّدة في وحدة . وبالفعل فإن حوادث ذاتية طارئة تتغلغل إلى جانب هذا التصور الموضوعي وتنزلق على هامش التصور المركزي أو في قلبه وتجعل ، بتشويشها العمل التأليفي وإرباكه ، أن يقال مثلاً :«يبدو لي كذا .. الخ» بدلاً من : «يوجد» . ثمَّة معنىً استطرادي يتدخل فجأةً ويشعر المرء بأن شيئاً ما ينضاف ويتجاوز المعطى الموضوعي الصرف . هاكم مثلاً : أبرق طالب يحتاج مالاً إلى أبيه قائلاً : «أبي العزيز ، ابعث إليّ بمال» . فما إن تلقى الأب البرقية حتى استشاط غضباً وإذ عاد إلى البيت رمى بالبرقية على الطاولة قائلاً لزوجه : «هوذاك ابنك الوغد يبرق إليَّ طالباً مالاً ؛ فلو كان على الأقل أبرق يقول : أبتي العزيز ، الخ!» وهاكم أيضاً هذا المثال : عندما تصادفون شخصاً لم تروه من قبل قط تخطر لكم عفوياً أشياء معينة بخصوصه وهذه الأشياء لا يصلح قولها دائماً لأنها في الغالب منحرفةً أو خاطئة ذلك أنها عبارة عن رُجُعٍ ذاتية على نحو ظاهر .المساهمات الذاتية تفصح هكذا عن نفسها على شكل مزاعم ومحاذير و «ذاتانيات» شبه معلنة وشبه مطموسة بدراية. وعندما تفكرون بشخصٍ ما فإن تفكيركم ينزاح ، كأنه في خفية أو مرافقة على نحو معاكس لتركيزكم ، نحو سلسلةٍ كاملة من الأشياء الأخرى ، بل تغزوكم أيضاً انطباعات متباينة لا علاقة لها بمحور اهتمامكم . وهذا صحيح أيضاً في مجرى نشاط العاطفة والإحساس والحدس . مهما يحدث في العقل فإن كل مرة تتطابق وظيفةٌ واعية مع غرضها تتداخل بينهما المساهمات الذاتية على نحو منتظم ، أشبه بضرب من مخلفاتٍ مُبعَدةٍ ومدَّخرة . إنها تلبي استعداداً كامناً للانفعال على نحوٍ ما ، استعداداً هو غالباً غير موفق جداً . كل واحدٍ يعرف بأن هذه الأشياء تجري فينا ولكن مامن أحد يقبل بطيبة خاطر أن يكون عرضةً لظواهر مماثلة . ويفضل المرء أن يتركها في الظل ممَّا يتيح له الادعاء بأنه بريء كل البراءة وشريف ومستقيم وهو «مفرط وحسب في رغبته في ..» أنتم تعرفون بالطبع كل هذه الجمل ، لكننا في الواقع لسنا كذلك . إن فينا كل ضروب الرُجُع الذاتية ولكن ليس من اللائق قبولها . هذه المساهمات الذاتية تشكِّل جزءاً هاماً من علاقاتنا مع عالمنا الداخلي ، علاقاتٍ تصبح بهذا الفعل مضنيةً حقاً . فنحن لا نحب النظر من جهة **الظل**[1] في أنفسنا . عديدون هم أعضاء مجتمعنا المتحضِّر الذين تخلَّصوا بشكلٍ ما من ظلِّهم

(١) كلمة ظل لها معنيان ؛ فهي تشير تارةً إلى النفسية المعتمة على نحوٍ غامض وطوراً إلى مجموعة أخطاء الأنا . (رك)

Scanned with CamScanner

وأضاعوه فأضحوا منذئذٍ كائنات ذات بعدين محرومةً من الثالث : الكثافة ، الجسمانية ، البدن .فالبدن بالنسبة إلى الإنسان صديق مشكوك فيه فهو ينتج غالباً الشيء الذي لا نحبه ونحن نتخذ منه موقفاً حذراً لأنَّ في البدن فرطاً من الأشياء التي لا يمكن ذكرها وهو يفيدنا في الغالب نفسانياً من أجل تشخيص ظلّنا .

الوجدانات[1]

ومن الداخل تطلع علينا الوجدانات على النحو عينه .فهي لا تشكل وظيفة إرادية بل أحداثاً داخلية نحن مسرحها . والعجيب أننا نتصور دائماً الوجدانات متحدرة من مصدر خارجي غريب غير أن ذلك ليس سوى وهم . فعندما يقول لنا شخصٌ كلاماً مزعجاً ـ قد لا يكون مزعجاً فعلاً لكنه يبدو لنا كذلك ـ ننفعل غاضبين من جراء فورةٍ تصدر بلا شك عن نفسنا ذلك أن الوجدان رَجْعٌ لا إرادي ذو طبيعة عفوية . وهذا ما تعبِّر عنه اللغة بعباراتٍ مثل : «اجتاحه الغضب ، غصَّت عيناه بالدمع ، ضيَّق عليه الحزن ، أمسك الكرب بخناقه ، أرهقته الكآبة ، الخ» أو حتى بدرجة أقوى بعبارة : «لقد استحوذ عليه إبليس» . وتبيِّن هذه العبارات كيف يتصور الحس المشترك تلك الحالات فهي تبدو له أشبه بحالاتٍ انفعاليةٍ نتلقاها وما أن نصبح تحت سيطرتها حتى نستسلم لها ، فإن الأمر تحرير أو إطلاق للطاقة يفلت من رقابتنا . الوجدانات تأمر بتعصيباتٍ بدنية وتمدُّد العضلات وتستثير بعض الغدد ، الخ .

فعندما نغضب وما دام الدم لم يصعد إلى رأسنا ليس ثمَّة هلاك في المنزل . فـ «الشيطان» لا يبدأ «الرقص» إلَّا عندما نستشعر تمدُّداً وعائياً وعندما نحس بأن وجهنا بدأ يصطبغ بالأرجوان . وهذا الأخير بما هو نتيجة الوجدان البازغ يقويه بدوره ويجعل المرء فعلاً يفقد صوابه وسيطرته على نفسه . الوجدانات تفسد الوعي وتجعلنا لعبةً في أيديها دافعةً إيَّانا إلى سلوكٍ أحمق فالأنا ليست بعدُ مؤقتاً سيدة الساحة بل هي بمعنى ما كائن آخر وكيانٌ مختلف عن الأنا الأمر الذي يشرح كيف أن بعض الأشخاص يُظهرون طوال تواجدهم طبعاً مختلفاً كل الاختلاف عن طبعهم المعهود .

(١) راجع **علم النفس المركب** : «من الترابط إلى المركب» («تدخل العامل الوجداني» ، ص ١١٧) .

(م)

٢[1]

تفاضل الوظائف[2]

قادتنا محاضرتنا السابقة في الوظائف إلى مأزقٍ حقيقي ولم يكن بالإمكان غير ما كان لأن الأسئلة المتعلقة بالوظائف النفسانية تؤلف مجالاً مركباً وخاصة بسبب الظروف التالية :فنحن كلنا كما سبق أن قلت أعلاه مدموغون بشيءٍ من أحادية الاتجاه فبعض الوظائف فينا متطورٌ جداً ومتمايز ومشرَّف على نحوٍ خاص ونشيط ومنتج على نحو خاص أيضاً في حين أن بعضها الآخر لا يتجاوز المرحلة الجنينية من تطوره وذلك لأن **الإنسان يملك امتيازاً رهيباً هو امتياز الابتعاد عن نفسه** وترك جزء منها بوراً . تلك حال كلٍ منا ولكن بنسب متفاوتة وفردية أساساً . فلو كنا مزوَّدين كلنا بالعدة الوظيفية عينها ولو كنا نعيش جميعاً في الوقت عينه نبرةً واحدةً في كياننا فيسران ما يكون عليه تفاهمنا ! بيدَ أن صعوبات الناس في علاقاتهم المتبادلة وسوء الفهم الذي ينشأ في مجرى التبادل بين البشر تثبت بأن هذا ليس واقع الحال . فكل واحدٍيعيش على نحو شبه ممتنعٍ بفضل **وظيفته السائدة** التي ليست هي الوظيفة السائدة عند جاره : فالناس المتمتعون بعقلٍ سليم يؤثرون التفكير في الأشياء والتكيف مع الحياة وفق العقل أما غيرهم ممن تسود عندهم وظيفة العاطفة فيتمتَّعون بعشرةٍ اجتماعية سهلة وإحساسٍ عظيم بالقيم فيتفقون كأفضل ما يكون الاتفاق على خلق وعيش مواقف تنطلق فيها العاطفة على سجيّتها وبكل تلويناتها . وآخرون أيضاً ممن يملكون حسَّ ملاحظةٍ رفيع يعتمدون خصوصاً على أحاسيسهم وهلمّ جرّا . وعليه فإن ملكة التفكير قد تكون متطورةً عند أحدهم في حين تبقى قدرة عاطفته زهيدة .ولكن لنتفق على ما هو المطلوب فهمه بذلك . فقد تكون العاطفة متأججةً عند صاحبنا فيغامر هذا الأخير إذا ما دعاه الأمر بالزعم بكل حسن نيّة أنه يملك قوَّة عظيمة وحرارةً عاطفية عالية ذلك ان عاطفته تفيض في المناسبة فتقنعه بأنه ذو طبيعةٍ عاطفية في الأساس[3] . وما أريد قوله عندما أدّعي

(١) المحاضرة الثانية .

(٢) راجع **علم النفس المركب** : «الأنماط والوظائف» ، ص ١٠١ . (م)

(٣) ليس في كلمة «عاطفية» هنا اية إلماعة تحقيرية ويجب أن تؤخذ على محملها الواسع . (رك)

Scanned with CamScanner

بأن عاطفته في خطر هو أنها ليست متمايزة وأنها غير ناضجة من حيث التكيف وأنها تسود على صاحبنا الذي تتملكه انفعالاته مؤقتاً وتسيطر عليه . وشيِّق من وجهة النظر هذه أن ندرس الحياة الخاصة للأساتذة .فإذا رغبتم بالاطلاع على الطريقة التي يتصرف بها المفكرون في منزلهم وفي داخليتهم فليس لديكم إلَّا أن تسألوا زوجاتهم فإن لديهن الكثير مما يروونه لكم . العاطفية الجرمانية Gemütlichkeit مثلاً ليست تعبيراً عن عاطفة رفيعة الثقافة ومتميِّزة بل بالحريّ عن عاطفة سيئة التهذيب تفصح عن نفسها تبعاً لمنحدر دونيتها . وفي نسق أفكار مماثل يصح الأمر نفسه على «الوضوح اللاتيني» الذي يسبغ واقعاً واضحاً وعيانياً على الأشياء ، واقعاً ليس بهذا المقدار من الوضوح والشفافية . إن فكرة عميقة حقاً فيها دائماً شيءٌ من الغرابة التي تبدو للعقول القليلة الموهبة غامضة متناقضة . وإذا كان الفكر الفرنسي من وجهة نظر نفسانية أقل تطوراً من الفكر الألماني فإن العاطفة الفرنسية بالعكس أكثر تلوناً بكثير من العاطفة الألمانية . الأمة الألمانية تتصف بكون وظيفة العاطفة لديها متدنيةً وضعيفة التمايز . وإذا قلتم هذا لألماني فقد يشعر بالإهانة وقد أشعر بها أنا أيضاً . الألماني شديد التعلق بما يسمَّى Gemütlichkeit : غرفة مليئة بالدخان يفيض فيها كل واحدٍ بمودَّة شديدة نحو الجميع . هذا هو gemütlich وهو ينفي التعقيدات .نبرة عاطفية واحدة وهذا كل شيء . أما العاطفة الفرنسية فهي – فكِّروا بأي مسرحية هزلية – تقتضي مزيجاً بارعاً من الحلو والمرّ في حين يجد الألماني لذاذته على مدار سهرةٍ كاملة إمَّا في الحلو وإما في المرّ . لا تقولوا لألماني : «**أتشرَّف** بمعرفتك» لأنه قد يصدِّقّ ! وإذا ما باعكم ألماني زوجاً من الأحذية فهو لا يتوقع أن تدفعوا له الثمن وحسب بل أن تحبوه أيضاً . ثمَّة فيلسوف انكليزي قال : «إن عقلاً رفيعاً ليس قط واضحاً كل الوضوح» .هذا صحيح وعلى النحو نفسه فإن عاطفةً رفيعة ليست البتة هي الأخرى واضحةً كل الوضوح . فأنتم لا تتمتعون بعاطفةٍ جيَّاشة إلَّا إذا شابها شيءٌ من الشك . وإن فكرة لا تنطوي على قليلٍ من التناقض ليست مقنعة كلّ الاقناع . لقد دُعي هيرقليطس العجوز غامضاً لأنه كان يفكر من خلال المفارقات الأمر الذي كان في حينه بدعةً من الحداثانية modernisme الأخيرة . ومن وجهة نظر معينة يتكرر الأمر نفسه في أيامنا ؛ فالعقل الصيني مثلاً يبدو شديد المفارقة لأننا ما زلنا نجهل تدبّر المفارقة المكوَّنة من أفكار متعارضة .فنحن نفكر دائماً بشيءٍ أو بآخر ونادراً ما نعرف أخذ شيء ونقيضه معاً بالحسبان لذا فإن

Scanned with CamScanner

العقول تتصادم حالما نبلغ خطوط عرض الوظائف النفسانية .فلنقدّم أيضاً بعض التوضيحات .

المفكر مسودٌ بعواطفه عندما تتجلّى هذه الأخيرة . فعندما يستشعر عاطفةً فقد لا تكون هناك حجة أو محاكمةٌ لهما نجوع بإزائها . وحده الانفعال والقلاقل التي يستشعرها تستطيع مساعدته في تخليصه من افتتانه . والعكس صحيح مع فردٍ من النمط العاطفي ذلك أن هذا الأخير لا يترك مجالاً البتة لتدخل أفكاره ولكن فليفصح عصابٌ عن نفسه وإذا بأفكاره تبدأ بإزعاجه إنها تنبجس على نحو جامح ولا يتوصل إلى الإفلات منها . قد يتعلق الأمر بشخصٍ مستحب جداً ولكنّ له قناعاته وأفكاره الخارقة ذلك أن فكره ذو نمط متدن ؛ إنه لا يتقن محاكمة الأمور ويفتقر عقله إلى المرونة ويبقى مرتبكاً بأفكار لا يجد سبيلاً إلى الفكاك منها . الأنماط الحدسية والحواسية لها هي الأخرى خصائصها ، الحدسي دائم التبرُّم من الواقع وحيث إنه يفتقر إلى حس الواقع فأنت تجده في معظم الأحوال عند نقيضي الإمكانات العيانية للحياة . إنه ذاك الإنسان الذي يبذر حقلاً وإذا به قبل أن ينضج الزرع ينتقل إلى آخر تاركاً خلفه الحقول المفلوحة وساعياً دوماً وراء آمالٍ جديدة مبدِّداً هكذا حصاد الحياة . أما النمط الحواسي فيبقى على تماسٍ مع الأشياء في الواقع المعطى . الشيء صحيح عنده عندما يكون واقعياً . أما الحدسي فهو بالعكس والشيء الواقعي عنده هو تحديداً الشيء غير الموجود الذي ينبغي أن يوجد . وعندما لا يستشعر الحواسي واقعاً معطىً ومستقراً وعندما لا يجد نفسه محصوراً بين أربعة جدران فإن ذلك يُمْرِضه على العكس من الحدسي الذي ما أن يحس بنفسه واقعاً في موقف عياني لا يفكر سوى بشيءٍ واحد هو سبيل الخروج والهرب بأسرع ما يمكن ممّا يحس بأنه سجن له وذلك لكي يكون حراً لاستقبال إمكانات جديدة .

الوظيفة الدنيا

الوظيفة الدنيا لا تتمتّع عموماً بصفات الوظيفة الواعية المتمايزة التي يمكن إدارتها بالقصد والإرادة . فإذا كان الفكر هو فعلاً وظيفتك الرئيسة فبإمكانك توجيهه ومراقبته وأنت لست عبداً له إذ بإمكانك أن تقرر التفكير بشيءٍ آخر بل أن تفكر بالعكس ! أما الشخص الذي ينتمي إلى «النمط العاطفي» فيجهل هذه المرونة

Scanned with CamScanner

ولا يستطيع التخلص من الفكرة فهو مملوك بها ومبهوت وخائف منها . كذلك فإن المفكر يظهر بدوره ذا عاطفة بائدة الصفة يتوجّس منها خشية وقد يصبح ضحيةً لها تماماً كما كان الناس البائدون ضحية عواطفهم . هذا هو السبب الذي يجعل البدائي خارق التهذيب فهو حريصٌ جداً على عدم إزعاج عواطف قريبه الأمر الذي بوسعه أن يشكل خطراً كبيراً عليه . إن كثيراً من عاداتنا تجد تفسيرها في هذا التهذيب البائد .فلا يجوز مثلاً لامرىءٍ أن يشدَّ على يد أحد وهو يحتفظ بيده اليسرى في جيبه أو وراء ظهره لكي يكون واضحاً بأنه لا يحمل خنجراً . المصافحة الشرقية التي تقوم على انحناء المرء بعد أن يمدَّ يديه نحو الأعلى تعني الشيء نفسه : ليس في يديَّ شيء ! والسجود عند قدمي شخصٍ آخر يعني الإقرار أمامه بأننا دون حماية وتحت رحمته . وعلى النحو عينه يلجأ البدائيون فيما بينهم إلى حركاتٍ تكشف رموزيتها سببَ ومبلغَ خشيتهم المتبادلة . نحن أيضاً على نحو مماثل نخشى وظائفنا الدنيا . دونكم مثلاً نمطاً فكرياً : إنه يمتلىء رعباً من الوقوع في الحب فتحكمون على مخاوفه بأنها حمقاء ومع ذلك يُرجَّح أنه على حق لأن الوقوع في الحب يمكن أن يجرَّه إلى ارتكاب الحماقات ومع ذلك فهو معرَّض كل التعرُّض للوقوع في شباك فتاةٍ مغناج أو الاستئثار بامرأة لا توافقه البتة ذلك أن عاطفته لا تنفعل إلّا بإزاء نمطٍ من النساء المغويات والبدائيات في الحقيقة . هذا هو السبب الذي من أجله يميل العديد من المفكرين إلى الزواج بمن هنَّ أدنى من مستواهم ؛فيقعون في غرام مزارعة أو خادمة ضحايا عواطف بائدة يجهلون فخاخها . كذلك فإنهم على حق في الاحتراز من عواطفهم التي يمكن أن تجرَّهم إلى حماقات . إنهم أقوياء الذهن منيعون وقادرون على الوقوف على أرجلهم بوسائلهم الخاصة أما في ميدان العواطف فهم متأثرون وغير مستقرين ويحسّون بذلك . لا تحاولوا البتة أن تقسروا مفكراً في عاطفته فهو يراقبها بيدٍ من حديد لأنه يستشعر خطرها . وينطبق هذا الأمر على كل وظيفة دُنيا مرتبطة فينا دائماً بجانبٍ بائدٍ من شخصيتنا . إننا جميعنا في وظائفنا الدنيا بدائيون وفي وظيفتنا المتمايزة متحضرون وخليقون بامتلاك إرادة حرَّةٍ الشيء الذي تفتقر إليه الوظيفة الدنيا كلَّ الافتقار مشكِّلةً بذلك نقطة ضعفٍ وجرحاً مفتوحاً لكل متأهبٍ للدخول . .

Scanned with CamScanner

كثيرون من قرائي يعتريهم الضيق لأني **أسمّي العاطفة وظيفة عقلية** وخاصة كل أولئك الذين تشكل العاطفة لديهم مساعداً لوظيفة لا عقلية كالإحساس أو الحدس تلعب دور وظيفة رئيسة . ذلك أن الفكر والعاطفة يمكن أن يكون كل منهما وظيفة مساعدة لوظيفة لا عقلية رئيسة . «بيدَ أن وظيفةً رئيسة هي بمثابة العينية المفضّلة لكل حياتنا الذهنية ، عينيةٍ تُخضع بترؤسها لكل رؤانا الداخلية والخارجية الأشعةَ التي تخترقها لقوانين انكسارها الخاص وهذا يعني بأن النظر إلى الفكر والعاطفة عبر عينية وظيفةٍ لا عقلية سوف يكون مشوباً باللاعقلانية ويظهر لنا هكذا في الضوء بإزاء استبطاننا»[1] . إذن فإن هؤلاء الأشخاص الذين نشير إليهم يستشعرون عاطفتهم كشيءٍ لا عقلي ! وبالعكس عندما تكون وظيفةٌ عقلية هي التي تترأس حياتنا الذهنية فالوظائف اللاعقلية ترتدي بذاتها طابع العقل ؛ ولاعقلانيتها الأساسية تذبل بنفاذها إلى المركز المعدّ لتصوراتنا وتتشرّب العناصرَ العقلية المقبولة فيه فقط . وعلى هذا النحو يمكن تفسير تلك الأحاديث التي يتكلم فيها شخصان عن العاطفة مثلاً فيعطيان لهذا المصطلح بفعل استعداداتهما الطبيعية مدلولاتٍ جدُّ مختلفة .فعند بعض النفسانيين «ليست العاطفة سوى فكرةٍ غير مكتملة» في حين أنه بالعكس يجب منحها وجوداً خاصاً ذلك أنها شيءٌ واقعي ووظيفةٌ بذاتها وهذا ما يؤكده العرف الشائع بمنحه إياها مدلولاً خاصاً وهو شرفٌ لا يمنحه إلاَّ للمعطيات الواقعية . وحدهم النفسانيون يخترعون كلماتٍ لأشياء غير موجودة .

المفكر العميق يضع عاطفته تحت مراقبة فكره ولا يأذن بأن تنطلق منه سوى العواطف العقلية المهذّبة والمقدّرة في حين يشهِّر بالعواطف اللاعقلية ويرفضها ساعة انبجاسها أي أنه يكبتها في خافيته . ولن يكون لها دورٌ في تفكيره وستبقى معزولةً عن تأمله العقلي للعالم . كل هذه الظروف التي لم نستطع هنا سوى عرض ترسيمات لها تحشو مسألة الوظائف النفسانية بالمتناقضات والغموضات الظاهرة .لذا فمن الضروري وضع تحديداتٍ مفاهيمية دقيقة لهذه الوظائف وهذا

(١) المقطع بين المزدوجتين من تدخل المترجم . (رك)

Scanned with CamScanner

هوما حاولت القيام به في كتابي : **الأنماط النفسانية**[1] وبما أن هذا الموضوع قد يمضي بنا بعيداً فأنا أحيل إلى هذا الكتاب ولم أبغِ هنا سوى الإشارة إليه . أود الآن أن أجيب على أسئلة وجِّهت إليَّ على إثر محاضرتي .

العاطفة والعقل

سؤال : ثمَّة بين المستمعين من يجد صعوبةً في التقريب بين مصطلحي **عاطفة** و**عقلي** فهذا الأخير لا يتعلق سوى بالفكر .

جواب : طبعاً عبارة «عقلي» تتعلَّق أولاً بالفكر غير أن العاطفة هي الأخرى تطلق أحكاماً . إننا نحكم أيضاً بعاطفتنا التي لها منطقها الخاص والأحكام التي تطلقها عاطفتنا ليست لا عقليةً صرف إنها مبنيةٌ على نحو منطقي وهي مؤدى سيرورةٍ داخليةٍ متماسكة تماسكاً مطلقاً . إننا نسلك تبعاً لأحكام عاطفتنا ونحن أيضاً في حالة التأسيس لها .

سؤال : هل لأحكام العاطفة قيمة قاهرة في فلكها طبعاً كالأفكار المنطقية ؟

جواب : **لا يجوز لنا أن نخلط الفكر بالعاطفة** . إن علينا أن نفرِّق بين منطق العاطفة ومنطق العقل وإلَّا فنحن نصل إلى فكر ليس له سوى مظاهر المنطق الذي بحكم كونه خادماً للعاطفة قد شوِّه ونحن ما نزال نتلذَّذ بالاعتقاد أنه السيد أو إننا بالعكس نستشعر عاطفةً غير نقية مزيفةً بعقلانية لم تلقِ سلاحها . لا يجوز تطبيق أحكام العاطفة إلَّا على أغراضها وهي لا تحتل مكانها إلَّا في المجال العاطفي «أي في المجال الذي تستطيع العاطفة أن تنطلق على سجيتها ويجب عليها ذلك . ولكنها بالعكس ليست في موضعها البتة في مسألةٍ تتعلَّق بالذكاء وبالمحاكمة حيث لا يكون على المرء أن يتدخَّل إلَّا في البحث عن الصحيح وليس في مصلحة الأنا» . والحكم الذي تطلقه العاطفة يتمتع بحد ذاته بالبداهة نفسها وبالشرعية نفسها التي يتمتَّع بها حكمٌ عقلي منطقي .فكِّروا بكل الأحكام العاطفية الموجودة والتي هي بحكم القانون ؛ فهي ليست ذاتية صرف ، لكنها تستند إلى سلَّمٍ كامل من القيم .نحن لدينا مثلاً معايير جمالية وأخلاقية صالحة لبضعة قرون كمفاهيم الجمال والصلاح

(١) هذا الكتاب قيد الترجمة إلى العربية . (م)

Scanned with CamScanner

والخير التي لها قابلية أكثر قليلاً من غيرها للاستمرار ولكنها تتعرَّض هي الأخرى دائماً عبر القرون إلى التعديل والتكيف مع الظروف والمتطلبات الجديدة . وينطبق الأمر نفسه أيضاً على الحقائق والمعاينات الفكرية الأبعد عن الخلود التي تتبدل هي الأخرى عبر القرون تبدلاً سريعاً تارةً وغير ملحوظٍ تارة أخرى تبعاً لثباتها ولقلاقل العقل . فثمَّة منها ما ينوف عمره على ألفي عام أو ثلاثة آلاف ومنها ما يرجع إلى تاريخٍ حديث . وقوانين الطبيعة واستنتاجات علومنا التي نعتبرها غالباً صاحبة الأساس الأقوى تتعرَّض هي الأخرى إلى أشدِّ التبدلات سرعةً .فليطرأ واقع صغير جديد كان إلى حينه متروكاً في الظل وإذا بعمارة الحقيقة الأساسية المزعومة تنهار كقصرٍ من ورق .

الإحساس والحدس[1]

سؤال : طرح عليَّ مستمع سؤالاً شائكاً بصفة خاصة هو التحديد الدقيق للوظيفتين اللا عقليتين **الإحساس والحدس** .

جواب : إنه لموضوع دقيق . فالكلمة الألمانية die Empfindung التي تعبِّر عن الإحساس هي في استعمال اللغة الشائع مصطلحٌ غير موفق .. ثمَّة التباس دائم عند غوته وشيللر يتم فيه استخدام كلمتي الإحساس والعاطفة الواحدة بدل الأخرى دون تمييز die Empfindung (الإحساس) أو das Gefühl (العاطفة) . وليست الحال كذلك في اللغتين الفرنسية والإنكليزية . فالإنكليزي يميِّز تمييزاً دقيقاً بين sensation و feeling والفرنسي بين sensation و sentiment . وحده إنكليزي فقير الثقافة جداً بوسعه أن يخلط ويواحد بين هذين المفهومين . اللغة الثقافية في منأى عن هذا الالتباس الذي هو أمر شائع في الألمانية . وهذا موضوع شيِّق بالنسبة لعلم نفس الشعوب كون اللغة الألمانية تعطي تمييزاً غير كافٍ لهذين المعطيين ذلك أن الوظائف الأقل تمايزاً تنزع فعلاً بسبب خفائها inconscience النسبي إلى التواحد والذوبان الواحدة في الأخرى . كل الأشياء في الخافية تأخذ موقعها جنباً إلى جنب وكل شيء غير متمايز يذوب في الكل وتلك هي واحدة من الخصائص التي تميِّز الخافية عن

(١) راجع فصلاً هاماً جداً بعنوان «إحساسنا» في **علم النفس الجديد** ، ص ١١٣ . (م)

Scanned with CamScanner

الواعية وتجعلهما متعارضتين : ففي الخافية لا يوجد أي تفريق مطلق ولا أي فصلٍ حتى بإزاء الواعية الأمر الذي يتيح لهذين الفلكين في نفسنا أن يتداخلا الواحد في الآخر . الخافية من الواعية كالرحم الذي تستمد منه هذه الأخيرة إمكانات تراكيبها المتجدِّدة . ونحن بلا شك بسببٍ من هذه العدوى العامة نشاهد في الواعية الألمانية خلطاً بين الإحساس والعاطفة . وثمَّة من جهة أخرى خلطٌ آخر بين الشعور والحدس شائع جداً أيضاً فيء أيامنا في اللغة الألمانية . لقد مضى زمن طويل لم يوجد فيه مصطلح علمي للتعبير عن الحدس ولذلك كان اللجوء إلى المصطلح اللاتيني . أما في الانكليزية فالأمر أسوأ أيضاً فليس ثمَّة سوى كلمة intuition المستعملة هي الأخرى في اللغة الشائعة والتي تفقد بهذا الفعل كثيراً من مزاياها لكي تدلَّ على مفهوم علمي . إن مفهوم الإحساس في الألمانية die Empfindung مرتبط بالاستشعار والحدس من جهة وبالعاطفة من جهةٍ أخرى .فيجري استخدام مصطلحي Empfinden(الإحساس) و Gefühl (العاطفة) بلا تمييز لهذه المستويات الثلاثة من المعطيات النفسانية كما لو كان الأمر يتعلَّق بالشيء نفسه ويرجع سبب ذلك إلى أن هذه الوظائف الثلاث متخالطة في حالة مشتركةٍ ونسبيةٍ خافية .وفي مثل هذه الحال يمكن الزعم بيقين مطلق أننا بإزاء نمطٍ فكري .لذلك فإن الألماني هو في الحقيقة كما سبق وقلنا المفكر الأمثل . أما في الفرنسية فهذا الخلط بين المصطلحين غير موجود لأن الفرنسية بمعنى ما أكثر تمايزاً من الألمانية ؛ فثقافتها أعرق بكثير وقد ورثت مباشرة عن التراث الثقافي القديم أقلّه في اللغة . ثم إنها تملك تمايزاً في وظيفة العاطفة يفتقر إليه الألماني حتى في اللغة . لقد قلنا بأن اللغتين الفرنسية والإنكليزية تميزان تمييزاً واضحاً بين الإحساس والعاطفة وأنا لا أستخدم مصطلح **إحساس** بمعنى إحساسٍ وحيد أو إدراكٍ حواسيٍ وحيد بل أقصد بذلك ما دعاه علم النفس الفرنسي مع پيير جانيه **وظيفة الواقع** ، إدراكَ واقع الأشياء ، مجموعَ المعطيات الخارجية التي تتوارد إلينا بفعل نشاط حواسنا .هذا هو أفضل تحديدٍ أستطيع أن أحدِّدها به . وبعبارة أخرى يتناغم الشخص الحواسي مع واقع الأشياء كما هي مستثنياً كل ما هو خارج هذا الواقع المُدرَك . وبالطبع فإن وظائف مساعِدة تنضاف ، واعيةً أم خافية ، فتكون مبدئياً عند الكائن اللاعقلي وظيفتان عقليتان هما وظيفة العاطفة أو وظيفة الفكر اللتان تقدِّمان مساهمتهما . وبالمقابل فإن الحدس يُكبت في مثل هذه الحال .

ليس من السهل طبعاً على العقل تحديد **الحدس** بما هو وظيفة لاعقلية . قلت عنه في **الأنماط النفسانية** بأنه «إدراك عبر الخافية» وإحدى خصائصه هي أن المرء لا يستطيع أن يحدِّد مكان وكيفية نشوئه ويبدو أنه يستطيع السير على امتداد طرقٍ متعدِّدة ويتيح للمرء بانبجاسه ان يرى تقريباً ما يجري «وراء المنعطف».إنني أتوقف عند هذا الحد وأعترف حقيقة بأنني لا أعرف كيف يجري الحدس ؛ لست أدري ماالذي يجري عندما يعلم شخصٌ ما فجأةً شيئاً لا يُطلب منه أساساً أن يعرفه ؛لست أدري كيف توصَّل إلى هذه المعرفة ولكني أعرف بأنها معرفة واقعية ويمكن أن تفيده كقاعدةٍ لعمله . الأحلام التنبؤية والتخاطر وكل الوقائع من هذا المستوى تُعدُّ حدوساً .لقد عاينت هذه الظاهرات معاينة وافرة وأنا مقتنعٌ بأنها موجودة وإننا لنجد منها لدى البدائيين ونراها في كل مكان ما دمنا نعير انتباهنا للإدراكات التي تدلف إلينا عبر الطبقات الوصيدية لكياننا . الحدس وظيفةٌ طبيعية جداً وسويةٌ كل السواء وضرورية ، ذلك أنها تنشغل بما لا نستطيع الإحساس أو التفكير به بسبب افتقاره إلى الواقع كالماضي الذي انقطع عنه والمستقبل الذي لا يحمل منه بقدر ما نظن . يجب علينا أن نكون ممتنين للسماء لامتلاكنا وظيفةً تمنحنا بعض الأنوار عمَّا «وراء الأشياء» وبالطبع فإن الأطباء الذين الذين يجدون أنفسهم غالباً بإزاء ظروف ملغزة هم أحوج ما يكونون إلى الحدس وإن أكثر من تشخيص موفق واحد هو فعل هذه الوظيفة العجيبة . وبوسعنا غالباً أن نبينٍّ خاصةً لدى الأنماط الحدسية الصريحة حدوثَ بعض الانطباعات الحواسية واستمرار بقائها وصيدية أي دون عتبة الوعي وأنها ليست بذلك أقلَّ استثارةً عبرَ بعض التداعيات الوسيطة لحدسٍ ما .هاكم مثالاً على ذلك : كانت مريضة تأتي لاستشارتي منذ بعض الوقت ؛ استقبلتها ذات نهار في الحديقة في بيتي الصغير الذي كانت له أبواب ونوافذ على جوانبه الأربعة بحيث لم يكن بالإمكان انبعاث أي رائحة في المكان عندما تكون كلها مفتوحة . أردت أن أباشر الحديث فسألتها عمَّا حلمت به البارحة فإذا بها تفاجئني قائلةً :

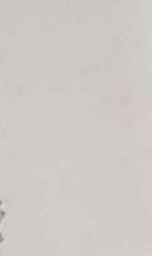
-لقد استقبلت رجلاً ، قبلي هذا الصباح !

فسألتها متعجباً :- ماذا تعرفين عنه ؟

-لقد أحسست به على نحوٍ مفاجىء .

Scanned with CamScanner

وقع نظري حينذاك على مرمدة ما زال فيها بعض أعقاب السجائر . لقد كان الوقت ما يزال باكراً في ذلك الصباح وغير متوقع أن تأتي سيدة لاستشارتي في ذلك الحين . ومن جهةٍ أخرى فإن مريضتي تعلم بأنني لا أدخِّن السجائر . وهكذا فقد استنتجت من هذه الحزمة من الوقائع البسيطة بأن الأمر لم يكن يتعلق إلاّ بزائر مذكَّر ودلف هذا الإستنتاج إلى نفسها دون علمها حتى بلغ فلك الواعية .فعلى هذا النحو انطلاقاً من إدراكاتٍ وصيدية ينشأ غالباً ما نطلق عليه اسم الحدس .



وعسانا لا نفاجأ بالأمر ذلك أن النمط الحدسي يعمل بأدق الاستنتاج على تحرير نفسه من الواقع العياني للأشياء .فما يهمُّه منها هو جوُّها ومناخها . لذلك فإن الحدسي يجد نفسه في مأزق «تعيساً كالحجر» عندما يواجه موقفاً واقعياً لأن هذا الأخير إذ ينتهي مستنفداً الإمكانات الجديدة يصبح بالنسبة إليه أشبه بالسجن فيستشعر ، مع احتمال أن يتألم ، حاجة ملحَّة إلى كسر الشبكة التي تكبِّله .تلك هي حال الحدسيين الذين يتنقلون باستمرار في العالم كالفراشات غير متحمِّلين واقع الأشياء وهاربين منها دائماً . وبإمكان هذا السلوك أن يمدَّ فروعه بعيداً جداً بحيث إن حدسياً يستطيع مثلاً التوصل إلى فقدان الانطباع بجسمانيته والإحساس الذي يملكه عن بدنه .لقد عرفتُ سيدة حدسيةً مرَّت بتلك التجربة . فكانت عائدةً إلى بيتها ذات يوم فاكتشفت على غير توقع وهي في الطريق إمكان بل وجود مسألةٍ جديدة فتنتها إلى درجة أنها جلست على مقعد على الرغم من درجة حرارةٍ أدنى من الصفر بخمس درجات وبقيت غارقة في أفكارها تتابعها غير آبهةٍ ببرودة الطقس بحيث أصابها ابترادٌ شديد ألزمها الفراش لعدَّة أسابيع . وهاكم مثالاً آخر : امرأة حدسية كانت تتمتَّع إضافة إلى ذلك بتوازنٍ نفسي رائع اجتاحتها خلال الجلسة الاستشارية كتلةٌ من المسائل المعقَّدة والأسئلة غير المتوقعة . سألتها :«من أين لكِ هذه الإرباكات ؟» لقد بدت لي لأول وهلة لغزاً تاماً . استحدست على نحو تدريجي (كان الأمر عندي يتعلَّق أيضاً بحدس!) بأن ثمَّة في الأمر شيءٌ ما بدني .فسألتها عمَّا إذا كانت قد تغدَّت فأجابت بأنها قد نسيت تماماً أن تأكل .لقد كانت جائعةً وحسب . فأمرت لها بكأسٍ من الشاي والخبز وإذا بالمشاكل تذهب من حيث أتت . لقد كان الجوع المكبوت في أساس ذلك الاضطراب . ويستطيع الحدسيون التعامي عن واقع الأشياء إلى درجةٍ لا توصف . عرفت أيضاً حالة مريضةٍ توقفت فجأةً عن إدراك وقع أقدامها على الأرض فانتابها رعبٌ شديد بحيث قررت سريعاً



Scanned with CamScanner

مباشرة العلاج . وقد يطول الحديث كثيراً عن مفاهيم الحدس والإحساس بيدَ أني أرى بأن ما سبق يكفي لتبيان المقصود فهمه من ذلك .

خلاصة

فلنتابع الآن عرضنا بعد أن أجبنا على الأسئلة التي ردَّتنا إلى الوراء . فقد تكلّمنا حتى الساعة عن أربع وظائف تساهم في توجيه وعينا وباشرنا موضوع التوجه في الفضاء النفساني الداخلي . وسبق أن أشرت إلى ثلاثة عناصر تساعد على هذا التوجه :

١ـ **الذاكرة** أي مجموع الذكريات وملكة استرجاع المواد المسجّلة سابقاً .

٢ـ **المساهمات الذاتية في الوظائف** . لم أتصور بأنكم قد استوعبتم تمام الاستيعاب هذه المسألة التي تشكل جزءاً من أصعب مكوِّنات علم النفس كله .ذلك أن المساهمات الذاتية واقعة تحت سيطرة بعض التحريم .فعندما تفكرون في أنفسكم أو مع مخاطَب فأنتم تتقيدون دائماً بدقةٍ بما تفكرون به أو بما تقولونه وبإسكات ما يمكن أن تُفكروا به هامشياً أي الشيء الذي قد يعاكس مقصدكم على نحو خطير . ولا بدَّ لنا من الإقرار بأننا دائماً محل أفكار استطرادية تابعة يدركها على نحوٍ شبه واضح تفكيرنا القصدي الذي يترافق أيضاً بسلسلةٍ من العواطف والحدوس والإدراكات وباختصار بمساهماتٍ ذاتية نحاول على العموم إسكاتها .

٣ـ **الوجدانات** : كنت اقول في نهاية عرضي السابق بأنَّ الوجدانات ، بما هي تفريغ انفجاري لشحنات طاقية ، تملك طابعاً فريداً من الاستقلالية تستطيع بفضله أن تحدِث تغييراتٍ عميقة في الواعية . الوجدانات قدراتٌ مِستِقلّ[1] autonomes مثلما هي الأرواح الشريرة مثلاً لدى البدائيين . إنها تعرِّضنا لضرب من الاعتداء ؛ وهي أشبه بشيء يغزونا من الخارج كالتماع البرق فيطوِّقنا ويستعبدنا وهذا هو السبب الذي لأجله تتلبَّس الوجدانات هيئات شخصية عند البدائيين . بعض الآلهة القديمة ليست سوى وجداناتٍ مجسَّدة فكِّروا لذلك بمارس وفينوس وإيريس وإيروس الخ . التشخيصات من هذا النوع موجودة بكثرة . وينسحب الأمر نفسه على الأمزجة المؤلّهة والطباع الانفعالية المرفوعة إلى رتبة الآلهة . فلنفكر أيضاً بالعبارات التي

(١) على وزان «مِفْعِلّ» اي قائمة بذاتها . (م)

Scanned with CamScanner

ما تزال مستخدمة في أيامنا مثل jovial و dionysiaque[1] الخ . هذا كله ناجمٌ عن الاستقلالية التي هي خاصية الوجدانات والتي تدعونا على نحوٍ ما إلى تشخيصها .فالعصور القديمة لكي تعبِّر عن «صعقة الحب» ما كانت تعرفُ ذلك إلاَّ باستدعاء «سمات إله الحب» . وبالنسبة إلى الغضب فإن إيريس هي التي كانت ترمي تفاحة الشقاق بين الناس .هذا هو الشكل الذي يشعر البدائيون من خلاله بالوجدانات التي تعني فقط لهم بأنهم متلبِّسون . فيفترضون بأن الشخصَ ضحية وجدانٍ ، شخصٌ ممسوسٌ بروح شرير ؛ فإذا عطس ملك زنجي مثلاً ترون الجلساء ينحنون طوال خمس دقائق على الأقل فالملك تبعاً لمعتقداتهم قد وُلد ولادةً ثانية ونفسٌ جديدةٌ قد انبثت فيه . وعلى هذا النحو أيضاً يتم تشخيص الأرواح التي تُحمَّل مسؤولية الأمراض وتُعامَل معاملة البشر بل تقدَّم لها الأطعمة وتُعيَّن لها المساكن أملاً في سجنها فيها .

٤ ـ **انبجاس الخافية**: نبلغ الآن إلى عنصر رابع . الوجدانات تشكِّل كما قلت لكم ضرباً من انفجاراتٍ مفاجئة . وتُظهر الحياة النفسية خصائص أخرى ليست انفجارات بقدر ما هي انبجاس مضامين نادرة في الوعيٍ واجتياحها له . إنها أشبه بشيء يدلف إلى مخِّنا عبر الجمجمة . لذلك فإني أفضِّل بدلاً من تسمية «الفكر المفاجىء الذي لا ندري من أين يأتينا» (Einfall) تسمية **انبجاس الخافية** . ثمَّة مضامين خافية تنبعث في الواعية وتتكشف فيها فجأةً مثل البرق في سماء صافية



والأمر يتعلق عموماً بضرب من التخلُّقات fantaisies أو أجزاء تخلُّقات تنضاف إلى الوعي مصحوبةً أو غالباً غير مصحوبة بقرقعةٍ وجدانية وتتخذ شكلاً عيانياً لها في انطباعٍ مفاجىء أو رأيٍ أو زعمٍ أو وهمٍ أو حتى هلوسٍ نصادفها أيضاً في خطِّ السواء [الطبيعي المألوف] . ويجهد المرء عموماً في إسكات هذه الأحداث لأنه يستشعرها كشيءٍ لا يليق التكلم عنه البتة . ولم يكن مبلغ اندهاشي بسيطاً عندما تحققت خلال تطوري في معرفة أعماق الناس من مدى تواتر هذه التجارب الغريبة. وعديدون هم الأفراد الذين حصلت لهم في حياتهم مرَّة واحدةً على الأقل أشياء فريدة من هذا النوع منبجسةً في واعيتهم ومثيرةً فيهم كرباً عميقاً وحذراً يشكلانِ بالإضافة إلى شعورهم بعدم اللياقة مخلَّفاتٍ من تحريمٍ قديم.والبدائيون لديهم

(١) معنى الكلمتين بالتتالي : جذِل وعربيد وهما صفتان مشتقتان من إسمي الإلهين Jovis و Dionysos . (م)

Scanned with CamScanner

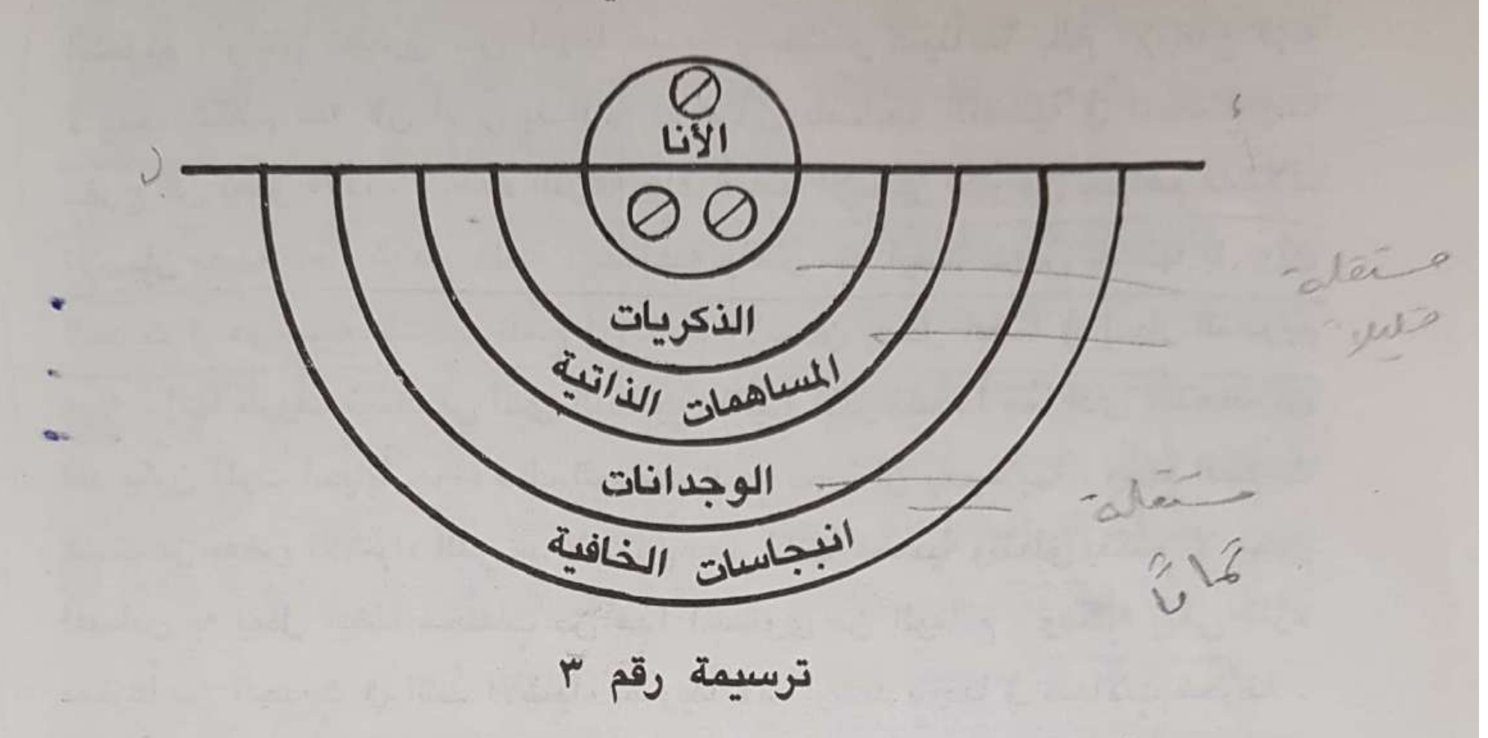
خوفٌ مقدس من الأرواح إلى حدٍّ أنه يحرِّم نطق اسمها . وسيتاح لنا فيما بعد فرصة الحديث عن المركَّبات التي هي مقادير مِستقلّ واقعة أيضاً تحت وطأة التحريم . وأنتم تعلمون بأن امرءاً عندما يستشعر شيئاً ما بالغ الإزعاج فإنه لا يحب الكلام عنه لأن الذي يتمادى في عرض مصاعبه النفسية في المجتمع إنما يخرج عن نطاق الأدب . وهذه النزعة ظاهرةٌ عند الإنكليز أكثر من سواهم فامتلاك الإنسان نفساً يُعدُّ عندهم غلطة اجتماعية وأكثر منه أيضاً عرضُ حالتها بل وإن الحديث في مواضيع فلسفية تلمّح إلى حياة الإنسان يدخل أيضاً في إسار التحريم عينه . إنها ظروف تستدعي لدى البدائيين تقيُّداً أكثر تشدُّداً ممَّا لدى المتحضرين فقد يكون الموت أحياناً جزاء هتك الصمت الذي يجب أن يحيط بها . ومنع الحديث عندنا عن بعض الأشياء التي قد لا تكون بحدٍّ ذاتها مضنية وتتعلق بتكتُّمٍ لا يجوز المساس به يمثل أيضاً مخلَّفاتٍ من هذا المستوى من الوقائع . وهكذا يبقى المرء ممنوعاً من الحديث في أشدِّ الأشياء تشويقاً لأنه أوصِد دونها في مجالاتٍ محرَّمة . إنك لتجد أعظم الحذر وأرهف الأدب إزاء هذه المسائل ولا أريد برهاناً على ذلك سوى الاحترام الفائق الذي يبديه البدائيون إزاء كلّ ما يمسُّ الأرواح .

لقد استطعنا بمؤازرة هذه التصنيفات الأربع من الوقائع النفسانية استطلاع المعطيات التي كان مطلوباً ذكرها هنا .فلنحاول تلخيص ما قلناه في ترسيمة تكمل الترسيمة الأولى . حقل رؤيتنا النفسانية ممثلٌ إذا شئتم في الترسيمة الثالثة بفضاءٍ رحب بعض أجزائه مضاء وإلى جانبها ينتصب عالم من العتمة هو العالم الداخلي المعتَم الذي لا نملك صورة واضحةً عنه ولا نستطيع أن نهبش منه البتة سوى قطعٍ صغيرة . الأمر أشبه بقاعةٍ أرى فيها تارةً هذه السيدة وتارةً تلك ولكني لا أرى أبداً المستمعين كلَّهم ممَّا يولِّد عندي انطباعاً في لحظةٍ ما بأنه لا يوجد هنا أحدٌ سوى هذه السيدة أو بأن الأولى قد استبدلت بها الثانية التي أراها وحدها بدورها . هذا هو ما يجري في فضائنا الداخلي وفي الواقع فإننا نملك فضلاً عن هذا شيئاً من علمٍ مجملٍ بالمجموع الذي لا يكون بفعل ذلك أقلَّ التحافاً بظلٍ عميق . فيبدو أن حزمة وعينا المضيئة محدودة وأن هذا الحد يحول دون إحاطتنا السوية بأكثر من حالة نفسية في وقتٍ واحد . وأكثر ما تتجلى صحة ذلك عندما نكون تحت سيطرة وجدانٍ يأسر كل انتباهنا وكل أفكارنا بحيث لا نستطيع خلاله التفكير بشيء



Scanned with CamScanner

آخر . فإذا كنت مستثاراً استثارةً عنيفةً فأنت لا تعيش سوى غضبك ولا تتوصل خلاله إلى إزاحة عقلك المفتتن بالأفكار التي ألهمك إيَّاها .



ترسيمة رقم ٣

كل الجزء الأدنى عند القطر أ ـ ب يمثل العالم المعتم . وعلينا في البداية أن نموقع في هذا العالم كما عند محيطه **انبجاسات** الخافية التي يمكن مقارنتها بهتافاتٍ مثلاً تقطع الآن خيط دائرتي . ثم تأتي **الوجدانات** في مكان أقرب إليَّ وبعدها أكثر قرباً **المساهمات الذاتية للوظائف** التي هي في متناول الأنا ولم تعد تتمتَّع باستقلاليتها الأمر الذي يجعلها تتمايز عن الوجدانات والتي يمكن للمرء إلى حدٍ ما تكييفها على هواه فأستطيع مثلاً أن أقول : «صباح الخير يا سيِّدي ، إني أتشرَّف بلقائك» وأتابع مع ذلك في سرِّي قائلاً : «فليذهب إلى الجحيم !» فمثل هذه الفكرة الأخيرة أعزلها وأبقيها سرية بفضل جهدٍ إرادي غير ملحوظ ذلك أن المساهمات الذاتية لا تمارس على الأنا السيطرة التي تمارسها الوجدانات وانبجاسات الخافية . فإذا كان وجدانٌ ما هو الذي يلهمني القول : «ألا لا ردَّه الله !» فلن يكون بوسعي الامتناع عن تجديف تلك اللعنة إلَّا إذا كنت ماهراً في الكبت ومارست جهداً مضنياً على نفسي .

أخيراً فلنضع **الذكريات** في الجوار المباشر للأنا . في هذا القطاع يتمتَّع نشاطنا القصدي بالسيادة إلى حدٍ ما ولكن إلى حدٍ ما فقط لأنه يمكن للذكريات أيضاً أن تتصرَّف على نحوٍ عفوي فتنبجس بغتة دون أن ندري كيف ولماذا مثيرة

Scanned with CamScanner

فرحنا أو حزننا وبالغةً أحياناً حدَّ الهجاس . ويحدث هذا الأخير عندما تكون الطبقات الدنيا لمنظومتنا النفسية محلاً لضرب من اندفاع بركاني يفرض على الوعي مواد محدَّدة.و**الإلهامات الخلاّقة** تنبجس غالباً هي الأخرى هكذا من العالم النفسي المعتم الذي تنطلق منه المضامين الخافية إلى أن تنتهي بالولوج إلى الوعي حيث تعيِن في الوقت عينه الوجدانات . نحن نجهل غالباً الشيء الذي ينزع إلى الانبجاس ونتحقق فقط أن هذا الشيء يخلق وجداناً هو أولاً ما تعرف طبيعتنا أن تستقبل منه .فيسوء خلطنا humeurأو نصبح مغتضبين . «مابك ؟» ـ «لاشيء ، إني غاضب !» ذلك أمر يومي . وعلى هذا النحو تُفسد الوجدانات لعبة المساهمات الذاتية للوظائف فلا أتمكن بعد من التركيز وأنطق بحماقاتٍ أو بعكس ما أتمنى قوله وأهنىء بدلاً من تقديم التعازي وأراكم الأخطاء الاجتماعية لسبب وحيد هو أني على خلاف عميق مع نفسي.

• لقد سبق أن قلت أعلاه بأن جانب الأنا المضاء ومنحدر الوعي يتمتَّع بامتياز الإرادة لأن الأنا الواعية هي في حالة الإرادة والتصرف إلى درجة ما ـ هي درجة انفراقهما ـ بوظائف الوعي.وهذه الأخيرة هي أشبه بأربعة فيالق عسكرية نوجهها إلى حيث تدعو الحاجة . بيدَ أن ما يظهر تحت قطر الدائرة أ ـ ب لا ينتظم بالسهولة عينها . فالجانب الانفعالي حرونٌ بإزاء إيعازات الأنا والسيطرة عليه التي هي موضع تساؤل دائم وغير ناجع البتة تماماً تتطلب جهوداً شاقة . إن ملكات القيادة هنا مقلوبة والأنا أشبه بعض الشيء بعليل هزلية نسترَوا Nestroy حيث يجري المشهد التالي : يرى المشاهدُ الآمرَ فقط وفي الخارج فيما وراء الزينة والزخارف ينبعث طلقٌ ونسمع المعلول يصرخ : « سيِّدي ، لقد أسرت أحدهم !» ـ «إيتني به» .فيجيب المعلول : «إنه لايتركني !» . إن مثلنا نحن إزاء انفعالاتنا كمثل ذلك المعلول مع أسيره . إنها تثبتنا في سلبية الضحية وتكون هي الممثلون الفاعلون .ليس للإرادة نجوعٌ إزاء الطبقات العميقة للمنظومات النفسية إلاَّ بمقدارٍ ضئيلٍ جداً فمؤدَّاها الفاعل لا يتجاوز حدود التذكر . والذاكرة نفسها كما رأينا لا تشكل وظيفة إرادية ورقابية إلاّ إلى حدٍ بسيط فهي غالباً ما تحوك لنا المقالب . إنها أشبه بحصانٍ حرونٍ لا يمكن السيطرة عليه وهي تقاوم غالباً على النحو الأشدِّ إرباكاً . فعندما أبحث عن ذكرى تفلت مني متعنِّتة فإن عنادي قد يكون غير ذي جدوى لأن الذكرى

Scanned with CamScanner

المطلوبة لن تحضر إلى عقلي على الرغم من جهودي كلها . نحن مرتبطون بالأداء الجيِّد لذاكرتنا فلا يمكننا أن نريد تذكُّر أيِّ شيء على وجه الإطلاق والحري بنا عندما تمتنع علينا ذكرى معينة الا نتوقف كثيراً عندها فقد تعود إلينا في أثناء الليل، أو في الغد بعد أن نتركها بسلام ونكفّ عن التفكير فيها .

الأمر هو أكثر صحةً أيضاً عندما يتعلَّق الأمر بالمساهمات الذاتية التي تفلت من رقابتنا الشخصية والتي يلاحظها على نحوٍ أفضل شخصٌ ثالث . إنها تجري فينا دون أن نستطيع كبحها . «فلا يمكن للمرء أن يضع حدوداً لخواطره» ولا يمكنه الامتناع عن التفكير بحماقة ولامنع تفاهات مضحكة من اجتياح عقله ونحن عندما نطبق الصرامة والجدية نفاجأ بضحكةٍ خرقاء تهزنا . من هنا فإن مآدب الدفن الرائجة في بعض المناطق تنحدر أحياناً إلى قصوفٍ احتفالية تفيض حبوراً لسبب بسيط هو أن الخافية المعاوضة تنفعل على نحوٍ ظاهر بهذه المناسبات الحزينة فلا يعود بإمكان المرء وقد اجتاحته العدوى تسعفها بالخمر كبح نتائجها .

وإذا ماانتقلنا أخيراً إلى الوجدانات وانبجاسات الخافية فإننا نتحقق بأن الإرادة ليس لها الكلمة الفصل في تلك القطاعات . فبإمكانك على أبعد تقدير نكران وجود الوجدان والإدعاء المكابر بأن «مامن أحد يوجد في المنزل» . فلكي تكبت وجداناً ليس لكَ سوى وسيلة الامِّحاء بلجوئك على نحوٍ ما إلى الهرب عند اقترابه منك .



الإنطواء والإنبساط[1]

علينا أن نميِّز بين صنفين عظيمين من الموجودات الإنسانية التي تتصرف بطرقٍ مختلفةٍ كل الاختلاف بإزاء العالم الخارجي والعالم الداخلي . فأفراد الصنف الأول يتخذون موقفهم على شكل ⊘ (ترسيمة رقم ٣ ، ص ٩٦) حيث ينحرف مركزهم قليلاً نحو الأعلى ويتعرَّضون منذ أن تواجههم صعوبة إلى البحث عن نجاتهم وخلاصهم في العالم الخارجي.إنهم يهربون على نحوٍ ما خارج انفسهم ويرععن لمن يريد أن يسمعهم كما لو انهم بذلك يتَّقون المغامرة المشؤومة الحاصلة

(١) راجع علم النفس المركب : «برميثيوس وإيميثيوس» ، ص ٨٧ . (م)

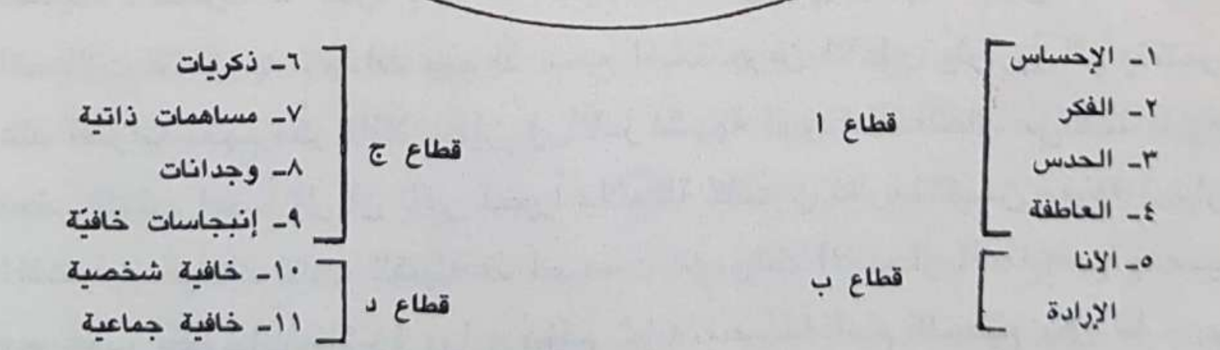
لهم . إنه الإنسان **الانبساطي** الذي يشركك بصدقٍ مدهش بالمصاعب التي يصطدم بها . وقد نعتقد بأنه لا يأخذها على محمل الجد فيصوغها وجداناتٍ يقرع بها كافة الأبواب ليشرك الآخرين بمآسيه في التخلص ربَّما عند هذا أو ذاك من هذا العبء الذي هو عنده شخصيٌ في جوهره . Freud

أما أفراد الصنف الثاني فيتصرَّفون تبعاً لإوالية معاكسةٍ سويةٍ هي الأخرى حيث ينزاح مركز شخصيتهم قليلاً نحو الأدنى في شكل ⊘ ⊖ (الترسيمة الثالثة) وعندما تفاجئهم مكيدة في الطريق فإن الإبهار الذي يمارسه عليهم عالمهم الداخلي قويٌ إلى حدٍّ أنهم في مناسبة هذا التوقف الآني في مسيرة حياتهم - وبسبب ارتداد الطاقات التي بانسحابها من العالم الخارجي تنعش عالمهم الداخلي - يقع عليهم على نحوٍ ما من الخلف جذبٌ يجرِّدهم من الواقع المحيط وقد يعرِّضهم بإفراطه إلى الانبلاع في عالمٍ وهمي . إنه النمط **الانطوائي** الذي ينزع على الرغم من جهوده إلى التواري في عالمٍ من الذكريات والوجدانات الجامحة . إنه بالطبع أسلوب آخر في مواجهة صعوبات الحياة حيث ينساق المرء مع افتتانٍ داخلي دافناً نفسه مع وجداناته لكي يعود فينبعث بعد أن تكون قد توقفت . بيدَ أن هذا النمط يعرِّض نفسه لخطر انفجار القنبلة التي يحبس نفسه فيها ويتهم المرءُ حينئذٍ العالم كله بأنه على علمٍ بخيباته وأن «العصافير تصدح بها على الأسطحة» .ثمَّة إنسان مثلاً يستشعر صعوبات متنامية فينسحب من حلقة الأصدقاء ويتوارى في أعماق نفسه ثم يكتري منزلاً منفرداً ويتجنَّب ما أمكنه التحدث مع المستأجرين الآخرين .وذات يوم شعر هذا الشخص شعوراً مزعجاً بأن شيئاً يجري لا يستطيع تحديده . خطرت له فكرةٌ بأن ثمَّة مذياعات تعمل وأن خطوطاً جرى مدُّها لإقامة اتصالات تتعلق به . وذات يوم إذ سمع المستأجرين الأعلين يثرثرون ثم يتكتمون عند اقترابه منهم فكَّر قائلاً : «إن في الأمر لشبهة !» ودامت الحال على هذا المنوال بعض الوقت ايضاً إلى أن تلقى أخيراً ملاحظة كانت في نظره تتضمن معرفة أسراره المفشية . حينذاك كانت القنبلة قد أصبحت على وشك الانفجار . انتابه هياج عظيم مصحوب بصرخاتٍ ناشزة وراح يخلع ثيابه مصرِّحاً أمام الجميع بكل ما جرى حسب زعمه ومعترفاً بحقارته . يُقال عندئذٍ بأن هذا الرجل مجنون ويضعونه في

Adler

Scanned with CamScanner

ترسيمة رقم ٤



ملاحظة : نقترح على القارىء أن يقوم بتلوين القطاعات الأربعة على التوالي ، وبدءاً من ا ، بالأحمر فالأبيض فالأصفر فالأزرق ، فتستبين الصورة لديه على نحو بارز . (م)

Scanned with CamScanner

مأوى المعتوهين[1] .

في تمثيل آخر (الترسيمة الرابعة) يمثل الجزء الخارجي (أ) الوعي والعالم الواعي كما نبصره ونتوجه فيه بفضل الإحساس والحدس والفكر والعاطفة . أما القطاع (ب ـ ٥) الذي يفيد كمعبر بين القطاع (أ) والقطاع (ج) فيمثل العتبة التي تنقل الأنا من العالم الخارجي إلى العالم الداخلي . وما دام العالم الخارجي الواعي يشدُّ إليه كل انتباهنا فلن نلحظ شيئاً يذكر من هذا العالم الوسيط ولكن ما ان يتراخى تركيز الوعي حتى تنبعث الذكريات والمساهمات الذاتية والوجدانات آتيةً من مركز معتم وحده مصطلح الخافية يزعم التنويه به .

وعلى هذا النحو يمكن للمرء أن يلاحظ بوضوح عند البدائي بأن هبوط الليل يثوِّر في نفسه تصوره للأشياء . لقد كان اهتمامه طوال النهار منصباً على العالم الخارجي العياني ولكن ما ان تحلَّ العتمة حتى يصبح كل شيءٍ سحرياً وضاجّاً بالأرواح ذلك أن غروب الشمس يترافق لدى البدائي بانطفاء الوعي النهاري وما ان يغيب الضوء حتى ينبعث العالم الخارجي عند البدائي واقعياً وعيانياً تماماً كالعالم الخارجي ثمَّة مضامين تصدر عن الخافية النفسية وتنتشر في الجانب الواعي من العالم الداخلي الفردي محدثةً فيه بعض الآثار التي يفلت مصدرها الصميمي من وعي البدائي فينسبه إلى سبب وحيد هو العالم الخارجي الذي يعرفه . وبعبارة أخرى فإن الأرواح بالنسبة إليه وقائع وكيانات مثلكم ومثلي . صحيح بأنه لا يمكننا رؤيتها غير أنها ليست لذلك أقل واقعية بل هي تحتاج إلى الطعام وعندما يردُّ رجل أبيض على بدائي بأن الأرواح لم تمسَّ الطعام الذي وضع لها يجيبك هذا بأن الأرواح تغتذي من طعام غير مرئي بتنشُّقها للروائح . وذلك يذكِّرنا تماماً بالتصور القديم للآلهة الذي كانت بموجبه تتمتَّع بروائح الأطعمة وتغتذي بها . إذاً فإن **الداخل عند البدائي مخلوع على الخارج ويظهر دائماً طوال الليل .**

(١) ليس النمط الانبساطي أشد مناعة دون الاضطرابات العصبية . إذا كان الانطوائي يميل بمزاجه في حال الاختلاطات المرضية نحو الفصام فإن الانبساطي ينزع بالحري أيضاً في حالة الإفراط المرضي لاستعداداته السوية إلى اضطرابات من النوع الهستيري . فصحيح كل الصحة ان الأمراض المسمَّاة عقلية تتشكل من افاعيل سوية مضطربة ومفرطة وليس من كيانات مرضية تتمتع بنفسانية مقصورة عليها . (رك)

Scanned with CamScanner

أما عندنا فلم يعد الأمر هكذا إذ قد أصبح كل ذلك معتماً وانقطعت التعاقبية النهارية الليلية فنحن عند المساء ما كنّا إياه خلال النهار وأكثر ما هنالك أننا قد نضحك ربما من الليل لكن الشعور بأن العالم المعتم مختلفٌ عن العالم المشمس قد أصبح غريباً عنا كل الغرابة وبالفعل فإننا لم نعد نخلع بالسذاجة عينها معطياتنا الداخلية على العالم الخارجي . وذلك لا يعني بأن هذه المعطيات لم تعد تشغلنا بل تضطرنا هي نفسها إلى إمعان النظر بها وتشييدها علماً ولنقل علماً نفسانياً . نحن الآن نتكلم عن منظومة نفسية وخافيّة وانبجاسات ووجدانات الخ هي مفاهيم تؤطر لنا المجال الشرعي لواقع نفسيٍ خافٍ . غير أن الأمر الذي ما يزال بالغ التواتر عندنا هو إسقاط هذه الوقائع الداخلية على الخارج . هذه الإسقاطات تجعل نفسنا عُرضةً للنهب لأن ما يعيش فينا في الواقع يتخذ له وجوداً خارجياً[1] .

(١) مع كل النتائج الناجمة عن ذلك : فما دام معطى ما داخلياً فينا فإنه يبقى في متناولنا ونحن نستطيع الزعم بأننا نسيطر عليه ونعدِّل فيه ونأخذه بعين الاعتبار بيدَ أن كل الأشياء تتوقف لأن هذا المعطى يصبح غريباً عنا وبعيد المنال مذ يتمُّ إسقاطه على العالم الخارجي . من هنا تأتي في الغالب المشاريع الإصلاحية الجميلة الموجَّهة إلى الآخر مع جهلنا بأننا نحمل صفةً نمنحه إيَّاها مجاناً وقد كان من الأفضل تحقيقها في نفسنا . لعلنا نود من أجل ذلك كتابة : «هذه الاسقاطات التي يؤسف لها ..» لو أن الأسف عليها لن يكون عقيماً . لأن على النفساني في أيامنا أن يعرف بالإضافة إلى الأهمية العظيمة لظاهرة الإسقاطات الطبيعة القسرية عموماً لكلٍ منها . فلا بدَّ من خبرة معالجٍ نفسي لكي يتصور الصلابة التي تسم غالباً إسقاطاً ما . كذلك ربما كان يفضُل بالحري التأسف عليها ـ لأن إسقاطات فردٍ هي ما هي وما يجب ربما أن تكون تبعاً لعصره ومصيره الفردي ـ الاجتهادُ في احتياز الوعي بدقة العمل الذي يقوم على إعادة شيءٍ من الترتيب إلى الشبكة الإسقاطية وبالتالي شيء من الصحة إلى حياة الفرد . (رك)

Scanned with CamScanner

٤

تجربة تداعي الأفكار

١(١)

لقد استعرضنا فيما سبق العناصر الضرورية للتوجه في ميدان الواعية ولم نتكلم حتى الآن عن الخافية إلَّا تلميحاً لأن علينا قبل مقاربتها تبيُّنَ السبل المؤدية إلى الفضاءات الصميمة المعتمة والتأكد من أن دروب النفاذ التي سيكون علينا سلوكها ممهَّدة في البداية على الأقل وخليقة بشيء من الثقة العلمية.لذا يجب عليَّ أن أحدثكم عن المناهج المستخدمة ومفاهيمها الأساسية . سأكلِّمكم أولاً عن **تجارب التداعي** .فنحن معها سنتحرَّك بكليتنا في ميدان علم النفس التجريبي.بيد أن هذه التجارب تضعنا في مستوى دراسة وقائع جوهرية تضيء وظائف الخافية إضاءة جدُّ شيقة وفردية . لقد كانوا في البداية يضعون لهذه التجارب أهدافاً مختلفةً كل الاختلاف فكانوا يسعون إلى دراسة إوالية التداعيات دراسةً تجريبية الأمر الذي كان يوطوپياً بما فيه الكفاية ذلك أن وسائل بدائيةً جداً لم يكن بمقدورها أن تقدِّم العون في ميدان بالغ التعقيد كميدان تداعياتنا . بيدَ أن المتواتر في العلم هو أن أبحاثاً لا تحقق الآمال المعقودة عليها تفتح أمام دهشة الباحث العظيمة آفاقاً جديدة غير متوقعة . إن سيرَ تجربة كهذه مكيَّفةٍ لدراسة المركَّبات هو التالي : يتجهَّز المجرِّب بلائحة كلمات تسمَّى **كلمات حاثّة** اختارها بالصدفة ولا يجوز أن تكون لها فيما بينها أية صلة ذات معنى وذلك شرط لا بدَّ منه لتجربة في التداعيات الصرف . إن علينا اختيار كلماتٍ معزولة ـ ولنكرر ذلك ـ معرَّاةً من كل علاقة ذات معنى . إليكم مثلاً على ذلك : «داء» ، «مدوَّر» ، «كرسي» ، «عشب» ، «أزرق» ، «سكين» ، «ساعَد» ، «وزن» ، «جاهز» ، بحيث لا يفوح عندما نعرض على المفحوص واحدة

(١) راجع علم النفس المركب : «من الترابط إلى المركب» ، ص ١١٧ . (م)

Scanned with CamScanner

بعد أخرى من هذه الكلمات أيُّ إيحاء (الأمر الذي ليس هو نفسه البتة في الحالة التي تشكل فيها جملة كلمات موضوعاً معيناً) . **يطلب المجرِّب من المفحوص أن يرجِّع réagir بقدر ما يمكنه من السرعة بإزاء كل كلمة حاثة لافظاً فقط الكلمة الأولى التي تخطر له**[1] فبإزاء كلمة «ماء» التي يلفظها المجرِّب يجيب المفحوص بقدر ما يمكن من السرعة بأول كلمة تخطر له مثلاً : «مبتلّ» أو «أخضر» أو«H_2O» أو «غسل» الخ . يقيس المجرِّب زمن الرجع[1] بواسطة ميقات يؤشر على أخماس الثانية . (إن تحديداً أكثر دقة قد يكون نافلاً وجهداً ضائعاً ذلك أن الأخطاء الملازمة لهذه التجربة هي من مرتبة قياس أعلى من خمس الثانية) . يطلق المجرِّب الميقات مثلاً كل مرةٍ يلفظ فيها المقطع الأخير من الكلمة الحاثة ويوقفه حالما ينطق المفحوص بالمقطع الأول من **الكلمة المحثوثة** ويسمَّى الزمن المنقضي **زمن الرجع** . إني أباشر خمسين رجعاً أو أكثر ذلك أن عدداً مفرطاً من الرُجُع مضرٌ بسبب التعب المتداخل فيُكتفى عموماً بخمسين إلى مائة رجع .

يلاحظ المرء خلال هذه التجارب بأن أزمنة الرجع متباينةٌ كل التباين فهي قصيرةً تارةً وطويلة تارةً أخرى . ويلاحظ أيضاً بأن بعض الأجوبة تشوبها الاضطرابات : إذ ينسى المفحوص التوصية الأولية التي كانت تطلب منه الإجابة بكلمة واحدةٍ فيردُّ بجملةٍ كاملة . أو إنه يهمل معنى الكلمة الحاثة ويردُّ بتداعٍ نغميٍ الأمر الذي هو أيضاً ليُّ للتعليمات المسبقة . وثمَّة طوارىء أخرى تفاجىء المجرِّب : فقد يلفظ المجرِّب كلمة «ماء» فيرد المفحوص بـ : «ماء ـ خذ ـ أخضر» الأمر الذي يشكل بين أمور أخرى تكراراً غير متوقع للكلمة الحاثة أو أيضاً :



(١) تستند التجربة في نهاية التحليل إلى الظاهرة النفسانية العامة التي تبعاً لها تثير حالةٌ معينة من الوعي هي هنا إحساس سمعي حالاتٍ أخرى من الوعي إما بهدف استدماجها وإما بهدف استتباع أخرى غيرها ، ظاهرة جعلت هيوم يقارن التداعي في حياتنا النفسية بالجاذبية في العالم الخارجي ذلك أن حالات الوعي تتجاذب كما تتجاذب الأجسام .



في ترتيب التجربة حيث لا يحكم «قانون المصلحة» التداعيات إلا على نحو ضعيف جداً تنتقي هذه الجواذب من قبل الوشائج الترابطية الفكرية والعاطفية على نحوذاتي وعفوي «الشريك الفعلي» بين جمهرة من «الشركاء المكنين» . (رك)

(٢) الزمن المقاس هنا زمنٌ شامل مؤلف من زمن الإحساس والتداعي والرجع بحصر المعنى . (رك)

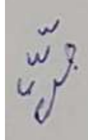
Scanned with CamScanner

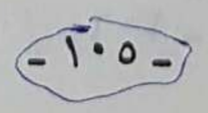
«أخضر - آه ! كنت أريد أن أقول أزرق» : لقد تعرَّض المفحوص لزلة لسان . أو قد يعمد أيضاً إلى الضحك ويهتف أو يجيب بشيءٍ ما غير مطابق : «نعم» أو «لا» تسبق مثلاً الرجع المطلوب . أو أن المفحوص لا يفهم أو يفهم فهماً سيئاً الكلمة الحاثة المنطوقة بوضوح أو أنه يرجِّع بكلمةٍ تسمَّى مُقَوْلَبة stéréotypé أي بكلمة محثوثة هي عينها إزاء تنوعٍ من الكلمات الحاثة . هناك مثلاً مفحوصون يرجِّعون على نحو متواتر مكررين كلمة «جميل» فنسمِّي كل هذه الاضطرابات وأزمنة الرجْع المفرطة في طولها أو أغيبة الرجع **إعلِمات مركَّبات** . لقد تأكَّدنا بالفعل أن الكلمات الحاثة التي تحدث اضطراباً ما في الرجع هي تلك التي نصادفها لدى المفحوص مشحونةً بمضامين **انفعالية** أي تلك التي توقظ صدىً في الجزء من النفس المتمثل بالقطاع (ج) من الترسيمة الرابعة (ص ١٠٠) والتي تصيب على نحوٍ ما الفلك الصميم المحرَّم . أما إذا كانت كلمة حاثة لا تهمُّ سوى صفحة الوعي فإنَّ الرجْع يكون سوياً ولا يجري أي شيء غير مألوف ولكن بالعكس عندما تخدش الكلمة السدود الواقية للحياة الداخلية وتخترقها نافذةً إلى صميم الأنا فإنها تحدث اضطراباً في الرجع الخارجي بإطلاقها في داخل الفرد **حِراكيةً** automatisme ليس المفحوص مهيَّأً لها فتأسر انتباهه وتستولي عليه بشكلٍ ما مانعةً إيَّاه بذلك من التقيد بالتعليمات المعطاة[1] .

أربط بطور التجربة الموصوف أعلاه طوراً ثانياً أسّه ما يلي : بعد أن يسجِّل

(١) العناصر النفسانية كلها التي هي ذات توتر مرتفع يصعب التأمل معها . فإذا كان شيء ما مثلاً هاماً جداً بالنسبة لي فإني أبدأ عند مباشرتي له بالتردد . ومن الأرجح انكم لاحظتم عندما تطرحون عليَّ أسئلةً دقيقة بأني لا أستطيع الإجابة عليها في الحال وذلك لأن للموضوع اهميته فيلزمني لذلك «زمن رجعٍ طويل» من حيث إن ذاكرتي لا تقدِّم لي فوراً المواد المطلوبة . إنها اضطرابات تثيرها مركبات ليست شخصية بالضرورة ولكن لأن السؤال المطروح يشكل امراً هاماً بحد ذاته . إذن فإن كل ما له نغمية شعور بارزة يصعب التعامل معه ذلك انه على صلة برُجُعٍ طبائعية وبضربات القلب وبحضربة الأوعية والحالة المعوية وإعصاب الجلد . إن كلَّ عنصر ذي توتر مرتفع يؤازر البدن كما لو كان متموقعاً فيه يضرب فيه جذوره الأمر الذي يجعله ذا وزنٍ ويمنحه عطالةً ويجرِّده من حركية الوقائع الروحية الصرف .

وبالمقابل فإن عنصراً قلَّما يختزن من التوتر ومن القيمة الانفعالية يمكن إزاحته وتكنيسه على نحوٍ ميسَّر ذلك أشبه بالمعدوم الجذور ومنقطع التلاصقات مع شخصي .





Scanned with CamScanner

المجرِّب عدداً من التداعيات يستعيد قائمة الكلمات الحاثة من بدايتها راجياً المفحوص تكرار الجواب الذي ردَّ به على كلٍ منها . فيسأله : بم أجبتَ على كلمة «ماء» فيتذكَّر المفحوص إجابته أو لا يتذكَّرها أو يعتقد أيضاً أنه يتذكَّرها ولكنه يرد بإجابةٍ مختلفة . على المجرِّب أن يسجل كل هذا . الرُجُع المنسية تشكل **إعادات رُجُع مشوَّهة** . لقد تحققنا من أن هذه الأخيرة هي أيضاً إعلِماتُ على وجود مركَّب تماماً كالاضطرابات الأخرى التي تميِّز التداعيات التي لامست الفلك الوجداني . ولنضف بأن موقف المفحوص وحركاته وتعابيره وضحكته وسعاله وتلعثماته المتوقعة تقدِّم أيضاً للمجرِّب المتمرِّس دلائل قيمة . والآن فلننسخ تجربةً مماثلة .

الكلمة الحاثّة	زمن الرجع	إعلِمات المركب	إعادة الرجع
ماء	$\frac{٤}{٥}$	.	+ = صحيح
مدوَّر	$\frac{٤}{٥}$	.	+
كرسي	$\frac{٥}{٥}$	.	+
سبح	$\frac{٦}{٥}$	.	+
أزرق	$\frac{٧}{٥}$	.	+
سكين	$\frac{٢٠}{٥}$	٣	– = خطأ
ساعَدَ	$\frac{١٥}{٥}$	٣	–
وزن	$\frac{١٠}{٥}$	١	+
جاهز	$\frac{٨}{٥}$	.	–

إننا نعاين ههنا سلسلة أزمنة رجعية تنحدر من عشرين خُمساً إلى ثمانية أخماس الثانية . الزمن الرجعي المتوسط السوي لهذا المفحوص هو سبعة أخماس الثانية .فبإزاء كلمة «سكين» يظهر زمن رجعي متطاول يأخذ بالتناقص خلال التداعيات الثلاث اللاحقة . نسمِّي ذلك مثابرة ونفترض بأن كلمة «سكين» قد أصابت الفلك الوجداني للمفحوص الأمر الذي شلَّ انتباهه مؤقتاً . وتكشف

Scanned with CamScanner

إعلمات المركَّب بأن المفحوص لا يتوصل إلى الترجيع الصحيح وأن إعادات الرجع هي الأخرى مضطربة[1] . بم يتعلَّق الأمر عند المفحوص الذي ذكرنا ؟ ماذا يعني كون كلمة «سكين» المسموعة يطلق مثل هذه الرُجُع ؟

الرُجُع التالية سوية هي الأخرى حيث يحدث مجدداً زمن رجع مطوَّلٍ بإزاء كلمة : «حربة» .

الكلمة الحاثّة	زمن الرجع	إعلِمات المركب	إعادة الرجع
حربة	١٢/٥	١	—

وتلي ذلك بعض التداعيات السوية ، ثم :

الكلمة الحاثّة	زمن الرجع	إعلِمات المركب	إعادة الرجع
ضرب	٩/٥	١	—
شجرة	١٠/٥	١	+

الكلمة المحرجة هنا هي «ضربَ» ومع ذلك فإن الاضطراب الأهم لم يظهر إلَّا فيما بعد . ولم يستشعر الترابط مع الفلك الوجداني بوضوحٍ على نحو مباشر. فالزاوية تقريباً لم تتعمَّق إلَّا تدريجياً ولم تحدث الاضطراب الرئيسي إلا خلال الرجع التالي ثم توقفت بدورها وهذا ما نسميه **مثابرة نسبية** . وثمَّة كلمة ثالثة أحدثت ايضاً سلسلةً مضطربة هي كلمة «مدبّب» متبوعةً بثلاث كلمات حيادية :

الكلمة الحاثّة	زمن الرجع	إعلِمات المركب	إعادة الرجع
مدبّب	١٥/٥	٢	—
	١٨/٥	٣	—

(١) على هذه الظاهرة تقوم الاستجوابات القضائية المتقاطعة التي يجتهدون إبانها في الإيقاع بالأفراد المشتبه بهم إذ ينسى هؤلاء كما في تجربتنا في الأنحاء التي كذبوا فيها طبيعة تخريفهم . والقرّاء المطلعون في هذا المجال لا يفوتهم التعرُّف إلى مبلغ الإثارة الشديد في التقريب بين الممارسة القضائية والمعاينات النفسانية .

Scanned with CamScanner

١٠ / ٥	١	+
٦ / ٥	.	+

حدثت هناك جملة إعادات رجعية خاطئة فالمفحوص هنا أيضاً قد رجَّع قبل أن يمارس المصطلح المحرج فعاليته الكاملة التي لم تنفجر إلَّا عند الرجع التالي .

لقد كان المفحوص رجلاً ابن ٣٢ عاماً مستخدَماً في عيادةٍ حين تمَّت التجربة وقد أراد بطيبة خاطر تقديم نفسه لإجراء التجربة . لم أعلم حينذاك شيئاً عن حياته . وسألته بعد التجربة :

- هل لاحظت بأنَّك تردَّدت طويلاً بعد التجربة ؟
- لا بل أجبت دائماً إجابة مباشرة .
- هل تعلم ماإذا كنت قد ارتكبت أخطاءً في إعادة الإجابة ؟
- كلَّا بل كانت كل إعادة إجاباتي أمينة !
- وغير هذا هل لاحظت شيئاً ما خاصاً ؟
- لا وإلَّا لقلت ذلك .
- هلا سمحت لنفسي بعرض خواطري عليك ؟ لا بدَّ أن قصة مزعجة قد جرت معك في الأيام الخوالي لعلَّها عراك بالسكين كانت له بلا شك عواقب وخيمة !

كاد الرجل يقع عن كرسيِّه !

- كيف عرفت ذلك ؟

فسألته عمَّا إذا كان الأمر دقيقاً فأجاب :

- أجل ولكني كنت أبعد ماأكون عن التفكير به .

كان هذا الرجل قد نفَّذ عقوبة بالسجن في الخارج بسبب مشاجرةٍ بالسكين كان قد جرح خلالها خصمه جرحاً بليغاً . وكانت تلك لوثةً معتمةً في حياته حرص بالطبع على ألَّا يعلم بها أحدٌ من محيطه الراهن . أما هو فقد اجتهد في نسيانها . لقد كان بعد شاباً في زمن الحادث الذي يرجع إلى عشرٍ من السنين ولم يتصور ولو لثانية واحدة بأنه قد يكون بإمكاني العثور على أثرٍ لها . ولكن تحققوا أنتم بأنفسكم

Scanned with CamScanner

من ذلك . إن كلمات «سكين» و «حربة» و «ضرب» و «مدبّب» قد جعلته ينتفض وهذا يسمح برسم التشخيص . وما هو الأكثر تشويقاً هو أن **المفحوص نفسه لم يلحظ شيئاً من تردُّداته** . إذ أن وعيه في كل مرة تحوم فيها كلمة حاثة محرجة كان يُفتتن في الحال فينكفىء نحو الداخل ولا يلحظ شيئاً ممَّا يجري في الخارج لذلك فإن المفحوص لا يعاين أنه يتردّد . إنه ضحية غفلة تأسر انتباهه لحظةً يمضي الزمن خلالها ثم يعود إلى نفسه ويفكر : «ماذا قيل ؟» دون أن يلحظ أنه كان شارداً بفكره في مكانٍ آخر مشدوداً دون علمٍ منه كما بدوّامة إلى تعقُّد ذكرياته وصوره الداخلية .

إن بإمكاننا أحيانا البلوغ إلى بعض النتائج بمساعدة تداعيات أقل بكثير . لقد أحرجني ذات يوم أستاذ في القانون كان يهتم لهذه التجارب دون أن يؤمن بها البتة فذهبت في زيارة له متزوداً بعدَّتي المؤلفة من لائحة الكلمات الحاثة والميقات .لقد كان سيداً مسناً شعر بالتعب بعد التداعي الخامس عشر فقال :

- ماذا تريد في الحقيقة وماذا ينجم عن هذا ؟
- ينجم عنه عدد لابأس من الأشياء التي بوسعي أن أطلعك عليها .

كانت الرُجُع المحرجة هي التالية :

الكلمات الحاثّة	الكلمات المحثوثة
مال	قليلاً
موت	مات
قبّل	جميل
قلْب	خفق
دفع	البذّارة

كان الأمر يتعلق بجامعي شارف السبعين من عمره وكان يفكر بتقاعده . وقد استطعت المجازفة بالاستنتاجات التالية :

١ـ لابدَّ أن رجلنا الطيب كان يعاني من مصاعب مالية ذات مستوى معين لأنه ربط كلمة «مال» بـ : «قليلاً» ورجَّع ترجيعاً عنيفاً إزاء كلمة «دفع» .

٢ـ عندما يبلغ المرء هذه السن يفكر بالموت على نحوٍ لا إرادي وبالطبع فإنه لا يتكلَّم عنه غير أن ذلك لا يمنع الخافية من البوح به دون تحفظ فعلى كلمة «موت» أجاب

Scanned with CamScanner

صاحبنا بكلمة «مات» فهو لا يتخلّى عن هذا الموضوع إنه يفكر بالموت وهذا ما يمسكه .

٣ـ «عانق» ـ «جميل» . هاكم شيئاً آخر ، إنه أشبه بصرخةٍ من القلب ! ذلك أمرٌ يفاجئنا عند قانوني مسن ولكننا نعلم بأن الحب يزهر في كل عمر . ولنذكّر فضلاً عن ذلك بأن بعض الذكريات العاطفية تعاود الظهور في سنٍ متقدمة بطيبة خاطر وأن المرء يتذكّر بتحنان سحر حياة الأيام الخوالي . لا بدَّ أن مغامرة عشقية قد عادت إلى ذاكرته قرَّبتُ منها البذّارة التي تستخدم كنقشٍ على قطع النقود الفرنسية . فما الذي يمنع أن تكون إحدى الفرنسيات وراء الأكمة . قلت له :

ـ يبدو أن لديك مصاعب مالية وأنك تفكر كثيراً بموتك الذي قد ينجم عن إصابةٍ قلبية . وتعاني من خفقانات بين الحين والآخر ثم إن لديك ذكريات عذبة تذكّرك على الأرجح بمغامرةٍ عشقية مع إحدى الفرنسيات .

فضرب الطاولة بقبضته صائحاً :

ـ إنه لسحرٌ أسود . كيف عرفت ذلك ؟

ـ هل هذا صحيح ؟

ـ أجل هذا صحيح ! ثم هرع إلى الغرفة المجاورة وقال لزوجه : هلمّي يجب أن نجري التجربة معك ؛ثم لا ، بالحري لا ، فهذا أفضل بلا شك !

أنتم تفكرون بأن استنتاجاتي لم تكن تعوزها الشجاعة فعلاً ، ولكن عليَّ أن أعترف بأني لم أكن بعد في بداياتي حين تمَّت هذه التجربة فقد سبق أن أجريت منها عدداً وافراً وشحذتْ حكمي دربة مديدة .

ترتيب الوظائف الواعية

طُرِحَ السؤال التالي : «هل الوظائف الواعية للحياة الداخلية[1] موجودة على الترتيب نفسه عند سائر الأفراد : ذكريات ، مساهمات ذاتية ، وجدانات وانبجاسات ؟» .

(١) لعلّه من الأفضل القول بكل دقة : «الواعية في معظمها» . لأن الوظائف المنوّه إليها هنا تصدر في الوقت نفسه عن الواعية وعن الخافية اللتين تربط فيما بينهما الخافية تعطيها والواعية تتلقاها . (رك)

Scanned with CamScanner

جواب : يمكن اعتبار الترتيب الذي حدَّدته لهذه الوظائف اعتباطياً . وبإمكاننا أيضاً قلب الترتيب المذكور .فربَّما تكون الانبجاسات لدى فردٍ ما هي التي يجب أن تأتي في المقام الأول فالذكريات نفسها يمكن أن تصدر عنده على شكل انبجاسات . الفاعل موجود دائماً تحت سيطرة أحداثٍ داخلية والأمر يتعلق طبعاً بطبيعةٍ مرضانية أو بفردٍ موجودٍ مؤقتاً في مرحلة من حياته ذات خصوبة خاصة يمور خلالها عالمه الداخلي بالحياة . وأنا أتمسَّك عموماً بالترتيب الذي اقترحته لأن من غير المألوف أن يتواتر حدوث الانبجاسات المنبعثة من الخافية . ومع ذلك فكلُ واحدٍ حرُ في الإصغاء إلى مزاجه وميله الشخصي وتصنيف وظائفه وموقعتها تبعاً لخبرته ؛ لقد اقترحت هذا التصنيف لأن الذاكرة ملكة تستجيب للإرادة إلى حدٍ ما ؛ والمساهمات الذاتية تستجيب هي الأخرى لكنها الآن بدرجة أقل لأن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه أحياناً من التفكير أو مكابدة أشياء يمقتها علناً بل قد يفضل عدم استحساسها البتة . أما الوجدانات فهي خارج متناول إرادتنا ؛ وأخيراً فإن المرء عندما تحدث الانبجاسات يكون ضحية صَرْعٍ يجعله يعض التراب ويغرقه في حالة ارتباك مؤقتة . إن الميزة الأكثر صدقاً لهذا الفضاء الداخلي هو أننا محالون فيه إلى وضعٍ انفعالي ؛فالشخص المعني ليس بعدُفاعلاً بل محكوماً بدور كبش المحرقة . تلك على الأقل حالنا نحن الغربيين أما الثقافات الشرقية فقد طمحت إلى خلق ترتيب ونظام في هذا العالم الداخلي . إنه أيضاً القصد الذي يقود جهود علم النفس التحليلي إلى عدم ترك البربرية الصرف تسود في هذا الفضاء الداخلي بل يسعى لإقامة النظام فيه من خلال إحاطتنا بمعطياته . فلا يجوز لنا أن نخلط الفضاء النفسي الداخلي الواعي بالخافية . أنا أعي الذكرى المزعجة التي تحاصرني والغضب الذي أستشعره أو الإلهام المضيء الذي يمرُّ في خاطري . أما الخافية فلا تبدأ إلاَّ عند طبقةٍ أدنى هي القطاع (د) في ترسيمتنا الرابعة (ص ١٠٠) . لقد كان المصريون يرسمون تماثيل أوزيريس بالأزرق إشارةً إلى انتمائها إلى العالم السفلي . هناك تبدأ الأشياء تصير مختلفةً ولكننا لم نتكلَّم عنها بعدُ قط .

Scanned with CamScanner

المساهمات الذاتية والمركبات

سؤال آخر : هل هناك قرابة بين المساهمات الذاتية للوظائف والقلاقل التي تحدثها المركَّبات في التداعيات ؟

جواب : ثمة قرابة بالفعل . فحالما تأخذ المساهمات الذاتية بالإفصاح عن نفسها على نحو مزعج ، وحالما يشعر المرء مثلاً بانزعاجه ـ بسبب من بعض أفكارٍ أو بعض عواطفٍ أبصرها في قرارة نفسه وحسب ـ فهذا الانزعاج هو من الآن اضطراب يتعلق بمركَّب . والإوالية الجارية هي عينها الإوالية التي تجري في اضطراب إحدى التداعيات . إليكم هذا المثال : مات عم أحد أصدقائكم وعليكم أن تتقدموا إليه بالتعازي غير أنكم تعلمون بأن صديقكم هو حقاً بمعنىً ما سعيدٌ جداً بموت عمه الذي يتيح له امتلاك تمثالٍ صيني جميل . هذه الفكرة الخلفية ستكون المسؤولة عن زلّة لسانكم عندما تعربون له عن تهانئكم بدلاً من تقديم التعازي[1] فالمساهمة الذاتية التي هي فكرتكم الخلفية قد شقَّت طريقها منتصرة الأمر الذي يعود بالطبع إلى مركَّب تواحد خافٍ مثلاً بالوارث السعيد .في حالة مماثلة تفصح المساهمات الذاتية عن نفسها في وضح النهار . وإليكم مثالاً آخر : عندما يبلغ الحديث خلال مجالسةٍ مقطعاً حرجاً لمحدثكم يرف هذا الأخير بعينيه الأمر الذي يعني : «أسدل الستار» ؛ ثمَّة شخص يمرُ على خشبة المسرح ويقصد تجنب الظهور . بذا توجد بالطبع جمهرة من الدقائق التي هي بمثابة إعلاماتٍ عن رُجُعنا السرية .

التجارب مع البدائيين

سؤال : «أليست الاضطرابات التي تظهر تجارب التداعيات المُجراة مع البدائيين مكيَّفة ،بغض النظر عن المركبات ، بالموانع الناجمة عن المحرَّمات ؟» .

جواب : لم أجرِ البتة تجارب تداعياتٍ مع البدائيين .فليس من السهل أبداً التجريب مع أولئك الناس . فتصويرهم مثلاً يتعرَّض من الآن إلى مصاعب لأن

(١) إن كلمتي kondolieren (قدِّم التعازي) و gratulieren (هنِّأ) بما هما متقاربتان صوتياً بالألمانية تناسبان هذه الزلة التي تفقد نكهتها اللفظية بالعربية . (رك ، م)

Scanned with CamScanner

صورة كائنٍ بالنسبة إلى البدائي هي نفسه . فأنتم عندما تصنعون منه صورةً وتجلبونها معكم فإنما تخطفون واحدةً من أنفسه وقد يُمرضه ذلك . ويرفض البدائيون من جهةٍ أخرى أن يتصوروا خشيةً أيضاً من أن تقع الصورة بين يدي ساحر بوسعه استخدامها لتسديد لعناته وتجريد الكائن المصوَّر من أنفسه الأخرى بحيث ينجم الموت بعد ذلك ؛ لذا فإن المحاولات التجريبية غير ممكنة إلَّا مع « صبيان البعثة» mission boys الذين وقد فقدوا عفويتهم قلما يُنصح بهم عموماً لإجراء التجارب النفسانية فقد نصادف لديهم مركَّبات أوروربية ومشاعر دونية كريهة ناجمة عن لونهم . أما إذا توصل المرء إلى إقامة تجارب تداعيات مع بدائيين بقوا على أصالتهم فقد يصادف لا محالة تحفظات هي عموماً أقلُّ تطوعاً conditionnés بمركباتٍ شخصية منها بدفاعات جمعية ناجمةٍ عن المحرَّمات . يمكن للمرء أن يلاحظ مثلاً بأنه عندما يتكلم عن الأرواح أمام البدائيين يجد لديهم رَجْعاً مماثلاً لرجع كائن متحضر عندما يُمس مركَّبه أو ذاك الذي عبرًنا بحضوره عن خاطر مزعج (الأمر الذي هو نفسه في النهاية) ونعاين أن الأعراض هي بالدقة عينها ولا غرو في ذلك من حيث إن تضايقات المتحضر وارتباكاته إزاء مركَّباته هي بكل بساطة مخلَّفات المحرَّمات القديمة .



٢ (١)

أمثلة على التجارب

فلنتابع تجاربنا في التداعيات . أود أن أروي الآن أمثلةً أخرى تعطينا انطباعاً إجمالياً عن المركبات وتقودنا إلى النظرية . هاكم أولاً القائمة بالكلمات الحاثة :»صلَّى» ، «فصل» ، «تزوج» ، «تشاجر» ، «أسرة» ، «سعادة» ، «خطأ» ، «عانق» ، «اختار» ، «مسرور» ، ولنشر أنها كانت موزعة بين عددٍ كبير من الكلمات

(١) المحاضرة الثالثة .

Scanned with CamScanner

الحاثة الحيادية ولم تكن بالتالي تشكّل سلسلةً موحية . فلنبحث عمّا يمكن أن يكون الأمر عليه هنا . كنت أعرف قبل أن أباشر التجربة التفاصيل التالية : كانت معاودتي سيدة متزوجة عمرها ثلاثون سنة . جاء بها زوجها إليَّ بسبب نوبات حادة من الغيرة التي كانت تعذِّبه على الرغم من أنه يبدو للعيان رجلاً وديعاً كالحمل عاجزاً عن أقل إساءة . ومع ذلك فقد كانت تتألم من واحدة من تلك النوبات الغيرية المعروفة بعنفها والتي لا أساس لسوراتها . مضى على زواجها ثلاث سنوات وكانت كاثوليكية مواظبة وكان هو بروتستنتياً الأمر الذي كما كانا يزعمان لم يكن يلعب أي دور . ونشير أنها كانت متميِّزة بحيائها فهي مثلاً لم تكن قد تعرَّت البتة أمام زوجها بل دائماً في غرفةٍ مجاورة ، وعندما رزقت أختها التي كانت متزوجة هي الأخرى قبل ذلك بسنة بطفلٍ فقد كان يجب في نظرها عدم ذكر هذه الواقعة البتة في الحديث لأنها كانت تلمح إلى شيءٍ ما غير لائق . ومع ذلك فقد كانا بحسب لأقوالهما زوجين سعيدين . فحصت أولاً بالطبع هذه المرأة فحصاً عميقاً ثم سألتها :

- ألا يشكل كونك كاثوليكية وكون زوجك بروتستنتياً مصدر مصاعب البتة ؟

- لا فقد اتفقنا على ذلك . أمي تصر على أن أبقى كاثوليكية وأربي أولادي تربية كاثوليكية .

وعندما سألت الزوج عن الموضوع نفسه أجاب :

- لم يلعب ذلك أي دور في حياتنا وأنا غالباً لا أذهب إلى المعبد .

وسألت أيضاً :

- هل أنتِ تعيسة في منزلك ؟

- لا أبداً بل أنا أكنُّ لزوجي حباً كبيراً ولذلك فأنا أغار عليه . من أين يمكن أن يصدر هذا ؟ ربّما لأني ذات طبيعة هويَّة passionnée ؟

أدركت بأنه لا يمكن استخلاص شيءٍ يُذكر من مجرَّد حديث بسيط مع المريضة واقترحت عليها من أجل اختصار عذابها أن تخضع لتجربة صغيرة .

إليكم ما أدَّت إليه دراسة الرُجْع الحرجة معها . أثارت كلمة «صلِّ» اضطراباتٍ محسوسة . فقد خطر لها ما كان يمكن أن تنطوي عليه كلمة «صلِّ» من جانبٍ مزعج . وبعد بعض التردد أعلنت : «بالطبع إن كاهن الطائفة ينخس دائماً

Scanned with CamScanner

بعض الشيء وعلى أية حال فإنه لمن المزعج أن يكون زوجي بروتستنتياً وربُما كان من الشؤم رغم كل شيء أن يكون في الأسرة دينان» .

- «فصلَ» أوحت إليها أيضاً ما معناه : «انفصال العائلة في نهاية المطاف» .

وإزاء «تزوج» صرَّحت عن خلفيات القصة التي بدأت تظهر تدريجياً وأن تلك الغيرة قد أحدثت اضطراباً عميقاً في الأسرة .

وإزاء «تشاجر» عرفتُ بأنه جرت بينها وبين زوجها مشاجراتٌ لا تحصى وأن العائلة أبعد ما تكون عن السعادة التي يريدان التصريح بها .

وإزاء «أسرة» ردَّت بـ : «تفكك الأسرة» .

وإزاء «سعادة» : «ليس هناك سعادة بين الزوجين» .

وإزاء «خطأ» : «من الخطأ الانسياق وراء تخيّلاتٍ بخصوص أشخاصٍ آخرين» .

- أشخاصٍ آخرين ؟

- بخصوص رجالٍ آخرين .

وإزاء «عانق» : «عانقت رجلاً آخر» .

وإزاء «اختيار» : «يختار المرء اختياراً سيئاً» .

وإزاء «مسرور» : «إننا مستاؤون جداً» . وكانت تلك هي الحقيقة . لقد ظهر بأنه كانت تعشعش في رأسها أفكار عشقية نحو رجالٍ آخرين في حين أن زوجها في حماقته لم يكن يمنحها أدنى حجّةٍ تسوِّغ لها أدنى لوم . فقد وجب عليه لاحقاً حيث إنه لم يكن يستطيع الاعتراف لنفسه بخواطر كهذه القيام بتلك التمثيليات الخادعة كما لو كان هو الجاني لا هي . وكانت هي على هذا النحو تعذِّبه عذاباً مشيناً فلم تكن في الحقيقة تحبه بل بالعكس كانت تكرهه وتعتزم التخلص منه .

هذا المثال يبين لكم فائدة تجربةٍ كهذه فعندما يجري بينك وبين شخصٍ آخر حديث بسيط فإنه يستطيع على الرغم من رفرفة عينيه أن ينجح في جعلك ترتكب خطأً فادحاً وأنت تصدقه أحياناً فعلاً أما عندما نطبق هذه التجربة وتكون النتيجة أمامنا أسودَ على أبيض فحينئذٍ نعرف محلنا من الإعراب .

هاكم مثالاً جديداً مأساوياً على نحوٍ آخر . يتعلَّق الأمر بامرأةٍ تنوف على الثانية والثلاثين من العمر . كانت ثرية وتعيش في الغربة مع ولديها . وفي غضون

Scanned with CamScanner

ثلاثة أو أربعة أشهر قبل معرفتي بها كانت قد فقدت أكبرهما وهي طفلة ذات أربع سنوات ماتت بالحمَّى التيفية . وبعد موت طفلتها سرعان ما ظهرت لديها حالة خور مرضي حتمت إخضاعها لمعالجة سريرية . وكان سبب انهيارها يبدو واضحاً جلياً للأطباء النفسيين :فقد خُطفت منها طفلتها الأثيرة وهذا هو ما أفقدها توازنها . نُقلت إلى عيادتي وكان عليَّ الاهتمام بحالتها . أردت أن أعرف ما إذا كانت هناك ترابطات [أحداث] أخرى فاستجوبتها بغزارة .فأجابتني بوضوحٍ لم تؤثر فيه حالتها : «خسارة هذه الطفلة التي لا تعوَّض جعلتني بلا عزاء . لقد كنت بغير ذلك سعيدة جداً وكان كل شيء على ما يرام .» لم يكن هناك سبب آخر لانهيارها يمكن استجلاؤه غير أني قمت بتجربة تداعيات معها أخرجت مناشئية دائها إلى وضح النهار . هاكم القائمة بالكلمات الحاثة المحرجة التي أحدثت رُجُعاً مطولة : «ملاك» ، «عنيد» ، «خبيث» ، «أزرق» ، «أحمر» (متبوعة بمثابرة) ، «غني» ، «عزيز» ، «وَقَع» ، «كتاب» (متبوعة بمثابرة) ، «تزوج» ، (متبوعة بمثابرة امتدت إلى الكلمتين التاليتين الحياديتين) . لن أسألكم أن تحزروا معنى هذا اللغز الرمزي فليس في وسعكم التوصل إلى نتيجة لأنكم ستحتاجون إلى تفاصيل إضافية وقد وجب عليَّ أن أسأل المريضة عما كانت تثيره في نفسها الكلمات الحاثة المحرجة آملاً بذلك الاهتداء إلى منفذٍ إلى المركَّبات الوجدانية التي قد تكون مسؤولة عن انهيارها .

«ملاك» ـ ماالذي يخطر لكِ عندما أتلفظ بهذه الكلمة ؟

اغرورقت عينا المريضة بالدموع وأجابت بأنها تفكر بطفلتها الراحلة .فأردفت قائلاً بأني أفهم اضطرابها وأرثي لحالها . لقد كان ذلك مدخلاً جيداً إلى الكلمات الحاثة التالية التي كانت تبدو محمَّلةً بمزعجات أكثر وكان من المفيد عدم البدء بها .

«عنيد» ـ تأملت طويلاً ثم خلصت إلى القول : «ربما كنت شديدة العناد . لم هذا ؟ إما أن يكون المرء عنيداً أو لا يكون» . لم أتوقف طويلاً بل دوَّنت أمامي بأن ثمّة شيء ما يجب استجلاؤه .

«خبيث» : أثارت هذه الكلمة التفكر عينه كالكلمة السابقة وبدا جلياً أنها أصابتها في الصميم في أعماق نفسها على نحو غير ملحوظ مغرقةً إيَّاها في حالةٍ

Scanned with CamScanner

مربكة . ويبدو أكيداً أننا عثرنا هنا على المركَّب المرضي النوعي المسؤول عن ألمها . لقد كان الأمر يتعلق بشيءٍ ما لم يكن تتوصل لا إلى حيازته ولا إلى تحقيقه ولا إلى التحكم به . يقول الانكليز عن شيء كهذا : I cannot cope with it : هذا فوق طاقتي إنه لأمر شائكٌ وخطير وثقيل إلى حدٍّ أن المرء لا يتوصل إلى ضبطه . إن الأشياء التي ترسخ وتأخذ في كائنٍ مثل هذه الأبعاد تجعله مجنوناً لأن ما لاتتوصل الأنا إلى استدماجه يكون ممرضاً . فالتعيس السيء الحظ الذي يقع في حبائل صراعٍ مماثل ولا يكون ذا رأس صلبٍ راسخ تماماً بين كتفيه معرَّض كل التعرُّض أن يكون ضحية انفجار مجازي في جمجمته . فدوَّنت على بطاقتي : ثمَّة ههنا شيءٌ ما خطير.

«أزرق» ـ «أجل عينا طفلتي كانتا زرقاوين ؛ كانت لها عينان جميلتان أعجب الناس بهما منذ ولادتها» .وفجأةً انكمشت . لاحظت ذلك ودوَّنت مجدداً : هناك أيضاً شيء آخر مخفي فقد اعترى وجهها تعبيرٌ مرضي ينمُّ عن وجود عنصرٍ غير ملموس يضيِّق عليها .

«غني» ـ «لايخطر في بالي شيء . إنه سؤال قد يكون حيادياً بالنسبة لي لأننا كنا نعيش في بحبوحة . ولماذا يكون في ذلك ما يمسني ؟ نعم مَنذا بهذا الغنى ؟ آه ! نعم هذا صحيح إنه السيد س .»

ـ ما وجه الصلة بينكما ؟

ـ لقد كنت مغرمةً به .ولكن ماذا يهمُّك من هذا ؟ نعم أنت تعرف . . .

ودوُّنت : إن وراء الأكمة ما وراءها ! وبالفعل فإن حادثة طارئة قد انبعثت :فقبل وقت قصير من مرض طفلتها تلقت المريضة زيارة من أحدهم كان صديقاً لهذا السيد س الغني وقال لها حين غاب زوجها لحظةً : «لقد رأيت مؤخراً السيد س الذي تعرَّض لصدمةٍ قاسيةٍ عند معرفته بزواجك» . هذه الفكرة كانت بمثابة الشرارة في برميل البارود . لقد أُغرمت المريضة وهي بعد شابة غراماً جنونياً بهذا السيد س . كانت هي من أ سرة متواضعة أما هو فكان من أسرة كبيرة . وقالت في نفسها حينذاك : إن شاباً مثله لن يعيرني أقلَّ نظرة ؛ الحالة ميؤوسٌ منها وعليَّ أن أعلق آمالي على شخصٍ آخر . وبعد جهد جهيد توصلت إلى السيطرة على عواطفها وتعديلها وإلى الاقتران بزوجها الراهن . كان كل شيء في البداية على ما يرام .لقد كانت سعيدةً جداً عند ولادة طفلتها الأولى غير أن حادثاً جرى كان من

Scanned with CamScanner

أشد الحوادث إيلاماً . فما أن فتحت الطفلة عينيها تحقَّقت أمها بأنه لم تكن لها عينا والدها ولا عيناها هي بل عينا الشاب الذي كانت قد أحبَّته . ووجدت العزاء في فكرة أن الله أهداها هذه الطفلة بتينك العينين تذكيراً بحبها العظيم . أليس أن هذه الفرضية الطموحة كانت ضرورية لها من أجل التوصل الى احتواء الصدمة وتجاوزها . بعد هذا لم تعد تسمع شيئاً عن السيد س ومرَّت حياتها هادئة بلا منغصات . ولكن ذات يوم جاءت زيارة ذلك الصديق المشترك الذي كشف لها أن الشاب المعني كان هو الآخر مغرماً بها وأنه أسف عندما رآها تتزوَّج غيره . ومذاك ظهر لدى المريضة ما يظهر دائماً في الحالات المماثلة : موقفٌ وتوترٌ وجداني جعل كيانها الواعي في حالة من العجز أفقدها توازنها بحيث لم تعد بفعل «هبوط مستواها الذهني» (پيير جانيه) تعي تماماً ما كانت تفعل . إنها تعلم فقط أيضاً بأن الطفلة أصيبت فجأة بالمرض .

كانت الكلمة التالية «آداب» ورجَّعت بـ «آداب سيئة» وهي تعني بذلك «آداباً فاسقة» ثم عادت إلى كملة خبيث . سألتها :

ـ ماذا تقصدين ؟ ماهو الفاسق والخبيث في الأمر ؟

أجابت : «لاأدري .»

«مال» : اثارت هذه الكلمة الإمكانات الماضية التي تراءت لها بخصوص كلمة «غني» .

«عزيز» : فكَّرت بطفلتها العزيزة .

«وقع» : هذه الكلمة عادت بها إلى تخيُّلاتها العشقية بخصوص حبِّها الماضي .

«تزوج» : ذكَّرتها بزواجها الغريب المصطنع .

ولم يبق دون تفسير سوى كلمات : «خبيث» ، «عنيد» ، «فاسق» .ثم عدت إلى كلمة «خبيث» وسألتها :

ـ ماذا هناك في الحقيقة ؟ هل أهملتِ أن تقولي لي شيئاً ؟ كيف جرى أن طفلتك أصابتها الحمَّى التيفية ؟

ـ إليكَ كيف كان ذلك . لقد حمَّمتها في ماءٍ بارد .

كانت المريضة قد عاشت في مدينةٍ يوجد فيها ماءٌ عذبٌ وماءٌ غير عذب . وعندما حمَّمت ابنتها في الماء غير العذب ـ الأمر الذي لم تتنبَّه إليه إلَّا فيما بعد

Scanned with CamScanner

رأتها تضع فجأةً الإسفنجة في فمها ولكنها كانت متلبدة الذهن إلى درجة أنها لم تفكّر بمنعها من ذلك . هذا الحادث جعلها تفقد انضباطها فعندما تقدم الطفل الأصغر وعمره سنتان ونصف من المغطس لكي يشرب تركته يفعل أيضاً . لماذا فعلت ذلك ؟ إنها لم تكن تدري . وعندما وجدتُ أنها مصعوقة ومنغلقة دون التحقيق الذهني كما على تصور الفعل المرتكب أوقفت الفحص لأني رأيت بأن الموضوع قد أصبح بالنسبة إليّ بالغ الخطورة . ووجدتني فجأةً أواجه نزاعاًمستعصياً . كان الأمر يتعلّق بمريضة أعلن تقرير الأطباء أنها فصامية ولكن قد يكون بالإمكان مع ذلك شفاؤها .وفكرت في نفسي بأنني إذا لم أفعل شيئاً فسوف تخرج من المأوى بعد وقت يطول أو يقصر وبضرر كبير أو قليل . وإذا بقيت اللعبة غير مصحّحة فستذهب طيَّ النسيان وتُضَم بكل بساطةٍ إلى ميدان الغيب ولن تستطيع أبداً أن تعرف ماذا فعلت حقاً . فإما أن أجازف بتفجير العمارة كلها وأصارحها بأنها قتلت طفلتها وأنها كانت تريد أيضاً قتل طفلها الآخر لكي تتمكن من الزواج بالسيد س . ذلك كان هو الموقف . امتدَّ تفكيري في الموضوع طوال نهارٍ وليلة ثم قلت في نفسي إذا كان لي أن أترك المريضة تغوص في ضررٍ غير منصلحٍ في مأوى المعتوهين فمن الأفضل فقأ الدمّلة . وعلى هذا النحو سيكون لديَّ على الأقل حظٌ في شفائها . لقد كنت أعلم بأن شفاءها ممكن لكنني لم أكن من ذلك على ثقةٍ تامة . وحيث إنني طبيب فقد كان عليَّ أن أجازف . قمت في اليوم التالي بزيارةٍ للمريضة وقلت لها : يجب أن أطلعك على أمرٍ هام .لقد قتلت طفلتك وكنتِ مصمِّمة على قتل طفلك الأصغر الذي لم ينعدِ بأعجوبة . لقد كنت تفعلين ذلك سعياً إلى التخلص من طفليكِ وبالتالي إلى إنكار زواجك والتمكن من الزواج بالرجل الآخر . فحدَّقت إليَّ وأطلقت صرخةً عظيمة وأجهشت بالبكاء . ففكرّت في سرِّي : «الآن تحقَّق ما أريد ..» . وبعد فترةٍ زمنية عادت المريضة إلى نفسها وأبدت سلوكاً معقولاًوتماثلت بعد خمسة عشر يوماً إلى التحرر والشفاء .لم يبق ثمّة أي لوثةٍ عقلية وقد بقيت على مدى خمس عشرة سنة أتلقى أخبارها وكانت دائماً بصحة جيدة . بيدَ أنه كان لهذه المسألة وجه آخر يتعلق بالقضاء الجنائي فمن حيث هي قاتلة كان على المريضة أن تنفِّذ عقوبةً معينة غير أن انهيارها العقلي قد رتّب الأمر على نحونفساني فالجنون جنّبها السجن والحمل الثقيل الذي أثقلتْ ضميرها به قد أنقذها بدوره من الجنون ذلك أن قبول المرء لخطيئته يجعله يتعايش وإياها في حين أن رفضه إياها يجرُّ عليه عواقب لا تحصى .

Scanned with CamScanner

ويمكن للمرء خلال تجربةٍ كهذه أن يصادف عناصر ذات أهمية حيوية وبالغة الخطورة . إن التواتر الذي بموجبه نكتشف خلف واجهة بريئة أشياء متقدة لأمرٌ مدهش . لقد علمتني تجربتي حذراً عظيماً فهناك أفراد أكثر ممَّا نظن يحملون في أنفسهم ذهاناً كامناً . وثمَّة من الآن ذهانات عديدة تهجع في الخافية وتُحدِث على السطح لدى حامليها ظاهراً سوياً مفرطاً . فأنتم ستتحققون من ذلك مثلاً عند لقائكم بفرد نباتي موقِن أو بمتقشِّفٍ صارم أو بآخر ينتمي بحماسٍ مفرط إلى جمعية خيرية أو أيضاً بذاك الذي يهنأ في أعمالٍ معقولةٍ على نحو متميِّز كما لو كان يريد البرهنة أن كلَّ ما يفعله يستند إلى العقل المطلق . هذا هو أيضاً السبب الذي لأجله يصبح الكثير من حاملي الذهانات الكامنة أطباء عقليين كما لو أنهم يريدون البرهنة بأنهم أقل جنوناً بكثيرٍ من المرضى الذين يعالجونهم ويستشعرون من جراء ذلك بنشوة تشيع الارتياح في نفوسهم فيصبحون قائلين : «أشكرك اللهمَّ أنَّك لم تجعلني البتة مثل هؤلاء» . إنَّ موقفاً كهذا لينقذ صاحبه أحياناً[1] .

لهذه التجربة مكمِّلاتها . لقد دام بالطبع الشك في دقة هذا كله زمناً طويلاً ما دمنا لم نكن مؤهلين لتقديم البرهان المادي على أن الأمر كان يتعلَّق تماماً بتجليات وجدانية . ومن حسن الحظ أن نستطيع الاستعانة بجهازٍ اختباري يتيح بكل الوضوح المطلوب تقصي الوجدانات . دعوت ذلك بالظاهرة النفسية الغلفانية phénomène psychogalvanique مبدؤها هو التالي : نعلم منذ زمنٍ بعيد بأن التجلِّيات الوجدانية هي التي تؤثِّرُ تأثيراً رئيسياً في الجهاز العصبي الودي وأن هذا الأخير يحكم بدوره الأداء النبوتي للمتعضية . وانطلاقاً من هذا تعمل الوجدانات على تمديد الأوعية وتؤثر في القلب وتحدث لديك الاختلاجات وتجعلك تحمرُّ أو تتقيأ وتعدِّل في الشعيرات الدموية لسطح اليد وفي حالة إفراز أو راحة غدد الجلد ووضعية وبره وتسبب لك القشعريرة الخ . فمن الشرعي إذن تقصي الوجدانات من خلال تعديلاتٍ عضوية من هذا النوع يسهل تسجيلها بواسطة سلك كهربائي بسيط . وبالفعل فإن تياراً ضعيفاً جداًيخترق البدن مثلاً بين يدين متكئتين على

(١) يمكن بهذا الشأن أن نذكر تحديد الميل الذي قلنا إنه الصيغة النفسانية للحاجة ! وأن «تعاسة الآخر تتملّقنا في الوقت الذي نحاول فيه تداركها» . (رك)

Scanned with CamScanner

قطبين كهربائيين سوف يلاقي تبعاً للحالة الوظيفية مقاومة تزيد أو تنقص . فالمقاومة المستشعرة في الحالة السوية وبالتالي شدَّة التيار ستكونان ثابتتين ولكن فليطرأ وجدان تر شعيرات الجلد تتمدد والغدد تبدأ بالإفراز ويقوى التماس بين اليدين والقطبين وبعد ذلك تضعف المقاومة وتزداد شدَّة التيار . وتدلُّ التغيرات في شدَّة التيار المسجلة على نحو مناسب طوال تجربة من تجارب التداعيات على تأرجحات المقاومة الجلدية الكهربائية وهي تعديلات لا يمكن عزوها في ظروف التجربة إلا إلى الرُجُع الوجدانية للشخص المنفعل بتأثير الكلمات الحاثة .

نباشر الإجراء على النحو التالي : نأخذ عنصراً من ركيزة كهربائية تولِّد تياراً ضعيف التوتر من ستة ڤولتات وندخل في السلك مقياساً غلڤانياً ذا مرآةٍ يسجِّل تسجيلاً دقيقاً جداً التعديلات في شدَّة التيار بفضل مغنطيس مدلّى يدور قليلاً أو كثيراً تبعاً لهذه الشدّة . ويحمل المغنطيس مرآةً يُسقَط عليها شعاعٌ مضيء ينزاح ، عند انعكاسه ، على سلَّمٍ كلما دارت المرآة . وندخل أيضاً في السلك قطبين كهربائيين من الصُفر أشبه بنصفي كرة من الحجم بحيث يمكن إمساكهما باليد . يضع المفحوص يديه فوقهما ثم تغطيان بأكياسٍ صغيرةٍ من الرمل ذات وزنٍ كافٍ لتحييد الحركات العضلية اللاإرادية . ويمكننا بفضل جهاز تسجيلي وعلى منحنىً واحد ضبط اللحظة الني يُنطق فيها بالكلمة الحاثة ولحظة الرجع والفواصل في الشعاع المضيء التي تدلُّ على تغيرات شدَّة التيار .فنتحقق عندئذٍ من أن الكلمات الحاثة المحايدة لا تجرُّ وراءها شيئاً من هذه الأخيرة بينما بالعكس تحدِّد الكلمات الحاثة الحرجة التي تستدعي زمن رجعٍ مطوَّلاً وبعد كمونٍ قصيرٍ توسيعاً في الشدَّة . ونترك بعد ذلك المقياس الغلڤاني يعود إلى وضعية توازنه ثمَّ ننطق بالكلمة الحاثة التالية الخ . وهكذا نحصل على منحنىً يضيف إلى إعلمات المركَّب الذي تكلمنا عنه أعلاه البرهان المحسوس على الأصداء العضوية الناجمة عن الوجدانات الذاتية .

ويمكننا أيضاً تزويد هذا الجهاز بمخطاط تنفس pneumographe يمكن بواسطته تسجيل إيقاع التنفس وسعته . إذاً باستطاعتنا في الوقت عينه وضع منحنىً للتنفس سوف يكشف لنا عن ظاهرة فريدة : نحن نلاحظ بالفعل على مدار نشاط المركَّب المثار بكلمةٍ حاثة انكماشاً في التنفس يعود تدريجياً إلى مستواه



Scanned with CamScanner

الطبيعي . ففي اللحظة الحرجة تتناقص الاستطاعة التنفسية وينقبض التنفس ولا يعود المرء يتنفَّس إلَّا بمقدار النصف وقد يشعر المفحوص بالضيق فيما إذا لفتنا انتباهه إلى الأمر . أما في الحياة الجارية فلا يُلاحظ ذلك إلَّا من خلال الصوت المتوتر لأشخاصٍ يتخبَّطون في موقف وجدانيٍ حاد . إذاً تصوروا بأنفسكم تلك الحالة الممتدة على بضعة أيام ! المركَّب تابع هناك في حالة الكمون مترافقاً بالشدَّة التي يولِّدها لذا فإن التنفس يبقى سطحياً وينجم عن ذلك تهوية رئوية ناقصة ومن هنا **العديد من التدرّنات** ومن هنا أيضاً وجود مصعوبين عديدين في داڤو[1] وفي المصحَّات ! ثم إننا نبرز خلال هذه التجربة ملاحظة يمكن القيام بها على نحوٍ شائع : إذا ما تحدَّثتم إلى شخصٍ معقَّدٍ بهذا الشكل وأعرتم انتباهكم إلى تنفسه لتحققتم بأنَّ تنفسه غير ملحوظ ويقطعه فجأةً تنهُّدٌ عميق . وإذا ما سألتموه لماذا يتنهَّد أجابكم : «لا أعرف ولكنه واقع الحال» . إنهم أفرادٌ تضاءل تنفسهم منذ زمنٍ بفعل المركَّب . وتحدث هذه الظواهر على نحوٍ منتظم سواء كان المركب في قبضة الوعي أو لم يكن . وهكذا فإن الظاهرة الغلڤانية النفسية متمِّمة بالجهاز التنفسي تثبت على نحوٍ غير مُنكَرٍ بأنَّ **مركَّباتنا تشكل مقادير وجدانية** .

تطبيق آخر للتجربة : النفسانية الأسرية

فلنسرد هنا أيضاً تطبيقاً لتجربة التداعيات يكشف عن تطويعاتٍ نفسيةٍ فريدةٍ في مجالٍ بقي إلى الآن في حكم الاعتباطي . إن **التداخل النفسي الأسروي** الذي سأحدِّثكم عنه هو كما تعلمون معطىً أصليٌ يتعلَّق بما سمِّي **المشاركة السرَّانية** وهو تعبير غريب قد يجب إبداله من أجل الدقة بـ **مشاركة خافية** . إنه ليڤي بروِل Lévy–Bruhl الذي صاغ مفهوم «المشاركة الصوفية» وهو مفهوم لم يستخدمه إلَّا فيما خصَّ البدائيين لكي يعبِّر عن واقعٍ مدهش لديهم وهو أنهَّم يستشعرون علاقاتٍ تفلت من العقل المنطقي . هاكم مثالًا على ذلك . يزعم هنود إحدى القبائل في أمريكا الجنوبية بأنهم آراتٌ حمراء أي ضربٌ من ببغاواتٍ ضخمة . وعندما يُردُّ عليهم بأن هذا غير ممكن وأنهم لا يملكون أجنحةً ولا ريشاً

(١) موقع سياحي في سويسرا . (م)

وأنهم لا يستطيعون الطيران وأنهم أضخم من أن يفعلوا ذلك يجيبون : «هذا محض صدفة إنَّ الببغاوات طيورٌ بالطبع ولكنها نحن ونحن هي . إننا أيضاً آراتُ حمراء ولكن لا ريش لنا» . إننا لا نتوصل إلى فهم خطاب كهذا بسبب افتقارنا إلى عقليةٍ قبل منطقية .وقد يبدو لنا ذلك منطقياً فيما لو كنا نملك كالبدائيين تخمينات منظومةٍ نفسيةٍ مُسقَطة .غير أن الأمر ليس من هذا في شيء :فنحن لا نتصوَّر البتة أن الحيوانات تومىء إلينا أو أنها ترتع في داخل منظومتنا النفسية وتستطيع على نحو آخر أن تحاكي أفكارنا أو تحزرها . ومع ذلك فإن هذا يشكل بالنسبة إلى البدائي معطىً يستند إلى تجاربه الخاصة والغريبة بالنسبة إلينا في حين أنها تعجُّ في عالمه . إن البدائيين يواحدون الأشياء الأكثر بعداً والأشدَّ تبايناً فيما بينها زاعمين أنها لا تشكِّل سوى شيءٍ واحد وأن نبتة ما سحرية مثلاً تماثل الذرة والظبي . فليس ثمَّة بالنسبة إليهم أي فرقٍ جوهري بين هذه الأشياء الثلاثة . أما كيف يمكن لهذا أن يكون ؟ إنه لأمرٌ لا يجوز في عقلنا ويعاكس صراحةً مبدأ الهوية فينا . ههنا بالدقة شيء من المشاركة السرَّانية على الصعيد البدائي . ونحن لانفهم ذلك بأسهل ممَّا نفهم بعض التعابير الأخرى التي يستخدمونها مثل : «ولدي أنا» أو بعض المشاهد المماثلة حيث يصرخ زنجي مسنٌ غاضبٌ في ولده الذي لا يطيعه : «إنه ينتصب هناك بجسدي ولا يعمل ما أريد !» فابنه امتداد له والمرأة التي أعطته ولداً قد أعادته إلى العالم وجعلته يولد ولادة جديدة . الرجل الذي لا ولد له رجل مائت أما الذي له ولد فهو خالد لأن الإبن هو الأب . لم يعد لمعطى المواحدة المطلقة هذا عندنا طعم الواقع فقد اختُزل إلى مستوى الحياة الداخلية منه .

ولكن فلنعد إلى مسألة النفسانية الأسرية فيمكن دراستها بغير الطريقة التحليلية وعلى نحو تجريبي . وقد قمنا بذلك بإجرائنا تجارب تداعياتٍ عديدة لدى أسر من مستوى اجتماعي وضيع حيث الرُجُع اللفظية لم تتمرَّس بعدُ وتصقل بالاستخدام كما هي عليه الحال في الأوساط المثقفة.ثم أخضعنا المواد المتكدِّسة لدينا لفحص معمَّق . فتجربة التداعيات في نظام الأبحاث الجديد هذا لم يعد بالإمكان استخدامها على النحو الذي ذكرت أعلاه فعلينا هنا تطبيق وجهات نظرٍ أخرى أُهمِلت سابقاً إذ أن الشيء الرئيسي هو الآن ما يجيب به المفحوص . فعلى كلمة «ماء» يرِّجع أحدهم بكلمة : «أخضر» وآخر بكلمة : «شتاء» والثالث بكلمة :

Scanned with CamScanner

«زهرة» والرابع بكلمة :«H_2O» الخ . وقد تمسكنا في دراساتنا الأسرية بفحوى وطبيعة تلك الأجوبة التي يمنحنا الفحص الشامل لها وقائع ذات فائدة رفيعة .وقد وجب علينا من أجل هذه الدراسة المبادرة إلى تصنيف الرجع تصنيفاً فئوياً تشكل فيه كل فئة ما يشبه وحدة جديرة بإتاحة المقارنات والقياسات فوزعنا التداعيات على خمس عشرة فئة أو زمرة منطقية ولفظية وهو توزيع تجريبي صرف وأشير عمداً إلى أن ما يتبع المقالة سيبقى غير مفهوم إذا ما غاب هذا عن ناظرنا .وهاكم الخمس عشرة زمرة المذكورة مرقّمةً إلى جانب أمثلة تداعيات متطابقة :

١ـ التداعيات من نحو : «حرية» ـ «إرادة» ، «ذهب» ـ «صعد» :**تنسيقات** لأن الجواب متشكّل من مصطلح قريبٍ بالطبع من الكلمة الحاثة في ذهن الفاعل .

٢ـ التداعيات الأخرى من نحو : «قرية» ـ «بيت» ، «أزرق» ـ «لون» ، «رسم» ـ «فن» هي بمثابة تنسيقات **مؤتمِرة أو آمرة** .

٣ـ التداعيات من نحو : «أبيض» ـ «أسود» ، «مدوَّر» ـ «مربّع» : **متضادات** .

٤ـ التداعيات من نحو : «شتاء» ـ «رائع» ، «تنزُّه» ـ «مملّ» :**صفات قيمة ومحمولاتٌ عاطفية** .ثمّة أفراد يرجِّعون ترجيعاً أفضل تبعاً لهذه الطريقة ولا سيما بين النساء .

٥ـ الرُّجُع من نحو : «ماء» ـ «أخضر» ، «رأس» ـ «مدوَّر» الخ :**محمولات بسيطة ومحمولات موضوعية** .

٦ـ التداعيات من نحو : «سكين» ـ «قطع» ، «زهرة» ـ «أزهر» :**تداعيات نشاط** .

٧ـ والتداعيات من نحو : «حار» ـ «صيف» ، «نوم» ـ «ليل» ، «معتم» ـ «قبو» يمكن صفها في زمرة تتميَّز **بالإشارة إلى المكان واللحظة والوسيلة** .

٨ـ والتداغيات من نحو : «كرسي» ـ «أثاث» ، «مطرقة» ـ «أداة» ، **تعريفات** تظهر على نحو متواتر لدى أشخاص (تساهم في تمييزهم) حاملين لمركّب يسمّى «مركّب الذكاء» أي لدى أشخاص يشكُّون أساساً في قرارة نفوسهم في امتلاكهم الذكاء الذي يزعمون . إنهم يسعون بشكلٍ ما ودون علمٍ منهم لكي يثبتوا للمجرِّب الذي يريحهم يقينه مزاياهم العقلية . وهذه الأجوبة «تحديداً» ليست وحدها ميزة أفرادٍ قليلي الذكاء إذ يمكن أيضاً أن تعبِّر عند آخرين عن مشاعر الدونية كما يحدث لدى بعض الأشخاص فيما يتعلّق بتعليمهم .

٩ـ والتداعيات من نحو : «طاولة» ـ «كرسي» ، «يد» ـ «رجل» :**تعايشات** .

Scanned with CamScanner

١٠ـ والتداعيات من نحو : «ذهب» ـ «سار» ، «غرفة» ـ «مقصورة»:**متماثلات** .

١١ـ والتداعيات من نحو : «حصان» ـ «خيول» ، «حر» ـ «حرية» **تداعيات لفظية حركية** .

١٢ـ التداعيات من نحو : «شراء» ـ «قوة شرائية» ، «غطاء» ـ «غطاء مائدة» **عباراتٌ مركبة** .

١٣ـ والتداعيات من نحو : «حياة» ـ «حيوي» ، «جميل» ـ «جمال» ، «أبيض» ـ «بياض» هي **استطالات متمّمة للكلمات** .

١٤ـ التداعيات من نحو : «سماء» ـ «رجاء» ، «جلال» ـ «جمال» ، **هي تداعيات لحنية** .

١٥ـ وأخيراً الزمرة الخامسة عشرة هي زمرة الأجوبة الناقصة أو غياب الأجوبة الأمر الذي يحدث أحياناً .

ودرسنا أيضاً على هذا المنوال عدداً كبيراً من الأسر بإجرائنا تجارب تداعيات مع كافة أعضائها وبتوزيعنا المواد المتجمِّعة تبعاً للزُمَر أعلاه . وإذا ما جعلنا الزمر على محور السينات والنسبة المئوية للأجوبة التي يتضمَّنها كل منها على إحداثية لأمكننا الحصول في خطٍ بياني واحد على المنحنيات التابعة لأجوبة مختلف الأعضاء متراصفةٍ بعضها فوق بعض بحيث تؤدي إلى استخراج النمط الأسري منها بيسر .

كما شاهدنا في حالةٍ جدُّ شيقة ليس المظهر نفسه وحسب بل أيضاً تماثل ثلاثين بالمئة من الرُجُع . فليس من المبالغ فيه إذن القول في هذه الحالة بأن ثلاثين بالمئة من الأفاعيل العقلية لمختلف أفراد الأسرة كانت متماثلة . إنه لمثل جميل على «المشاركة السرانية» يُظهر بكل وضوحٍ بأن هذه المشاركة تحصل عندنا أيضاً في كل واقعيتها وليس إذن من باب الفرضية التي تثبتها بعض الاستثناءات وحسب أن نتكلَّم عن **الروابط العظيمة القائمة بين أفراد الأسرة الواحدة** بل هو واقع ذو مغزى وقيمة عامين للغاية وهذه الروابط ليست بالضرورة من طبيعة انفعالية فقد درسنا أسرة كان أحد أفرادها مريضاً عقلياً يشكو من أفكار اضطهادية واستخلصنا النمط الأسري والذين كانوا من أفرادها يمثلون هذا النمط بأكثر ما يكون من الوضوح . وقد بيَّن لنا ذلك بأن المريض العقلي هو دائماً ـ وقد أثبتت

Scanned with CamScanner

ذلك دراساتٌ أخرى ـ العضو الأسري الذي يجسد تجسيداً أمثل النمط الأسري وأن جنون اضطهاده موجَّه على نحو رئيسيٍ ضد أفراد أسرته الذين يمثّلون معه هذا النمط عينه أجلى تمثيل . إن هؤلاء المرضى أينما كانوا يجرّون أسرتهم معهم دائماً ولأنهم يحملون أسرتهم في داخلهم فهم يكابدون إزاءها مثل هذه المقاومات ! وفي معظم الأحيان قلّما يتعلق الأمر في مثل هذه الحالات بروابط وجدانية منه بتكيفات وسيطرات وعادات ناجمة عن إواليات صميمة هي بمثابة أخاديد قديمة شقّت مرة واحدة وإلى الأبد فلم يعد يستطيع الفاعل البتة الخروج منها . من هنا فإن المرء يرجِّع ويفهم باستمرار على النحو عينه ويخلق بالضرورة حول نفسه الجو نفسه الذي كان سائداً في البيت الأسري . وكما ترون فإن هذه الاستنتاجات النفسانية ليست محض تخلُقات fantaisiesبل هي وقائع هامة !

فلنتمسَّك الآن بمسألة شدَّة القربى[1] . إن الاختلاف الوسطي بين رجلين

(١) انطلق يونغ على النحو التالي لكي يعبِّر عنها بشكلٍ تطبيقي بواسطة عددٍ بسيط انطلاقاً من تجارب التداعيات : فعندما يريد أن يقارن بين شخصين من أسرة واحدة مثلاً يجعل لهما جدولاً كالتالي :

نوعية التداعيات	النسبة المئوية لدى الشخص الاول	لدى الشخص الثاني	تباين النسبتين
١ ـ تنسيقات	٦ر٥	٠ر٥	٦
٢ ـ تنسيقات فوقية وتحتية	٧	٠	٧
٣ ـ تضادات	٢	٥	٣
الفئة الخامسة عشر	١	٠	١

ثم يحصي المجموع الكلي للتباينات ويقسمه على عدد الفئات فيحصل هكذا على «تباين وسطي» والأمر يتعلق فيما يلي بهذا التباين الوسطي ؛ إنه عدد اعتباطي إلى حدٍ ما لا يدلُّ على التباينات القائمة دلالةً مثالية ولكنه يموقع فقط على نحوٍ مثالي مستوى حجمها ويتيح اختصار وصفها المفصَّل . (ذلك كما ورد تبعاً لفورست Fürst في : **دراسات في التداعيات عند ك. غ. يونغ** ، ليبزيغ ١٩٠٦) . (رك)

Scanned with CamScanner

غير قريبين هو ٩ر٥ وهو اختلاف ضعيف نسبياً بيدَ أن علينا الأخذ بعين الاعتبار أننا نتكلّم اللغة عينها ونعيش في المحلّة عينها والعالم عينه الأمر الذي يفسّر ذلك الاختلاف الضئيل . أما بالنسبة إلى نساء غير قريبات فالاختلاف هو بنسبة ٦ . والاختلافات لدى أشخاص مثقفين أكثر ضآلةً أيضاً ذلك ان ثمّة واقعاً هو أن المثقفين يستخدمون اللغة استخداماً بارعاً لإخفاء افكارهم أكثر منهم للتعبير عنها .

والتباين عند رجال أقرباء هو بنسبة ١ر٤ وعند نساء قريبات بنسبة ٨ر٣ ونلمس إذن هنا واقعاً مفاده أن أفراداً أقرباء يتشابهون فيما بينهم من الناحية النفسية بأكثر ممًا يتشابه أشخاص لا قرابة بينهم . كما يقوم بين النساء القريبات تشابه أكثر من تشابه الرجال القريبين وذلك ناجمٌ عن أن الرجال ينفصلون انفصالاً باكراً نسبياً عن الأسرة ويتفردون في حين تبقى المرأة في المنزل الأبوي مدة أطول بسبب مزاجها وطبيعتها وتُديم بذلك الطبع الأسري ديمومةً أشدَّ أمانةً . وبين الأب وأولاده ثمّة نسبة تباين ٢ر٤ هي تقريباً النسبة عينها الموجودة بين رجالٍ تجمعهم القرابة . أما بين الأم وأولادها فالتباين الوسطي لا يتجاوز ٥ر٣ ويعود سبب ذلك إلى أن العلاقات بين الأطفال وأمهم هي أوثق بكثير ممًا هي بين الأطفال وأبيهم ولاسيما أولئك الأطفال العائشون بصحبة أمهم . والتباين بين الأب وأبنائه هو بنسبة ١ر٣ أما بين الأب وبناته فنسبته ٩ر٤ . فالتقارب الشديد بين الأبناء وأبيهم هو واقع أولي : فقد اعتبر الابن دائماً بمثابة ولادة جديدة للأب الأمر الذي يعبِّر عن هذا التقارب بأكثر ما يكون من اللجاجة . ونسبة التباين ٧ر٤ بين الأم وأبنائها هي نسبة بارزة نسبياً أما بين الأم وبناتها فهي ٣ ممًا يشكل أضعف تباينٍ محقَّق .التباين بين الإخوة هو ٧ر٤ وبين الأخوات ١ر٥ وهو أمرٌ يبدو أنه يتعلق بالفردانية الطبيعية الظاهرة التي تميِّز البنات «وأيضاً بتأثير الزواج الذي يبدو أنه يعكِّر النمط الرجعي (بقدر ما يكون الزوج منتمياً هو نفسه إلى نمط مختلف)[1] ذلك أن البنات ما دمن غير متزوجات فالتباين بينهنَّ لا يتجاوز ٨ر٣ أما الإخوة فالتباين بينهم هو بنسبة ٨ر٤ («فيبدو إذن أن التباين بين الإخوة غير متأثر تأثراً محسوساً بالزواج»[1]) ويُظهر الأزواج فيما بينهم تبايناً وسطياً بحدود ٧ر٤ وهو تقريباً التباين القائم بين الأب وبناته وبين الأم وأبنائها .

(١) راجع فورست ، المؤلف المذكور اعلاه . (رك)

Scanned with CamScanner

تطبيق آخر : في الأبحاث الجنائية

وأخيراً يمكن استخدام هذه التجربة لغاياتٍ قضائية . فتستخدم على نحو معكوس في الأبحاث الجنائية من خلال الاستعانة بقائمة كلمات حاثة أدخلت بينها كلمات حرجة ذات علاقة بالوقائع التي يجري البحث عنها . «إن شخصاً بعيداً عن تفاصيل الجريمة لن يرى شيئاً خاصاً في الكلمات الحاثة التي تستدعيها في حين أن الجاني يستشعرها بعلاقة مع الفعل الذي ارتكبه ويسبغ عليها إعلماتٍ مركّبة لا ريب فيها .»[١] كنت يوماً مدعواً في زورخ إلى محاولة تجربة من هذا المستوى فوضعوا تحت تصرفي أربعة أشخاص لهذا الغرض وتركوا لي الحرية في اختيار حدث ملائم بمثابة محطٍ «للجريمة» . انتزعت من كتاب صفحة عليها صورة تمثل رساماً جالساً في الريف وكانت خلفه قبّة جرس وأمامه بقرة كان يرسمها . دونت على هذه الصورة الكلمات التي تدل على الأغراض الأشد بياناً : هذا رسام ، قبة ، بقرة ، الخ . . ثم أرسلت الصورة إلى أستاذ القانون الذي كان قد نظم التجربة راجياً منه أن يتكرّم بإطلاع أحد الطلاب الأربعة الذين وُضعوا تحت تصرفي عليها وكان على هذا الأخير أن يثبتها في رأسه دون أن يطّلع الآخرون بالطبع على شيءٍ منها . وكانت مهمّتي تقوم بين الطلاب الأربعة الذين كنت أجهلهم بالكلية على اكتشاف ذاك الذي أعطوه الصورة . بيد أني أشير بأن الصورة لم تكن تشكّل بالنسبة إلى الشخص المتهم سوى محرِّض ضعيف فهي ليست مركّباً بالنسبة إليه : لقد كان الشخص المعني يستطيع القول بأنه كان يهزأ من ذلك لأن الانفعال الوحيد القابل للاستشعار هو ذاك الناجم عن رغبته في عدم الانكشاف . كان عليَّ أن افحص الأفراد المعنيين بحضور مجلس من القوم فباشرت تجربة ترابطات مع الأول . غير أنه راق لهذا الأول أن يتصرف كالغبي عندما أراد أن يظهر بأنه على علمٍ باللعبة في حين أنه كان في الواقع يجهل ما يدور حوله تاركاً الكلمات الحاثة الحرجة تمضي دون أي رجعٍ خاص . أما الثاني فكان هادئاً شديد اللطف لكنه كان يرجّع في الحال إزاء كل كلمة حرجة . فصحت قائلاً : «هذا هو المذنب» وقد كان هو فعلاً ! وعلى هذا النحو يستطيع المرء أحياناً اكتشاف مرتكب الجريمة . أما تقديم

(١) ما بين مزدوجتين من تدخل ر. ك.

Scanned with CamScanner

البرهان على إثميته فهو أمرٌ مختلفٌ كل الاختلاف لكننا أحياناً نستطيع على هذا النحو تقديم دلالة تكاد تكون برهاناً . وقد استطعت بهذه الطريقة جلاء بعض الحالات الواقعية .

تأثير المركبات على اللغة

ثمَّة حالات تؤثر المركَّبات فيها على اللغة إلى حد كبير نتحقَّق بها من أن بعض الكلمات الحاثة تحدث تجليات فريدة مماثلة لما يسمَّى في الألسنيات وفقه اللغة **تراصات** . يقال إنه يوجد تركيب مزجي عندما تحتوي الكلمة الرئيسية مثلاً على حرف «ا»وبحيث يتم اختيار الكلمات الأخرى في الجملة محتويةً أيضاً على حرف «ا»وتلك هي الحالة المتواترة في اللغات الزنجية . فعندما نعبِّر مثلاً عن فكرة أن «الصيف حارٌ» مشدِّدين على «حار» قد يقول الزنوج : «الصيفا حارّا» . وهكذا تتبنى الكلمات الثانوية صوتية الكلمة الرئيسية . بيد أن الحال لم تعد كذلك في اللغات المتطورة (ومع ذلك ما نزال نجد منها أيضاً بقايا في التركية والهنغارية) غير أنه عندما يجد وجدانٌ ما فيها تعبيره فإن الكلمة التي تصوغه بأكثر ما يكون من القوة تنزع هي الأخرى إلى التكرار كالقافية . ولعلَّ الحالة المثلى هي حالة ذلك الشخص الذي يصرخ : «آي» ثم يتابع مكرراً :«آي ، آي ، آي !» فههنا بلا ريب يكمن **أصل القافية** . إن كل الهتافات ذات الكمون الانفعالي تملك هذه النزعة إلى التكرار وجذب العناصر الأخرى والتراص . فعندما يكون المرء ذا مزاجٍ مشجنٍ يتكلم كلاماً انفعالياً وجدانياً فإنه يميل إلى التعبير عن نفسه تعبيراً سجعياً وهذا هو أصل الخطابة والشعر . إن المرء لينزع نزوعاً ظاهراً إلى التعبير عن نفسه بالشعر عندما يستولي عليه وجدان ما . وهذه معطيات جدُّ شيقة وذات علاقة مع كون الوجدانات عند البدائي تتيح الفرصة فوراً لحركات إيقاعية كالألم مثلاً الذي يُعبَّر عنه برفعٍ إيقاعي للأذرع . وسرعان ما تتَّخذ التجليات الإيقاعية الوجدانية عند البدائيين والزنوج بخاصة طابع الرقص . فالرقص يصدر عنهم صدوراً عفوياً حالما يجري شيء يحرِّك وجداناتهم . وقد أتيحت لي مرَّة فرصة معاينة ذلك على نحوٍ رائع . كان ذلك خلال ليلتنا الثانية في الدغل حيث جلسنا حول النار وبجانبنا مساحة حرَّة ثم يمتدُّ من حولنا عشب الفيلة وأبعد قليلاً كانت تتراصف الأشجار المعتمة للغابة

Scanned with CamScanner

العذراء . كنا نسمع عجيجاً من الضجيج والصياح ولا نتوصل إلى تبيُّن مصدرهما فيما رحنا ندخِّن الغليون متمتِّعين جداً بحياتنا الجديدة كمستطلعين . وفجأةً حدثت بلبلة عظيمة وخليط مثير للسخرية من الصياح والصفير والثرثرة . وكنا نتساءل عمَّا جرى حين خرج الطاهي فجأةً من كوخه يصيح بأننا قد دخلنا وجاره . وإذَّاك أبصرنا قطيعاً من الضباع فامتشقنا بنادقنا وأطلقنا النار بأسرع ما يمكن حاسبين أننا قد أسلنا حمَّاماً من الدماء . غير أننا في صبيحة اليوم التالي لم نرَ نقطة واحدة ذلك أننا كنا ونحن تحت سيطرة الانفعال قد أطلقنا النار خارج الهدف . وبالطبع فإن هذا الحادث قد أثار الغلمان إثارةً شديدة . فأن تلج الضباع كوخ الطاهي أمرٌ قد هزَّهم إلى حدٍّ أنه وجب عليهم في اليوم التالي أن يمثلوا برقصةٍ مقتل الطاهي على يدِ الضباع حيث قام أحدهم بدور الطاهي النائم في زاوية الموقد وآخر بدور ضبع ينقض على النائم ويخنقه وسط صيحاتٍ عظيمة . وجرى تكرار ذلك من عشرين إلى ثلاثين مرةً فيما كان بقية الغلمان يعبِّرون عن ارتياحهم الظاهر إزاء هذا المشهد الذي كان يستحق حقاً مشقَّة النظر إليه . وعلى مدى يومين لم يجرِ عملٌ سوى الرقص على هذا النحو . وهكذا كان البدائيون «ينفِّسون» عن انفعالاتهم على شكل رقص وغناء .

لقد حضرت مشاهد مماثلة في بعض القرى حيث كان يُعلن عن وصولنا كل مرةٍ بأغانٍ مترافقةٍ بقيثارة ذات ثلاثة أوتار : «ثلاثة رجال بيض كبار قدموا علينا ومعهم سجائر وأعواد ثقاب وقد أعطوننا منها . نحن مسرورون جداً بقدومهم علينا ، الخ» . كان يجب «تفريغ الانفعال» بوصولنا أيضاً على هذا النحو .

سؤال : هل لمناهج التداعي التي تكلَّمت عنها استخدام تطبيقي راهن أم أنه لم يعد لها سوى قيمتها التاريخية ؟

جواب : لم يعد يستخدمها بعد غير محلِّلين مبتدئين تعوزهم الثقة . وهي تستعمل أيضاً في التعليم لأنها تشكل منهجاً لا يضاهى من أجل تبيان الفاعلية الحية للمركَّبات . وإني شخصياً لم أعد أستخدمها في الممارسة غير أني اكتسبت بفضلها ما يكفي من الخبرة بحيث لا أكون بحاجة إلى أخماس الثانية كيما أتحقق من بعض الترددات أو بعض الاضطرابات التي أبصرها مباشرةً . بيدَ أنه ما يزال لمنهج

Scanned with CamScanner

التداعيات قيمته الكاملة من وجهة النظر التعليمية وهي جزيلة الفائدة عندما يتعلق الأمر بتأسيس فهم الإواليات النفسية على قاعدة صلبة .

٣[1]

الفائدة النظرية لتجارب التداعيات

فلنهتم الآن بـ **الاستعمال النظري لتجارب التداعيات** . هذه التجارب تؤدي بنا إلى استنتاجات ذات أهمية بالغة بالنسبة إلى التطور اللاحق للمفاهيم الأساسية .فبفضلها يمكن للمرء من الآن فصاعداً أن يكوِّن فكرة عن السمات الجوهرية التي تطبع الأعصبة وطريقة عمل الخافية . فالمركب كما رأينا محتوى نفسي ذو نبرةٍ وجدانية قد تكون خافيةً أو واعية بدرجات مختلفة بحيث إن بعض الكلمات الحاثة تجد نفسها مشدودة ومضبوطة بفعل مركَّب دون أن يدرك المرء إدراكاً واضحاً بأي صفةٍ تشكل جزءاً منه : إن صِلاتها بالمركب تسمَّى صلاتٍ رمزية .ولعلَّه من الأفضل القول : **إنها تلمع إلى المركب وهي بمثابة استعارة لفظية** توحي به .فلنتذكَّر على هذا النحو حالة الشخص الذي دخل في عراك بالسكين . فقلَّما يرجِّح بأن كلمة «مدبَّب» كانت جزءاً لا يتجزأ من مركَّبه الذي لم يكن لهذا السبب أقلَّ انمساساً بذلك التلميح الجانبي . وإذا ما كان لي أن أسجِّل أيضاً مع هذا الشخص عينه الرُجُعَ الناجمة عن مائة كلمة حاثة جديدة فمن الأكيد أن عدداً منها سيصيب مجدداً نقطة ضعفه . وثمَّة في هذه التجارب كما في الحياة الجارية حيث نتمتع أحياناً بتلميحات ليست على الرغم من عدم مباشريتها أقلَّ إصابة لحوض الورد وحيث نستخدم جمهرة من العبارات المسمَّاة رمزية خطأً بينما هي بحد ذاتها استعارات؛ هكذا مثلاً التوريات التي تترجم دون أن يظهر مقصدها فكرةَ السرقة : «وضع في جيبه ، نشل ، اختلس ، قنص ،الخ» وثمَّة العديد من الأشكال اللفظية التي جرت مجرى المثل تُلمع على النحو عينه إلى نشاطاتٍ انفعالية

(١) المحاضرة الرابعة .

Scanned with CamScanner

يفضِّل المرء ألاَّ يتكلم عنها مباشرةً . فاللهجات المحلية والكلام الدارج لديهما من وجهة النظر هذه خيال لا ينضب ويصوغان بلا انقطاع عدداً لا يحصى من التوريات التي تشكل إلماعاتٍ شبه مباشرة إلى مركبات .وفعلاً فإن المركَّب بسبب كمونه الوجداني أشبه بعصيدة لاهبة لا يمكن مدُّ الشفاه إليها فيكتفي المرء بالإحاطة بها عازلاً إياها كيفما تيسَّر له وبالتلميح إليها . وهذا هو أيضاً ما يجري في اللغة الدينية خاصة عندما يتعلق الأمر بأغراض سرانية فتُختار لها تسميات غير مباشرة . فقد كان من الدارج مثلاً في القرنين الأول والثاني بعد الميلاد عدم تسمية المسيح مباشرة فكانوا يكتفون بقولهم : «السمكة» . أما الأسرار الأخرى في الديانة التي أصبحت فيما بعد طقوساً أسرارية فلم تكن تسمَّى أسراراً إلا بطريق الاستعارة بحيث إن غير المختص بها لم يكن يستطيع أي لا يجوز له أن يفهمها . فقد كانت تشكل أيضاً في ذلك العصر محتوياتٍ دينيةً شائكةً جداً وبخاصة لأنه من أخطرها . وهكذا فإن المرء ليجد كل الألقاب المكنة والمتخيَّلة للأشياء التي يريد إخفاءها بطيبة خاطر . إذاً فإن التسميات غير المباشرة والإلماعية المكوَّنة فقط من تداعيات وسيطة ليست رموزاً بالمعنى الصحيح . يجب من أجل فهم تجربة التداعيات فهماً جيداً إعادتها إلى تلك الظواهرية العامة للعقل الإنساني ذلك أن الروابط الوسيطة مع المركبات تبيِّن النشاط الفضولي لهذه الأخيرة . وبالفعل فإن المركب هو بمثابة ضرب من المغنطيس ، مركز مشحونٍ بطاقة جاذبة تشدُّ إليها كلَّ ما هو في متناولها حتى الأشياء الحيادية . فعندما تعيشون مثلاً حادثة مؤثرة تحتفظون في ذاكرتكم بتفاصيل الموقع والروائح الخ ، التي قد تكون بحدٍّ ذاتها غريبة تماماً ومحايدة بإزاء معنى المركَّب .وهذه التفاصيل ليست أقلَّ اشتمالاً بالمركَّب في الفلك الحرمي فهي أيضاً موسومة بإشارة الحرم وتستطيع عند استثارتها بالمناسبة أن تعمل كمحرِّضات تطويعية للمركب[1] ولذلك يقال بأن المركَّب يمارس تأثيراً جاذباً وتمثُّلياً .

إن كل من يجد نفسه تحت سيطرة مركَّب مهيمن يتمثَّل ويفهم ويتصوَّر المعطيات الجديدة التي تنبجس في حياته باتجاه هذا المركَّب الذي تخضع له . وباختصار فإن المعصوب يعيش مؤقتاً تبعاً لمركَّبه كما لو كان يعيش زعماً

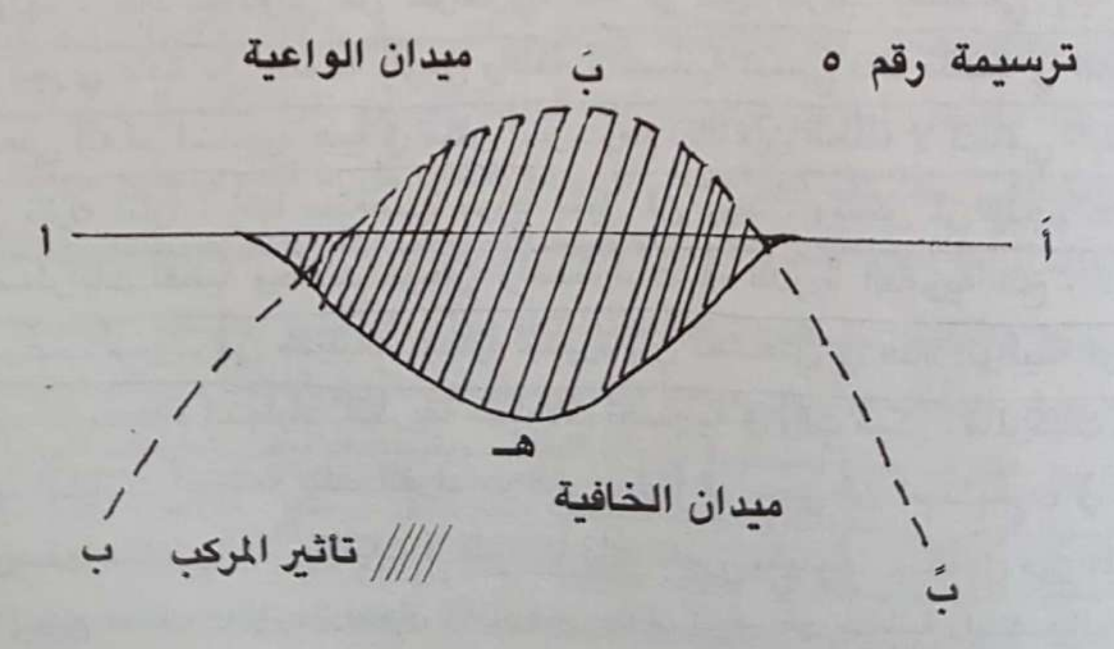
(١) التقريب مع الانعكاسات التطويعية لپاڤلوف واضح ؛ فتدريب الكلاب ذات القرح هدفه إشراك علامة ضوئية مثلاً بمركب الغذاء - هي إشارة ضوئية سيكون لها فيما عندما تقدَّم وحدها قدرة إطلاق كل الإواليات الملازمة لتقديم الأطعمة . (رك)

Scanned with CamScanner

أصلياً لا يزول .

تتمتّع المركبات كما تبيّن ذلك تجاربنا بياناً واضحاً بـ **استقلالية ظاهرة** أي أنها كيانات نفسية تروح وتجيء كما يحلو لها فظهورها واختفاؤها خارجان عن إرادتنا . إنها شبيهة بكيانات مستقلة تعيش داخل منظومتنا النفسية ضرباً من حياةٍ طفيلية .المركب ينبجس في ترتيب الأنا ويستمر فيه على النحو الذي يوافقه في حين تواجهنا أشد المصاعب في التخلص منه . ومن جهة أخرى فإن مركّباً ما يكاد يتجلّى على نحوٍ محسوس حتى يفسد وعينا كما سبق وقلت : فهو يلزمنا على تمثّل وفهمٍ بل أريدُ أن أقول على ارتكاب إساءات فهمٍ تبعاً لنبرته الخاصة لأنه يعكّر ذاكرتنا . فالأجوبة المتأثرة بمركّبات لا تترك الذكريات على أمانتها أو هي تدخلها عالم النسيان إلى حدٍّ أن قيمة شهادتها تتعرَّض للشبهة بفعل المركبات التي تدفعنا حتى إلى الكذب على جهلٍ منا أو إلى مناقضة أنفسنا ذلك أننا لا نعود بعدُ كما نحن إيّانا عندما يسود فينا مركّب ما . إن تجربة التداعيات تثبت كل هذا إثباتاً بليغاً . إننا لا نستطيع من الأمر شيئاً .بيدَ أن المركّب يشكل تقريباً كياناً نفسياً منفصلاً ومتملصاً إلى حدٍّ يزيد أو ينقص من الرقابة المتدرِّجة لوعي الأنا . من هنا الواقع الفريد أن مركباتٍ يمكن أن تكون واعية على نحوٍ مؤقت ثم تختفي فيما بعد عند الاقتضاء غارقة في الخافية حيث تجعلنا تحت سيطرتها حتى دون أن نلحظ بأننا نتلقى تأثيرها لأن كلَّ مرةٍ يُظهر مركب ما فيها حضوره بنشر نشاطه فإن أثراً نمطياً ينجم عنه على الوعي ممثّلاً بالترسيمة ٥ .فلنفترض بأن للوعي بعض القوة وبعض

ترسيمة رقم ٥

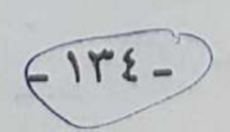


Scanned with CamScanner

الانتباه وأن الخط الأفقي اأ يمثّل مستواه في حالة اليقظة . فإذا ما وُجد ثمَّة مركب ما وبدأ نشاطه فإنه يتقدَّم ، كما لو كان آتياً من تحت ، من مستوى الوعي تبعاً للمنحني ب بً . وفي الوقت نفسه يتراخى مستوى الوعي فنلاحظ إذّاك «هبوطاً في المستوى الذهني» أي تضاؤلاً في شدَّة الوعي تبعاً للمنحني أ هـ . وإذا ما جرى ذلك بالشكل الذي تمثله ترسيمتنا على نحو شديد إلى الحد الذي يمارس فيه المركب سيطرة تامة على الفاعل فإن الوعي يتوقف بسبب ذلك خلال هذا الردح من الزمن ويصبح وصيدياً.وإذ يلتحف ما هو بالمركَّب ويكون حال المرء حينئذٍ وكأنه لم يعد بعدُ مزوداً بأي وعي سوي ولم يعد هناك سوى الوجدان . ونعاين إذاً بأن ثمَّة ضرباً من معاوضة زخمية بين المركب والوعي . ونحن لا نشهد المركَّب ينتصب بمستوى الوعي أو يتجاوزه وحسب بل نشهد في الوقت عينه هبوطاً في الوعي الذي يصبح حالماً غير متيقظ ومخلياً على نحوٍ ما للمركب الحدَّة الشديدة التي تتصف بها حالة اليقظة . ويحدث هذا الهبوط في المستوى الذهني بتواتر في الحياة الجارية دون أن يميِّز المرء المركَّب الذي يحيِّنه لأن هذا الأخير يبقى غير ملحوظ سواء من الفاعل نفسه أو من شخص يلاحظه . وحده الملحوظ هو تراخي الوعي . ونشاهد فجأة فقداناً في شدَّة الوعي فالفاعل يصبح ساهماً ولا يعود ينتبه انتباهاًسليماً وإذا ما سئل عمَّا يجري فليس يدري بما يجيب . البدائيون يقولون في مثل هذه الحال بأن نفساً قد هجرتهم الأمر الذي يعبِّر تعبيراً جميلاً عن واقع أن جزءاً من طاقة الوعي قد نُقل إلى مركَّب محاذٍ . ويعبِّر بعض المرضى العقليين عن هذه الظاهرة بقولهم : «لقد جرَّدوني من خواطري» كما لو كان المركَّب يستدعي إليه فجأةً ما يجري عادةً على صفحة الوعي واللغة النفسانية تسمي ذلك **نقصاً في الليبيدو** بمعنى أنه قد استُحوذ عليه في مكان آخر . ومع ذلك فإن الطاقة لا تختفي البتة دون أن تترك آثاراً . إنها ستعصِّب مركباً سبق أن وُجد . ويمكن أن ينجم عن ذلك اضطرابات لفظية وحالات هيجان واضطرابات في الدورة الدموية الخ ، ذلك أن المركَّبات ضروبٌ من طفيلياتٍ نفسية جديرة بأن تعشعش في هذه الوظيفة أو تلك .

وقد أثارت هذه التجليات الطريفة محاولاتٍ تفسيرية في وقتٍ مبكر : فالمركَّبات وأعني بها الكيانات المتمتعة بتلك الفرادات التي ذكرنا قد سبق أن استُشعرت في الماضي بوصفها مكانز وإِلَفَة[1] كائنات لا قلب لها ذات نفس جليدية . وبالفعل فإن المركَّبات

(١) جمع «مكنان» و«إلفي» : إسمان لأقزام وجن يردان في أساطير جرمانية واسكندينافية . (م)



هي في أصل تصور الناس للمكانز التي هي بحصر المعنى **قطع نفسانية جُعلت** بشراً بفعل إواليةٍ يجب علينا تحديدها . إن كل قطعة نفسانية تملك بحد ذاتها نزوعاً وجوبياً إلى التكوُّر في شخصية كذا فإن الأصوات عند المعتوهين التي يسمعها هؤلاء مثلاً هي أفكار أفلتت منهم وخرجت عن رقابة الأنا فأصبحت مسموعة . غير أن هذه الأصوات - وههنا بيت القصيد بالنسبة إلينا - لا تكتفي بالتعبير عن تلك الأفكار التي توحي بها ولكنها تزعم علاوة على ذلك أنها تعبير عن شخصيةٍ معينة وأنا محدَّدة .لذلك فإن المريض هو لا محالة ضحية الاقتناع بأنها كائنات تنطق بهذه الأصوات وتلاحقه[1] . «وبسببٍ من هذه النزعة إلى التشخيص تمَّ في الماضي إدراك مركباتنا على هيئة إلَهَة ومكانز» .

البدائيون يعتبرون في المستوى عينه من الأفكار بأن الجو حي وأن لكل ما يتمثل في العالم المحيط تقريباً موهبة النطق . فعندما تستأثر بهم مسألة ما يذهبون عند المساء إلى الغابة ويكلمون الأشجار التي تغدق الأجوبة عليهم . أو أيضاً بينما يكونون في الغابة قد يحدث أن شجرةً تتوجه إلى بدائي طالبةً إليه أن يقدِّم لها هذه التضحية أو تلك وعلى الرجل حينئذٍ أن يطيع . كذلك فإن الحيوانات كافةً تستطيع التكلم وكلها مزوَّدة بفهمٍ إنساني عميق وليس ثمة مجال للتعجب من ذلك لأن عناصر نفس البدائي ليست منضبطةً في ذاته انضباطاً متماسكاً بل تجدها مسقطةً في أشياء وكيانات العالم الذي يحيط به حيث تعيد إليه صداها . ونحن أيضاً بدورنا نسقط معطياتنا النفسية في العالم الخارجي فعالمنا هو دائماً عالم إحيائي animisteحتى ولو كان ذلك على نحوٍ أقل سطوعاً واندراكاً بالنسبة إلينا . ولكن إذا ماقيِّض لنا أن نرى حياتنا الراهنة أو أن نقرأ كتب العصر الحاضر برجوعنا ألفي سنة إلى الوراء فقد نرى مندهشين كل ما تنطوي عليه حياتنا من إسقاطات . أما اليوم فنحن لا نراها البتة لأن لها بداهة الأشياء وطبيعيتها اللتين

(١) بوسعنا ان نقدم ملاحظات مماثلة فيما يتعلق برؤى المعتوهين وهلوسهم . ولنضف بأن تشخيص المركَّبات هذا ليس مرضياً بالضرورة بل هو شائع في أحلامنا . ويمكن لمركباتنا أن تصبح بالتدريب مرئيةً ومسموعة في حالة اليقظة . ويقوم هدف بعض الممارسات اليوغية على تقسيم الوعي إلى مكوناته وصياغة شخصية متميزة من كل منها . فلنا هيئتنا ايضاً هيئاتها النمطية المشخَّصة كما في القرين والقرينة مثلاً . راجع بهذا الشأن :
C. G. Jung, **Dialectique du moi et de l'inconscient**, Gallimard, Paris, 1963. (رك)



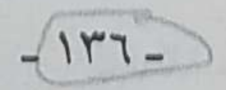
Scanned with CamScanner

لا يمكن أن تكونا على غير ذلك .بيدَ أنه يمكننا من الآن كشف بعض الإسقاطات .فثمة مثلاً أشخاص يجب عليهم أن يبذلوا جهداً متفوقاً لكي يتوصلوا إلى اعتبار أن كائناً غيرهم ليس سيئاً ولا تافهاً - وهي نعوتٌ يمنحونه إيَّاها مجاناً تبعاً لجوانب شخصيتهم السيئة المسقطة - ولكنه يعيش تبعاً لنفسانية مختلفة عن نفسيتهم . أو أيضاً : هناك دائماً أناسٌ مستعدون للاعتقاد بأن كل ما يحكمون بصلاحيته يكون كذلك بالنسبة إلى العالم كلِّه .تلك سمات بدائية أظننا أبعد ما نكون عن تجاوزها !

كذا فإن المركَّبات التي نحملها في أنفسنا تجعلنا نعيش في عالمٍ من الإسقاطات التي بانفلاتها دائماً خارج حواسنا تشوِّش تشويشاً عظيماً القيمة الموضوعية لشهاداتنا التي تمنحنا إيَّاها هذه الأخيرة . ومع ذلك فإن حقل تأثير المركبات لا يقف عند حدود هذا الكشف المثير منذ الآن . فالاستقلالية الفريدة للمركبات وقدرتها على استجرار طاقتها من الوعي وجعلها في حسابها وأن تأخذ مكان هذا الأخير وتؤثر فيه وتتحكَّم به ، كل هذا نجده على نحوٍ مدهش في مركب سويٍ هو مركَّب الأنا . ويفترض الناس عموماً بأن المركَّبات ليست سويةً في حين أنها ضرورات حيوية . فالأنا أو مركب الأنا مثال على ذلك . الأنا مركَّبٌ مزودٌ بالطاقة وهو مِستقِلٌ ويحس بنفسه حراً[1] . فأنا أتصور نفسي مالكاً لإرادةٍ حرة أعمل ما أشاء وأذهب حيثما يحلو لي .ويبدو لي أن كل هذا يستند إلى حقي تماماً . ما هو مركَّب الأنا هذا ؟ إنه تراكمٌ من محتوياتٍ متداخلةٍ بعضها في بعضها الآخر وكلٌ منها مزوَّدٌ بكمونٍ طاقي ومتمحور تمحوراً انفعالياً حول الأنا الثمينة[2] . ذلك أن الأنا تتمتع بتأثير شديد الجاذبية على كل ضروب التصورات وبإمكانها وحدها أن

(١) فلنتذكر بأن «الحرية ليست مرادفاً لعدم الحتمية بل بالحري لتحتيم أعلى للأفعال الشخصية للأنا» وأن الأنا وظيفة عامة ، «وظيفة الوظائف» ، لا تنتمي إلى أي وظيفة خاصة ولكنها تغلف كلًا منها بمعاملها الفردي (بحسب أ. بودان ، المؤلف المذكور) . (رك)

(٢) وهكذا فإن الأنا هي في الوقت عينه مركبٌ ومحور هذا المركب . وقد بين لي ك. غ. يونغ فكرته بذكرة الفصل الشهير للقديس أغوسطينوس : «الله دائرة لا متناهية محورها في كل مكان ومحيطها ليس في أي مكان .» يبدو بالفعل أن صورة الله هذه عند القديس أغوسطينوس ترتكز على إسقاطٍ لبنية الأنا مُدرَكةٍ إدراكاً حدسياً (رك)



تحتلّ الوعي كلّه . وهكذا يبلغ المرء إلى وعيٍ بذاته ممتنعٍ مسكين ومضنٍ يستنفد ذاته في الانشغال بسلوكه الخارجي ومعاينته :فيكون المرء حينئذٍ ملك أناه .فكّروا بخطيب خجولٍ عليه أن يعتلي المنبر فيما هو يفضّل أن تبتلعه الأرض ! الخ . وللمركّبات الأخرى كما رأينا قدراتٌ مماثلة . ولكنَّ هناك فرقاً أولياً بين المركبات بعامة ومركّب الأنا بخاصة : الأنا مزودةٌ بوعي . وبإمكانها على هذا النحوأن تنكفىء على نفسها وتتصور نفسها في حين يبدو أن المركبات الأخرى لا تتمتع بأي وعي . ومع ذلك فمن الصعب جداً إن لم نقل من المستحيل إثبات ما إذا كانت المركبات تتمتع أو لا تتمتّع بوعيٍ لذاتها . من المتواتر أن ينكبَّ الإنسان على عملٍ يعتقد بأنه ينجزه إنجازاً واعياً في حين أن العمل يجري على جهلٍ منه وذلك أكثر تواتراً ممّا نظن ، ومن المدهش أن نرى رأي الناس بعضهم في بعضهم الآخر من وجهة نظر وعيهم المتبادل . فما الذي يضمن لنا فيما يتعلّق بمركب عادي أن صلات المحتويات المحيطية بمحورها لا تشكل ضرباً من وعي أو لا تتوافق مع الصلات القائمة بين المكوِّنات المحيطية لمركّب الأنا والأنا بما هي محورها الخاص صلاتٍ هي الوعي تحديداً . إننا لا نستطيع إطلاقاً إثبات أرجحية وعي ملازم للمركّبات أو الطعن بها ؛ فلعلّها تتمتع ببقايا وعي في مثل هذه الفرضية قد تكون المكانز كيانات فاسقة تتصرف على الرغم من المصلحة العامة وعلى حساب المجموع ككياناتٍ فردانيةٍ لحسابها الخاص(1) .

علم الطاقة النفسية

لقد ثبت لدينا أعلاه بأنَّ ثمّة معاوضة زخمية بين الوعي والمركبات الأمر الذي

(1) تظهر وحدة الوعي المزعومة في ضوء نظرية المركّبات أشبه بوهم . إنها تعبير عن رغبةٍ إنسانية عنيفةٍ لم تتحقق فعلاً . فنحن لسنا حقاً وحدنا أسياد بيتنا . يحلو لنا الإيمان بإرادتنا وسيادة قراراتها وعملنا . أما على صعيد الممارسة فإنّ عملنا معاقٌ بتلك الشياطين الصغيرة المركّبية التي تنزع إلى عيش حياتها الخاصة على هامش نوايانا . إن خافيتنا الشخصية ومثلها خافيتنا الجمعية تقوم على عددٍ لا متناهٍ من المركبات أو الشخصيات المجتزأة . وهذه الفكرة تفسّر كثيراً من الأشياء ، واقع أن الشاعر مثلاً يتمتع بملكة مسرحة محتوياته العقلية وتشخيصها؟ إنه يعتقد بأن الشخصيات التي يخلقها للمسرح أو في الرواية ليست سوى نتاج مخيِّلته في حين أن هذه الأطباع قد نضجت هي نفسها في ذاته نضوجاً سرياً . بعض الكتاب ينفون المعنى

Scanned with CamScanner

يلزمنا على طرح مسألة علم **الطاقة النفسية**[1]. إني أسمي الطاقة النفسية على نحو عام بمصطلح **الليبيدو**. وافتراضي الأولي هو أنه إذا كان حقاً أن المنظومة النفسية تشكل نظاماً مغلقاً نسبياً فإنها تملك كموناً طاقياً يبقى على وجه التقريب مساوياً لنفسه عبر كل تجليات الحياة أي أن الطاقة إذا ما جمّدت واحداً من استظهاراتها فسوف تظهر في غيره. فلنفرض حالة من يهتم اهتماماً هوّياً بمجالٍ معين وذات يوم تبخّر كل الاهتمام الذي يمنحه إيّاه مخلياً المكان للامبالاةٍ باردة متعقلة. إذاً فإن الطاقة في نظام مغلق لا تختفي من مكان إلّا لتعاود الظهور في غيره وإن علينا أن نتساءل أين ذهب **الليبيدو** وعلى أي فلك جديد من الشخص وقع اختياره أو لصالح أية ضرورة عليا تبدَّل تخصيصه؟ وبالفعل فإنه لا يفوتنا في حالة مثالنا أن نلاحظ لدى فاعله شيئاً ما غريباً يدل على حضور الطاقة المبتلعة ظاهرياً. فإذا ما تذكّرنا هذه القاعدة دائماً أمكننا معاينة ضرب من السببية في قلب الأحداث النفسية، سببيةٍ ليست تتابعاً منطقياً لكنها تُظهِر المسار التالي: يبدي اليومَ شخصٌ ما اهتماماً عظيماً بهذا الشيء أو ذاك ثم يبدو في الغد أن هذا الاهتمام قد اختفى بينما يُعايَن على نحو موازٍ أن اضطرابات بطنية مثلاً قد ظهرت ثم تتوقف هذه الأخيرة بدورها فجأةً ويظهر شيء جديد آخر ولنقل كرباً غير معلّل. لقد كان متعذراً في الماضي تحديد تتابع سببي منطقي لهذا التلاحق في الوقائع غير المتجانسة ظاهرياً. لم يكن بإمكان المرء أن يتصوَّر أية علاقة يمكن أن تكون للكرب مع هذا التخيل أو ذاك وهذه المصلحة أو تلك التي يأتي إسهال أو صداعات أو دوارات أو صعقة حب الخ فيندس فيما بينها. لم يكن يبدو أن هذه الحُلَيْقات الغريبة المتصامّة تشكل سلسلة متصلة أما اليوم فنحن نعلم بأنها تعبير عن استحالات الطاقة عينها التي تتعرَّض لاضطرابات في مستواها: فهي تعصِّب عموماً الوعي ثم تختفي منه أحياناً وتهبط بضع درجات فتتسبَّب عندئذٍ في طوارىء كخفقانات قلبية وآلام بطنية وطفوح

النفساني لشخصياتهم. وأنتم تعلمون في الواقع مثلما أعلم بأن لها معنى هي أيضاً. من هنا فإن بإمكاننا فك جفر عقل كاتبٍ بدراسة إبداعاته. (ذلك تبعاً لما ورد في محاضرات لندن. راجع ص ٥٩). (رك)

وثمة كتَّاب يقرُّون بأن شخصياتٍ ذات وجدانيةٍ بارزةٍ جداً إن هي إلا أجزاء من أنفسهم هذا ما قاله فلوبير عندما صاح: «مدام بوفاري هي أنا.» (ملاحظة م. پيشورو). (رك)

(١) راجع علم النفس المركَّب: «علم الطاقة النفسية» («الأقطاب المتضادة»، ص ١٤٣). (م)

Scanned with CamScanner

جلدية ثم تعود بعدها إلى المستوى النفسي تحت مظهر غير متوقع غالباً هو فكرة أو حالة انفعالية استحواذيتان فما دامت الفكرة الطاقية غريبة عن علم النفس[1] فإن كل هذه الظاهرات المتلاحقة كانت تبدو عديمة القاسم المشترك. كان الناس يجهلون صلات التكافؤ التي أدخلت وحدة أساسية وتسلسلاً في قلب هذه التحليلات التي بقيت ملاحظتها البالغة القدم دون تفسير. هاكم مثالاً يبيِّن ما نقول عن هذه الاستحالات للطاقة النفسية والتي هي شيقة على نحوٍ خاص كون اثنين من ألمع السريريين الألمان قد صاغا بشأنها تشخيصاتٍ مغلوطة. يتعلق الأمر بأرملة لها من العمر ست وخمسون سنة مرضت على حين غرة مبدية حالات غريبة مضلِّلة وضرباً من اختلاطٍ عقلي وصرخات استسقائية. لم يكشف الفحص عن شيء سوى إصابةٍ جلدية تافهة ظهرت فيما بعد في ظهرها مترافقة بنتوءاتٍ صغيرة أثارت الظن بورم خبيث. لست أدري بأية صدفة جرت استشارتي في هذه الحالة التي لم يؤخذ المنشأ النفسي الممكن فيها بعين الاعتبار. ومع ذلك فلدى فحصي للمريضة وجدت بأن الطفح الجلدي كان متناظراً من جانبي الظهر. ثم استخبرت عن قصة المرض التي كانت تدل على المكان واليوم الذي أُطلقت فيه الصرخة الاستسقائية الأولى. فسألت المريضة «ما الذي جرى حينذاك ولماذا حدث هذا فجأة؟» لكنها لم تكن تعرف عن الأمر شيئاً وليست لديها أقل فكرة عنه إنما كانت قبل ذلك في صحة جيدة تماماً وما جرى لها كان مفاجأة. وسألت الطبيبين المعالجين فأجاباني بأنهما تقصّيا الأمر بكل أمانة وأنهم سألا أهل المريضة وولدها دون أن يكشفا عن شيءٍ خاص. ولكن بما أني كنت عنيداً (وما أزال أيضاً) سألت المريضة مجدداً: «فكّري في الموضوع مرةً أخيرة، لقد كان ذلك في الأسبوع الذي يسبق عيد الميلاد، مرحلة العيد حيث يلازم الناس بيوتهم.» بيدَ أنها استمرّت تنكر بإصرار.

- كنت على الأرجح تهيئين مستحضرات الميلاد؟
- لا، لم أفعل ذلك.
- ولم إذن؟
- لأن ابني كان راحلاً.

(١) أدرجها يونغ بخاصة في مؤلفه الشهير: **L'énergetique psychique** (tr. Y. Le Lay, Georg, Genève et Albin Michel, Paris, 1956.)(رك)

Scanned with CamScanner

- لماذا ؟
- كان سيتزوج !
- وهل كان سيذهب ؟
- أجل ضد رغبتي .
- متى كان هذا ؟
- في اليوم الفلاني .

وكان هذا اليوم هو تحديداً اليوم الذي أطلقت فيه أول صرخة استسقائية .فقلت للأطباء : «لنكن حكماء ! إنها الهستيريا» . وقد تأكَّد ذلك فيما بعد وعندما كنت خارجاً أمسكت بي المرضة وقالت : «دكتور أنا سعيدة بتشخيصك إذ طالما فكرت بأنها حالة هستيرية» . إن فقدان واحدٍ من أسباب حياتها قد أعقبه لدى المريضة تراكمُ هائل للطاقة في مكان معين وغير متساوٍ من بنيتها النفسية ، الأمر الذي استثار تلك الصرخات الاستسقائية التي لم يتوصلوا إلى اكتناه سببها . أما المريضة الأرملة فلم يكن بمستطاعها الموافقة أن ألمها كان ناجماً عن حب ابنها لامرأةٍ أخرى وثمَّة شيء ما في داخلها كان يقول ثائراً : إبني العاشق يتركني ويجعلني أرملةً مرةً أخرى ؛ من هنا صرخاتها لأنها لم تكن تريد الاعتراف لنفسها بحقيقة موقفها الوجداني .

Scanned with CamScanner

٥

نظرية المركبات[١]

ها أنذا أشارف الثلاثين سنة أستاذاً خاصاً في جامعة زورخ حيث بدأت بتعليم الطب النفسي. كنت ألقي مقرَّراً في الأعصبة النفسية وأتصور نفسي في حماس الشباب مالكاً تقريباً لموضوعي. كنت في ذلك العصر مساعداً في عيادة الطب النفسي منشغلاً بتحريض من معلمي الأستاذ بلولر بتجارب في التداعيات. ولقد تميَّز درس الافتتاح الذي دشنت به تعليمي بواقع فريد: يتعرَّض الوقت الذي يستغرقه الفاعل للترجيع أثناء تجربة التداعيات إلى تأرجحات ذات ظاهر لا عقلي. وقد دفعتني إطالات زمن الرجع خلال التجربة وهي إطالات مفاجئة فريدة وغير متوقعة إلى اكتشاف فأطلقت عليه اسم المركب الوجداني وذلك ما بين ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ويهدف الدرس الحالي إلى تقديم نظرة مجملة عن نظرية المركبات المصاغة منذ ذلك الحين.

لقد وجب عليَّ الاقتناع خلال السنوات الثماني من تعليمي في الجامعة بأن عدَّة الطبابة النفسية التي كان يحاوَل بفضلها النفاذ إلى نفسانية الأعصبة لم تكن توفر سوى لمحاتٍ محدودة جداً عن طبيعة النفس المريضة. إن المرض قد أضحى مرئياً قطعاً غير أن المصاب بالمرض لم يصبح لذلك أقلَّ انغماساً في الظلمات. كان الناس حينئذٍ يفترضون مسبقاً على نحو ضمني وجود منظومة نفسية سوية وكان كل واحد يتصور نفسه عارفاً بعض الشيء بجبلَّتها. غير أني كنت كلما اجتهدت في

(١) درس افتتاحي ألقي في مدرسة الفنون المتعددة الاتحادية في ٥ أيار ١٩٣٤ بعنوان حرفي: **نظرات عامة في نظرية المركَّبات**

(٢) راجع **علم النفس المركب**، ص ١١٧. (م)

Scanned with CamScanner

النفاذ إلى طبيعة النفس ازدادت شكوكي في معرفتي الواقعية بأي شيء في هذه المنظومة النفسية السوية . وبدا لي أنه كان يجب عليّ العودة بعيداً في تاريخ تطور الوعي لكي أكوِّن فكرةً عامة عن طبيعة النفسي وأنه كان يجب استخدام التجربة الإنسانية في كل مداها من أجل تصويب ضيق وجهة النظر الشخصية . لذلك فإن دروسي الأخيرة في الجامعة كانت تتناول **نفسانية البدائيين** التي لم تكن لي معها بعدُ احتكاكات مباشرة . كانت شكوك تتعلق بكفاءتي قد دفعتني في عام ١٩١٣ إلى هجر التعليم الجامعي إضافة إلى أني كنت أرغب في التحرر من أجل إنجاز كل المشاريع التي كنت أخطط لها لكي أملأ الثغرات في خبرتي .

لم أكن البتة ضحية وهم أن الجامعات تهتم لعلم النفس الحديث ؛ كما لم أعد أفكر بنشاط تعليمي عام فيما عدا محاضرات موسمية كنت ألقيها أمام جمهور مثقَّف . بيد أن إيحاءً ودوداً من أحد أعضاء الهيئة التعليمية في مدرسة الفنون المتعددة الاتحادية هو الذي حرَّك فيَّ فكرة العودة إلى نشاطي التعليمي السابق إنما في إطار آخر .

ثمَّة طابع مشترك بين علم النفس والفيزياء الحديثين هو أنهما أكثر أهمية وأشدُّ دلالة بمنهجيهما منهما بأغراضهما . إن منهجهما لأكثر وعداً بآمالٍ معرفية من الغرض الذي ينطبق عليه . إن المنظومة النفسية بما هي غرض علم النفس هي فعلاً ذات تنوع ولا تحديد ولا تعيّن بالغي العمق بحيث إن المعطيات التي تردنا منها صعبةٌ حتماً بل يستحيل تفسيرها وبالعكس فإن الوقائع المقرَّرة كردٍ على التصورات والاعتبارات والمناهج المرافقة تمثل أو يجب عليها في الأقل أن تمثِّل أحجاماً معروفة . البحث النفساني ينطلق من عوامل شبه تجريبية وشبه اعتباطية ويلاحظ المنظومة النفسية مسجِّلاً تسجيلاً دقيقاً تحولات هذه الأحجام[1] . من هنا فإن الجانب النفسي يظهر على هيئة اضطرابٍ واقع على سلوك ممكنٍ ومتوقَّع من المنهج المستخدم . إن مبدأ هذا الانبثاق هو مع تعديل في النكهة منهج علوم الطبيعة عينه .

ويظهر للعيان في هذه الظروف بأن كل شيءٍ تقريباً يتعلَّق بمسلَّماتٍ مناهجية

(١) تماماً كما يُستدل على سير ركام ثلجي من انزياح المعالم المنغرزة فيه . كذلك تتشكل المعالم في علم النفس من عوامل منتقاة انتقاءً شبه موفق يتركز الانتباه عليها . (رك)

Scanned with CamScanner

فهي تطوِّع وتقسر النتيجة التي يساهم فيها في جانب معين الغرض الخاص للبحث دون أن يعيِّنها مع ذلك تعييناً نهائياً كما لو كان الأمر سيحدث فيما لو تمرَّس تأثيره مستقِلاً غير مقلقل . كذلك فإنه قد تمَّ التسليم منذ زمنٍ بعيد في علم النفس التجريبي ولاسيما في علم النفس المرضي بأن استعداداً تجريبياً مهما يكن مؤاتياً لا يتيح إدراكاً مباشراً للسيرورة المستهدفة ولكن مصطلحاً وسيطاً يتدخل بينها وبين التجربة ، تطويعاً نفسياً يمكن تسميته : **موقف التجربة** . وهذا «الموقف» النفسي يستطيع في المناسبة أن يضع التجربة كلَّها موضع الشك بتشويه الاستعدادات التجريبية وبلبلتها في عقل الشخص المفحوص كما والمقصد الباعث عليها . يقال حينئذٍ بأن ثمَّة تمثُّلاً وهو مصطلح يشير إلى موقف الشخص الذي في خضوعه للتجربة يلتبس عليه مرماها : ذلك أنه ضحية نزعة لا تُقهر في البداية تجعله يتوسل في التجربة اختباراً للذكاء مثلاً أو محاولةً لإلقاء نظرات متطفّلة على صميميته . إن موقفاً كهذا إذا ما تدخَّل يؤدي حتماً إلى تعتيم العملية الذهنية التي تجتهد التجربة في فحصها .

هذه الملاحظات كانت قد جرت أساساً في مناسبة تجارب التداعيات[1] . ففي مجمل التجربة ينكفىء الهدف المنهجي الأولي وأعني به تقرير السرعة الوسطية للرُجُع وصفاتها إلى المستوى الثاني بمثابة مخلّف تابع نسبياً بفعل السلوك المستِقل للمنظومة النفسية والتمثل اللذين يفسدان المنهج إفساداً عميقاً ويعيقان التحقيق الذي بوشِر به . هذا هو ما وضعني على طريق اكتشاف المركبات الوجدانية التي كانت وقوعها قبلاً مسجلةً دائماً على أنها **أخطاء رُجُعيـة** .

لقد بيَّن اكتشاف المركبات وظواهر التمثل التي يستثيرها تبياناً جلياً مبلغ هشاشة القاعدة التي بُني عليها التصور القديم العائد إلى كونديلاك Condillac[2] الذي يكون لنا بموجبه كل المتَّسع لدراسة سيروراتٍ نفسية منعزلة . فليس ثمة

(١) فلنذكّر بإيجاز بمبدأ التجربة : يتجهّز المجرب بقائمة من مئة كلمة مثلاً وبميقات ، ثم ينبّه المفحوص بأنه سيلفظ كلمة ويطلب منه أن يردّ بأسرع ما يمكن بأول كلمة تخطر له . ويسجّل المجرّب إجمالاً أخماس الثانية المنقضية بين الكلمة الحاثة والكلمة المحثوثة . للمزيد من التفصيل راجع ص ١٠٣ . (رك)

(٢) فيلسوف فرنسي (١٧١٥ـ١٧٨٠) مؤسس المدرسة الحِسّانية ، واضع مؤلفَيْ **الرسالة في الإحساس والمنطق** متأثراً فيهما بمنهج لوك . (م)

Scanned with CamScanner

سيرورات نفسية منعزلة مثلما أنه لا توجد سيرورات حيوية منعزلة وعلى أية حال لم يتمَّ بعدُ اكتشاف وسيلة عزلها تجريبياً . إن المتقصي وحده يتوصل عبر انتباه وتركيز متمرِّس بهما لهذه الغاية إلى عزل ظاهري لسيرورة تستجيب لمقصد التجربة . غير أن هذه الملاحظة الموجَّهة تشكل بالنسبة إلى المتقصي موقف تجربة مماثل للموقف الموصوف أعلاه بالنسبة إلى المفحوص ولكن وعي المتقصي هو الذي يتخذ لديه هذه المرة دور المركَّب التمثُّلي الذي تمارسه مركَّبات دونية شبه خافية .

لا تشكك هذا الإيضاحات بمبدأ التجربة ولا بقيمتها إنما تنتقد مؤداها وتحدِّده وحسب :فالإوالية الانعكاسية الصرف هي التي تسود في ميدان السيرورات النفسية ـ الطبائعية للإدراكات الحواسية مثلاً أو للرُّجُع ، ذلك أن المقصد التجريبي بما هو غير ضار لن يؤدي إلى حدوث تمثلٍ وحتى إذا ما حدث فسيكون ضئيلاً ولن يعطل التجربة تعطيلاً جدياً . وبالمقابل فإن أي جهاز تجريبي لن يضمن في فلك السيرورات النفسية المعقَّدة عدم تجاوز إطار الإمكانات المستهدفة والمحدَّدة جيداً .

إن تعيين الأهداف النوعية للتجربة يجلب للمفحوص أماناً مطمئناً يُفتقر إليه هنا ؛ وبالمقابل فإن إمكاناتٍ لا محدودة تظهر وتطرح منذ البداية موقفاً اختبارياً خاصاً نسمِّيه **التكـوكب**. هذا المفهوم يدل على أن الموقف الخارجي يحرِّك في المفحوص سيرورة نفسية متميزة بتراصٍ وتحيينٍ لبعض المحتويات . وتدل عبارة «متكوكب» بأن المفحوص قد اتخذ وضعيةَ الانتظارِ موقفاً استعدادياً يبتدر رُجُعَه . فالتكوكب عملية حراكية عفوية لا إرادية لا يستطيع إنسان أن يحمي نفسه منها . وتستجيب التكوكبات إلى بعض **المـركبـات** التي تحمل طاقتها النوعية الخاصة . وعندما تكون تجربة التداعي هي التجربة الجارية فإن المركَّبات تظهر عموماً ردَّها من خلال تأثير بارز : فهي تعكِّر الرُّجُعَ بإطالتها أو تثير كيما تستتر في حالاتٍ أكثر ندرةً ضرباً من صيغة رجعية منكشفةٍ مع ذلك من حيث إن الرجْعَ لا يعود يتلاءم مع الكلمة الحاثة . ويستطيع الأفراد الذين يتقدمون للتجربة إذا كانوا مثقفين وذوي إرادة قوية أن يردُّوا في زمنٍ قصير بفضل مهارتهم الحركية وبراعتهم اللفظية على كلمة حاثة حرجة يتلقفونها خلسةً إذا جاز القول متجنِّبين معناها بتخلصهم السريع منها بيدَ أن شبه الشعوذة هذا لا ينجح إذا كان الأمر يتعلق بأسرارٍ شخصية ذات

Scanned with CamScanner

أهمية واقعية يجب صيانتها . إن فن تاليران Talleyrand القائم على ستر الخواطر بكلمات ليس حكراً إلا على عددٍ قليل من الناس . فالأفراد غير الأذكياء وبينهم النساء خاصة يحمون أنفسهم بفضل ما يسمّى نعوت القيمة الأمر الذي يمكن غالباً أن يفضي إلى تقريباتٍ مضحكة . وبالفعل فإن نعوت القيمة تعبّر عن تلوُّنات العاطفة مثل : جميل ، صالح ، عزيز ، حلو ، لطيف ، الخ . وفي الأحاديث الجارية يجد بعض الأشخاص ـ وهذا متواتر ـ كل شيءٍ : شيِّقاً ، فاتناً ، صالحاً ، جميلاً ، هائلاً ، وبالانكليزية : splendid, grand, marvellous, fine وخاصة fascinating ومهمة هذه العبارات أن تغطي وتستر غياب الاهتمام لدى الشخص الذي ينطق بها أو حفظ الغرض الموصوف عند مسافة من شخصه بحيث يكاد لا يمسك[٢]. والمفحوصون الخاضعون للتجربة في غالبيتهم لا يستطيعون الحيلولة دون تلقف مركَّباتهم تلقفاً انتقائياً لبعض الكلمات الحاثة مزوِّدين إياها بسلسلةٍ من الأعراض الاضطرابية وخاصة بزمنٍ رجعيٍ متطاول[١] ويمكننا المباشرة بهذه التجربة بإضافة

(١) تستحق هذه الملاحظة أن نتوقف عندها برهة . إن نعت القيمة المستخدم في الحياة الجارية لا يستند بالضرورة إلى ملاحظة يونغ ، ومع ذلك يمكننا بلا شك تمييز ثلاث حالات :

أ ـ نعت القيمة مكافىء للعاطفة الصحيحة والتقدير «الموضوعي» عند الفاعل .

ب ـ يقوم استخدام نعت القيمة على تواجدِ إسقاطي انفعالي بالغرض ومن هنا تأتي الحرارة المؤثرة والحماسية أو سلبية العبارة .

جـ ـ نعوت القيمة المستخدمة على نحوٍ متلاحق لم تعد تتوافق لا مع التقدير المؤسس على إدراك حسي ولا مع إسقاطٍ من الفاعل ؛ إنها تشكِّل موقفاً بلاغياً مزيفاً مبتذلاً يهدف إلى غشٍ في الموقف الداخلي الواقعي المكوَّن من اللا مبالاة أو من النفور . غير أن هذا التصنع لا يُضلُّ طويلاً المخاطَب حتى غير المتنبّه الذي يستشف حالاً خلف هذا العَرَض الاجتماعي العواطف الحقيقية للفاعل : تبجح أو تشتت أو احتلام .

وليس لهذا ا لتمييز الضروري في الحياة العامة ما يسوِّغه عندما يتعلَّق الأمر بتجربة التداعيات التي يسرف الفاعل خلالها باستخدام هذه النعوت . إن ظروفالتجربة تستثني أحكام القيمة الراسخة ومشاركة وجدانية متعذرة هنا على هذه الدرجة . فلا يبقى بعدُ سوى الحالة الثالثة تلك التي يتكلَّم عنها يونغ والتي ـ ولنؤكد ذلك ايضاً ـ لا تنطبق إلاَّ على استخدامٍ لأحكام القيمة مغالى فيه وفي غير اوانه . (رك)

(٢) بإمكاننا أن نذكر فضلاً عن هذا العرَض : التكرار الناقص للجواب المعطى ، إشارة حركية لا إرادية يقوم بها المفحوص من حيث لا يدري ، عدم فهم الكلمة الحاثة المنطوقة جيداً ، جواب

Scanned with CamScanner

مقاييس مقاومة كهربائية استخدمها ڤيراغوت Veraguth لأول مرة لهذا الغرض فـ الظاهرة المنعكسة المسمّاةنفسية غلڤانيـةستزودنا بدلائل جديدة على الرجع الناجمة عن المركبات .

ثمّة فائدة عامة تنتج عن تجربة التداعيات فهي تحقق ببساطةٍ كبيرة أكثر من أي تجربة نفسانية الموقف النفسي الخاص بالحوار وتتيح من جهةٍ أخرى تعييناً تقريبياً للنسب والصفات . ويستبدل بالسؤال على شكل جملة كلمة حاثة مبهمة وملتبسة ومشكوك فيها لهذا السبب وبالجواب رجع من كلمةٍ واحدة. إن ملاحظة دقيقة للاضطرابات الرجعية تكشف وتتيح تسجيل حالات وعي يحرص الفرد على سترها بالصمت في الأحاديث المألوفة وهكذا نعاين خلفيات سريّة مكونة تحديداً من تلك الاستعدادات والتكوكبات التي كنت ألمع إليها أعلاه . ومايجري خلال التجربة يمكن أن يجري أيضاً في كل حديثٍ وكل حوار .فثمّة هنا وهناك موقف خاص سابق هو موقف تجربة من شأنه أن يكوكب في المناسبة مركّبات"تتمثّل"- أي تزيف وتبلبل فكر المفحوص المعقّد - موضوع المناقشة أو حتى الموقف في مجمله بمن فيه الشركاء الحاضرين . لذلك فإن الحديث يفقد طابعه الموضوعي ويبتعد عن هدفه لأن التكوكب المركّب يخلق ارتباكاً في الشخص المفحوص ويعيق نيته ويشوّش أفكاره بل يدفعه أحياناً إلى إجاباتٍ لا يتوصل فيما بعد إلى تذكُّرها[1] . الجنائيات كما سبق أن ذكرنا أعلاه[2] تستفيد عملياً من حالة الأشياء هذه في الاستجواب المتعدِّد الجوانب . أما في تجربتنا فإن اختبار التكرار هو الذي يعرِّي ثغرات الذكرى ويموقعها : يُطلب إلى الفاعل مثلاً بعد مائة رجعٍ أن يكرِّر التداعي الذي أدّاه إزاء كل كلمة حاثة تعاد بالتتالي على مسمعه . الثغرات في الذكرى وتلفيقاتها تتركز بانتظام وفي حدٍ متوسط في المجالات الترابطية التي قلقلتها المركّبات .

لم أتكلم عن عمدٍ حتى الآن عن طبيعة المركّبات فقد افترضت ضمنياً بأنها

غامض يشي بالمركب ، تقريبيات معنى بين الكلمة الحاثة والكلمة المحثوثة ، الخ . انظر أعلاه ، ص ١٠٥ وص ١٠٦ . (رك)

(١) كذلك يمكن لـ «تكوكب» من هذا النوع أن يكون في أصل الأسئلة المطروحة لأن الأسئلة والأجوبة يمكن أن تشوّه على حدٍ سواء . (رك)

(٢) أنظر ص ١٢٨ . (رك)

Scanned with CamScanner

معروفة ذلك أن كلمة «مركب» بمعناها النفساني قد شاعت في اللغتين الألمانية والإنكليزية . إن كل امرىءٍ يعرف اليوم بأنه حامل مركبات . أما أن تكون المركبات قادرةً على تملّكنا فتلك معرفة ليست قلة انتشارها إلّا زيادة في أهميتها النظرية .

وإنك لتجد وحدة الوعي المعادلة للمنظومة النفسية وسيادةَ الإرادة المُسلَّم بهما دون فحص موضع شكٍ بفعل المركَّبات عينها .فكل كوكبة مركبات تستثير حالةً مقلقلة من الوعي لأن وحدة الوعي تكون مشوبة حينذاك والقصد الإرادي معاقاً إعاقة جدية على الأقل إن لم يكن معطلاً تعطلاً تاماً . والذاكرة هي الأخرى كما رأينا تتأثر غالباً بهذه الحالة تأثراً عميقاً .فعلينا أن نستنتج من ذلك بأن المركَّب عامل نفسي يتمتَّع من وجهة نظر طاقية بكمون يسود في لحظات كمون القصد الواعي : وإلّا ما كانت مثل هذه الانبجاسات في تنظيم الوعي لتكون ممكنة . وبالفعل فإن مركباً نشيطاً يغرقنا ردحاً من الزمن في حالة من عدم الحرية والأفكار الهجاسية والأعمال القاهرة ، حالةٍ تقوم في بعض جوانبها على المفهوم القضائي للمسؤولية المحدودة .

إذاً ماذا يعني بكلامٍ علمي «المركب الوجداني» ؟ إنه الصورة الانفعالية الراسخة لموقف نفسي ثابت وغير المتوافقة علاوة على ذلك مع الموقف والمناخ الواعيين المألوفين والمتمتعة بتماسكٍ داخلي قوي ، بضربٍ من كلِّية خاصة واستقلالية إلى درجة عالية نسبياً : ذلك أن انصياعها لاستعدادات الوعي هو انصياع خاطف وهي تسلك فيما بعد في فضاء الوعي بمثابةِ جسمٍ آخر منتعش بحياةٍ خاصة . ويستطيع المرء عادةً بفضل جهدٍ إرادي أن يصدَّ مركباً ويفشل عمله بيدَ أن ما من جهد إرادي يتوصل إلى إلغائه فهو يعاود الظهور في أول مناسبة مؤاتية بقوته الأولية . وثمَّة أبحاث اختبارية تشير إلى ان منحنى نشاطه أو حدَّته متموج بطول موجةٍ قد تمتدُّ من بضع ساعات وبضعة أيام إلى بضعة أسابيع غير أن هذه المسألة الشديدة التعقيد ما تزال غير متَّضحة بعد .

إننا ندين للأمراضيات النفسية الفرنسية وبخاصة لأعمال بيير جانيه بمعرفتنا اليوم لإمكانات الوعي الانقسامية الواسعة .لقد توصل جانيه ومورتون Morton إلى تحقيق انشطاراتٍ إلى أربع أو خمس شخصيات متباينة وثبت في هذه المناسبة بأن كلًا من هذه القطع من الشخصية يتمتَّع بتكوين طبعي وذاكرة

Scanned with CamScanner

خاصين . هذه القطع قائمة جنباً إلى جنب ومستقلة فيما بينها استقلالاً نسبياً وتستطيع في كل لحظة أن تتبادل مواقعها بالتناوب ؛ وذلك يعني أن كل واحدة تتمتّع بدرجة رفيعة من **الاستقلالية** . إن تحققاتي في المركّبات تأتي لتكمّل هذه الخلاصة المرعبة بعض الشيء عن إمكانات التفكك النفسي ذلك أنه **لا يوجد في الأساس أي اختلافٍ مبدئي بين شخصية مجزّأةٍ ومركّب** . ثمّة جوانب جوهرية مشتركة بينهما والسؤال الدقيق في الوعي المجزّأ ينطرح في الحالتين . الشخصيات المجزّأة تتمتع بوعي خاص بلا ريب ولكن هل يمكن لقطعٍ نفسية ضيقة كالمركبات أن تتمتع هي الأخرى بوعي ؟ إنها مسألة لم تجد حلّها بعد وأعترف بأنها كثيراً ما شغلتني : المركبات تتصرف فعلاً كجنٍ ديكارتي خبيث إذ يبدو أنها تتلذذ بشيطنات قزمية سبق لنا أن شبهناها بها أعلاه[1] . إنها تضع على شفتيك الكلمة التي لم يكن من الواجب قولها[2] وتختلس منك اسم الشخص الذي تزمع تقديمه وتبعث فيك حاجة لا توقف إلى السعال عند أشدِّ اللحظات رقة وتأثيراً من حفلة موسيقية وتجعل المتخلف الذي يريد أن لا ينكشف أمره يتعثر على كرسيِّه مقرقعاً ؛ إنهم أصحاب الخباثات التي كان ف. ث. فيشر[3] يريد أن يعزوها إلى **الأغراض البريئة** ؛ إنها الشخصيات الفاعلة في أحلامنا التي نتجابه معها عاجزين تماماً ؛ إنها الكيانات الإلفية المفصّلة تفصيلاً كاملاً في الفولكلور الدنمركي بقصة راعي الكنيسة الذي أراد أن يلقن إلفيين صلاة «أبانا»[4] :لقد تكبد هذان مشقة كبرى في ترداد كلماته بدقة غير أنهما منذ الجملة الأولى لم يتمالكا نفسهما من القول : «أبانا الذي ليس في السموات» وظهر في اتفاقٍ تام مع تصورنا النظري أنهما غير قابلين للتربية .

وبتعديلٍ بالغٍ للنكهة أتمنى أن لا تستاؤوا مني لأجل هذا الإبدال الاستعاري لمسألة علمية . إن أيَّ تعريف بظواهرية المركّبات مهما كان مقتضباً لا يمكنه أن يغضَّ النظر عن استقلاليتها المدهشة فهو كلما نفذ إلى الطبيعة العميقة للمركّبات ـ وأكاد أقول **أحيائيتها** ـ ازداد ظهور صفة النفس المجزّأة على نحو

(١) انظر ص ١٣٤ . (رك)

(٢) انظر ص ١١٢ . (رك)

(٣) ف. ث. فيشر (١٨٠٧ـ١٨٨٧) جمالي وشاعر هزلي كتب رواية أضحت اليوم نسياً منسياً ، نصفها فلسفي ونصفها الآخر مأساوي هزلي عن خبث الأشياء . (رك)

(٤) للاطلاع على صلاة «أبانا» ، أو الصلاة الربية ، راجع مثلاً **إنجيل متى** ٦:٩ـ١٣ . (م)

Scanned with CamScanner

بديهي . إن النفسانية الأحلامية تَظهر بكل وضوح تشخيص المركبات عندما لا يكون مضغوطاً عليها بنبذٍ من الوعي ، كما يصف الفولكلور العفاريت التي تقلق راحة النائمين في البيت . ونلاحظ الظاهرة عينها في بعض الذهانات حيث «يرتفع صوت المركبات» ويسمعها المريض كأنها أصوات صادرةٌ عن شخصياتٍ غريبة .

إن الفرضية التي تُعتبر المركَّبات بموجبها **منظومات نفسية مجزاة منشطرة** قد أضحت اليوم يقيناً . فأصلها ومناشئيتها هما في الغالب صدمة انفعالية ، رضّ أو أي طارىء آخر مماثل تكون نتيجته فصل أقسومةٍ من المنظومة النفسية . وأحد الأسباب الأكثر تواتراً هو **الصراع الخلقي** القائم في التحليل الأخير على استحالة ظاهرة في الإذعان لكلية الطبيعة البشرية . وهذه الاستحالة تؤدي بفعل وجودها عينه إلى انشطار مباشر بمعرفة من الوعي أو بغير معرفة . إن عدم وعي طفيف بالمركبات يشكل القاعدة عموماً الأمر الذي يمنحها بالطبع حرية أكبر في العمل : لأنه حينذاك تظهر قوة تمثُّلها في كل اتساعها ذلك أن عدم وعي المركب يساعد هذا الأخير على تمثّل[1] الأنا نفسها ممّا يخلق **تعديلاً مؤقتاً وخافياً في الشخصية** يُسمّى **التواحد بالمركَّب** . هذا المفهوم الكلي الحداثة كان في العصر الوسيط يسمَّى **مسّاً** وهو مصطلح أبعد من أن يثير تصورَ حالةٍ مؤذية ومع ذلك فليس ثمة أي اختلاف مبدئي بين زلّة لسان شائعة ناجمة عن مركب وبين الشتائم الفوضوية لإنسانٍ ممسوس ؛ **هناك فرق في الدرجة** وحسب . التاريخ الألسني يقدِّم لنا العديد من التعابير التي تسند طرحنا هذا : يقال عن شخص متلبِّس بمركَّب وتحت تأثيره : «ماذا يدهوه اليوم أيضاً ؟» ، «يتلبَّسه الشيطان» الخ . وبالطبع فإن المرء لم يعد اليوم يفكر بالمعنى الأصلي لهذه الاستعارات المستنفدة ، وليس أقلَّ سهولةً من ذلك الإقرار والتبيان من جهةٍ أخرى بأن الإنسان الأكثر بدائية وسذاجة لم يكن «ينفْسِن» مثلنا المركبات المشوَّشة بل كان يستشعرها **ككيانات قائمة بذاتها** شيطانية **كالشياطين** . أما التطور اللاحق للوعي فقد أسبغ الشدَّة على مركب الأنا وعلى الوعي الشخصي إلى حدٍّ أن المركبات حُرمت في الاستخدام الألسني على الأقل من استقلاليتها البدائية . ويقال عموماً **«عندي مركَّب»** . الطبيب يقول لمريض الهستيريا الذي يعظه : آلامك ليست حقيقية ، فأنت **تتخيَّل نفسك** متألماً . **الخوف**

(١) بمعنى استدماج . (رك)

Scanned with CamScanner

من الخمج هو في الظاهر اختراع اعتباطي من المريض وعلى أية حال فإن الناس يسعون إلى إقناعه بأنه إنما اختلق اختلاقاً فكرته الهاذية .

ويلاحظ المرء بغير ما صعوبة أن التصور الحديث الشائع يواجه مشكلة باعتباره مكتسباً واقعُ أن «المريض» إنما هو الذي اخترع المركَّب وتصوره وأنه بالتالي ما كان ليوجد لو أن المريض لم يمنحه الحياة قصداً على نحوٍ ما . وبالعكس فإنه مقرَّرٌ بأن المركَّبات ـ وهذا لاشكَّ فيه ـ تتمتَّع باستقلالية رائعة وأنَّ آلاماً ليس لها أساس بدئي أي معروفة بأنها متوهمة هي مؤلمة كالآلام الشرعية وأن رهاباً مرضياً ليس له أدنى نزوع إلى الاختفاء وإن أكَّد المريض نفسه والطبيب والاستعمال الألسني بأنَّه ليس إلاَّ تخيُّلاً .

نحن ههنا بإزاء طريقةٍ مشوِّقة في الرؤية تسمَّى تعزيمية[1] مكافئة للتسميات الإماعية في العصور القديمة تجد مثالها التقليدي في عبارة : البحر المضياف[2] .فقد كانت الإيرينِّيات Erynnies إلهات الثأر تدعى Euménides أي ذوات النية السليمة . وفي أيامنا أيضاً يتصور الوعي الحديث كل عوامل التشويش الصميمة على أنها تستند إلى نشاطه بالذات ؛ وبكلمة فهو يتجسَّمها ويحاول ترويضها دون أن يقرَّ لنفسه صراحةً بأنه إنما يتوسَّلها توريةً تعزيمية مدفوعاً إليها بأملٍ خافٍ في إعدام استقلالية المركَّبات بتغيير اسمها . ومثل الوعي هنا كمثل إنسانٍ سمع ضجة مشبوهة في القبو فأسرع إلى العلّية ليتحقق من أنه ليس ثمَّة أثر لسارق وأن الضجة بالتالي كانت تخيُّلاً صرفاً . لكنَّ هذا الرجل لم يجرؤ على المجازفة بالنزول إلى القبو .

إن المرء ليسيء في البداية فهم لماذا يحث الخوف الوعي على إدخال المركبات في إطار نشاطه الذاتي فالمركبات تظهر على قدر من اللامعنى ومن التفاهة الشديدة بحيث توحي الخجل والقرف وأن كل شيءٍ صالح من أجل سترها . غير أنها لو كانت في الواقع تافهةً إلى هذا الحد فهل في وسعها أن تكون في الوقت نفسه مضنيةً ايضاً

(١) حركة طاردة للأمراض تترافق مع صلواتٍ تتلى خصيصاً لذلك وهي موجودة لدى معظم الشعوب . (م)

(٢) يبدو أنه سمِّي كذلك بعبارة مضادة بسبب الشعوب المتوحشة على شواطئه ! (رك)

Scanned with CamScanner

بالقدر عينه ؟ مضنٍ هو كل ما يسبب عذاباً وانزعاجاً وفي هذا ما يشهد بالفعل نفسه على شيء من الأهمية لا يجوز الاستخفاف به . الإنسان مدفوعٌ هكذا اندفاعاً مفرطاً إلى إعلان عدم واقعية كل ما يقض مضجعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . إن انفجار **العصاب** إنما يشير إلى اللحظة الدقيقة التي تصبح الوسائل السحرية والبدائية للحركة التعزيمية والتورية عاجزةً . حينذاك يستقر المركب على صفحة الوعي ولا يعود بالإمكان تجنبه وهو بتمدُّده يتمثَّل تدريجياً وعي الأنا كما كان هذا الأخير يجتهد في الماضي في تمثُّل المركب . وفي النهاية تولِّد سيطرته **تفكك الشخصية العصابي** .

خلال تطورٍ كهذا يكشف المركب عن قوته الأصلية القادرة بالمناسبة على استحلال قدرة مرِكب الأنا . ويفهم المرء إبَّان حالةٍ كهذه بأن للأنا كل الحق في إخضاع المركب لسحرٍ كلاميٍ فطن فمن الواضح أن الأنا تخشى التهديد المرعب لكلِّ ما يهدد بتغطيتها وخنقها .ثمة بين الأفراد المدعوِّين أسوياء عددٌ كبير من الذين يحتفظون بهيكل عظمي في الصِوان[1] ويُمنع تحت أية ذريعة الإلماع إلى وجوده لأن الخوف الذي يوحيه هذا الشبح الكمائني هو خوفٌ هائل . أما الناس الذين يصرون على البقاء عند مرحلة عدم تحقيق المركبات فإنهم يستدعون الأعصبة محاولين أن يثبتوا بأن المركبات إنما هي علامة الطبائع المرضية التي - ولله الحمد ! - ليسوا جزءاً منها كما لو أن اكتساب المرض وقفٌ على المرضى وحسب !

إن النزوع إلى استدماج المركَّبات وتمثلها من أجل إفراغها من واقعها هو أبعد من أن يثبت **عدمها** بل يشهد على أهميتها فإن هذا إلاَّ إقرار سلبي بالخوف الغريزي الذي يستشعره الإنسان البدائي بحضرة الأشياء المبهمة غير المرئية والمتحركة بذاتها . وينبعث هذا الخوف عند البدائي بمجرد حلول الليل . وعلى النحو عينه فإن المركَّبات لدى الإنسان المتمدن التي صُمَّت طوال النهار بقرقعة الحياة تعود في الليل فترفع صوتها بقوة أكثر طاردةً نعاسه أو قاضَّة مضجعه بأحلامٍ سيئة . المركبات هي بالفعل أغراض التجربة الداخلية التي لا نملك أن نصادفها في وضح النهار في الشارع وفي الساحات العامة .

(١) بالانكليزية في النص : a skeleton in the cupboard ؛ ويقصد بالتعبير كل فضيحة يبذل المرء كل مابوسعه لكتم أمرها لكنها لا تلبث أن تعتلن على الرغم من كل جهوده . (م)

Scanned with CamScanner

على المركَّبات يتوقف صلاح حال المرء او طلاحها في حياته الشخصية .

إنها آلهة البيت وأربابه الذين ينتظروننا في بيت الأسرة الذي من الخطر الشديد امتداح سلاحه . إنَّهم القوم الطيبون الذين يعكرون ليالينا . ولكن ما دامت هذه العفاريت الخبيثة لا تقلق سوى الجيران فليس ثمَّة خطرٌ في المنزل . غير أنها ما إن تبدأ في تعذيبنا . . ويجب على المرء فضلاً عن ذلك أن يكون طبياً لكي يعلم مبلغ طفيلية المركبات واجتياحيّتها. ويجب عليه لكي يأخذ انطباعاً كاملاً وتاماً بواقع مركبٍ ما أن يكون قد رأى أسراً دُمِّرت من جرّائه تدميراً معنوياً ومادياً في غضون بضعٍ سنوات . ولا بدَّ له أيضاً أن يكون قد تأمَّل المأساة التي لا مثيل لها وشقاء اليأس اللذين يسِمان ثلومه . ومنذئذٍ فإن فكرة «**تخيل مركب**» وأن المركبات «**وهمية**» تغدو عديمة النفع وبعيدةً عن العلمية .هل لكم بمقارنة طبية ؟ علينا مقارنة المركبات بخموج أو بأورامٍ خبيثة تتولَّد كلها دون أقل تدخلٍ من الوعي . غير أن هذه المقارنة ليست مُرضيةً كل الرضى ذلك أن المركبات ليست في جوهرها ذات طبيعة مرضية ، إنها في الحقيقة **تجلياتٌ حيوية** للمنظومة النفسية سواء كانت هذه الأخيرة متمايزة أو بدائية . لذلك فإننا نجد آثارها غير المُنكَرة لدى كل الشعوب وفي كل العصور . إن الآثار الأدبية الأكثر قدماً لتحتوي عليها . هكذا مثلاً تصف ملحمة جلجامش نفسانية مركَّب القوة ببراعةٍ لا تضاهى وكتاب طوبيا في العهد القديم يحتوي على قصة مركَّبٍ عشقيٍ وشفائه .

الإيمان بالأرواح الشائع عالمياً هو تعبير مباشر عن **بنيان الخافية القائم على أساسٍ من المركبات** .فالمركبات هي فعلاً **الوحدات الحية للمنظومة النفسية الخافية** التي تتيح [أي المركبات] وحدها تقريباً التحقق من وجودها ومن جبلَّتها .فلو لم يكن ثمَّة مركبات البتة لما كانت الخافية سوى بقايا تمثيلات مقطوعة أصبحت «ظلامية» كما في نفسانية ڤونتWundt أو «هدباً من الواعية» كما يسمِّيها وليم جيمس William James .فأن يكون فرويد قد اكتشف الخافية النفسانية فذاك لأنه قد انبرى بدل أن يهملها كما فعل سابقوه لدراسة المواضع المعتمة والهفوات المقنَّعة والمستصغرة بطيبة خاطر عبر التوريات .بيد أن الأحلام ليست الطريق الملكية السالكة نحو الخافية كما يزعم هو ولكنها المركَّبات التي تولِّد الأحلام والأعراض . وليس في هذه الطريق شيء ملكي ثمة لأن الطريق التي تشير إليها

Scanned with CamScanner

المركبات تشبه إلى حدٍ بعيد درباً متعرجاً غالباً ما يضيع في الأدغال فبدلاً من أن تقودنا إلى قلب الخافية تسلك بنا في معظم الأحيان إلى جانبها .

الخوف من المركب علامة إرشاد خادعة فهي إذ تبعدنا عن الخافية تعيدنا دائماً إلى الوعي .ليس ثمَّة فرد أبداً مستعدٌ في حسه الفطري للموافقة ، من فرط ما للمركبات من إزعاج ، على أن القوى الغريزية التي تغذيها يمكن أن تنطوي على أي شيءٍ ذي نفع . فالوعي من جهته على قناعة دائمة بأن المركَّبات أشياء غير لائقة ويجب بالتالي التخلص منها . وعلى الرغم من الوفرة الساحقة من الشهادات من كل نوع التي تثبت شمولية المركبات فإن المرء يأنف أن يمنحها قيمة التجليات السوية في الحياة . إن الخوف من المركب ادعاء قوي ذلك أن الضبط المتطيّر للأمر المشؤوم قد نجا فينا ، دون تعرُّضٍ لأضرار ، من عقلانية «عصر التنوير» . هذا الخوف يتصدى لدراسة المركبات بمقاومة جوهرية تتطلَّب قراراً حاسماً من أجل تجاوزها .

أما المخاوف والمقاومات فهي الصوى الدلالية التي تعلِّم الطريق الملكية نحو الخافية . إنها تعبِّر في المقام الأول عن المزاعم التي تخضع الخافية لها.فنحن نستنتج بالطبع عاطفة الخوف من وجود الخطر والنفورَ من حضور شيءٍ منفِّر وهذا هو استنتاج المريض واستنتاج الجمهور وفي الحاصل استنتاج الطبيب . إنها تشرح لماذا كانت النظرية الطبية الأولى في الخافية على نحو منطقي هي نظرية الكبت عند فرويد الذي خلص انطلاقاً من طبيعة المركبات إلى الاستنتاج بأن الخافية مركَّبة في جوهرها من منازع متنافرة وضحية الكبت بسبب فسقها[1] . وليس ثمَّة أفضل من هذه المعاينة للبرهان على تجريبية صاحبها الذي باشر عمله دون أن يترك لنفسه مجال التأثر بمقدِّمات فلسفية . ومع ذلك فقد كانت مسألة الخافية مطروحة قبل فرويد منذ زمن طويل .فقد أدخل لبنتس هذا المفهوم في الفلسفة وكان

(١) يستحق مفهوم التنافر هذا التوقف عنده . فمع ماذا هو يطرح مسألة التنافر فعلاً ؟ إنه التنافر مع الأخلاق التافهة والمعايير الشائعة جهراً أو سراً والمقبولة والملخصة بمفهوم الأنا العليا عند فرويد . بيدَ أن موضوع التنافر هذا يظهر لنا بعد إعمال النظر أعقد تركيباً بما لا يقاس ذلك أنه يشكِّل على نحوٍ عام بمسألة تنافر مؤدى عقلي وتصورٍ وقيمة نفسانية بإزاء مؤدى عقلي آخر وتصورٍ آخر وقيمةٍ نفسانية أخرى ←

Scanned with CamScanner

كنط وشِللنغ قد توقفا عنده أيضاً . أما كارو فقد قدَّم له ولأول مرة نظاماً نجد تأثيره في العمل الهام لإدوارد فون هارتمان :**فلسفة الخافية** . وإن علاقة العقيدة الطبية ـ النفسانية الأولى مع هذه الأوتاد الأولى لا تزيد عنها مع نيتشه .

النظرية الفرويدية وصفٌ أمين للتجارب الواقعية المصادفة خلال البحث عن المركَّبات . ولكن بما أن هذا البحث لا يتمُّ إلَّا على شكل **حوار** فإن صياغة التصوراَت لا تتوقف على مركَّبات أحد الشريكين وحسب بل على مركبات الآخر كذلك . كل حوار يغامر في هذه الميادين المزروعة بالكروب والمقاومات إنما يهدف إلى الجوهري ؛وحيث إنه يحرِّض الفاعل على التكامل في **كليته** يُلزم الشريك أيضاً على الثبات في تكامله وكليته التي بدون مساعدتها قد يكون غيرَ ذي طائلٍ له دفعُ الحديث إلى تلك الخلفيات المليئة بالكمائن . ما من عالمٍ مهما يكن باعه من الموضوعية والتحرر من المزاعم بقادر أن يغضَّ النظر عن مركَّباته الخاصة ذلك أنها تتمتع لديه بالاستقلالية عينها التي تتمتع بها لدى أيٍ كان غيره . وهو لا يستطيع غضَّ النظر عنها لأنها ملازمة له وتشكل جزءاً ثابتاً من **تكوينه النفسي** وهذا الأخير هو في تعيُّنه **تحديدٌ** بدَريٌ ورأيٌ **مسبق** لدى كل فرد . إن تكوينه النفسي ، بالنسبة إلى مراقبٍ معينً ، يقرِّر بلا جدوى التصور النفساني الذي سيتبنَّاه . **التحديد الذي لا مفر منه لكل ملاحظةٍ نفسانية هو كونها لا تصلح ما لم تأخذ بعين الاعتبار المعادلة الشخصية للملاحظ .**

إن نظرية المركَّبات والمذهب الفرويدي ومناهج أخرى تعبِّر كلها تعبيراً جوهرياً عن موقفٍ نفسيٍ يخلقه الحوار بين الملاحِظ وعددٍ من الفعلة الملاحَظين . ويدور الحوار في معظمه في قطاع مقاومة المركَّبات التي تخللت النظرية بجوِّها : فثمَّة في سماتها الكبرى شيءُ مكدِّر يصادي مركَّبات الجمهور . إن تصورات علم النفس الحديث تستند بكل موضوعية إلى الجدال وتعمل في الوقت عينه على نحو محرِّض ، فهي تسبِّب لدى الجمهور رُجُعاً عنيفة مؤيدة أو نابذة وتستثير في ميدان المناقشة

صحيح إذن أن مشكلة التنافر بين نزعة وقيمة أخلاقية مثلاً ليست سوى حالة خاصة من مشكلةٍ أعم تتعلق بكل الجهاز الذهني تجري إثارتها على نحوٍ أقرب عند الإلماع إلى مشكلة الأضداد والمتناقضات . إن أحد أدوار الواعية والأنا ، بما هما عضوا تكيف ، هو حكم النزاعات الناجمة عن هذه التنافرات . (رك)

Scanned with CamScanner

العلمية مباحثاتٍ وجدانية وادعاءاتٍ عقائدية وحساسياتٍ شخصية ،الخ .

إن علم النفس الحديث ـ وهذه الوقائع تثبت ذلك ـ قد غامر في البحث عن المركبات في مجالٍ نفسيٍ حرام غنيٍ بحشد من المخاوف والآمال . فلك المركَّبات هو في الحقيقة موئل الاضطرابات النفسية واهتزازاته هي من السعة بحيث إن البحث النفساني المستقبلي لا يأمل قبل مرور زمن طويل بالتوصل إلى الانكباب بسلامٍ على عملٍ علمي صامت يفترض شيئاً من إجماعٍ علمي واتفاقاً ضمنياً على الفرضيات الأساسية . غير أن علم نفس المركبات ما يزال حتى الساعة الراهنة بعيداً كل البعد عن فهمٍ عام بل أبعد كما يبدو لي ممَّا يظن المتشائمون . ذلك أن تعرية النزعات المتنافرة لا يكشف سوى عن قطاعٍ من الخافية ولا يحدِّد سوى جزءٍ من مصدر الكرب .

إننا نتذكر عاصفة التذمر التي هبَّت في كل مكان عندما بدأت أعمال فرويد بالانتشار . فقد أجبرت هذه «الرُجُع المعقَّدة» العالِم على انعزالٍ سبَّب له ولمدرسته ملامات العَقَدية dogmatisme . ذلك أن كلَّ المنظِّرين في هذا الميدان النفساني يتعرَّضون للخطر عينه لأنهم يقاربون ما هو خارجٌ في الإنسان عن السيطرة ؛ إنه **القدسي** Numinosumإذا شئنا أن نستخدم التعبير الرائع لأوتو[1] . فحرِّية الأنا تتوقف عند مشارف فلك المركبات،تلك القدرات النفسية التي ما نزال نجهل طبيعتها النهائية . فكلما توصل البحث إلى النفاذ نفاذاً أعمق في **الرهيب** tremendumالنفسي انطلقت دائماً من الجمهور رجعٌ مماثلة لرُجُع المرضى المدعوين لأسباب علاجية إلى التعرّض لحرامية مركَّباتهم[2] .

(١) راجع : R. Otto, **Le sacré**, Payot, Paris, 1949.

يعبر مصطلح Numineux عن الجلال والقدرة والقدرة التي لا تقهر أي عما يظهر في الإنسان حضوراً كان الأقدمون يسمونه «إلهياً» . (رك)

(٢) tremendum كلمة تعني حرفياً : ما هو مخوِّف ويجب الخوف منه ، ما يبعث على الرجفة والرعب .

الرهيب النفسي هو إذاً هذا القطاع من المنظومة النفسية حيث كل شيء يبدو مرعباً لأنه مجهول ومتحرِّك بـ «حضورات إلهية» . (رك)

Scanned with CamScanner

قد يوحي هذا العرض لنظرية المركبات لدى المستمع غير المطلع بوصفٍ لشيطانياتٍ بدائية وبعلم نفس الحرام .فهذه الفرادة ترجع إلى أن وجود المركَّبات أي القطع النفسية المجزَّأة هو خلفة مرموقة من **حالة الروح البدائية** . وهذا الأخير يتمتع بانقساميةٍ شديدة يُعبَّر عنها مثلاً بواقع أن البدائيين يقرُّون بتواتر بوجود جملة أنفس - وفي حالة خاصة يكتفون بستة - يوجد أيضاً إلى جانبها العديد من الآلهة والأرواح ؛ ولا يكتفي البدائيون **بالكلام عنها** لأن هذه الأنفس والأرواح تجسِّد في نظرهم على الدوام تقريباً أشدَّ التجارب النفسية تأثيراً .

ننوه هنا إلى أننا نستخدم كلمة «بدائي» بمعنى «أصلي» [أولي] دون إلماعٍ لأي حكم قيمة .فنحن عندما نقول «خلفة من حالة بدائية» لا نقصد القول بأن هذه الحالة يجب أن تبلغ نهايتها بالضرورة بعد استحقاق يطول أو يقصر . فلسنا نملك ترجيحاً لسبب يؤيد اختفاءها قبل انقراض البشرية . إن حالة أو خلفة العقلية البدائية فينا لَم تتغيَّر كثيراً إلى الآن على الأقل بل لقد ازدادت منذ الحرب العالمية الأولى لذا أجدني مدفوعاً إلى الافتراض بأن المركَّبات المستِقلَّ تشكل تجلياتٍ سوية في الحياة وأنها تحكم بنيان المنظومة النفسية الخافية .

لقد اكتفيت هنا بتقديم الوقائع الأساسية والجوهرية لنظرية المركَّبات ولعله يجب إتمام هذه الصورة الناقصة بعرض المشاكل الناجمة عن اكتشاف وجود المركَّبات المستِقلّ . إن الأمر يتعلَّق بثلاث مسائل رئيسية **علاجية وفلسفية وأخلاقية** وهي جميعاً قيد النقاش .

Scanned with CamScanner

٦

تعاليم الأحلام[١]

الحلم والوعي[٢]

إنما الحلم خَلْق نفسي إذ يتباين ومعطيات الوعي المعتادة فإنه يتوضع بحكم مظهره وطبيعته ومعناه على هامش التطور المتواصل للوقائع الواعية ، وهو لا يبدو على وجه العموم جزءًا لا يتجزأ من الحياة الواعية للنفس ، بل لعله بالحري عارض مُعاش يكاد يكون خارجياً وطارئاً على ما يبدو بالصدفة ؛ على أن في ظروف منشئه الخاصة تعليلاً لوضعه الاستثنائي من حيث إن الحلم ليس ثمرة الاستمرارية الواضحة المنطق أو الانفعالية الصرف لأحداث الحياة شأن معطيات أخرى للوعي بل هو ليس إلا بقية نشاط نفسي عجيب يتم إبان النوم ؛ وهذا الأصل وحده كفيل بعزل الأحلام عن محتويات الوعي الأخرى ، أما مؤدّاها الفريد المباين مباينة مدهشة للتفكير الواعي فهو يمعن في عزلها .

بيد أنه لن يصعب على المراقب الأريب تبيّن أن الأحلام لا تتوضع بالكلية على هامش استمرارية الوعي بما أن بالوسع الوقوع في أي منها على بعض التفاصيل الناجمة عن انطباعات وخواطر وأحوال نفسية أو أخلاط من اليوم أو من الأيام السابقة وبذلك تسود استمرارية معينة هي استمرارية نحو الوراء مع الماضي . على أنه لن يفوت المرء أيضاً أن للأحلام بالإضافة إلى ذلك استمرارية **نحو الأمام** ـ إذا جاز لي التعبير ـ من حيث إن لبعضها عند اقتضاء الحاجة آثاراً معلومة على الحياة

(١) نشر في **Energetik der Seele**, Rascher, Zurich, 1928 بعنوان : **نفسانية الأحلام** .

(٢) **راجع علم النفس المركب** : «الحلم والرمز وتفسيرهما» ، ص٦٩ . ففي هذا الفصل تجد كثيراً من العناوين في هذا الكتاب التي قام بودوان بشرحها بالإضافة إلى كلام آخر ليونغ عن الأحلام في كتب أخرى من مؤلفاته . (م)

Scanned with CamScanner

الذهنية الواعية لأناس لا شيء يسمح بوصفهم بالتطيّر أو بكونهم غير أسوياء بوجه خاص ؛ وهذه العقابيل العرضية في معظم الأحيان عبارة عن تبدلات أخلاطية جلية إلى حد ما . ولا ريب أن الحلم هو بهذا الاحتيال على التذكر بسبب من هذا الإلحاق السائب جداً بمضامين الوعي الأخرى . إذ أن أحلاماً عديدة تتملص حال الاستيقاظ من الاستذكار فيما لا يقبل غيرها استرجاعه إلا بأمانة هي من الارتياب فيها بمكان وما ثمَّ منها إلا النزر اليسير نسبياً مما يصح القول فيه إنه مُسترجَع استرجاعاً واضحاً .

تفسِّر هذه الشطحات النزوية في الاسترجاع بنوعية التداعيات والتمثيلات التي تنبجس في المنام . وبخلاف التفكير المنطقي المميِّز للسيرورات الذهنية الواعية فإن الصلة بين التمثيلات في الحلم هي من التَخَلّق بمكان ذلك أن المسار التداعوي للحلم يخلق علائق وتقريبات هي عموماً غريبة كل الغرابة عن معنى الواقع ، وإلى هذا مرد القول عن الحلم بعامة إنه لا يُعقَل .

لكنْ قبل إصدار حكم كهذا فلنعتبر أن الحلم بمداخله ومخارجه يشكل بالنسبة إلينا كياناً عصيّاً على الفهم ، وإن مثل هذا الحكم من جانبنا ليس إذاً إلا خلعاً projection لعدم فهمنا على الغرض objet يمكن للحلم رغماً عنه أن يحتفظ بمغزاه الخاص .

وبالضرب كشحاً عن محاولات إضفاء معنى نُبُوي على الحلم أو استخلاص مثل هذا المعنى منه التي تعود إلى قديم الزمان فإن اكتشاف فرويد هو الذي يمثل عملياً أولى البحوث المجراة لسبر معنى الحلم ؛ وليس للمرء أن يأبى على هذه البحوث نعتاً بالعلمية بما أن القائم بها قد دل على فن يدّعي وعلماء كثيرون غيره أنهم توصلوا بفضله إلى النتيجة المرجوة ألا وهي فهم معنى الحلم الذي لا يتطابق والإلماعات ذات المغزى المحتواة نُبَذاً في المنام الظاهر manifeste .

ليس في نيتنا هنا إخضاع نفسانية الحلم كما تصورها فرويد لمناقشة نقدية فإنما مرادي على غير ذلك أن أصف بإيجاز مكتسبات **نفسانية الأحلام** التي باتت مؤكدة تقريباً اليوم ومستديمة على الأرجح .

Scanned with CamScanner

مغزى الحلم[1]

فلنتساءل باديء ذي بدء عما يجيز لنا أن ننسب إلى الحلم مغزى يفترق عن نتف المعنى المحتواة في المنام الظاهر التي قلما تبعث على الرضى ؛ وإن تسويغاً مشروعاً يكمن في كون فرويد قد استُدرج إلى تصور المعنى المستور للحلم على نحو محض تجريبي وليس على نحو استنباطي.

إن مقارنة التخلّقات fantaisies الأحلامية والخيالات في حالة الصحو لدى الفرد نفسه لتشي لنا ببرهان آخر على إمكانية وجود مغزى مستور غير ظاهر ، فلا تصعب بالفعل رؤية أن لهذه الخيالات في حالة الصحو فيما يتعدى المعنى السطحي العياني مغزى نفسانياً عميقاً . ولما كان إيجاز البيان يحول دون ضرب مثال فلنشر ببساطة إلى وجود تبيان جيد لهذا في جنس قديم وشائع جداً من القصص التخيلي الذي تمثل له على نحو نمطي حكايات إيسوپ[2] ، ففيها يرد على سبيل المثال سرد مُغرِب عن أعمال السبع والحمار هو تخييل fantasmagorie غير قابل للتحقق موضوعياً ومعناه السطحي ومفهومه العياني عجيبان لكن أخلاقيته المستورة جلية لكل قارىء متعقل بعض الشيء ، أما الأطفال ـ وهذا مميَّز ـ فيُبدون اهتماماً بمعنى الحكاية الباطني ويلتذون به على نحو متقد .

على أنه مهما يكن من أمر فإن التطبيق الأمين للمنهاج الفني الذي يُحلل بفضله المضمون الظاهر للحلم يقدم إلى حد بعيد أحسن برهان على وجود مغزى

(١) «لا بدّ من يوم ينصرف فيه العلم إلى درس النوم وحالاته وما يطرأ فيه على النائم من رؤى وأحلام وإحساسات غريبة فيكشف عن قوانينها ومصادرها ومعانيها . فقد يكون لنا في درس تلك الأمور الغامضة خير أعمّ وأهمّ من كل ما جنيناه حتى اليوم من دروسنا في الطبيعة . بل إنّه لمن العار علينا أن ندعي المعرفة أو شبه المعرفة في شؤون الأرض والسماء ونحن ما نزال في حياتنا اليومية في ظلمات دامسات . أليست حياتنا بعضها غفلة وبعضها يقظة ؟ أليست الغفلة ثلث العمر إن لم تكن نصفه ؟ فكيف بنا نهملها من دروسنا ، وهي نصف حياتنا ، فنمضي نعيش بنصفها الآخر ونحن نحسبنا نعيش حياة كاملة ؟ ومن يدري فلعل في غفلة النوم مفاتيح أسرار اليقظة .» (ميخائيل نعيمه ، في مهب الريح ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ص ١٥٨-١٥٩)

(٢) Esope راوية قصص إغريقي (بين القرنين السابع والسادس ق .م) وشخصية نصف أسطورية تُنسب إليه مجموعة حكايات على لسان الحيوان جُمعت في القرن الرابع ق .م . (م)

Scanned with CamScanner

أحلامي مستور .

مناهجية تحليل الحلم

يقودنا هذا إلى قضية أساسية ثانية هي قضية المنهاج التحليلي نفسه ، فكما فيما سبق لست راغباً لا في نقد المكتشفات والقناعات الفرويدية ولا في الدفاع عنها بل في الاقتصار **على ما يبدو لي مقتنى قطعاً** ؛ فإذا اعتبرنا أن الحلم خلق نفسي بمقدار ما هي كذلك أية سيرورة ذهنية فليس لدينا للوهلة الأولى إطلاقاً أي باعث على الظن بأن طبيعته ومآله يمتثلان لنواميس وغايات مختلفة بالكلية عن طبيعة العمليات النفسانية الأخرى ومآلها . فبحسب مبدأ **لا داعي لتعدد مبادىء التفسير إلا في حال الضرورة** ينبغي علينا أن نحلل الحلم كما نفعل بأي نتاج نفسي آخر ما دامت لا تعلّمنا أي واقعة ما هو خير من ذلك ؛ فنحن نعلم أن كل سيرورة نفسية منظوراً فيها من وجهة النظر السببية تظهر بوصفها محصلة المعطيات النفسية التي تقدمتها . ونحن نعلم بالإضافة إلى ذلك أن هذه السيرورة عينها منظوراً إليها بمظهر غائيتها ووسط المشهد النفساني الجاري لتفصح عن معنى وعن مرمى خاصين بها ؛ فينبغي تطبيق هذا الضرب المزدوج من النظر على الحلم . إن فهم الحلم بالمعنى النفساني يتطلب إذاً أول ما يتطلب أن يجري البحث عن الذكريات المعاشة التي يتكون منها وبذا يتم تعقب السوابق لكل واحد من أجزاء الصورة الأحلامية . هاكم مثالاً على ذلك شخص يحلم بما يلي :

إنها تتنزّه في شارع حيث يلعب طفل ويركض وتنطلق سيارة تسحن الطفل .

فلنتعقب سوابق عناصر هذا الحلم بفضل ذكريات الحالم . فالشارع يتعرف فيه شارعاً اجتازه والطفل هو ولد شقيقه الذي زاره عشيّتئذٍ والحادث يذكّره بحادث وقع فعلاً قبل بضعة أيام ودرى به بواسطة الصحف . إن المحاكمة المألوفة تتوقف كما هو معلوم عند تقليص من هذا النوع فيقول المرء لنفسه : «آه ، آه ... هو ذا مصدر حلمي !» .

من الجلي أن تقليصاً كهذا غير كاف على الإطلاق من وجهة النظر العلمية ؛ فالحالم قد اجتاز عشيتئذٍ شوارع عديدة فلمَ اختار منامُه ذلك الشارع بالضبط ؟



Scanned with CamScanner

لقد سمع بالعديد من الحوادث فلم هذا الحادث دون غيره ؟ إن لفي رفع النقاب عن السوابق خطوة أولى لكنها غير كافية بعد لأن وحده التقصي أو المطابقة بين عدة أسباب قد يشي بتحديد محتمل لصور المنام ؛ فينبغي إذاً السعي إلى لملمة مواد أخرى وتجميعها . وبحسب مبدأ الاستذكار هذا عينه تُستخدم «طريقة التداعيات الحرة» Einfallsmethode . وهذا البحث بالتأكيد يشي بمواد شتى شديدة التباين يبدو أن السمة المشتركة الوحيدة فيما بينها هي صلتها التداعوية بمضمون الحلم التي بدونها ما كانت لتُستدعى بمناسبة هذا الحلم ، وإن مسألة فنية هامة تتمثل في معرفة مدى وجوب المضي بهذا البحث عن المواد من حيث إن أي منطلق في النفس في نهاية المطاف له أن يفيد في استحضار الحياة السابقة كلها الأمر الذي قد يؤدي إلى تدوين القصة الماضية للفرد برمّتها لكل حلم على حدة . غير أنه يجب علينا الاقتصار على دراسة المواد النفسية التي لا غنى عنها مطلقاً لفهم الحلم ، وتحديدها بالطبع اعتباطي بمقدار ما **ليس الفهم إلا معرفة ملائمة لنوايانا**[1] كما يقول كنط . فإذا كنا على سبيل المثال نفتش عن أسباب الثورة الفرنسية نستطيع أن نكب على دراسات ليس على العصر الوسيط الفرنسي وحسب وإنما على التاريخ اليوناني والروماني أيضاً ولو أنه يمكن لقصدنا أن يستغني عن هذا الأخير بما أن بوسعنا فهم نشأة الثورة بالجودة نفسها بدون الرجوع إلى الطوفان . فنحن إذاً لا نفتش عن مواد تداعوية إلا بمقدار ما يكون هذا ضرورياً لإسناد مغزىً للحلم صالح للاستعمال .

إن لملمة مواد تداعوية بحد ذاته باستثناء تحديدها ليتملص من تحكّم العالِم ؛ والأمر أساساً أمر **منهاج مقارن** ، سيرورته بطبيعة الحال خلو من أي تلقائية إذ هو يتوقف إلى حد كبير على نباهة الباحث ونواياه .

إن شرح واقعة نفسانية ليتطلب أن يُنظر فيها من وجهة نظر مزدوجة : من وجهة نظر **سببيّتها** ومن وجهة نظر **غائيتها** ، وإني لأتحدث عن الغائية عمداً اجتناباً لأي التباس بمفهوم الغائيات téléologie . فبالغائية أقصد ببساطة الإشارة

(١) إن ضمير المتكلمين في «نوايانا» ليدرج كل ذاتية وكل وظائف من يسعى إلى الفهم في ظاهرة الفهم التي هي إذن علائقية interrelationnel كما في العلاقة بين الطبيب والمريض أو بين عقل الباحث والطبيعة الواجب فك رموزها . وداعاً يا أوهام الموضوعية والإطلاق الجميلة ! (رك)

Scanned with CamScanner

إلى «التوتّر النفساني المحايث نحو هدف مستقبلي ونحو مغزى آتٍ» . وإن كل واقعة نفسانية لتنطوي على مغزى من هذا النسق حتى الظواهر الرُجْعية المحضة كالرُجُع الانفعالية على سبيل المثال فإن الحنق الذي توحي به شتيمة يستدعي الأخذ بالثأر والحِداد المتزاهي يستثير الشفقة لدى الغير ، وإن إخضاع العُقَد التداعوية التي يولدها الحلم لفحص سببي لهو إرجاع المضمون الظاهر للحلم إلى بعض النوازع والخواطر الأساسية التي إذ تصفها التداعيات هي طبعاً عامة وأولية تماماً .
يحلم مريض شاب على سبيل المثال بما يلي :

أنا موجود في بستان وأقطف فيه تفاحة ثم أنظر بحيطة حواليّ لأرى فيما إذا رآني أحدهم .

إن تداعياته هي الآتية : فهو يتذكر أنه اختلس مرة وهو طفل بضع اجاصات في بستان والشعور بالضمير المثقل ، الراسخ بوجه خاص في الحلم يذكره بحادثة مزعجة جرت له عشيتئذٍ ، فقد صادف في الشارع فتاة من معارفه لم يكن يكترث لها وتبادل معها أطراف حديث حين مرّ واحد من أصدقائه فاستولى عليه إحساس عجيب بالضيق وكأنه كان ثَمَّ مأخذ يأخذه على نفسه . والتفاحة تذكره بمشهد الفردوس الأرضي وبكونه لم يفهم قط لماذا كان لتذوق الثمرة المحرّمة عواقب بهذه الجسامة على آدم وحواء ، فهو طالما اغتاظ من هذا الجور الإلهي بما أن الله قد خلق البشر على ما هم عليه من فضولٍ جلف وشهوات غير مشبعة .

ويتبادر كذلك إلى ذهن الحالم أن والده عاقبه على أمور معينة على نحو مبهم وبصرامة خاصة جداً يوم باغته وهو يراقب سراً بنات صغيرات في الحمام . هنا يرتبط الاعتراف بأنه تورّط مؤخراً في مغامرة عاطفية مع خادمة لم تبلغ بعد نهايتها الطبيعية ، وعشية الحلم كان على موعد مع الخادمة .

لقد وشى مجموع هذه التداعيات بداهةً بعلاقة الحلم الصميمة مع حدثِ عشيتئذٍ أما مشهد التفاحة على حد ما جاء في المواد التداعوية التي يثيرها فيبدو بالتأكيد أنه يرمز إلى مشهد عشقي . على أن طائفة من البواعث الأخرى تحث على الظن بأن موعد العشية ذاك قد انعكس حتى على أحلام الشاب ، ففيها يقطف التفاحة الفردوسية التي ما زال الواقع يمنعها عنه . وأما جميع التداعيات الأخرى فتتعلّق بواقعة العشية الأخرى ، ذلك الشعور الغريب بسوء التصرف وبثقل الضمير

Scanned with CamScanner

الذي استولى على الشاب فيما كان يتحادث مع فتاة لا مبالية . هذا الشعور في استحضاره الخطيئة الأصلية وفي تذكّره للتذبذبات العشقية لطفولته التي قاصصها والده بصرامة عظيمة وكل هذه التداعيات تتقارب نحو الإثمية .

فلننظر في هذه المواد من وجهة النظر الحتمية التي دشّنها فرويد أو حتى «فلنفسّر» هذا الحلم على حد تعبير فرويد .

لقد بقيت من اليوم السابق رغبة غير محققة وهذه الرغبة الأحلامية هي واقع في رمز التفاحة المقطوفة ؛ فلماذا يتغلف إشباع الرغبة بصورة رمزية بدلاً من تحققه في خاطر جنسي واضح ؟ إن جواب فرويد الأوحد هو لفت الانتباه إلى الإحساس بالإثم المرتكب ، بالإثمية التي لا سبيل إلى إنكارها في مثالنا ، قائلاً إن الأخلاق المفروضة على الشاب منذ طفولته إذ تمعن في قمع أمنيات من هذا الضرب هي التي تضفي على توق جد طبيعي مذاقاً مربكاً وشائناً ، لذا فإن الخاطر المزعج المكبوت لا يستطيع أن يشق لنفسه ممراً إلا على نحو رمزي . ولما كان ثم تنافر بين هذه الخواطر وبين الضمير الأخلاقي فإن فرويد يفترض بل يصادر على شاهد نفسي يدعوه بـ **الرقيب** يسهر على الحيلولة دون اختراق الأمنية غير اللائقة للواعية على نحو صريح .

أما وجهة النظر الغائية التي أواجه بها التصوّر الفرويدي فلا تعني كما أشدّد بصراحة نفياً لأسباب الحلم لكنها مع ذلك تؤدي إلى تفسير مختلف تماماً لمواده التداعوية ، والوقائع بما هي كذلك أي التداعيات تلبث والحالة هذه ثابتة إلا أنها تُجابَه بواحدة قياس أخرى . فلنطرح المسألة على نحو جد بسيط ولنتساءل : **بمَ يفيد الحلم وأي معنى هو معناه وإلامَ يشير** ؟ إن هذا السؤال ليس اعتباطياً بما أنه يُطرح لكل نشاط نفسي ، فبالوسع التساؤل لكل نشاط وفي كل ظرف «لماذا ؟» و«علامَ ؟» . إن كل خلق عضوي يستعمل منظومة مركبة من الوظائف ذات القصد المحدد تماماً وكل واحدة من هذه الوظائف يمكن لها بدورها أن تتحلل إلى متوالية من الأفعال والوقائع تتآزر بتوجهها لبناء الصرح المشترك ، فمن الواضح أن المنام يضم إلى فصل العشية العشقي عُدّةً تشدد في المقام الأول على الشعور بالإثمية الملازم للجماع . فهذا الربط قد كشف في النهار السابق عن فعاليته كلها لدى اللقاء مع الفتاة اللا مبالية فهناك أيضاً انضم الشعور بالضمير المثقل عفوياً وبغتة كما لو

Scanned with CamScanner

أن هذا اللقاء كان ينطوي على إثمية ما من جانب الشاب ، وهذا الفصل أيضاً يشتبك بالمنام ويتضخم فيه بانضمام مواد مقابلة ويتمثل تقريباً على صورة الخطيئة الأصلية التي كلفتنا النكبات المعروفة .

أستخلص مما تقدم أن صاحب هذا الحلم يكابد **نزعة** أو ميلاً خافياً لرؤية **إثم** ، يسميه بعضهم **خطيئة** ، في كل ما يمت إلى **فلك العشق وإشباعاته** ومن خواص هذا الحلم أنه يستولي على الخطيئة الأصلية التي لم يفْقَه الشاب قط سبباً لقصاصها الجائر ؛ وهذا التقريب يبيّن لماذا لم يفكر الحالم ببساطة : «ما أفعله هذا ليس لائقاً .» إذ يبدو أنه ليس على علم ولا تخطر له فكرة أن بوسعه إدانة مسلكه العشقي بسبب أخلاقيته المريبة ، وتلكم في الواقع هي الحالة : فهو يعتقد واعياً أن سلوكه من وجهة النظر الأخلاقية لا مبالٍ بالكلية فكل أصدقائه ومعارفه كانوا ليفعلوا الشيء عينه وهو فوق ذلك لا يفطن إطلاقاً لماذا يقتضي الأمر استقباح ذلك .

فهل هذا ا لحلم خلو من المعنى أم مترع به ؟ المهم هو معرفة ما إذا كانت وجهة النظر العريقة للأخلاق المأثورة هي نفسها سخيفة أو ذات مرمى رئيس. ليس مرادي أن أتوه بين تفاصيل نقاش فلسفي إنما ببساطة أن ألاحظ بأن البشرية قد امتثلت بلا ريب لدوافع قوية بابتكارها هذه الأخلاق وإلا لما فُهم حقاً لماذا كبحت واحداً من أقوى أشواقها . ولئن قدّرنا هذه الظروف حق قدرها ينبغي علينا أن نقر بالمغزى العميق لمنام يبيّن للشاب ضرورة النظر في مسلكه العشقي من وجهة النظر الأخلاقية . فإن لأكثر الأقوام بدائية في الأغلب تنظيماً جنسياً صارماً للغاية وبهذا يثبت أن الأخلاق الجنسية على الخصوص وسط الوظائف النفسية العلوية عبارة عن عامل ينبغي الاحتراس من الاستهانة به . وفي حالتنا هذه يمكن القول إذاً بأن الشاب الطائش والأشبه بالمنوَّم بمثال أصدقائه قد استسلم لوساوسه الجنسية ناسياً أن الإنسان هو أيضاً كائن مسؤول أخلاقياً ، إذ أعطى نفسه الأخلاق ، فقد خضع طوعاً أو كرهاً لنير إبداعه ، وبوسعنا في هذا الحلم أن نميّز «وظيفة الثقالة» للخافية : الخواطر والنزعات والميول التي لم تنمّها الحياة الواعية بما يكفي تنشط كما لو تلميحاً إبان النوم بما هو الحالة التي تكاد السيرورات الواعية فيها تكون ملغاة تماما .

Scanned with CamScanner

ويصح أن المرء يتساءل عن الفائدة التي سيجنيها الحالم من حلمه بما أنه قطعاً ليس له أن يفهم حلمه .

ولنشر بمثابة إجابة إلى أن الفهم ليس ظاهرة محض فكرية ، فإن الخبرة تبين أنه يمكن لأمور لا تحصى غير قابلة للفهم فكرياً أن تؤثر بل أن تقنع الإنسان وتوجهه على نحو حاسم ولنذكّر وحسب بنجوع الرموز الدينية .

قد يحمل المثال المذكور هنا على الظن بأن الوظيفة الأحلامية إذا صح القول عبارة مباشرة عن دعوة «تهذيبية» وهذا المثال طبعاً يبدو أنه يؤيد ذلك ، لكننا إذا تذكرنا بأن الأحلام تنطوي في كل حالة من نوعها على المضامين الوصيدية فإن الموضوع لا يمكن أن يتعلق بوظيفة «أخلاقية» بالمفهوم الضيق للكلمة . فهكذا تطلق أحلام أشخاص لا يُنال منهم أخلاقياً مضامين فاسقة بالمعنى الشائع للكلمة ، وإنه لذو مغزى أن يغتبط القديس أغسطينوس بعدم مسؤوليته عن أحلامه أمام الله .

إنما الخافية هي من لحظة إلى أخرى كل ما ليس بواعٍ لذا ليس من المدهش أن الحلم يضيف على الوضع النفسي الواعي للحاضر كل المظاهر الأساسية لموقف مختلف جذرياً . فمن الواضح أن وظيفة الحلم هذه عبارة عن تضبيط نفسي هو بمثابة ثقالة لا غنى عنها مطلقاً لكل نشاط منظم. إن الافتكار في مسألة هو النظر فيها بقصد حلّها من كل أوجهها وبكل العواقب التي تشتمل عليها وهذا السياق الذهني إذا صح القول يتواصل تلقائياً إبان حالة النوم الخافيّة إلى حد ما ، وبحسب تجربتنا الحالية يبدو أن كل وجهات النظر المستخف بها أو المتنكَّر لها في حالة الصحو أي التي كانت خافيّة نسبياً تَمْثُل فيها أمام ذهن الحالم أقلّه تلميحاً .

وجهتا النظر السببية والغائية في التفسير

وتُراز رموزية الأحلام المنتقَدة جداً على نحو جد مختلف بحسب ما إذا كان يُنظر إليها من وجهة النظر السببية أو من وجهة النظر الغائية ؛ فإن حتمية فرويد تصادر على وجود شهوة أو أمنية مكبوتة تستبين في الحلم وهذه الرغبة دائماً بسيطة نسبياً وأولية على كونها عرضة للتخفي في أزياء عديدة . بذا فقد كان بوسع الشاب في الحلم الذي نحن بصدده أن يحلم فعلاً بأنه كان عليه أن يفتح باباً بمفتاح وبأنه

Scanned with CamScanner

كان يطير في طائرة أو بأنه كان يقبّل أمه ، الخ ، فهذا كله من وجهة النظر الفرويدية قد يكون له المغزى نفسه . وبهذا المذهب توصلت المدرسة الفرويدية الاتباعية كمثال صارخ عليه إلى رؤية رموز قضيبية في معظم الأشياء الطويلة التي تظهر في الأحلام ورموز مؤنثة في معظم الأشياء المستديرة أو المقعرة .

أما التصور الغائي فيَردّ إلى صور الحلم القيمة التي لها ؛ فلو أن شابنا على سبيل المثال قد حلم بأنه كان عليه أن يفتح باباً بمعونة مفتاح بدلاً من مشهد التفاحة لتوافقت مع هذا الحلم المختلف عُدة تداعوية مختلفة جوهرياً وهذه بدورها كانت ستتمم الوضع الواعي على نحو مختلف ولكانت وضعته في محيط وإطار جد غريبين عن الظروف العامة المعينة بدقة بفضل مشهد التفاحة . إن ثراء معنى الأحلام منظوراً إليه من هذه الزاوية ليرتكز بالدقة على تعابير رمزية شتى وليس على إرجاعها بما لا لبس فيه ، بينما الحتمية السببية تنحو بحكم طبيعتها نفسها نحو هذا الإرجاع الأوحد المعنى أي نحو مُسْتَتّة للرموز ولمعناها . أما وجهة النظر الغائية فترى على العكس في تقلبات الصور الأحلامية انعكاساً لأوضاع نفسانية متنوعة بما لا يتناهى فلا تضفي على الرموز مغازي جامدة ؛ فعندها أن الصور الأحلامية هامة بحد ذاتها لأنها بذاتها تحمل المغزى الذي يصح عليها حتى ظهورها في سياق حلم ما . ويكاد الرمز في مثالنا منظوراً إليه من هذه الزاوية أن تكون له قيمة المثل فهو لا يكتم بل يعلّم ؛ ويُلمع مشهد التفاحة بوضوح إلى الإثم الشخصي فيما هو يموّه مشهد الفردوس .

وبحسب وجهة النظر المأخوذ بها بالوسع إذن كما نرى تصور معنى الحلم على نحو جد متنوّع . وتتمثل المشكلة في معرفة أي تصور هو الأحسن أو الأصدق ؛ فإن تصور معنى الحلم مهما تكن طريقة ذلك لهو بالنسبة إلينا نحن المعالجين ضرورة هي أولاً من نسق عملي لا نظري ، فنحن إذ نريد أن نعالج مرضانا يتعين علينا لدوافع محض عيانية أن نحاول حيازة الوسائل التي تيسّر لنا تهذيبهم تهذيباً ناجعاً ؛ فكما بيّن مثالنا بوضوح ، طرح التفتيش عن التداعيات سؤالاً من شأنه أن يفتح عينيّ الشاب على أمور كان يهملها مرتاح الضمير . لكنه بارتكابه هذه الإهمالات كان يهمل نفسه لأنه كأي كان يمتلك حساً أخلاقياً وحاجات معنوية . وإذ يحاول أن يعيش بدون مراعاتها كان يحيا على نحو ناقص ومتطرف أو غير منسّق

Scanned with CamScanner

إذا جاز القول الأمرُ الذي يقضي على الحياة النفسية بعواقب هي من النفس بمثابة جِمْية ناقصة وقاصرة من البدن . فلتهذيب شخصية وتوجيهها نحو استقلاليتها المتناغمة يجب السعي إلى جعلها تستوعب كافة الوظائف التي لبثت جنينية في رحمها ولم تحقق تفتّحها في الواعية . لأجل هذا ولأسباب علاجية ينبغي علينا أن نأخذ بالحسبان المظاهر الخافية للأشياء التي تشي بها إلينا العُدَد الأحلامية وبهذا نرى إلى أي حد يستطيع التصور الغائي أن يساعد على التربية الفردية العملية .

إنما الروح العلمية المعاصرة بنت السببية والبحوث من الأسباب إلى النتائج عملتها المتداولة . لذا عندما يتعلق الأمر بتقديم تفسير علمي لنفسانية الأحلام تبدو الأفكار الفرويدية ذات الحتمية الصرف بهذا الإغراء ، بيد أن هذا لا يعفيني من الارتياب فيها لأنها ناقصة اضطراراً من حيث إن النفس تفلت من اعتبارات سببية تبقي في الظل كل ما هو غائية فيها .

تصنيف الأحلام

وحده تعاضد التصورين السببي والغائي الذي ، بالنظر لمصاعب جمة ، نظرية كانت أم عملية ، لم يتحقق بعد كفيل بإيصالنا إلى فهم أفضل لطبيعة الحلم .

فلنأت إلى بعض المسائل الأخص وأولها قضية **تصنيف الأحلام** ، ولا نغالينّ في تقدير مغزاها العملي أو النظري . إن عليّ كل عام أن أدرس من ألف وخمسمئة إلى ألفي حلم وهذه الخبرة الواسعة أجازت لي أن أتبينّ وجود أحلام نمطية حقاً لكنها ليست كثيرة التواتر.والتقويم الغائي يقلص جداً من أهمية مغزاها الرمزي الثابت من وجهة النظر السببية ، فإن الأهمية الفائقة للموضوعات النمطية للأحلام هي في كونها تتيح عقد مقارنات مع المباحث الأساطيرية . وإن العديد من هذه الموضوعات [1] ليوقَع عليه تكراراً بمغزى مماثل في أحلام أشخاص عديدين ، وطرح

(١) راجع بصفة خاصة أعمال فروبينيوس Leo Frobenius ـ ليو فروبينيوس عالم بالآدميات ألماني (١٩٣٨ـ١٩٧٣) عزا أصلاً مشتركاً إلى ثقافات أوقيانوسيا وأفريقيا الغربية وبيّن وجود حقب ثقافية . (م)

Scanned with CamScanner

أمثلة قد يجرنا بعيداً جداً مع الأسف ثم إني قد نشرت بعضها في غير مكان[٢] . إن التقريبات بين موضوعات حلمية نمطية ومباحث أساطيرية تجيز الافتراض كما سبق لنيتشه أن فعل بأن التفكير الحلمي إنما هو شكل أنسالي phylogénétique سابق على تفكيرنا . فلنمثل لهذا بالعودة إلى الحلم المذكور أعلاه ؛ فكما نذكر كان مشهد التفاحة يرمز فيه على نحو نمطي إلى الإثمية العشقية . ففي حين كان التفكير المجرّد سيعبر عن نفسه كما يلي : «بئس ما فعلت».يختص الحلم بعدم تعبيره عن نفسه قط على هذا النحو المجرد والمنطقي إنما بمعونة أمثال وكنايات ، وهذه الخاصية تميز كذلك اللغات البدائية التي تدهشنا دائماً أساليبُها البيانية النضرة . فما يعبَّر عنه اليوم بالتعبير المجرد كان يعبر عنه في صروح الآداب القديمة من نحو أمثال الكتاب المقدّس بالصورة المجازية حتى أن عقلاً فلسفياً من عيار أفلاطون لم يتورع عن التعريف ببعض الأفكار الأساسية بواسطة الرموز .

كما أن جسمنا يحتفظ بآثار نموه الأنسالي كذلك شأن العقل البشري ، فمن الممكن إذاً رؤية رصيد بائد في لغة أحلامنا الكنائية .

إن سرقة التفاحة في مثالنا هي علاوة على ذلك واحدة من هذه الموضوعات الأحلامية النمطية التي تعاود الظهور بتنويعات متعددة في كثير من المنامات وهي في الوقت نفسه مبحث أساطيري معروف لا نقع عليه في الرواية التوراتية وحسب إنما في عدد لا يحصى من الأساطير والخرافات الآتية من كل العهود وكل المناطق من حيث إنه عبارة عن واحدة من هذه الصور الشاملة في إنسانيتها والقابلة للولادة من جديد في كل منا في كل زمان دونما تعديل في تكوينها.وإن نفسانية الأحلام لتفتح بذلك الطريق لعلم نفس مقارن عام يمكننا أن ننتظر منه فهماً لتنمية النفس البشرية وبنيانها مقايساً للفهم الذي زوّدنا به التشريح المقارن لدراسة الجسم البشري .

الحلم يبلّغنا إذن بمفردات رمزية أي بمعونة تمثيلات مصوّرة وحواسية أفكاراً وأحكاماً وتصورات ووصايات ونزعات الخ ، إذا ما كُبتت أو تجوهلت ، ظلت

(٢) راجع :

Métamorphoses de l'âme et ses symboles, préface et traduction de Yves Le Lay, Georg, Genève et Albin Michel, Paris 1953

Scanned with CamScanner

خافيّة . **فالحلم إذ ينشأ عن نشاط الخافية فإنه يقدم تمثيلاً للمضامين الهاجعة فيها ؛ لا لكل المضامين الماثلة فيها بل لبعضها وحسب مما يتحيّن بواسطة التداعي ويتبلور ويُنتخب بالتلازم مع الحالة الآنية للواعية** . هذه البيّنة عظيمة الأهمية من وجهة النظر العملية ، فلو شئنا أن نفسّر حلماً على الوجه الصحيح ينبغي علينا أن نحيط علماً بالوضع الواعي المناظر ذلك أن الحلم يشي لنا منه بالوجه الخافيّ والمتمّم أي أنه يحتوي على العُدَد المتكوكبة في الخافية بحكم الوضع الواعي الآني .

فإذا لم يتم الإلمام بالمعطيات الواعية تعذّر تفسير حلم على نحو مرضٍ باستثناء نجاحات تعود بالتأكيد إلى الصدفة . فلنمثل لهذا بمثال :

استقبلت ذات يوم سيداً يعاودني للمرة الأولى صرح لي بفضوله للعلوم وباهتمامه كذلك من وجهة نظر أدبية بأمور التحليل النفسي وقال لي إنه جد صحيح وبأنه لم يعاودني بوصفه مريضاً بل بدافع الفضول النفساني المحض.وأردف بأنه ميسور الحال ويتمتع بمتسع من الوقت يصرفه في إشباع فضوله المتعدد الجوانب وهو يرغب بالتعرف إليّ لكي أكشف له خفايا التحليل ونظريته. بيد أنه يأسف لكونه ـ وهو الرجل السوي ـ يبدي ، وقد اعتاد التعامل مع «مجانين» ، قلة اكتراث بي ، وكان كتب إلي قبل ذلك ببضعة أيام لأضرب له موعداً ، وفي معرض المناقشة سرعان ما جئنا على ذكر الأحلام فسألته عما إذا كان قد رأى حلماً في الليلة السابقة فأجابني بالإثبات وروى لي هذا الحلم :

> كنت في حجرة عارية الجدران حيث أستقبلني شخص هو ممرضة بنوع ما وكانت تريد أن تحملني على الجلوس على طاولة عليها قنينة من الكفير[1] علي أن أبتلع ما فيها! . كنت أود عيادة الدكتور يونغ لكن الممرضة أجابتني بأني في مشفى وبأن الدكتور يونغ ليس لديه الوقت لاستقبالي .

يبيّن المضمون الظاهر للحلم على الفور بأن الموعد المضروب للاستشارة قد استدرج الخافية إلى اتخاذ موقف على نحو لسنا نفهمه بعد . أما التداعيات فهي الآتية :

(١) شراب متفوّر فيه حموضة يُعمل من اللبن البقري المخمّر . (م)

Scanned with CamScanner

«الجدران العارية» : - «ضرب من ردهة الانتظار القارسة البرد كما في مبنى عام ، مكتب دخول في مشفى ، لم أذهب إلى مشفى مريضاً قط .»

«الممرضة» : - «كانت منفرة وحولاء ، أتذكر متنبئة بالورق كانت في الوقت نفسه قارئة كف وكنت أستشيرها لكي تستطلع لي المستقبل ، وفي غضون مرض أصابني مرّضتني شماسة .»

«قنينة الكفير» : - «الكفير يقززني ولا أطيق بلعه أما زوجي فهي تحتسيه دوماً وأنا أنكد عليها بسبب ذلك لأنها مستحوذ عليها بالادعاء أن على المرء دائماً أن يفعل شيئاً ما من أجل صحته ويخطر في بالي أنني أقمت في مصحّ - كانت أعصابي منهكة - وتعين عليّ أن أشرب كفيراً .»

ههنا قاطعته وسألته عما إذا كان عصابه قد زال منذئذٍ وهو سؤال مذياع ! فحاول أن يتملص منه لكنه اضطر أخيراً إلى الإقرار بأنه كان لا يزال يعاني من عصابه حقيقةً وبأن زوجه في الواقع كانت تلح عليه منذ أمد بعيد في معاودتي غير أنه أردف بأن تعصيبه ليس من الخطورة بحيث يحتاج إلى معالجة ، فهو على كل حال ليس «ممسوساً» في حين أني لا أعالج إلا معتوهين فما يهمه وحسب هو معرفة نظرياتي النفسانية ، الخ .

إن هذه العُدَد لتكشف عن جهة تزييف المشاوِر للوضع إذ كان يناسبه أن يدخل عليّ بوصفه فيلسوفاً وعالم نفس وأن ينحّي وجود عصابه إلى الخلفية إلا أن الحلم يذكّره به على نحو مستكره ويرغمه على الصراحة ، فينبغي عليه أن يشرب هذه الكأس حتى الثمالة والمتنبئة بالورق تكشف الأوراق وتظهر له ما ينتظر مني في الحقيقة . فكما يقول له الحلم عليه أولاً أن يخضع لمعالجة قبل أن يدركني أي أن يشرع معي في مجادلة نظرية .

الحلم يصحّح الوضع ويضيف عليه ما هَو في عداده أيضاً وبذلك يحسّن الموقف العام للمعاود . هو ذاك سبب حاجتنا إلى تحليل الأحلام في فننا العلاجي .

المعاوضة في الحلم

على أني لا أريد أن يخلف هذا المثال انطباعاً بأن كل الأحلام هي بهذه

Scanned with CamScanner

البساطة أو من نمط مماثل ففي رأيي حقاً أن لكل الأحلام علاقة متممة مع المعطيات الواعية لكن الأمر فيها جميعاً يحتاج إلى الكثير لكي تظهر هذه الوظيفة المعاوضة بمثل وضوحها في مثالنا . ومع أن الحلم يسهم في حكم الفرد نفسه بنفسه بجمعه كل ما كُبت وأُهمل وتجوهل على نحو آلي فإن مداه المعاوض كثيراً ما يبقى مبهماً في نظرنا بما نحن لا نملك إلا معارف جد ناقصة عن طبيعة النفس البشرية وحاجاتها . ثمة معاوضات نفسية بعيدة للغاية ولنتذكر في هذه الحالات بأن الإنسان إلى حد ما ممثل عن البشرية قاطبة وعن تاريخها ؛ فما كان ممكناً بالجملة في تاريخ البشرية يمكن له أن يظهر على مستوى الفرد ، وهذا يكابد في ظروف معينة الحاجات التي عذبت البشرية . فليس ثمة إذاً ما يدعو إلى الدهشة في كون المعاوضات الدينية تلعب دوراً عظيماً في الأحلام وان حدوث ذلك ولا سيما في عصرنا ، ربما بمضاء خاص ، إن هو إلا العاقبة الطبيعية للواقعية المحايثة لرؤيتنا للعالم .

إن **تصوّر المدى المعاوض للأحلام** ما هو اختراع جديد ولا هو نتاج صنعي لتفسير مغرض.ولنبين ذلك بفضل المثال التاريخي لحلم مشهور وارد في الفصل الرابع من نبوءات دانيال حيث رأى نبوخذ نصّر وقد تسنّم ذروة جبروته على حدّ روايته الرؤيا التالية[1] :

(٧) وهذه رؤى رأسي على مضجعي . رأيت فإذا بشجرة في وسط الأرض مرتفعة جداً (٨) وقد نمت الشجرة وقويت وبلغ ارتفاعها إلى السماء ومنظرها إلى أقصى الأرض كلّها (٩) وأوراقها بهية وثمرها كثير وفيها غذاء للجميع وتحتها تستظل وحوش الصحراء وفي أغصانها تسكن طيور السماء ومنها يغتذي كل ذي جسد . (١٠) وبينا كنت أرى في رؤى رأسي على مضجعي إذا بساهر قديس قد نزل من السماء (١١) وهتف بصوت شديد وقال : اقطعوا الشجرة واقضبوا أغصانها . انفضوا أوراقها وانثروا ثمارها لتشرد الوحوش من تحتها والطيور من أغصانها . (١٢) ولكن اتركوا أصل عروقها في الأرض وليوثق بالحديد والنحاس في خَضِر الصحراء ويبتلّ بندى السماء وليكن نصيبه مع الوحوش في عشب الأرض . (١٣) وليتحوّل قلبه عن البشرية ويُعط قلب وحش ولتمّر عليه سبعة أزمنة .[2]

إن الشجرة في النصف الثاني من الرؤيا تتشخّص بحيث يظهر للعيان بأن الشجرة

(١) راجع الرسوم في : C.G.Jung, **La guérison psychologique**, op.cit.,p.72 .

(٢) ترجمة الشيخ إبراهيم اليازجي . (م)

Scanned with CamScanner

المرتفعة إنما هي الملك الرؤيا ، زد على ذلك أن دانيال يفسر الرؤيا هكذا . فهو يعني بدون خلاف ممكن محاولة لمعاوضة هذيان عُظامي تطور بحسب النصوص إلى استلاب ذهني حقيقي . وهذا التصور الذي يبصر في الظواهر الأحلامية أفعولة معاوضة مقايس برأيي لطبيعة الوقائع الأحيائية بعامة ، وإن في النظريات الفرويدية نزعة مشابهة في كونها تنسب إلى الحلم دوراً معاوضاً خاصاً بمواصلة النوم ؛ فكما بيّن فرويد عديدة هي الأحلام التي تُستشف منها الكيفيّات التي بمقتضاها تُشوَّه بعض الاهتياجات الحواسية التي من شأنها انتزاع النائم من نومه وتُستدرَج في تنكّرها إلى مداهنة إرادة النوم وترسيخ نيّة درء أي انزعاج . كذلك ثمة كما بيّن فرويد أيضاً أحلام أخرى جد متكررة تُقنّع فيها تحريضات مشوِّشة من داخل النفس ، من نحو ظهور تمثيلات شخصية قادرة على إطلاق رُجُع وجدانية ذات حَوْل ، وتُستَر في سياق حلمي يُموِّه حدة التمثيلات بما يكفي للحيلولة دون الإفراط في تفريغ الشحنات الوجدانية .

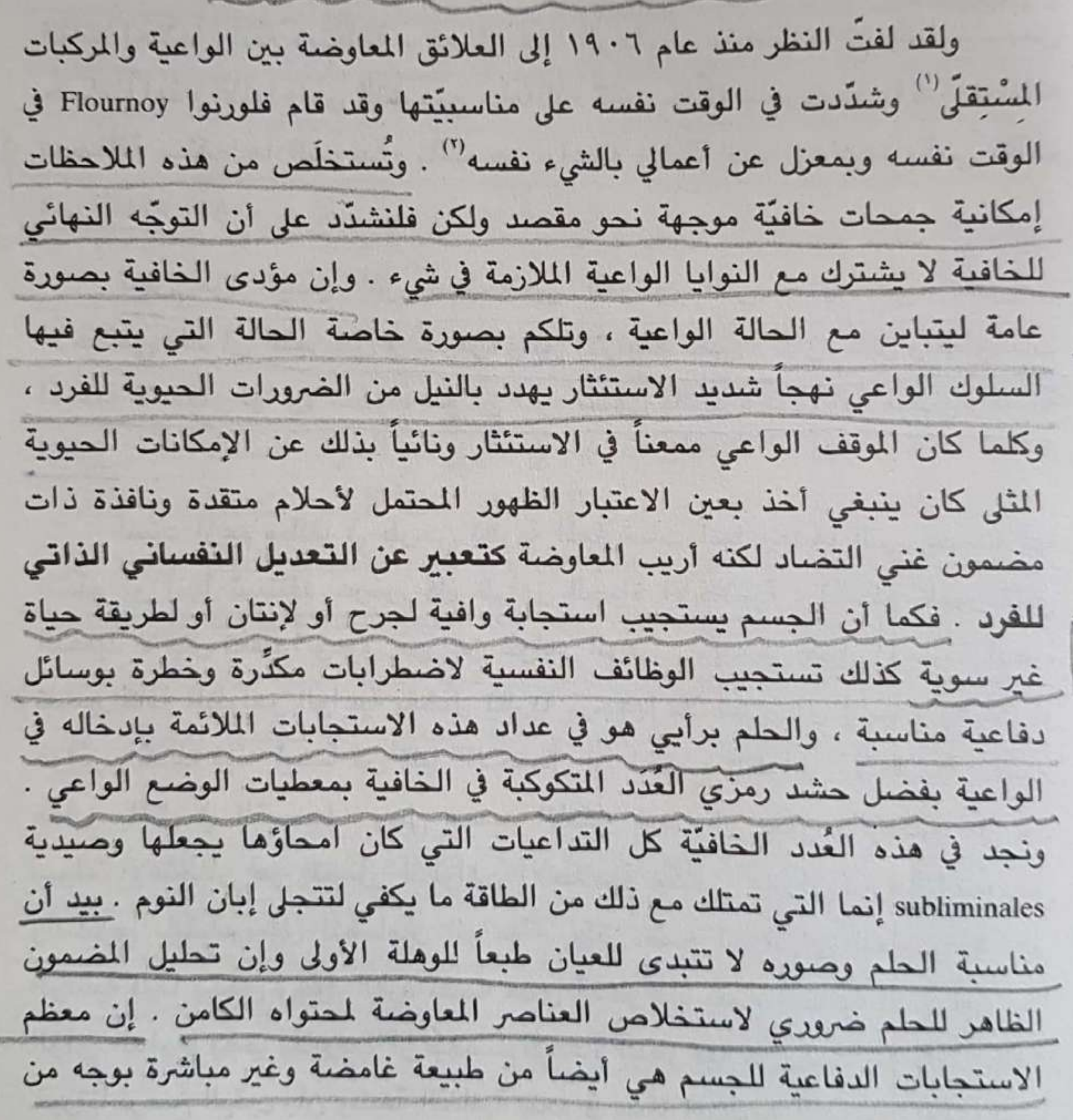
بيد أن هذا يجب ألا يمنعنا من تبيّن أن **الأحلام هي عينها التي تزعج النوم أكثر ما تزعجه** بل إن ثمة منها ما هو أكثر تواتراً مما يُظن مما يؤدي بنيانه التمثيلي منطقياً إذا صح القول إلى بُرَحاء paroxysme وجدانية هي من تمام التحقق في الحلم بحيث أن النائم يجد نفسه منتزَعاً من نومه بالانفعالات الجامحة ، ويفسر فرويد هذه الأحلام بقوله إن الرقيب لم يعد بمكنته كبح الانفعال المضني . ويبدو لي أن هذا التفسير لا يعرض للوقائع فكل الناس يعرف هذه الأحلام التي تستولي بوضوح ، بما لا يُعلى عليه من عدم المناسبة ، على الأحداث المضنية وهموم حالة الصحو لتصف بوضوح مفصّل مظاهرها الأشد إزعاجاً.وليس من مبرر هنا برأيي لالتماس حماية النوم وقَدْع inhibition الوجدانات بوصفه من وظائف الحلم ذلك أن الوقوع على تأييد لهذه الوظيفة في هذه الأحلام لا يقتضي أقل من انقلاب جذري لحقيقة الوقائع وهذا يصح أيضاً على الحالات التي تتراكم فيها اندفاقات مخيّلية جنسية ومكبوتة في الصور الظاهرة لحلم ما .

هكذا توصلت إلى الاعتقاد بأن التصور الفرويدي الذي لا يميز في الأحلام من حيث الجوهر إلا تحقيق أمان وحماية النوم هو من الضيق بمكان بينما ينبغي بالتأكيد أخذ الفكرة الأساسية لوظيفة أحيائية معاوضة على محمل الجد ، فهذه

Scanned with CamScanner

المعاودة منه / رغبات لاشعورية : يكمن الفرق بين يونغ وفرويد في الطريقة التي يرى فيها كل منهما ويفسر اللاشعور ، عند يونغ يأتي اللاشعور مجرد فعل عكسي على فعل واع مبالغ فيه ، بينما يؤمن فرويد بأن رد الفعل

الوظيفة ليست معاوضة بالنسبة إلى النوم إلا على نحو مسعف ومحلّها الرئيسي هو الحياة الواعية ، **فالأحلام تسلك كتعويضات عن الوضع الواعي الذي شهد ولادتها** وهي تحمي النوم إلى أبعد حد ممكن أي تلقائياً جواباً على تأثير هذه الحالة وسطوتها ، لكن من شأنها أيضاً قطعه حين تتطلب وظيفتها ذلك وحين تكون مضامينها الموازنة من الشدة بحيث تعطّل مجراه ؛ وإن عنصراً خافياً معاوضاً يتضخم تضخماً شديداً متى كان لتوجيه الوعي أهمية حيوية .



ولقد لفتّ النظر منذ عام ١٩٠٦ إلى العلائق المعاوضة بين الواعية والمركبات المِسْتقِلّ[١] وشدّدت في الوقت نفسه على مناسبيّتها وقد قام فلورنوا Flournoy في الوقت نفسه وبمعزل عن أعمالي بالشيء نفسه[٢] . وتُستخلَص من هذه الملاحظات إمكانية جمحات خافيّة موجهة نحو مقصد ولكن فلنشدّد على أن التوجّه النهائي للخافية لا يشترك مع النوايا الواعية الملازمة في شيء . وإن مؤدى الخافية بصورة عامة ليتباين مع الحالة الواعية ، وتلكم بصورة خاصة الحالة التي يتبع فيها السلوك الواعي نهجاً شديد الاستئثار يهدد بالنيل من الضرورات الحيوية للفرد ، وكلما كان الموقف الواعي ممعناً في الاستئثار ونائياً بذلك عن الإمكانات الحيوية المثلى كان ينبغي أخذ بعين الاعتبار الظهور المحتمل لأحلام متقدة ونافذة ذات مضمون غني التضاد لكنه أريب المعاوضة **كتعبير عن التعديل النفساني الذاتي للفرد** . فكما أن الجسم يستجيب استجابة وافية لجرح أو لإنتان أو لطريقة حياة غير سوية كذلك تستجيب الوظائف النفسية لاضطرابات مكدِّرة وخطرة بوسائل دفاعية مناسبة ، والحلم برأيي هو في عداد هذه الاستجابات الملائمة بإدخاله في الواعية بفضل حشد رمزي العُدَد المتكوكبة في الخافية بمعطيات الوضع الواعي . ونجد في هذه العُدد الخافيّة كل التداعيات التي كان امحاؤها يجعلها وصيدية subliminales إنما التي تمتلك مع ذلك من الطاقة ما يكفي لتتجل إبان النوم . بيد أن مناسبة الحلم وصوره لا تتبدى للعيان طبعاً للوهلة الأولى وإن تحليل المضمون الظاهر للحلم ضروري لاستخلاص العناصر المعاوضة لمحتواه الكامن . إن معظم الاستجابات الدفاعية للجسم هي أيضاً من طبيعة غامضة وغير مباشرة بوجه من

(١) **Uber die Psychologie der Dementia proecox** (Marhold, Halle, 1907).

(٢) Automatisme téléologique antisuicide, **Archives de psychologie**, t.VII, Genève, 1908, p.113.

Scanned with CamScanner

الوجوه ولقد استلزم رفع النقاب عن دورها الشافي معارف معمقة وأبحاث محددة ولنتذكّر معنى الحمّى والتقيّحات في جرح منتن .

لما كانت الظواهر النفسية المعاوِضة فردية أساساً في معظم الأحيان فإن هذا الظرف يزيد كثيراً من المصاعب المواجهة لإجلاء طبيعتها المعاوضة ، والمبتدىء بصفة خاصة سيتوه بسهولة . فمن المرجو على سبيل المثال بمقتضى نظرية المعاوضات أن يرى شخص ذو موقف مغالٍ في التشاؤم بإزاء الحياة فيما يرى النائم أحلاماً رائقة ومتفائلة ، غير أن هذا الرجاء لن يتحقق ما لم يكن الشخص حساساً لهذه الأنواع من التشجيع ، أما إذا كانت جبلّته متمردة عليها فإن مناماته بحصافة ستأخذها السويداء بأكثر من واعيته مطبِّقة مبدأ **وداوها بالتي كانت هي الداء** .

ليس من اليسير إذن استخلاص القوانين التي تسهر على التعويض الأحلامي ذلك أن التعويض في جوهره وثيق الارتباط بطبيعة الفرد ككل والمعاوضات الممكنة لا حصر لها ولا تنضب مع أن المرء ينتهي بالخبرة إلى رؤية مبادىء معينة تتبلور .

لست أزعم مطلقاً في طرحي نظرية المعاوَضات أنها وحدها التي يخضع لها الحلم أو أنها تستنفد عرض **كل** ظواهر الحياة الأحلامية ؛ فالحلم ظهور فائق التعقيد لا يقل تعقيداً وعمقٍ غور عن ظواهر الوعي . وإنه لمن قبيل المجازفة ادعاء تفسير كافة الظواهر الواعية بفضل نظرية ترجعها بلا تمييز إلى إشباع رغبات أو غرائز ، كذلك فإنه أيضاً من قليل الاحتمال أن تخضع الظواهر الأحلامية لتفسير مغالٍ بالمثل في التبسيط ، وعلى صعيد الأفكار نفسه لن يكون بالإمكان على حد سواء الاقتصار على تصوّر للظواهر الأحلامية يكتفي بإبراز دورها التعويضي والثانوي بالقياس إلى المضامين الواعية . ولئن صح أن الرأي العام يغدق على الواعية فيما يخص وجود الفرد نفسه مدى أخطر مما يمنح الخافية بكثير فإن هذا الرأي الدارج يجب بلا ريب أن يُخضَع لإعادة النظر فيه من حيث إنه كلما اغتنت خبرتنا ترسخ اليقين بأن وظيفة الخافية تنعم في حياة المنظومة النفسية بأهمية لسنا بعد إلا في طور استشفافها . والخبرة التحليلية هي بالدقة التي تشي على نحو أكثر فأكثر حسماً بتأثيرات الخافية على الحياة الواعية للنفس ـ هي تداخلات ظل

Scanned with CamScanner

وجودها ومغزاها محجوبين حتى الساعة . وبحسب قناعتي بنت خبرة طويلة وفحوص لا تحصى فإن النشاط الذهني العام وإنتاجية المنظومة النفسية هما على الأرجح ثمرتا الخافية والواعية على حد سواء ، وإذا صح هذا الرأي فليست الوظيفة الخافية هي المعاوضة والنسبية بالقياس إلى الواعية وحسب بل الواعية أيضاً بما هي تابعة لشدة التكوكب الخافيّ الآني .

بذا لن يكون للواعية وحدها مزيّة التوجيه الفاعل نحو قصد ونية ، إذ أن من شأن الخافية سواء بسواء في بعض الظروف أن تضطلع باتجاه مصوَّب نحو غاية محددة .

الوظيفة الاستباقية للحلم

لئن كان الأمر على ذلك فبوسع الحلم عند الاقتضاء أن تكون له قيمة فكرة إيجابية موجِّهة أو تمثيل موجَّه ذي مدى حيوي متفوّق على المخططات الواعية الموافقة . وهذا الإمكان الحقيقي ينسجم في نظري مع **العرف السائد** بما أن تطيّر الشعوب قاطبة في كل العصور يرى في الحلم هاتفاً للوحي يكشف عن حقائق المستقبل ، وإذا ما أُهمل غلو وتعصب تمثيلات بهذا الانتشار العالمي فإنها تظل تكشف عن جزء صغير من الحقيقة ؛ وقد شدّد ميدر تشديداً حازماً على النشاط المستقبلي والنهائي للحلم الذي يَمْثُل أمامنا على هيئة وظيفة خافيّة مناسبة تهيّء من مخطط لآخر حل النزاعات والمشاكل الراهنة وتسعى إلى تمثيلها بفضل رموز مصطفاة تلمّساً[1] .

فلنميّز الوظيفة الاستباقية للحلم عن وظيفته المعاوضة، فالثانية تنظر في الخافية من حيث تبعيّتها للواعية التي تُلحِق بها كل هذه المجموعة من العناصر التي لم تبلغ الوصيد في حالة الصحو لأسباب كبت أو ببساطة لأنها لم تكن تمتلك الطاقة الضرورية لبلوغ الواعية من تلقاء ذاتها . وهذا التعويض يمثل تعديلاً ذاتياً جد مناسب للبنية النفسية .

(١) راجع :

Maeder, Sur le mouvement psychoanalytique, **L'Année psychologique**, t. XVIII, Paris.

أما الوظيفة الاستباقية فتمثل أمامنا على العكس على هيئة توقع ينبثق في الخافية للنشاط الواعي الآتي وهي تستحضر مخططاً تمهيدياً أو خطوطاً عريضة أو مشروع خطة تنفيذية وإن مضمونها الرمزي لينطوي بالمناسبة على حل نزاع ، وقد بيّن ميدر ذلك على نحو ساطع . فواقعية المنامات الاستباقية من هذه الطبيعة لا سبيل إلى نكرانها وإن لمن غير المبرّر وصفها بالنُبُوية من حيث كونها في الواقع ليست كذلك إلا بمقدار إنذار طبي أو أرصادي . ولا يتعلق الأمر هناك إلا بتوقع لاحتمالات هي تضافر مبكر يستطيع حقاً أن يتوافق بالمناسبة مع المجرى الفعلي للأحداث إنما يستطيع بالمثل ألا يتوافق على الإطلاق أو لا يتوافق من كل وجه فلا يصح الكلام عن نبوات إلا متى كان هناك توافق في أدق التفاصيل . وإن إنذارات الوظيفة الاستباقية للمنام كثيراً ما تتفوّق صراحة على الظنون الواعية ، وليس في الأمر ما يدهش بما أن المنام ينجم عن مزج عناصر وصيدية وعن قرانات بين كل هذه الإحساسات وكل هذه العواطف وكل هذه الخواطر التي تملّصت من ا لواعية بحكم بروزها المظلّل ؛ زد على ذلك أن في حوزة المنام آثار ذكريات خافيّة لم يعد في مكنتها التأثير بفعالية على الحياة الواعية ؛ فالمنام إذن من حيث الإنذار غالباً ما يحتل موقعاً أكثر مؤاتاة من الواعية .

تشكل الوظيفة الاستباقية برأيي خاصية رئيسية من خواص الحلم وإن كان يحسن بالمرء ألا يُغالي في تقديرها وإلا فإنه يسهل عليه الانقياد لأن يرى في الحلم نوعاً من مرافق نفوس الموتى psychopompe ذي حكمة عليانية قادر على رهن الحياة في وجهات معصومة . فبمقدار ما يستهان من جهة بالمدى النفساني للحلم يعظم من جهة أخرى على كل من يدرس الأحلام ويمارس تفسيرها خطر الغلو في تقدير مفعول الخافية على الحياة الواقعية . مهما يكن من أمر فإن الخبرة الفعلية تجيز لنا عدم استبعاد أن للخافية أهمية مساوية على نحو ملموس لأهمية الواعية فثمة بلا أدنى ريب مواقف واعية تبزها الخافية أي مواقف واعية هي من سوء التكيف مع طبيعة الفردية التامة بحيث أن السلوك الخافيّ المتكوكب في الوقت نفسه يبدي تعبيراً عنها أعلى بكثير . لكن هذا ليس الأشيع فإن الحلم غالباً ما لا يوسّع الحياة الواعية إلا بإسهام بضعة أجزاء وفي هذه الحالة يتكيف الموقف الواعي من جهة بما يكاد يكفي الواقع ومن جهة أخرى يلتزم تقريباً بالطبيعة الجوهرية للفاعل ؛ ففي هذه الحالة

Scanned with CamScanner

يكون عدم الأخذ بالحسبان ، إلى حد ما قَصْراً إلا المنظور الخافي الذي يزوّدنا به الحلم بإهمال الوضع الواعي من أسوأ ضروب الرعونة ولا يعقبه إلا الإخلال بتوازن النشاط الواعي وتدميره ؛ فلا يحق للمرء أن ينسب إلى الخافية فعالية أعلى إلا بوجود سلوك واعٍ بيِّن النقص والقصور . وإن مثل هذا التقدير يقوم على معايير يطرح التفتيش عنها مسألة دقيقة ؛ فمن الجليّ أننا لن نستطيع قط تقدير قيمة موقف واعٍ باتخاذ وجهة نظر جماعية وحسب . ذلك يتطلب أكثر ما يتطلب دراسة معمّقة للفردية التي نحن بصددها ولن نتمكن من تحديد مبلغ قصور الموقف الواعي إلا بفضل معرفة متقدمة للطبع الفردي . وإن تنويهي إلى معرفة الطبع الفردي لا يعني قط وجوب إهمال متطلبات وجهة النظر الجماعية كل الإهمال فالفرد كما هو معلوم مطوَّع بروابطه الجماعية بمقدار ما هو مطوّع بفرديته الخاصة . وإذا قارب الموقف الواعي الكفاية صار للمنام مغزى محض معاوِض ، وهذه الحالة بلا ريب هي القاعدة عند الإنسان السوي الذي يعيش في ظروف سوية حياة سوية . لهذه الأسباب مجتمعة يلوح لي أن النظرية المعاوِضة عظيمة الأهمية من أجل التعديل الذاتي للبنية النفسية .

عندما يحيد أحد الأفراد عن السواء ويمسي موقفه الواعي ، موضوعياً كان أم ذاتياً ، من عدم التكيف بازدياد فإن وظيفة الخافية محض المعاوضة عادة تتعاظم أهميتها وتنهض بدورها كوظيفة استباقية قائدة من شأنها أن تطبع الموقف الواعي بمجرى مختلفٍ كل الاختلاف مفضَّل بوضوح على المجرى السابق كمابين ميدر في أعماله التي سبق ذكرها . وتحت هذا الباب يجب أن تنضوي الأحلام من نوع رؤيا نبوخذ نصر ؛ ومن الجلي أنها تصادَف لدى أفراد لبثوا دون قيمتهم ، ومن الجلي أيضاً أن الفاقات المماثلة كثيرة الشيوع ، لذا فهناك ما يدعو مراراً إلى النظر في حلم من حيث مظهر مغزاه الاستباقي .

الوظيفة الإرجاعية

فلنذكر الآن وجهاً آخر من وجوه المسألة ينبغي عدم إهماله . فعديدون هم الأشخاص الذين لا يتساوق موقفهم الواعي المتكيف مع المحيط الخارجي والطبع الشخصي فهم أفراد يتعدى موقفهم الواعي وجهدهم للتكيف المصادر الفردية ذلك

أنهم يبدون خيراً مما هم عليه وأنفس . وهذا الفائض من النشاط الداخلي لا يتغذى بالطبع قط بفضل الملكات الفردية وحدها فإن الاحتياطات الزخمية للإيحاء الجماعي هي التي تتعهد معظمها بالقوت . وهؤلاء الأشخاص يتشبثون بمستوى أعلى من المستوى الذي خصتهم به الطبيعة بفضل فعالية مثال مشترك على سبيل المثال أو إشعاع مزية جماعية أو الدعم الأعمى للمجتمع ، فهم داخلياً ليسوا على مستوى وضعهم الخارجي ولهذا السبب في كل هذه الحالات تنهض الخافية بالدور السلبي والمعاوض لوظيفة إرجاعية . فمن الواضح أن إرجاعاً أو انتقاصاً يمثل ضمن هذه الشروط تعويضاً من وجهة نظر التعديل الذاتي للفرد وأن هذا الإرجاع قد يتصف بطابع استباقي للغاية (انظر حلم نبوخذ نصر) . ويُسْران ما تستحضر فينا كلمة «استباقي» صورة شيء بنّاء وتمهيدي وجمعي . وهذه الأحلام الإرجاعية تحملنا على فصل المفهوم الاستباقي لهذه الاستحضارات بدقة لأنها ليست في واقع الأمر أقل من تمهيدية أو بنّاءة أو جمعية. أما الحلم الإرجاعي فهو على العكس يفكك ويفصم وينتقص بل وحتى يدمّر ويُضعِف . وهذا بالطبع لا يعني أن تمثّل مُعامِل إرجاع ينبغي له كرهاً أن يؤذي الفرد برمّته فكثيراً ما تكون لهذا التمثّل توابع شافية إلى حد كبير إذ هو يتصدى للموقف وحسب وليس للشخصية بأسرها. غير أن هذه النجاعة الثانوية لا تعدّل في شيء طابع الحلم الإرجاعي والناكص في جوهره بحيث يُفضَّل عدم وصفه بـ «الاستباقي» . لذا يستحسن ابتغاء الوضوح تسمية هذه المنامات بـ **الأحلام الإرجاعية** والوظيفة المقابلة لها بـ **الوظيفة الإرجاعية للخافية** مع أن هذه الوظيفة هي في الواقع عينها وظيفة التعويض . فلنتعوّد إذن على أن ننتظر من الخافية بالفعل مظاهر شتى تضاهي غنى الحياة الواعية الدقيق الفروق فهي تعدّل مظاهرها ووظائفها بمقدار ما تفعل هذه الأخيرة ، وتلكم علّة الدقة المتناهية المطلوبة لتقديم فكرة حية عن طبيعة الخافية .

إن أبحاث فرويد هي التي أضاءت أول ما أضاءت الوظيفة الإرجاعية للخافية من حيث إن التفسير الفرويدي قد اقتصر عموماً بصورة أساسية على أغوار الفرد الجنسية الطفلية والشخصية والمكبوتة ، وقد لفتت أبحاث لاحقة الانتباه إلى عناصر بائدة أي إلى المخلفات الوظيفية والأنسالية والتاريخية وما فوق الفردية الراقدة في حضن الخافية ؛ وإن لبوسعنا اليوم أن نقرر بيقين بأن الوظيفة

Scanned with CamScanner

الإرجاعية للحلم تحيِّن مواداً مؤلفة أساساً من رغبات جنسية طفلية ومكبوتة (فرويد) ومن إرادة القدرة الطفلية (أدلر) ومن رصيد من الغرائز والخواطر والعواطف البائدة والجماعية. وإن استرجاع عناصر كهذه مثقلة بالقِدَم لهو من النجوع بما لا يقاس عندما يتعلق الأمر بتقويض عنجهية فائقة الحد أو تذكير أحد الأفراد بغرور العدم البشري وإعادته إلى طواعيته الطبائعية والتاريخية والأنسالية ؛ فإن سراب عظمة وأهمية خدّاعتين ليتبدد لدى التماس الكاشف لحلم إرجاعي من حيث إنه يحلل السلوك الواعي بحس نقدي لا يرحم يفضح عُدَداً مضنية تتصف بتسجيل تام لكل الدنايا والنقائص ؛ فمن المستحيل بحد ذاته أن يوصف بالاستباق حلمُ من هذه الطبيعة بما أن كل شيء فيه استذكاري حتى آخر شعرة ويُردّ إلى ماض كان المرء يظنه لاغياً منذ أمد طويل. بيد أن هذا الظرف ليس يمنع بالطبع المضمون الأحلامي لا أن يكون معاوضاً بالنسبة إلى وقائع الوعي ولا أن يكون له توجّه غائي لأن النزعة الإرجاعية قد تنهض بالمناسبة بدور في تكيف الفرد ؛ ولا يقل عن ذلك صحة أن للمضمون الأحلامي طابعاً اختزالياً. ويحدث مراراً أن المرضى يكابدون من تلقاء أنفسهم عفوياً العلاقة بين النص الأحلامي والوضع الواعي وبحسب العواطف التي يلهمهم إياها هذا الحدث يبصرون في الحلم مضموناً استباقياً أو اختزالياً أو معاوضاً. إلا أن هذا لا يظهر في كل الحالات حتى أنه ينبغي علينا أن نشدد على أن المريض بعامة وبالدقة لدى مباشرة معالجة تحليلية ينزع نزوعاً لا يعاند في إصراره على تصور نتائج الدراسة التحليلية لهذه المواد من خلال وجهة النظر الإمراضية (وبالتالي الباطلة) التي كانت وجهة نظره حتى تلك الساعة.

تتطلب هذه الحالات شيئاً من الدعم من جانب الطبيب الذي يقتاد مريضه نحو مرحلة يصبح فيها الفهم الصحيح للحلم ممكناً.

نقد النظرية الواحدة

يضفي هذا التعقيد أهمية كبرى على الفكرة التي يكوّنها الطبيب عن نفسانية مريضه الواعية إذ ينبغي عدم التصور بأن تحليل الأحلام هو بلا قيد ولا شرط التطبيق العملي لمنهاج احتاز المرء على مهاراته اليدوية ؛ فهو على العكس يستلزم

Scanned with CamScanner

معرفة صميمية بالتصورات التحليلية في جملتها وبصيرة لا يصح للمرء أن يدعيها إلا بأن يخضع للتحليل ؛ وإن أفدح هفوة قد يرتكبها محلل بالمناسبة هي أن يفترض لدى المحلَّل نفسانية شبيهة بنفسانيته هو ؛ وهذا الاسقاط يمكن التحقق منه من حين لآخر لكنه يبقى في معظم الأحيان إسقاطاً محضاً . فكل ما هو خافٍ يُسقَط بهذه المثابة ، لذا فإن على المحلل في الأقل أن يتفطن إلى مضامين خافيته الرئيسية بحيث لا تتدخل إسقاطات خافيّة معكرةً صفو محاكمته ؛ وعلى كل من يحلل أحلام الغير ألا يغيب عن باله أنه ليس ثمة نظرية بسيطة تحكم الظواهر النفسية أو طبيعتها أو أسبابها أو مقاصدها وإننا لنعدم معياراً عاماً للحكم . نحن نعلم بوجود ظواهر واعية وخافية وظواهر جنسية وحدسية وفكرية وأخلاقية وجمالية ودينية وإرادوية ، الخ ، إلا أننا لا نعلم شيئاً مؤكداً عن طبيعتها . بيد أننا على علم في الأقل بأن دراسة المنظومة النفسية انطلاقاً من نقطة معطاة ومن زاوية محددة تحديداً دقيقاً تزودنا بتفاصيل ثمينة قطعاً لكنها لا تسهم قط في نظرية تبرّر استخدام مناهج استنباطية ، كما وليست في حوزتنا نظريات في الخافية إذ تحصر مضمونها النوعي تجيز في ا لوقت نفسه تفسير الصور الأحلامية بالتناغم مع وقائع تم التثبت منها . أما فرضية الجنس وأشواقها وفرضية إرادة القوة فهما طريقتان للنظر ذواتا قيمة إنما يجب أن يؤخذ عليهما عدم تعليلهما بأي وجه من الوجوه عمق النفس البشرية وغناها . فلو كانت في حوزتنا نظرية بهذه السعة لاستطعنا الاكتفاء بالامتهان الحرفي للمنهاج إذا جاز التعبير ولا يعود الأمر يتعلق عندئذٍ إلا بفك رموز إشارات معينة تومىء إلى مضامين مدوّنة موافقة ؛ وحسب المرء لذلك معرفة قواعد دلالية عن ظهر قلب ، وبذا لا يقل التقدير الصحيح للموقف الواعي فضلاً عن الحاجة عنه لدى بزل قطني ، لكن النفس لسوء حظ اختصاصيي عصرنا المنهكين تبدو عصية من أول وهلة على كل منهاج يسعى إلى الإمساك بها تحت واحد من مظاهرها مقتصراً عليه دون المظاهر الأخرى .

نحن لسنا حالياً نعلم من مضامين الخافية إلا النزر اليسير لأن هذه المضامين وصيدية ومتممّة بالنسبة إلى الواعية وبالتالي نسبية أساساً لذا لن يُفهم حلم إلا تبعاً للوضع الواعي .

Scanned with CamScanner

الأحلام التفاعلية

إن الأحلام الإرجاعية والاستباقية أي المعاوضة اختصاراً هي أبعد ما تكون عن استنفاد وفرة المعاني الممكنة وهناك ضرب من الأحلام يمكن تسميته بكل بساطة بـ **الحلم التفاعلي** ، وقد يستهوي المرء إدراج تحت هذا الباب كافة الأحلام التي لا تبدو على الإجمال إلا نسخة عن فصل شديد الوجدانية في الحياة الواعية . بيد أن تحليل هذه الأحلام يكشف بسرعة عن الدوافع العميقة التي أدت بهذه الخبرات إلى استرجاعها بأمانة في الحلم ؛ فإنه يُستخلص منها في الواقع أن للمآثر المعاشة بالإضافة إلى المظاهر المقتطعة جانباً كاشفاً ورمزياً كان أفلت من الفاعل ويؤدي إلى الاسترجاع الأحلامي . فههنا إذن ليس مقام هذه الأحلام إنما يجب أن تظهر وحسب تلك التي خلقت فيها وقائع موضوعية معينة أذيّة نفسية تتصف مظاهرها غير النفسية الصرفة في الوقت نفسه بآفة جسمانية في الجهاز العصبي . ولقد تعددت حالات الصدمات العنيفة هذه من جراء الحرب وينبغي أمامها توقع العديد من الأحلام التفاعلية المحضة تشكل فيها الأذيةُ العامل المكوّن الحاسم .

قد يكون من المهم للنشاط الإجمالي للنفس أن يخسر العنصر الرضيّ رويداً رويداً بفضل تنشيط متكرر شيئاً من استقلاليته ويستعيد بذلك رتبته في التراتبيّة النفسية ، على أنه قد يكون من المغلوط إطلاق تسمية معاوض على مثل هذا الحلم الذي ليس في واقع الأمر إلا تكراراً للأذية ؛ فالحلم يبدو حقاً رادّاً لعنصر مِسْتِقِل عن المنظومة النفسية ، إنما سرعان ما يظهر أن التمثّل الواعي لهذا العنصر لا يلطّف التزعزع المولِّد في شيء والحلم يواصل «استرجاعاته» كالسابق ، والعنصر الراضّ إذ يصبح مِسْتِقلاً فإنه يواصل نشاطه من تلقاء ذاته حتى خمود المنبِّه الراض ؛ وإن «الإدراك» السابق للأمر على نحو واع لا يجدي فتيلاً .

وليس من الميسور في ا لممارسة الفصل فيما إذا كان حلم ما يعود إلى أذيّة أو أنه يعيد رموزياً أداء وضع راض بينما يستطيع التحليل أن يبت في الأمر من حيث إن التفسير الصحيح للفصل الراض سرعان ما يقاطع تكراره في حين أن استرجاعاً تفاعلياً لا يتأثر به على الإطلاق .

من الجلي أننا نصادف المنامات التفاعلية نفسها في غضون **حالات جسمانية**

Scanned with CamScanner

أمراضية من نحو أوجاع حادة تؤثر بشدة على سياق الحلم . وعندي أن الاهتياجات البدنية ليس لها مدى حاسم إلا استثنائياً فهي عموماً تندرج في التعبير الرمزي للعنصر الخافيّ بما هو منبع الحلم أي أنها بعبارة أخرى تُستعمل كوسائل تعبير ، فليس يندر أن تشي الأحلام بتركيبة رمزية صميمية ومُفْردة بين مرض جسماني أكيد ومسألة نفسية معطاة حيث يكاد التوعّك البدني يبدو التعبير الإيمائي للوضْع النفسي . وإني لأورد هذه الخصوصية استيفاءً للموضوع حقه أكثر مني تركيزاً على مجال غني بالأحاجي ، على أنه يلوح لي أن ثمة بين الاضطرابات الجسمانية والنفسية بعض الارتباطات التي يُستخف عموماً بمداها ، وهو مدى مبالغ فيه من جهة أخرى بإفراط من قبل تجمعات معيّنة لا تريد أن تبصر في الاضطراب الجسماني غير تعبير عن الاضطراب النفسي كما هي على سبيل المثال حالة أتباع العلم المسيحي[1] Christian Science . ولئن قمت ههنا بهذا التقرير فلأن الأحلام تأتي بتوضيحات ذات فائدة عظيمة لمسألة التآزر الوظيفي بين البدن والنفس .

الأحلام التخاطرية

ينبغي علينا طوعاً أو كرهاً أن ننزل **الظاهرة التخاطرية** فضلاً عن ذلك منزلة محدَّدة ممكنة للحلم إذ لم يعد بالوسع اليوم الارتياب في صحة هذه الظاهرة بعامة ، وبالطبع فإن من اليسير جداً ، بالامتناع عن فحص المعطيات التي تشهد لها ، إنكار وجودها غير أن هذا موقف لا يتصف بالعلمية إلا قليلاً ولا يستحق أي اعتبار ؛ ولقد سنحت لي فرصة تبيان أن للظواهر التخاطرية بالمثل تأثيراً على الأحلام وقد كان أجدادنا يؤكدون ذلك منذ أقدم الأزمنة . وبعض الأشخاص من هذا الوجه حساسون بصفة خاصة وكثيراً ما يرون أحلاماً ذات طابع تخاطري مرموق . إن الإقرار بالفعل بالظاهرة التخاطرية لا يعني قط الإقرار بلا شرط بالتصورات النظرية

(١) «العلم المسيحي» علم زعمت مؤسسته ماري بيكر - إدّي أن انكشافه لها قد تم في أثناء مطالعتها لنص شفاء المقعد في انجيل متى (٩ :٢-٨) ، وانطلقت منذ ستينات القرن الماضي تمارس الشفاء الذهني Mind Cure وتصوغ مبادئها النظرية في كتابها الشهير الصادر عام ١٨٧٥ «علم الصحة مع مفتاح الكتب المقدسة» . (م)

Scanned with CamScanner

الشائعة عن طبيعة **التأثير عن بعد** فإن الظاهرة موجودة بلا أي ارتياب ممكن لكن نظريتها تبدو لي استثنائية التعقيد بالضرورة وفي كل الأحوال يجب الأخذ بإمكانية تداعيات متطابقة وسيرورات نفسية موازية تلعب كما تَبيَّن دوراً عظيماً ولا سيما وسط الأسرة نفسها حيث تتجلى من بين أمور أُخَر بمحاكاةٍ أو شبهٍ وثيق في طرق السلوك[1]. كما ينبغي كذلك أخذ **الذكريات القبوية** cryptomnésies بعين الاعتبار، وهو مُعامِل أبرزه فلورنوا من جانبه[2] من شأنه أن يُحدِث عند الاقتضاء أشد الظواهر إدهاشاً وأشدها غرابة. فإن المواد الوصيدية إذ تتجلى في الحلم لا يدهشنا أن تنبجس الذكريات القبوية فيه أحياناً على نحو ناجع؛ وقد أتيح لي مراراً أن أحلل منامات تخاطرية كان المغزى التخاطري لبعضها مجهولاً ساعة التحليل وقد كان هذا الأخير يتفتق عن مواد ذاتية شأنه شأن أي حلم آخر فكان للحلم بذلك مغزى متناغم مع الوضع الآني للفاعل. أما التحليل فلم يكن فيه ما يدل على أن الحلم كان تخاطرياً وإني لم أصادف بعد قط حلماً كَمُن مؤداه التخاطري قطعاً في المواد التداعوية الملتقطة إبان التحليل (أي في المضمون الكامن للحلم) فقد كان يكمن دائماً **في الشكل الظاهر للحلم**.



لا تورد أدبيات الأحلام التخاطرية عموماً إلا الأحلام التي يُستَبق في غضونها حدث وجداني بصفة خاصة على نحو «تخاطري» في الزمان أو في المكان وبالتالي التي يكون لحدثها إذا صح القول صدى إنساني (وفاة على سبيل المثال) يفسّر استشعاره أو استحساسه عن بعد أو ييسر فهمهما؛ وقد كانت الأحلام التخاطرية التي أتيحت لي معاينتها تنتمي بمعظمها إلى هذا النمط غير أن عدداً صغيراً منها كان يتفرّد **بمضمون** ظاهر للحلم كانت بيّنته التخاطرية على علاقة بأشياء عديمة الأهمية تماماً كوجه امرىء مجهول وغير مكترث أو حشد من قطع الأثاث في مكان وظروف حيادية أو وصول رسالة عادية، الخ. وفي تقريري هنا لعدم الاكتراث أعني ببساطة أنني، لا بالاستنطاقات المعتادة ولا بالتحليل، وقعت على عنصر كان لأهميته أن «تبرّر» الظاهرة التخاطرية. ففي هذه الحالات أكثر مما في

(١) انظر اعلاه، ص ١٢٢.

(٢) Des Indes à la planète Mars, Editions Atar, Genève, 1900, et idem: Nouvelles observations sur un cas de somnambulisme avec glossolalie, **Archives de Psychologie**, t. I, 1901.

Scanned with CamScanner

الحالات المذكورة أعلاه ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد بالصدفة المزعومة بيد أن هذه الصدف الافتراضية تظهر كل مرة وكأنها **ذريعة الجهل** أو غطاء للأسمال ، إذ ما من أحد يخطر له أن ينكر وجود صدف عجيبة للغاية ؛ أما أن يسمح حساب الاحتمالات بالتكهّن بتواترها فهذا ما لا ينذر خيراً بطبيعة هذه الصدف المزعومة . لا جرم أني ما كنت يوماً لأقول بأن القوانين التي تحكمها «فوق سوية» إنما أقول وحسب إنها مستغلقة على معرفتنا المتلجلجة وبذا فإن للمضامين التخاطرية التي كثر الجدل حولها طابعاً من الواقع يعلن إفلاس كافة تخامين الحس المشترك ؛ ومع أني لا أعتنق أي تصور نظري بشأن هذه الظواهر فإني أستحسن الإقرار بصحتها والتشديد عليها ، فإن هذه الاعتبارات تمثل إغناء للبحوث الأحلامية .

رأيان في الحلم

وفي مقابل **الرأي الفرويدي** المعروف جداً الذي بحسبه ليس الحلم في جوهره إلا تحقيقاً لرغبة أزعم مع صديقي ومعاوني أ . ميدر بأن الحلم **تمثيل ذاتي عفوي ورمزي للوضع الفعلي للخافية** . إن تصوّرنا هذا ليمت بصلة إلى تصور سلبرر Silberer[1] . وهذا التوافق سارّ ولا سيما أنه ثمرة أعمال مستقل بعضها عن بعض .

إن تصورنا يتعارض للوهلة الأولى والصيغة الفرويدية بعدوله المقصود عن إبانة أي شيء حول معنى الحلم إلا أنه يقول بأن الحلم تمثيل رمزي للمضامين الخافيّة وهو لا يناقش مسألة معرفة ما إذا كانت هذه المضامين دوماً أماني محققة أو لم تكن . ولقد بيّنت بحوث لاحقة بوضوح كما نقل ميدر قصداً أن اللغة الجنسية للأحلام لا تخضع دوماً لسوء فهم معنى عياني[2] ؛ إن هذه اللغة الجنسية لغة بائدة مترعة بالطبع بالمقايسات الأكثر مباشرة بدون أن تتموضع لهذا كل مرة على إلماعة جنسية فاعلة . لذا فلا مبرر لأخذ المعنى الجنسي للحلم على محمله العياني بينما تُعلَن مضامين أخرى رمزية . فحالما تُتَصوَّر التعابير الجنسية للّغة الحلمية بوصفها

(١) راجع أعمال سلبرر في «تشكّل الرموز» في :

Jahrbuch fur psychoanalytische und psychopathologische Forschungen, vols. III&IV, Franz Deuticke, Leipzig und Wien, 1912.

(٢) نحن نلتقي هنا مع ادلر .

Scanned with CamScanner

رموزاً لأشياء أعقد للغاية سرعان ما يُستخلص تصور أعمق بكثير عن طبيعة الحلم ولقد وصف ميدر ذلك على نحو لطيف بفضل مثال عملي قدمه فرويد . وما دام المرء يصر على أن يرى في لغة الحلم الجنسية عيانيّتها وحدها فإنه يقتصر حتماً على حلول آنية وخارجية أو يقتصر على التعطُّل المقابل الذي هو عبارة إما عن استعفاءٍ ملائم وإما عن توان وجبن معتادين . بيد أننا لا نملك أن نحقق في الأمر فهماً ذهنياً للمشكل ولا أن نكوِّن موقفاً بإزائه ؛ أما التخلي اللاحق عن سوء الفهم العيانياتيّ فإنه سرعان ما يقود إليه ، وهذا يكمن كما تبيّن لنا في مفهوم حرفي عن اللغة الجنسية الخافيّة وفي تقريب بين الشخصيات الأحلامية والأشخاص الواقعيين . نحن بالطبع محمولون على الافتراض بأن العالم إنما هو كما نراه.ونحن نفترض بخفة مماثلة بأن البشر إنما هم كما نتصوّرهم ، وهذا في غياب أي فيزياء تدلنا على الطابع الوافي للتمثيل وللواقع . ومع كون إمكانية الغلط الفاحش أشد خطورة فيه منها في الإدراكات الحواسية فإننا لانني بلا أدنى تحرج وغالباً بطيش تام نخلع نفسانيتنا على الغير وبذلك يخلق كل منا جملة خيالية إلى حد ما من العلائق تقوم على إسقاطات من هذا الصنف ليس إلا . أما المعصوبون فتتواتر لديهم الحالات التي تكوِّن فيها إسقاطات خارقة الطرق الممكنة الوحيدة لعلائق إنسانية ؛ فإن فرداً أُدركه أساسياً بفضل إسقاطي إنما هو **إصويرى** imago[2] أو **حامل إصويرى أو رمز** وإن كل مضامين خافيتنا تُخلَع على الدوام على محيطنا ونحن لا نتمكّن من تفريق إسقاطاتنا أو **أصاويرنا** عن الصفات الحقيقية للأغراض إلا بمقدار ما نميز هذه الإسقاطات في خصائص معينة لهذه الأغراض . وعندما لا نكون على وعي بالأصل الإسقاطي لخاصية محددة مدرَكة في الغرض فلا حيلة لنا إلا الاعتقاد بلا فحص بالانتماء الحقيقي لهذه الخاصية المدهشة إلى الغرض . إن علاقاتنا الإنسانية جميعاً تحفل بمثل هذه الإسقاطات وكل من لا يستطيع أن يتمثل ما نعنيه بوضوح في فلكه الشخصي ما عليه إلا أن يتذكر علم نفس الصحافة لدى المحتربين وبذلك يرى المرء دوماً مع تعديل في النكهة أخطاءه غير المعترَف بها لدى الخصم ؛ وإن لفي المساجلات الشخصية أمثلة واضحة على ذلك فكل من لا يتحلّ

(١) Op. cit., vol. V, 1913, p.675.

(٢) راجع علم النفس المركب : «من الصورة إلى الإصويرى» ، ص ١٥٧ . (م)

Scanned with CamScanner

بدرجة نادرة من رباطة الجأش لن يحلّق فوق إسقاطاته . إن خلع المضامين الخافية مسلّمة طبيعية سوية ، وهذا يخلق لدى الفرد البدائي نسبياً هذا الاندماج المميِّز مع الغرض الذي أشار إليه ليفي - برول بمصطلح **المواحدة** identitéأو **المشاركة السرانية** participation mystiqueالموفق[1] . كذا فإن كل معاصر سوي ، لم يعِ نفسه بأكثر مما يفعل عادة ، مشدود إلى محيطه بمنظومة تامة من الإسقاطات الخافية. وإن طابع الإكراه الذي تتسم به هذه العلاقات أو مظهرها «السحري» أو «السراني - الإلزامي» يبقى خافياً ما دام كل شيء «على ما يرام» ، ولكن حالما يطرأ خبل زَوَري paranoïaque تظهر هذه التداخلات الخافية الإسقاطية المنشأ على هيئة عدد مساو من الأفكار الاستحواذية الزورية[2] وهي مزدانة بصورةعامة بالعُدَد الخافيّة التي كانت فيما سبق كما نلاحظ تؤلف إبان الحالة السوية فحوى هذه الإسقاطات . كذا فما دام الاندفاع الحيوي l'élan vital أو الليبيدو يستطيع استخدام هذه الإسقاطات كعبّارات سائغة ومفيدة تربط ما بين الفرد والعالم فإن هذه الإسقاطات تمثل تسهيلات إيجابية للحياة ولكن حالما يختار الليبيدو طريقاً أخرى ويبدأ بالانسحاب من الروابط الإسقاطية السابقة فإن الإسقاطات الموجودة تفعل عندئذٍ كعقبات يصعب تذليلها وتعرقل بنجاعة جهده في الانتقاص من قيمة الأغراض المعبودة فيما سبق والحط من شأنها كيما يتمكن من تحرير ليبيده منها . لكن بما أن المواحدة السابقة تقوم على خلع مضامين ذاتية فإن فصلاً تاماً وكاملاً لا يقع إلا إذا استرجع الفرد **الإصويرى** المحمولة على الغرض بكل مغزاها . وهذه العودة إلى واضع اليد تحدث عندما يعي هذا الأخير المضمون الخافيّ المخلوع أي عندما يقر على وعي منه بـ «القيمة الرمزية» للغرض المقصود .

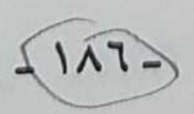
صعيد الموضوع وصعيد الذات

الإسقاطات التي جئنا على ذكرها لتونا كثيرة التواتر وهذا مؤكد بمقدار التنكر المقصود لطبيعتها الإسقاطية . ولا يدهشنا أمام هذه الوقائع أن نرى الحس

(١) Lévy-Bruhl, **Les fonctions mentales dans les societés inférieures**, Alcan, Paris, 1912.

راجع أيضاً أعلاه ص ١٢٢ . (رك)

(٢) الأزوَر باختصار هو المريض الذي إذ يحس خطأً أنه ملاحَق يمسي هو نفسه «ملاحِقاً» . (رك)



المشترك الساذج يفترض بكل حسن نية ومن أول وهلة أنه عندما يحلم المرء بالسيد س فإن صورة «السيد س» الأحلامية هذه متطابقة مع «السيد س» في الواقع . إن هذا الرأي المبتسَر المغرق في التبسيط لينسجم مع الغياب العام للروح النقدية ولا يُشاهَد فارق ثمة بين الغرض في ذاته والتصوّر المكوَّن عنه . أما الصورة الأحلامية منظوراً إليها بعين ناقدة بعض الشيء فما من أحد ينكر أنه ليس لها إلا صلة محض خارجية ورقيقة للغاية مع الغرض الذي تبدو مشيرة إليه ؛ فهذه الصورة في الواقع إنما هي مركَّب من العوامل النفسية؛ هو مركب تشكّل بالكلية - وإنْ بفضل تحريضات خارجية معينة - في صميم الفرد ويتألّف من جراء ذلك إجمالاً من العوامل الذاتية التي وإن كانت مميِّزة جداً للفرد فإنها لا تمت عادة بصلة إلى الغرض الواقعي المشار إليه . إننا نفهم الغير دوماً كما نفهم أنفسنا أو كما نسعى إلى فهم أنفسنا في الأقل ومالا نفهمه في أنفسنا لا نفهمه في الغير وبالعكس ؛ بذا ولأسباب نحار في اختيارها تكون صورة الغير التي نحملها في أنفسنا ذاتية للغاية . فحتى معرفة صميمية كما هو معلوم ليس لها أن تنطوي على تقدير للآخرين حق قدرهم .

ما إن يُجازَف كما فعلت المدرسة الفرويدية بالحكم على بعض المضامين الظاهرة للحلم بأنها «في غير محلها» وبأنها «رمزية» وبالإفتاء بأن الحلم وإن استحضر قبة جرس كنيسة فإنه يشير إلى القضيب نغدو قاب قوسين أو أدنى من القول بدورنا إن منطوق الحلم غالباً منطوق «جنسي» بدون أن يشير كل مرة إلى الجنس بالضرورة . ومثلما أن المدرسة الفرويدية لا تتورع صواباً عن القول إن الحلم يحدّث عن الله تعالى إشارة إلى الأب كذلك نقول إن الحلم كثيراً ما يحدّث عن الأب إشارة في الواقع إلى الحالم نفسه . إن أصاويرنا إنما هي أجزاء لا تتجزأ من نفسنا وحين يسترجع منامنا عرَضاً بعض التمثيلات فإن هذه التمثيلات تمثيلاتنا نحن التي أسهمت كليةُ كياننا في تكوينها ، وإنما هي عوامل ذاتية تتجمع في الحلم لا لمقاصد خارجية بل بحكم أدق حركات نفسنا على هذا النحو أو ذاك تعبيراً عن هذا المعنى أو ذاك . هذه النشأة ذاتية في جوهرها والحلم إنما هو ذلك المسرح الذي يكون الحالم فيه الخشبة والممثل والملقّن والمخرج والمؤلف والناقد جميعاً في آن معاً . وهذه الحقيقة البسيطة هي أساس هذا التصور عن المغزى الأحلامي الذي

Scanned with CamScanner

أشرت إليه بمصطلح **التفسير على صعيد الذات**[1] ؛ وهذا التفسير كما يشير اسمه يرى في كل هيئات الحلم ملامح مشخَّصة لشخصية الحالم وما كان هذا التصور إلا ليلاقي بعض المقاومات . ترتكز حجج بعضهم على المقدمات الساذجة للعقلية السوية السائدة التي ذكرناها لتونا بينما تنشأ حجج بعضهم الآخر عن القضية المبدئية المتمثلة بمعرفة أي الصعيدين أهم ، **صعيد الذات** أم **صعيد الموضوع** ؛ والحق أن الاحتمالية النظرية لـ «صعيد الذات» تبدو لي عصماء . أما المشكلة الثانية بالمقابل فهي أعسر بكثير من حيث إن صورة غرض ما فيّ معالجة ذاتياً ومطوَّعة موضوعياً في آن واحد ؛ إذاً فأنا عندما أسترجع الصورة فيّ تخضع هذه لتطويع مزدوج موضوعي بمقدار ما هو ذاتي ؛ وللبت لكل حالة على حدة في أي المظهرين أرجح ويجب الأخذ به بخاصة ـ فالأمر بالطبع ليس إلا أمر رجحان ـ ينبغي التحري عما إذا كانت الصورة يجب أن تُسترجع بناءً على مغزاها الذاتي أم بناءً على مغزاها الموضوعي . فعندما أحلم على سبيل المثال بشخص تربطني به في الواقع صلة وثيقة وحيوية فإن التفسير على صعيد الموضوع هو الأقرب بلا شك ، أما إذا حلمت بالمقابل وجدانياً بشخص بعدي عنه في الواقع بقدر عدم اكتراثي به فإن التفسير على صعيد الذات هو الذي يبدو الأكثر ملائمة . غير أن من الممكن ـ وهذه الحالة كثيرة التكرار في الممارسة ـ أن يذكرني الشخص غير المكترث بشخص آخر تشدني إليه صلات وجدانية قوية . ربما اعتُقد فيما مضى أن الشخص غير المكترث قد حل محل الآخر بغية إقصاء الحرج المتعلّق به ؛ في هذه الحالة أوصي باتباع صراط الطبيعة بحكمة والقول إن التذكر البيّن الوجدان قد نزل عن مكانه في الحلم للسيد س هذا غير المكترث ، الأمر الذي يوحي بتفسير المنام على صعيد الذات . إن التبديل بالفعل عمل من أعمال الحلم يكافيء في الواقع كبت التذكّر المستكره ولكن إذا ما أذعن هذا التذكر للتنحّي بهذه السهولة فلأنه لا يتصف بأهمية بالغة وإن تبديله ليريني بأن هذا الوجدان موجود فيّ بمعزل عن الغرض الذي كان يتم بالنسبة إليه وأنه يمكن بهذه المثابة أن يُجَّرد من صفته الشخصية . بوسعي إذاً أن أقف على هامش وجداني وبذلك أذلله . ولحسن الحظ فإن بخس التجريد من الذاتية الطارىء على الحلم قيمتَه بنعته بمجرّد الكبت لهو من قبيل

(١) راجع أيضاً كتاب **النفس الخافية** ، بترجمة سامي عَلام ، دار الغربال ، ١٩٩٢ .

Scanned with CamScanner

الوقوع ثانية في التداخل الوجداني الشخصي . فإن من النباهة أكثر التخمين بأن إحلال الشخص غير المكترث محل الشخص المقيت لهو مكافىء لتجريد الوجدان من صفته الشخصية وبذلك تصبح القيمة الوجدانية أي الشحنة الليبيدية المقابلة لا شخصية وبعبارة أخرى فإنها تتحرر من الصلة الشخصية التي كانت تثبّتها على غرضها الأمر الذي يجيز لي من الآن فصاعداً ترقية النزاع الواقع السابق إلى صعيد الذات والسعي إلى الفهم بأي مقدار هو ليس عبارة عن نزاع ذاتي يتعلق بي وحدي . فلنذكر على سبيل المزيد من الإيضاح مثالاً وجيزاً :

دخلت فيما مضى مع فلان السيد أ في نزاع شخصي ومضنٍ ظننت في أثنائه أكثر فأكثر أن الإساءات الرئيسية كانت من جانبه وقد حلمت أيامئذٍ بما يلي :

استشرت محامياً بشأن قضية معينة وقد أدهشني أنه لم يطالب بأقل من خمسة آلاف فرنك على المشورة الأمر الذي أثار من جانبي احتجاجات حازمة .

إنما المحامي تذكُّرُ عديم اللون لا رونق له لحياتي كطالب اتسمت سنونه قسراً بالخصومات والخلافات . وتذكرني فظاظة المحامي تذكيراً نزقاً بشخصية أ وبالنزاع الجاري . إن بوسعي أنا أبقى على صعيد الغرض وأقول : وراء المحامي يتربّص السيد أ بي إذن فالسيد أ هو الذي يسعى إلى استغلالي وهو على خطأ ؛ ولقد كان طالب بلا موارد رجاني حوالى تلك الفترة أن أقرضه خمسة آلاف فرنك وبذلك تشبّه السيد أ بطالب مسكين معوز وعلاوة على ذلك غير كفؤ باعتباره مبتدئاً في الدراسات ؛ فبأي وجه حق يستأثر فرد كهذا بمزاعم ويدلي بآراء؟ هاك ما يلبي رغباتي : يتم التخلص من خصمي وقد غُض من شأنه «بلطف» وتصان طمأنينتي ، إلا أن نهاية هذا الحلم في الواقع على غير ما كان متوقعاً انتزعتني من النوم واستيقظتُ وقد تولاني غضب عنيف بشأن مزاعم المحامي التعسفية وبذلك لم يفلح تحقق رغبتي في تهدئتي إلا قليلاً .

هيا ننتقل الآن إلى صعيد الذات ؛ عندئذٍ أقول : وراء المحامي تكمن قطعاً كل هذه القضية المقيتة أ . لكن من الجدير بالملاحظة أن ينبري حلمي لإطلالة رجل القانون الشاحبة هذه التي لمحتها إبان حياتي الطلابية ويدعيها . وإني لأربط إلى المحامي خصومات قضائية ومماحكات وإصراراً بكوني على حق ، على حق دائماً ـ

وهذا يستحضر ذكريات من حياتي كطالب التي كنت في أثنائها في عنادي وتشبثي برأيي أذود عن أطروحتي بحق وبغير حق محاججاً بمظهر حق لأفوز في الأقل بما يشبه التفوق ، وهذا كله ما كان على حد شعوري الواضح إلا ليلعب دوراً محدداً في خلافي مع السيد أ .

بذا فإني أنا ، أي عنصراً من أنيّتي غير منسجم بعد مع واقعي الحاضر ، المحجاج كما كان آنذاك ، يسعى إلى السيطرة عليّ واستغلالي لمصلحته والاستئثار كما لو ابتزازاً بشحنة غير مشروعة من الليبيدو . وإذا دامت الخصومة مع السيد «أ» فلأن أنيتي المحجاجة تمتنع عن مغادرة الحلبة قبل حصولها على «تعويض عادل» ذلك أن صعيد الذات قد حوّلنا باتجاه تصوّر حافل بالمعنى بينما ظل التفسير على صعيد الموضوع عقيماً إذ أني لا أحفل كثيراً بالبرهان الوهمي على أن أحلامنا تحقق رغباتنا .

مهما كان التفسير على الصعيد الذاتي منيراً في حالة مشابهة فقد يكون غير ذي قيمة تماماً بالمقدار نفسه في نزاع مختلف معنيّ بعلاقة حيوية الأهمية ؛ وفي هاتيك الحالات ينبغي بالبداهة إحالة الشخصية الأحلامية إلى الشخص أو الغرض الواقعي . إن المعايير الواجب تطبيقها تنبثق في كل حالة على حدة من المعطيات الواعية باستثناء الحالة التي يتدخل فيها تحويل ما . **التحويل**(١) يعيّن بسهولة كبيرة أغلاط المحاكمة التي تجعل الطبيب من حين لآخر يظهر وكأنه **دِخليل**(٢) لا خلاص بدونه ثمة ولا واقع ؛ وهاكم ما يكون الطبيب لمريضه . على الطبيب في هذه الحالات أن يقرر بملء الضمير والاستقلال بأي مقدار يمثل حقاً مشكلة حقيقية بالنسبة لمعاوده ؛ فحالما يمسي صعيد الموضوع رتيباً وغير مثمر من حيث التفسير يكون الأوان قد آن لكي يُرى في شخص الطبيب رمز المضامين الخافيّة والمخلوعة للمعاود ، فإذا لم ينبر المحلِّل لهذا العمل تعرّض لعاقبة مزدوجة : فإما أن ينتقص من شأن التحويل وبذلك يدمره بردّه إلى أمانٍ طفلية وإما على العكس أن يأخذ التحويل على محمل حرفي ويبذل نفسه من أجل متطلباته (على الرغم من المقاوَمات

(١) انظر : C.G. Jung: **La guérison psychologique, op. cit., & Psychologie du transfert.**

(٢) باللاتينية في النص : deus ex machina - ومعنيا العبارة حرفياً «إله [أُنزل] بواسطة آلة» وتشير مجازاً إلى شخص أو حدث يتدخل في الوقت المناسب لحل موقف مستعصٍ . (م)

Scanned with CamScanner

الخافيّة المتكررة للمريض) . وهذه العاقبة الثانية لا بد أن تتسبب في أضرار خطيرة على الشريكين ويكون الطبيب عموماً أخطرهما إصابة . أما إذا تُوصِّل على العكس إلى تصور شخصية الطبيب من أجل التفسير بوصفه عنصراً من عناصر المعادلة الشخصية للمريض وإذا تُوصِّل إلى رفعه إلى صعيد الذات أمكن لكافة المضامين الذاتية المُسقَطة إبان التحويل أن ترتد إلى المريض بقيمتها الأصلية بينما كان مصيرها المحتوم على صعيد الموضوع هو الحط منها .

لا ريب أن القارىء غير المتخصص قط في التحليل لن يُسرف في الإعجاب بهذه الاستطرادات على صعيدي الذات والموضوع ، إنما كلما تعمق المرء في المسائل التي يثيرها الحلم نقصت إمكانية استبعاد وجهتي النظر الفنّيتين للممارسة وللمعالجة ؛ فإن التقدم في هذا المضمار قد تطلب القَسْر المبرِّح الذي لا مناص منه المنبعث دوماً عند الطبيب من حالة عسيرة والذي يحمله بلا انقطاع على التفكير في إتقان وسائل عمله كيما يستطيع أن يمد في هذه الحالات عينها أيضاً يَدَ عَوْن مُسعِفة ؛ وإنما نحن ندين لمصاعب معالجة مرضانا اليومية بإرغامنا على تصوراتٍ تزعزع ذهنيّتنا المألوفة حتى الأسس ، فأي حقيقة متحصِّلة هي الكلام عن ذاتية **إصويرى** ! ومع ذلك فإن لهذه المعاينة شيئاً فلسفياً ما سيء الوقع على آذان بعض التجريبيين ، وهذا ينتج كما بينّا أعلاه عن الانتظار النزق الذي يواجِد على نحو ميئوس منه بين **الإصويرى** وغرضها . وإن لكل قلقلة تقع على افتراضٍ بمثل هذه المباشرة مَلَكَةَ الاستثارة.وللسبب نفسه لا تستميل فكرة «صعيد الذات» إلا القليل من العطف من حيث إنها تبلبل أيضاً المصادرة الساذجة للمواحدة بين مضامين الواعية والأغراض المقابلة لها . إن واحداً من مظاهر ذهنيتنا كما تبيّن الأحداث في زمن الحرب بياناً بليغاًيفصح عن نفسه في الآراء المتسمة بطابع السذاجة المفرطة التي نبديها في الخصم والتي إذ تصدر عنا تقصّ وتفضح بضرب من الانقلاب مقدار غفلتنا نحن ؛ وإن المرء ليثقل في الواقع خصمه ببساطة بكل التقصيرات التي لا يجرؤ على الاعتراف بها لنفسه ، فالخشبة دوماً في عين القريب[1] والقريب هو الذي يُنتقد دوماً

(١) إشارة إلى ما جاء في انجيل متى ٧ :١-٥ : «لماذا تنظر إلى القذى الذي في عين أخيك؟ والخشبة التي في عينك افلا تأبه لها؟» ويقابل ذلك قول الشاعر :

ومصروفة عيناه عن عيب نفسه ... ولو بان عيب من اخيه لابصرا
ولو كان ذا الإنسان ينصف نفسه ... لأمسك عن عيب الصديق وقصّرا (م)

Scanned with CamScanner

ويُدان وهو دوماً الذي يُتطلع إلى تهذيبه وإصلاحه ؛ ولا حاجة لنا هنا إلى تقديم أمثلة فالصحف تعج بها يومياًومن المسلم به أن ما يجري فيها بالجملة ليوقع عليه مصغراً في كل إنسان . إن ذهنيتنا ما تزال من البدائية بحيث أنها لم تتحرر إلا في بضع وظائف نادرة وفي بضعة مجالات محصورة تماماً من المواحدة الأصلية مع الغرض ؛ فالبدائي يقرن إلى حد أدنى من وعي الذات حداً أقصى من التداخل مع الغرض كفيل بأن يمارس عليه سحره الجبري ، وإن سحر البدائي كله ودينه كله يقومان على هذه المؤثرات والتداخلات السحرية التي تنبعث من الغرض والتي يجب عدم البحث عن أصلها إلا في إسقاطات مضامين خافيّة على الغرض . لقد كاد وعي الذات إبّان آلاف السنين أن يتفلت من حالة من التماثل الأصلي وقد تقدم متوازياً مع تمايز مطّرد أبداً بين الذات والموضوع ، وهذا التمايز أوحى بأن بعض الخواص التي نُسبت في الماضي خطأً إلى الغرض تتعلق في الواقع بالذات . وكان الرومان قد كفّوا عن الاعتقاد بأنهم كانوا ببغاوات حُمر أو بأنهم كانوا ينتمون إلى صنم التمساح totem ، لكنهم واصلوا الاعتقاد بالقوة السحرية للكلمة . ولقد تطلب الأمر من هذه الجهة الانتظار حتى القرن الثامن عشر ، «قرن الأنوار» ، حتى تُتخذ الخطوة الحاسمة على أن ما من أحد يجهل أننا ما نزال جد بعيدين عن سيادة على أنفسنا مقابلة لعلمنا الحالي . فحين يضيّق علينا الغضب بصدد ترّهة حتى الاحتداد يحسن بنا أن ندرك بأن سبب هياجنا لم يكن كامناً بالكلية في الشيء المزعج كذا أو في الفرد الذي لا يطاق فلان وبناء عليه فإننا نعزو إلى هذه الأمور القدرة على جعلنا نستشيط غضباً لا بل على ابتلائنا بالأرق وثقل المعدة ؛ فنحن إذن نرغي ونزبد بلا تحرج ولا تحفظ ضد حجر العثرة المقيت هذا شائنين بذلك جزءاً خافياً من أنفسنا لا يلبث أن يُخلع على العنصر المقلِق ؛ فإن غضبنا لم يستطع أن يتحقق إلا بمقتضى هذا الخلع .

إسقاطات

ثمة جحافل من هذه الإسقاطات بعضها مؤات ييسّر عبور الليبيدو كالجسر بين ضفتين ، وبعضها الآخر غير مؤات وإن لم يصل الأمر به إلى تشكيل عقبات لأن الإسقاطات المشينة تتوضع عموماً خارج نطاق العلاقات الوثيقة . غير أن المعصوب

Scanned with CamScanner

يُستثنى من ذلك فهو يقيم مع محيطه من حيث يدري أو من حيث لا يدري علاقات هي من الشدة بحيث لا يتمكن من الحؤول بين الإسقاطات المشؤومة وبين العشعشة هي الأخرى في أقرب الأغراض حيث لا مناص من أن تُحْدِث نزاعات . وهذا يرغمه على التنبّه إلى إسقاطاته البدائية بحدة أشد بكثير مما يستطيعه الإنسان السوي . فلئن صح أن هذا الأخير يعنى بالإسقاطات عينها إلا أنها عنده أحسن تقسيطاً من حيث إن غرض الإسقاطات المؤاتية قريب بينما يتوضع غرض الإسقاطات المشينة على مسافة أبعد ؛ وكذلك الأمر عند البدائي كما هو معلوم ، فالغريب عنده مرادف للعدو والشرير . وعندنا كان مصطلحا «الغريب» Fremde و«البؤس» Elend مترادفين حتى نهاية العصر الوسيط . وهذا التوضع أو هذا التقسيط يوفق بين المفيد والمستحب ، لذا فإن الفرد السوي لا يكابد أية حاجة لجعل إسقاطاته واعية ولو أن هذه الحالة المصنوعة من الأوهام ليست خلواً من المخاطر . ولقد أفصحت نفسانية الحرب عن كل هذه السمات إفصاحاً قوياً : فكل ما تفعله أمتنا تفعله خيراً وكل ما تفعله الأمم الأخرى تفعله شراً ، وإن بؤرة كل الفظائع لتوجد دوماً على بعد عدة كيلو مترات خلف الخطوط المعادية . وهذه النفسانية البدائية هي أيضاً نفسانية كل امرىء في قرارة نفسه لذا فإن كل محاولة منه ليرفع إلى الواعية إسقاطاته الخافيّة أزلاً لتصطدم بكره كدود . فمن المؤكد أننا نسعد بتحسين علاقاتنا مع أمثالنا إنما طبعاً شريطة أن يلبوا رغباتنا أي أن يتصرفوا بوصفهم حملة إسقاطاتنا (الودعاء)، غير أن هذه الإسقاطات إذا جُعلت واعية فإن صعوبات جديدة قد تنشأ معرقلة العلاقات مع بقية البشر ؛ وإن هذا يعني تدمير عبّارة الأوهام هذه التي كانت تنطلق عبرها أمواج حبنا وبغضنا ، تدمير جسر الأكاذيب هذا الذي كان يخلق بهذه السهولة منافذ لخصالنا المريعة في «إصلاح» و«ترقية» الآخرين ، وهذه الصعوبات العلائقية المتنامية تحدّد بدورها في دخيلة الفاعل المنطوي على نفسه تراكماً ليبيدياً يقوم بأود السلوك نحو وعي إسقاطات سلبية جديدة ، وبذلك يجد الفاعل نفسه من الآن فصاعداً قرب مكان عمله أمام مهمة شاقة : أفلا يجب على المرء أن ينال نصيبه من كل الدناءات وكل المكائد التي لم يتورع عن رمي الآخرين بها واستنكرها طوال حياته؟ إن لفي هذا المسلك ما يثير سخط المرء إذ يدرك بل يستوثق أنه لو كان البشر جميعاً يكبون على فحص الضمير هذا لأتيح للحياة أن تصبح محتملة أكثر بقليل الأمر الذي لا يحول

Expectations?

Scanned with CamScanner

مع ذلك دون كرهه الشديد للخضوع له بنفسه . فأي فرج لو قام الآخرون به ! أما أن ينهض به شخصياً فالفكرة وحدها لا تطاق ! **بيدَ أن المعصوب يهمزه عصابه مجبر على القيام بهذا التقدم وليس الأمر كذلك عند الإنسان السوي الذي تتعيّن اضطراباته النفسية بالمقابل على نحو حي على الصعيد الاجتماعي أو السياسي على هيئة تجليات نفسانية جماعية كالحرب على سبيل المثال** . أي فرج أكيد للواعية هو الوجود الواقعي لعدو يمسي كبش فداء مرهق بكل الخطايا المميتة ! أي ارتياح في التشهير العلني بمثير الفتن ؛ وإن لبالوسع من الآن فصاعداً إعلان المسؤول جهراً الأمر الذي يشدد على الأصل الخارجي للنكبة ويضع الموقف الشخصي بمنجى من كل ارتياب . فحالما يتصوّر المرء بوضوح العواقب الشخصية المضنية لمفهوم صعيد الذات فإن اعتراضاً يفرض نفسه على الذهن فرضاً : أمن الممكن أن نقع على كل هذه السمات المكدِّرة المستهجنة عند الآخرين فينا وأن تكون وقفاً علينا؟ لو كان الأمر كذلك لكان الوعّاظ الأخلاقيون الكبار والمربون البصيرون والمحسنون للبشرية أشد المغبونين من نحو المسيح المصلوب بين اللصين إذا جاز القول ! وإن ثمة الكثير مما يُقال في الاشتراك بالفاصل بين الخير والشر وبصورة أعم في الروابط الوثيقة التي تشد في زوجين نزعتين متناقضتين واحدتهما إلى الأخرى وتجعل «الأطراف تتعانق» ؛ بيد أن هذا ينأى بنا كثيراً عن موضوعنا[1] .

على أنه يجب بالطبع عدم الغلوّ في التفسير على صعيد الذات إذ أن الأمر في ذلك كله ليس إلا تقدير الانتماءات على نحو أكثر نقداً وصرامة ؛ فما يُذهل في مرأى شخص أو شيء قد يكون خصلة حقيقية خاصة بالشخص أو ملازمة للشيء ، ولكن كلما كان الانطباع ذاتياً كان الأرجح أن الخصلة المدرَكة صادرة عن إسقاط ما . على أنه يجب السهر على فصل الخصلة الحقيقية الملازمة للغرض الذي يكون الإسقاط المحمَّل به بدونها بعيد الاحتمال للغاية عن المغزى الخاص بالبؤرة الليبيدية المنتقاة لهذه الخصلة ، ولا جرم أن الاتفاق لخصلة نفسانية أن تُخلَع على غرض لا يحتوي على أدنى أثر لها أمر ليس بمستبعد (كخلع خواص سحرية على

(١) انظر : ردّ على أيوب ، نقله إلى العربية السيد نهاد خياطة بعنوان **الإله اليهودي** وصدر عن دار الحوار ، اللاذقية ، ١٩٨٦ .

Scanned with CamScanner

جمادات على سبيل المثال) . لكن الأمر ليس كذلك فيما يتعلق بسمات الطبع وكيفيات السلوك شائعة الخلع . ففي هذه الحالات تتكرر رؤية الغرض يُكوِّن بوشيجة ما فرصة ممتازة للخلع الذي يكاد يتحرض بها على الفور.وهذا ما يجري بصورة خاصة عندما يتفق لخصلة نفسية أن تُخلَع على شخص سبق اتصافه بها خلعاً خافياً بما هي حالة تمتلك فيها فعالية نوعية جذّابة لخافية امرىء متشوّق إلى الإسقاط ، فإن كل خلع يحدد خلعاً مضاداً contre-projection كلما تملصت الخصلة التي خلعها الفاعل من الاستقصاء ومن واعية الشخص ـ المفعول به الذي يكون محل الخلع وبذلك يستجيب المحلِّل للتحويل بتحويل مضاد contre-transfert عندما يحيطه التحويل الأصلي بهالة من الخصائص التي وإن لم يكن واعياً لها ـ على كونه طبيباً ـ ليست مع ذلك أقل تأصّلاً . إن للتحويل المضاد مغزى لا يقل تعيّناً عن تحويل المريض فهو ينحو إلى توطيد روابط وثيقة لا غنى عنها لتحقق بعض المضامين الخافية . لكن للتحويل المضاد شأنه شأن التحويل شيئاً ما مكرِهاً أو مستحوذاً فهو إخضاع نابع من المواحدة «السرانية» أي الخافيّة مع الغرض . إن صلات خافية هذه طبيعتها تحرض دومأنفوراً ومقاومة واعيين إذا أصر المرء في مسلكه الوجودي ألا يتصرف بليبيده إلا بحرية وامتنع عن تركه يُبتز منه بالاحتيال أو بالضغط عليه ؛ أو على العكس خافيين إذا حلا للمرء الأميل إلى السلبية تركه يُسلب منه . لذا فإن التحويل وضده يخلقان علاقات غير سوية ومزعزعة تنحو إلى دمارها الذاتي .



وقد يحدث ألا يبدي الغرض محل الخلع إلا جزءاً ضئيلاً من الخصلة المخلوعة وعندئذ يكون مغزى الخلع ذاتياً محضاً ويعود برمته إلى المرء الذي يمنح حكمه فارقاً ضئيلاً في الغرض قيمة لا تقاس.

ولكن حتى عندما يتسق الخلع مع خصلة ملازمة للغرض حقاً فإن المضمون المخلوع يبقى مع ذلك موجوداً في ا لذات حيث يشكل جزءاً من **إصويرى**الغرض . و**إصويرى** الغرض هذه مقدار نفساني ينبغي عدم الخلط بينه وبين الإدراك الحواسي للغرض وهي عبارة عن صورة موجودة على هامش كل الإدراكات على كونها تتقوّت بها . وإن حيويتها المستقلة المتميزة باستقلالية نسبية لتبقى خافية ما دامت تتطابق بالضبط مع حياة الغرض الخاصة . لذا فإن حيوية **الإصويرى** واستقلالها

Scanned with CamScanner

يتملصان من الواعية التي تخلعهما على الغرض من حيث لا تدري أي تخلط بينهما وبين استقلال الغرض . بيد أن المرء يحبو الغرض طبيعياً بفائض قيمة مبالغ فيه وبوجودية ساحقة يقومان على خلع **الإصويرى**على الغرض لا بل على تواحدهما المصادَر عليه بَدَرياً ؛ وعلى هذا النحو يغدو الغرض الخارجي متوطداً في الحياة الداخلية مشاركاً فيها,وبذلك يستطيع غرض خارجي بطريقة خافيّة أن يؤدي فعلاً نفسياً فورياً على الفاعل من حيث إن تواحد هذا الغرض مع **الإصويرى** قد أدرجه على نحو ما في صميم أجهزة البنية النفسية للفاعل. ومن هنا مصدر القدرة «السحرية» التي يستطيع غرض ما أن يمتلكها بالنسبة إلى أفراد . وإن البدائيين ليأتوننا بأمثلة صارخة على ذلك ، فهم على سبيل المثال يعاملون أولادهم أو كل الأشياء التي يعزون إليها نفساً كما يعاملون نفسهم فلا يجرؤون على القيام بشيء حيالها خشية انتهاك النفس التي تسكن الولد أو الشيء ، وذلكم هو السبب الذي يحتم على الأولاد أن يظلوا حتى البلوغ خشنين بقدر الإمكان .

إصويرى الغرض

قلت أعلاه إن وجود **الإصويرى** الذاتي حيةً ومستقلة لا يُفطن إليه ويبقى خافيّاً لأنه يتفق لها أن تُواحَد بالغرض وتُدرج في ما نظن أنه حيويتها الخاصة . على أن الأمر لو كان كذلك حقاً لاستوجب موتُ الغرض انفلات آثار نفسانية عجيبة من حيث إن الغرض عند موته لا يضمحل جذرياً بل يواصل حياة غير مادية . أفلا نعلم أن الأمر كذلك فعلاً ؟ فـ **الإصويرى** الخافية وقد تخففت من الغرض الذي يشكل موازناً لها تحضر بوصفها روح الفقيد ممارسة مذئذٍ على المرء تأثيرات «فائقة للطبيعة» تحمله تماماًعلى تصوّرها بوصفها ظواهر نفسية ؛ فإسقاطات الفاعل الخافيّة قد بثّت في **إصويرى** الغرض بعض قيمه[1] الخافية وأسهمت في المواحدة بين **الإصويرى** والغرض حتى أن الإسقاطات تنجو ساعة الاضمحلال الفعلي للغرض . وهذه الظواهر تلعب دوراً فائق الأهمية في حياة الشعوب البدائية وحياة الشعوب المتحضرة قديمها وحديثها وهي تقدم برهاناً ساطعاً على الوجود المسْتقِل

(١) الهاء عائدة إلى الفاعل . (م)

نسبياً **لأصاوير** في الخافية . ولئن كانت تقيم في الخافية فذلك يعود بالتأكيد إلى كونها لم تُميِّز قط عن الأغراض .

ما ثم تقدمُ وما ثم اكتمالٌ للتصورات الإنسانية لا يتضامنان مع تقدم للوعي الفردي : فالإنسان قد فطن إلى نفسه على هامش الأشياء وفرض نفسه بالنشاط في وجه الطبيعة ؛ فعلى الفكر النفساني في توجهه الجديد أن يسلك برباطة جأش الطريق عينها فإنه يظهر للعيان أن تواحد الغرض و**الإصويرى**الذاتية يضفي على الغرض أهمية لا تعود إليه بالكلية على كونه قد اختص بها أزلاً ذلك أن المواحدة واقع أصلي بإطلاق . وهي على كون مساوئها الجسيمة تقضي عليها بالزوال فإنها تبقى للمرء حالة" بدائية ؛ وإن تضخم القيمة الغرضية لتمثل على وجه الدقة واحدة من الظروف التي من شأنها بصفة خاصة أن تعرقل تفتح المرء . إن الانبهار بغرض ما ذي سطوة شبه «سحرية» ليوجه الوعي الذاتي بقوة باتجاه هذا الغرض ويعترض كل محاولة للتمايز الفردي الذي ينبغي على حدّه الأول أن يكمن طبعاً في مواجهة بين **الإصويرى** والغرض . فكيف للمسار العام للتمايز الفردي أن يصان ما دامت عوامل برانية تتدخل على نحو متعسف و«سحري» في التدبير النفسي الذاتي ؟ إن تراجع **الأصاوير** التي تضفي على الأغراض ما هو مفرط في مغزاها يرد إلى المرء شحنة الطاقة المفصومة التي هو بأمس الحاجة إليها من أجل تفتحه .

إن مثل اقتراح فهم **الأصاوير** الأحلامية على الإنسان الحديث على صعيد الذات مع مراعاة الفارق كمثل محاولة الشرح لبدائي مع رمي أصنامه ورموزه الأسلافية في النار بأن «القدرات الشافية» إنما هي روحية الجوهر وبأنها لا تقيم في الأشياء المدفوع بها إلى ألسنة النار بل تهجع في النفس البشرية . فالبدائي يشعر بمقت مشروع تجاه تصور بهذا المبلغ من الزندقة ، ومثله يكابد الإنسان الحديث رجّة من الغم والخشية غير المعترف بها كلما فكر في حسم غير مترو للتواحد المقدَّس منذ الأزل بين **الإصويرى** والغرض . ولا مناص من الاعتراف بأن لطلاق كهذا عواقب لا حصر لها على نفسانيتنا : لن يبقى أحد يُتَّهم أو يُحمل مسؤولية أو يُردّ إلى الصراط المستقيم أو يُصلَح أو يقاصَص ! بل ينبغي على العكس الابتداء بالنفس والتطلب من النفس ومن النفس وحدها ما يُطلب من الآخرين ! وهذه البلبلات تنطق ببلاغة عن سبب كون التصوّر على صعيد الذات **لأصاوير** الحلم ليس من

الأبعاد الفلسفية والدينية

إلى جانب المصاعب الأخلاقية الطابع هنالك مصاعب أخرى ذات طبيعة فكرية ولقد سبق أن وُجِّه إليَّ الاعتراض بأن تصور صعيد الذات هذا يمثل مسألة فلسفية سرعان ما يقود تطبيق مبدئه إلى تخوم التصورات عن العالم حيث لا يعود له بحكم ذلك أن ينتسب إلى العلم بعدئذٍ . وإني لا أجد في تجاور علم النفس والفلسفة ما يستوجب العجب من حيث إن فعل التفكير بما هو أسّ كل فلسفة إنما هو نشاط نفسي يتعلق بما هو كذلك بعلم النفس مباشرة . أفلا يجب على علم النفس أن يلمّ بالنفس بأبعادها كافة بما يشتمل على الفلسفة واللاهوت وأمور أخرى شتى أيضاً ؟ ففي مواجهة كل الفلسفات ذات البرقشات اللا نهائية وكل الأديان الغنية التنوع تنتصب المعطيات الدائمة للنفس البشرية قاضياً أعلى إما بالحق وإمّا بالباطل .

إن نفسانيتنا التي تنشغل أول ما تنشغل بالضرورات العملية قلما تستقبح بعض القضايا التي تطرحها وهي تصطدم هنا وهناك بأحكام مسبقة وطيدة . فإذا كانت مسألة التصورات عن العالم قضية نفسانية يتعين علينا أن نعرض لها سواء تعلقت الفلسفة بعلم النفس أم لم تتعلق . وعلى نحو مشابه فإن مسائل الأديان في نظرنا عبارة أولاً عن استفهام نفساني الطابع. بيد أن علم النفس الطبي المعاصر بعامة يتنحّى باحتراس عن هذه المجالات ، لكنَّ في هذا قصور يؤسف له يدين نفسه بنفسه بحكم أن الأعصبة المولِّدة للذهان كثيراً ما تقع في أي مكان آخر على إمكانات علاجية متفوقة على الإمكانات التي في حوزة الطب التقليدي .

تشكل التصورات التي لا ترى في المنامات إلا إشباعاً لأمانٍ طفلية أو ترتيبات ماكرة مرصودة أخيراً لإرضاء إرادة للسيطرة طفلية على حد سواء إطاراً أضيق من أن يلم بجبلّة المنام ، فهذا الأخير شأنه شأن كل زردة من الشبكة النفسية يتبدّى بوصفه محصلة للمنظومة النفسية برمّتها . لذا فإن علينا أن نكون على أهبة الاستعداد لنقابل في الحلم العوامل العديدة التي لعبت منذ قديم ا لزمان دوراً في

Scanned with CamScanner

حياة البشرية ؛ فالحياة البشرية في جوهرها لا تذعن للإرجاع ولا للاختزال إلى هذه النزعة الأساسية أو تلك بل على العكس تماماً تشيد نفسها ابتداءً من حشد من الغرائز والحاجات والضرورات والتطويعات الجسمية منها والنفسية ، كذا فإن الحلم على غرار ذلك يتملص من كل وحدانية . ومهما كان مبلغ الفتنة في بساطة تعليل كهذا فلنا أن نتأكد من ضلاله لأنه لا سبيل إلى المقارنة بين نظرية بسيطة في الغرائز وبين النفس البشرية التي لا يعدل سرها إلا حَوْلُها . وهذا ينسحب على الحلم سواء بسواء بما هو تعبير عن النفس . فإذا أردنا أن ننصفه بعض الشيء تعين علينا الاستعانة بأدوات لن تمدنا بها إلا استقصاءات شاقة لمختلف قطاعات علوم الروح والحضارات ؛ وليست بعض جسارات مركز حراسة ولا الدليل على كبوت معينة بالتي ستحل قضية الحلم . لقد أُخذ على أعمالي ما كان لمنزعها أن يتصف به من «فلسفة» (لا بل من «لاهوت») تلميحاً بأني «استخدمت» الجانب الفلسفي وسلطانه التعليلي مثلما استخدم خصومي بعض وقائع العلوم الطبيعية ؛ بيد أني لا أستفيد من الفلسفة والتاريخ وتاريخ الأديان والعلوم الطبيعية إلا لتمثيل التسلسلات والظواهرية النفسية فإذا اتفق لي أن أستعمل مفهوماً عن الله أو مفهوماً عن الطاقة لا يقل عنه غيبية فلأني مجبر على ذلك لا محالة من حيث إنهما يعدان سابق وجودهما في النفس منذ البدء الأول وإني لا أني أكرر بأنه لا الناموس الأخلاقي ولا فكرة الله ولا أي دين قد استولى على الإنسان من الخارج هابطاً على نحو ما من السماء ؛ **فالإنسان على العكس يحمل كل ذلك فيه منذ الأصل** ولذلك فإنه إذ يستخلصه من نفسه يخلقه دوماً من جديد . إنها إذن فكرة لا نفع فيها بالتمام أن يُظن بأنه يكفي مقاتلة الجهالة لتبديد هذه الأشباح ؛ فإن فكرة ناموس أخلاقي وفكرة الله هما في عداد الجوهر الأولاني والممتنع للنفس البشرية لذا يجب على كل نفسانية مخلصة لا تعميها عنجهية فكر متسلط أن تقبل مناقشتهما ؛ فلا السخرية اللاذعة ولا التعليلات الباطلة بقادرة على تبديدهما . إننا نستطيع في الفيزياء أن نستغني عن مفهوم عن الله أما في علم النفس فإن مفهوم الألوهة مقدار ثابت يجب أخذه بالحسبان مثلما تؤخذ «الوجدانات» و«الغرائز» و«مفهوم الأم» ، الخ وإن الالتباس الأصلي لـ **الإصويرى** بغرضها ليكتم كل تمايز بين «الله» و«إصويرى الله» ولذلك فإنك تُرمى باللاهوت ويُفهم منك الله كلما تكلمت عن «مفهوم الله» ؛ فعلم النفس بما هو علم ليس له أن يتعهد أقنوم **الإصويرى** الإلهية إنما عليه

Scanned with CamScanner

ببساطة طبقاً للوقائع أن يأخذ الوظيفة الدينية أو صورة الله بالحسبان . وعلم النفس على نحو مقايس يعمل بمفهوم الغريزة بدون أن يدّعي لذلك كفاءة التفتيش عما هي الغريزة في ذاتها أو حتى إذا كانت شيئاً في ذاته ، الخ ، والكل يعلم إلى أي وقائع نفسانية يشير مصطلح الغريزة مهما كانت طبيعته العميقة غير متعيّنة ومبهمة ؛ كذلك فمن الواضح أن مفهوم الله على سبيل المثال يتوافق ومركّب محدد من الوقائع النفسانية وأنه يمثل بذلك كمونية معطاة ينبغي أخذها بالحسبان . على أن سؤالاً يبقى مع ذلك أبعد من متناول أي علم نفس ألا وهو معرفة ماهية الله في ذاته . وإني آسف لاضطراري إلى تكرار بديهيات كهذه .

خاتمة

لقد قمت فيما تقدم بصوغ زبدة ما كنت أود قوله فيما يتعلق باعتبارات عامة حول النفسانية الأحلامية وغضضت النظر متعمداً عن التفاصيل التي يجب أن تُترك لـ **الذمامة** إضافة إلى أن مناقشة هذه العموميات قد أدنتنا من قضايا واسعة لا مناص من ذكرها كلما بُحثت الأحلام . وهنالك بالطبع الكثير أيضاً مما يقال في أهداف التحليل الأحلامي ؛ ولكنه لما كان هو أداة المعالجة التحليلية تعذّر القيام بذلك على نحو مجدٍ إلا بالتلازم مع وصف إجمالي للمعالجة التامة . على أن وصفاً مفصلاً للمعالجة وطبيعتها ليقتضي أيضاً أعمالاً تمهيدية محددة من شأنها أن توضح بعض الجوانب الخاصة للقضية فإن مسألة المعالجة التحليلية معقدة للغاية رغماً عن المؤلفين الذين إذ يبزون أنفسهم تبسيطاً يبدون وكأنهم يريدون الإقناع بأن ما من شيء أيسر من اجتثاث «جذور» الشر المعروفة ؛ فحذار من كل استخفاف جانٍ ! ولكم كنت أود أن أرى المناقشة المعمقة للقضايا الرئيسية التي تمخض عنها التحليل وقفاً على علماء جادين وشرفاء[1] ؛ وعلاوة على ذلك فقد آن أوان انفتاح أعين علم النفس الجامعي على الواقع واهتمامه إلى جانب التجارب المخبرية بالنفس البشرية الفعلية . فيجب ألا نرى بعدُ أساتذة يحرّمون على تلامذتهم الاهتمام

(١) انظر : C.G. Jung, **La guérison psychologique, op. cit.**;
Dr Roland Cahen: **La psychothérapie de C.G.Jung (in:** Encyclopédie médico-chirurgicale, IIIe volume, Paris, 1955); Gerhard Adler, **Etudes de psychologie jungienne,** tr. de l'anglais par L. Fearn et J. Leclercq, Collection Analyse et Synthèse, Georg, Genève, 1957.

Scanned with CamScanner

بالتحليل النفسي أو استخدام مفاهيمه كما ويجب ألا نأخذ بعد على نفسانيّتنا «استخدامها على نحو قليل العلمية خبرات مستمدة من حياة كل يوم» . وإني لعلى علم أن بمقدور علم النفس العام أن ينتفع كل الانتفاع بدراسة جادة للقضايا الأحلامية علّه يتمكن من التحرر من هذا الرأي المسبق الطائش والبراني تماماً من أن الحلم ليس إلا صدى اهتياجات بدنية .

إن الغلو في تقدير الأهمية البدنية هو في الطب النفسي واحد من الأسباب الرئيسية لركود الأمراضيات النفسية التي لا تزدهر إلا بمقدار ما تتلقح مباشرة بالتحليل ؛ فمذهب «الأمراض الذهنية أمراض مخية» هو من مخلفات المادية التي كانت مزدهرة حوالى عام ١٨٧٠ وقد تحول إلى رأي مسبق متعذر تبريره بإطلاق يعرقل كل تقدم ؛ وحتى لو صح أن كل الأمراض الذهنية إنما هي أمراض مخية فليس في ذلك أيضاً أي محذور من الدراسة العلمية لجانبها النفسي . إن هذا الزعم يُستخدم مع ذلك لإفحام كل المحاولات الجارية في هذا الاتجاه وشجبها من أول وهلة . **بيد أن البرهان أن كل الأمراض الذهنية إنما هي أمراض مخية لم يُؤت به قط** ولن يؤتى به أبداً على الأرجح لأن هذا هو نية البرهان أن الفرد إذا ما فكر أو تصرف على هذا النحو أو ذاك فلأن هذه الألبومين أو تلك قد انفصلت أو تشكلت من جديد في هذا النسيج الخلوي أو ذاك.وإن فرضية كهذه لتقود مباشرة إلى الإنجيل الماداني : «**إنما الإنسان ما يأكل**» . هذه الطريقة في التفكير تزعم تقليص حياة الروح إلى عمل تمثّل أو عدم تمثل في الخلايا المخية هما تمثل وعدم تمثل يصوَّران دائماً بالضرورة بوصفهما اصطناعات أو تفككات مخبرية ، لأنه كيف لنا أن نتمثلهما بخلاف ذلك وكيف لنا أن نتمثلهما كما تبدعهما الحياة ما دمنا لا نعرف السيرورات الحيوية ولا نستطيع متابعتها بالفكر ؟ ومع ذلك فهكذا ينبغي القيام بإعادة تشكيل الحياة الخلوية إذا ما أريد ضمان صحة التصور الماداني ؛ ولكن في هذا الآن والحالة هذه تخطٍ للمادانية بما أن الحياة تظهر عندئذٍ لا كوظيفة من وظائف المادة إنما كسيرورة موجودة بذاتها تكون القوة والمادة تابعتين لها ؛ فالحياة كوظيفة من وظائف المادة لتتطلب نشوءاً ملتبساً يجب على الأرجح أن يُنتظر البرهان عليه طويلاً ؛ فلا شيء يجيز لنا تصور الحياة على نحوٍ مادّاني اللهم إلا القَصْرية والاعتباط وغيات الشهادة وليس لدينا الحق سواء بسواء في تقليص علم

النفس إلى عمل مخي ما عدا أن كل محاولة في هذا الاتجاه محكوم عليها بمنافاة العقل كما تبين كل المحاولات التي جرت قبلاً . فعلى الظاهرة النفسية أن يُنظر إليها بمظهرها النفسي وليس كسيرورة عضوية وخلوية . فبمقدار ما يُحمَل على «أشباح الغيب» حالما يعنّ لأحدهم أن يعلل السيرورات الخلوية حياوياً تُعتمد الفرضية الفيزيائية بوصفها فرضية علمية وإن لم تكن تقل عن الأولى غرابة . لكنها تتميز بتساوقها مع الزعم الماداني لذا فإن أي هذر يوسَم بالعلمية حالما يجيز الانتقال من النفسي إلى البدني . ولنأمل بأن الزمان لن يطول برجال العلم والتخلص من هذه البقية من المادانية الجوفاء البالية .[1]

(١) لعل في النص التالي لميخائيل نعيمه ، حيث يشير إلى الخافية بكلمة «غفلة» ، إبرازاً لدور الخافية إنْ في اليقظة أو في النوم والأحلام ، كما وتفسيراً لظاهرة «الأحلام الإستباقية» التي تصدى يونغ لدرسها في هذا الكتاب :

«ينقضي العمر ما بين غفلة ويقظة . وغفلة العمر أطول من يقظته بكثير ، وأعمق منها بكثير . فالنوم وحده يستغرق نصف الزمان الذي نطويه بين المهد واللحد . وما تبقّى فللذهول منه قسط كبير ، ومثله للنسيان والحداثة والخرف وللمرض وللطوارىء التي تصدم الفكر صدمات عنيفة تصرفه عما هو جار فينا ومن حولنا .

إننا نحيا بغفلتنا أكثر منّا بيقظتنا . وغفلتنا هي ذلك المحيط الشاسع الذي ليست اليقظة سوى الزبد المتطاير على سطحه . فهو يحمل في أحشائه كل ما خبرناه وسنخبره ، عن وعي وعن غير وعي ، من شؤون الحياة منذ كنّا وكان الزمان وما دمنا ودام الزمان .

أليست أحلامنا في الليل بعضاً من حياتنا في النهار ؟ فكيف لنا أن نهملها في علومنا التي بها نتوخّى أن نفهم حياتنا ؟ وهل يمكن أن نفهم حياة النهار من غير أن نفهم حياة الليل ؟ إني من المؤمنين بالأحلام والقائلين بأن درسها قد يفوق بقيمته درس الكثير من الأمور التي ينصرف إليها العلم والعلماء . فمن الأحلام ما يؤكد لي أن الإنسان على اتصال دائم بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون . وأنه في بعض حالات الغفلة يتصل بأمور ما تزال في عالم الغيب بالنسبة إلى الحواس لا غير .

فلو شبّهنا الزمان بخيط يلتفّ على بكرتين تتحركان بسرعة واحدة وفي اتجاه واحد إحداهما من اليمين والأخرى من اليسار ، ومن ثم لو تخيلنا البكرتين في حركة دائمة لكان لنا فيهما ماضي الزمان ومستقبله وفي الخيط ما بينهما حاضره . فالزمان كله حاضر أبداً . وإذا ما غاب منه شيء فعن الحواسّ التي لا تستشعر الأشياء إلا مباشرة . أما القوة الواعية في الإنسان فمتى انعتقت من قيود الحواس كما تنعتق في المنام فلا يندر أن تتصل بأمور لفّها ماضٍ سحيق وأمور ما برحت ملفوفة على بكرة الزمان الآتي ، وأن تعود بها في شكل رسوم جلية أحياناً وأحياناً مموّهة بشتى الرموز .» (**البيادر** ، بيروت ١٩٨٠ ، ص ص ٢٣٠ـ٢٣١)

٧

المغزى الفردي للأحلام[١]

إشكالية التحليل الأحلامي العلاجي

ما يزال **الاستعمال العلاجي للتحليل الأحلامي** مثار جدل كبير، ويعتبر العديد من المتمرسين أن لا غنى عن التحليل الأحلامي للمعالجة العملية للأعصبة وبذلك يضفون على الحلم أهمية نفسية وظيفية مكافئة لأهمية الواعية بينما ينكر غيرهم على التحليل الأحلامي كل صحة حاطّين من منزلة الأحلام إلى مرتبة الفضالة النفسية التافهة. ومن المسلم به أن كل تصور ينسب إلى الخافية دوراً حاسماً في مناشئية étiologie الأعصبة ليعزو أيضاً إلى الحلم، بما هو الاستظهار المباشر لهذه الخافية، مدى عملياً جوهرياً. كذلك فمن المؤكد أن التصور المعارض الذي ينكر وجود الخافية أو ينكر عليها في الأقل كل فعالية مناشئية يقطع بتفاهة التحليل الأحلامي. وإن لبالوسع الرثاء أنه في أيامنا هذه، بعد نصف قرن ونيف من نحت كارو Carus لمفهومٍ عن الخافية وبعد قرن ونيف على كلام كنط Kantعن «الحقل اللا نهائي للتمثيلات المبهمة» وبعد مئتي عام على مصادرة لَيْبِنِتْس Leibniz على خافية نفسية بصرف النظر عن أعمال أمثال جانيه وفلورنوا وكثيرين غيرهما وبعد كل هذه الشهادات، ما زال يُشك في واقعية الخافية. ولما كانت هذه الدراسة مكرسة للممارسة فلا أريد أن أنساق هنا إلى منافحة عن الخافية لكننا لا نستطيع أن نتجاهل أن مسألة التحليل الأحلامي الخاصة تنطرح بحسب ما إذا سُلِّم بوجود

(١) محاضرة ألقيت في مؤتمر **الجمعية الطبية للعلاج النفسي** في درسدن عام ١٩٣١ ثم نشرت في: Wirklichkeit der Seele (Rascher, Zurich, 1934) بعنوان حرفي هو: **الاستعمال العملي للتحليل الأحلامي**.

Scanned with CamScanner

الخافية أو طعن به ، فإن الحلم بدون فرضية الخافية لا يعدو كونه لعبة من الطبيعة أو تكتلاً غير معقول من النتف المبعثرة هي فضالات عن الحياة النهارية . فلو كان الأمر كذلك لما كان للجدال حول الاستعمال العملي لتحليل الأحلام ظلٌّ من عذر . إننا لا نستطيع أن ندنو من هذا الموضوع إلا بالاستناد إلى قبول سابق للخافية لأن الهدف الذي يضعه التحليل الأحلامي نصب عينيه ليس الانهماك في حيل ذهنية ما إنما التفتيش عن مضامين ظلت خافية إلى ذلك الحين ويبدو أنها لا بد مشتركة في تعليل عصاب ومعالجته وتمكين الوعي منها . أما من يقول بأن فرضية الخافية غير مقبولة فإن مسألة استعمال التحليل الأحلامي غير مطروحة عليه أصلاً .

الأحلام إظهار للخافية

إذا عوّلنا على فرضيتنا بأن للخافية مدى مناشئياً وبأن الأحلام هي الاستظهار المباشر لنشاط نفسي خافيّ فإن محاولة تحليلها وتفسيرها هي من وجهة نظر محض علمية عمليةٌ مسوغة نظرياً ونجاحها يخولنا أن نترقب منها على هامش كل أثر علاجي محتمل كشف النقاب عن المناشئية النفسية والإفصاح عن بنيانها . بيد أن على اللُّقى العلمية ألا تكون للطبيب الممارس إلا عبارة عن جانب متمّم لنشاطه العلاجي ، طيب ولا شك لكنه ملحق به ؛ كذا فإن احتمال إجلاء الخلفيات arrière-plans المناشئية نظرياً يكاد يبرر ممارسة التحليل الأحلامي اللهم إلا أن يضع الطبيب نصب عينيه نتيجة علاجية لهذه الإضاءة الكاشفة لأن استعمال التحليل الأحلامي منذئذٍ يصبح واجباً طبياً ، ومن المعلوم أن **المدرسة الفرويدية** تتبنى وجهة النظر هذه في معظمها في كونها تمنح مدى علاجياً لا يستهان به لاكتشاف وتعليل العوامل الخافيّة أي لاحتياز الوعي بها .

إذا حسب المرء هذا الانتظار مبرَّراً بالوقائع لا يبقى عليه إلا أن يتساءل عما إذا كان التحليل الأحلامي يسهم (وحده أو بالارتباط بمناهج أخرى) في اكتشاف المناشئية الخافيّة أو لا يسهم.وإننا لعلى علم بجواب فرويد بالإيجاب الذي أستطيع أن أؤيده في معظمه : فبعض الأحلام ولا سيما البدئية منها أي أحلام البداية الفورية للمعالجة ينير غالباً بكل الوضوح المرغوب العامل المناشئي الأساسي ؛ وهاكم مثالاً على ذلك :

Scanned with CamScanner

يأتيني رجل رفيع المنزلة الاجتماعية طالباً المشورة . إنه يعاني كروباً وارتيابات ودوارات تبلغ أحياناً حد الاقياءات والخمول المخي والضيق التنفسي وباختصار حالة تشبه دوار الجبال حتى ليلتبس الأمر . ولقد عاش المعاوِد حياة مهنية استثنائية الألق : فقد بدأ وهو الابن الطموح لفلاح فقير حياته بداية متواضعة لكنه بطبيعته الموهوبة ترقّى درجة درجة بفضل كدّ دؤوب حتى موقع قائد مؤات للغاية لارتقاء اجتماعي جديد ؛ وبالفعل فقد كان قد بلغ لتوه مِقْفَزاً كان باستطاعته أن يطمح منه إلى التحليقات الكبرى لولا أن عصابه أتى على حين غرة ليعرقل مقاصده . وما كان بوسع المريض أن يمسك عن التعبير عن خيبة أمله بواحدة من هذه الجمل المعروفة جيداً التي تبدأ بكلمات «الآن بالضبط وقد ... الخ» المُقَوْلبة . ويبدو أن أعراضيات symptomatologie دوار الجبال موافقة بصفة خاصة للتعبير على نحو مجازي عن الوضع النوعي للمريض . ولقد قصّ عليّ من جهة أخرى منامين حلم بهما في الليلة السابقة .

وهاكم الأول :

ألفيت نفسي من جديد في قريتي مسقط رأسي وفي الشارع كانت مجموعة من الفلاحين الصغار الذين ذهبت معهم إلى المدرسة وإذ تظاهرت بعدم معرفتهم تجاوزتهم وعندئذٍ سمعت أحدهم يقول وهو يشير إليّ : «إنه قلّما يرجع إلى القرية .»

يذكّر هذا الحلم بدون أقل بهلوانية في التفسير بتواضع البدايات وإن المرء ليفهم ما يعنيه هذا التلميح فمؤداه بداهة : «أنت ناسٍ بأنك ابتدأت من أسفل سافلين .»

وهاكم الحلم الثاني :

أنا على عجلة من أمري لأني على سفر وأحاول أن أحزم أمتعتي فلا أجد شيئاً والوقت يستحثني لأن القطار سيغادر عما قليل وفي النهاية أتمكن من لمّ كل متاعي واندفع إلى الشارع لكني أتبين بأني قد نسيت محفظتي الحاوية أوراقاً هامة فأعود لإحضارها مسرعاً حتى اللهاث لكني لا ألبث أن أجدها فأركض إلى المحطة واجداً مشقة كبرى في التقدم وأخيراً بعد جهد جهيد أرتمي على الرصيف إنما لأرى القطار يغادر المحطة . إنه يرسم منحنى غريباً على هيئة S لكنه طويل جداً فيتبادر إلى ذهني أن الآلاتي إذا لم ينتبه وأطلق العنان للقطار حالما يبلغ الخط المستقيم فإن مقطورات المؤخرة ستكون بعد في المنحنى

Scanned with CamScanner

وسيجعلها التسارع تخرج عن السكة. وبالفعل يطلق الآلاتي العنان للقطار فأحاول أن اصرخ وتتأرجح مقطورات المؤخرة على نحو ينذر بالخطر ولا تلبث أن تخرج عن السكة. إنها لكارثة مرعبة واستيقظت مكروباً كل الكرب.

يسهل ههنا أيضاً فهم مجازية المنام فهو يصف أولاً التطوّح العصبي الباطل الذي يسعى به المريض إلى المضي قدماً على الدوام ولكن بما أن الآلاتي القائد يتقدم غير عابىءٍ بما يتبعه يطرأ على المؤخرة فقدان التوازن هذا أو هذه التأرجحات - أي العصاب - التي تؤدي إلى الخروج عن السكة.

من الواضح أن المعاوِد قد تسنم في طوره الحالي ذروة حياته وقد أنهك قواه أصلُه المتواضع ومصاعب ارتقائه الطويل؛ فبدلاً من أن يكتفي بالنتائج المكتسبة يدفعه طموحه نحو أهداف أعلى فأعلى في جو ينذر فيه النَّفَس بالانقطاع وهو ليس متكيفاً معه وعندئذٍ يطرأ العصاب منذراً بالخطر.

لقد حالت ظروف خارجية فيما تلا دون مواصلتي المعالجة ثم إن رأيي لم يحز قط على قبول المعاوِد وبذلك فإن المآل المرتسم في الحلم قد واصل مساره فأراد المعاود، يدفعه طموحه، أن يجرب حظه الأمر الذي أدى إلى إخفاق مهني وخروج عن السكة من التمام بحيث أن الكارثة المستشفة أصبحت واقعاً[1].

إن الحلم يحوّل إلى يقين ما لم يكن الاذّكار[2] anamnèse الواعي يسمح إلا بتخمينه ألا وهو أن دوار الجبال كان بمثابة التمثيل الرمزي لإنهاكٍ ارتقائي. وثمّة في ذلك عامل على غاية من الأهمية يؤيّد استعمال التحليل الأحلامي ألا وهو أن الحلم يصف ا لوضع الصميمي للحالم بما هو وضع لا تريد الواعية أن تعرف عنه شيئاً أو لا تقبل بحقيقته أو واقعيته إلا على مضض. فالمريض لا يرى على نحو واعٍ أيّ سبب يدعوه إلى قطع مسيرته فهو على العكس يتوق طموحاً إلى تسنم أعلى الذرى فينكر عدم أهليته التي فضحتها تتمة الأحداث كل الفضح وفي حالة كهذه وحده المجال الواعي يبقينا حائرين. وإن لبوسع اذّكارٍ ما أن يتيح الفرصة لهذا التفسير أو ذاك؛ وعلى كل حال فإن أي جندي بسيط كانٌ يستطيع أن يحمل في جرابه عصا

(١) ثمة عودة إلى هذه الحالة وشرح لها أدناه، ص ٢٣٥. (رك)

(٢) الاذّكار هو السرد التاريخي لماضي المريض الطبي. (رك)

مشير المستقبل وفلاناً ابن الوالدين المتواضعين توصل إلى أرفع مراتب السؤدد ! فلم لا يكون الأمر كذلك هنا ؟ قد أكون مخطئاً في حكمي فلماذا يكون رأيي أصوب من رأي مريضي ؛ يتدخل الحلم بما هو استظهار لسيرورة نفسية خافيّة لا إرادية تفلت من التأثير الواعي وتمثل الحقيقة أي الواقع الداخلي على ما هو عليه ليس كما أخمّنه أو أرغب فيه بل **كما هو** . لذا فقد آليت على نفسي أن أنظر في الأحلام بوصفها قبل كل شيء تجليات طبائعية physiologiques : فإذا ما ظهر سكر في البول فالأمر أمر السكر وليس أمر الألبومين أو الأوروبيلين[1] أو أي جسم آخر ربما انطبق أكثر بكثير على توقعي أي أن الحلم في نظري **معلومة قيّمة للتشخيص** .

إن هذا المثال الصغير ككل الأحلام أيضاً ليعطينا أكثر مما كنا نتوقع منه فهو لا يزودنا بمناشئية العصاب وحسب وإنما أيضاً بإنذار ، لا بل إنه يشير علينا بالموضع حيث يجب على الفن العلاجي أن يتدخل : علينا أن نمنع المريض من الاندفاع بكل سرعة فهو ينصح لنفسه بذلك بصريح العبارة في المنام .

مناشئية العصاب : الحلم كشف وإنذار

حسبنا هذه الإشارة هنا ولنعد إلى شاغلنا الأصلي بمعرفة ما إذا كان من شأن المنامات أن تفصح عن مناشئية العصاب . إن المثال المذكور ليصف حالة إيجابية لكن بوسعي أن آتي لكم بعدد وفير من الأحلام الابتدائية حتى المنتخب منها بين الأحلام الشفافة المعنى إنما التي لا تبدي مع ذلك أدنى أثر لعامل مناشئي . فلنضرب مؤقتاً كشحاً عن الأحلام التي يقتضي تفسيرها تحليلاً معمقاً

ركنان للتفسير : السببية والغائية

من المعلوم أن هناك أعصبة لا تظهر مناشئيّتها الحقيقية إلا في آخر المطاف وهناك أعصبة أخرى مناشئيّتها ذات أهمية نسبية تماماً . هذا يعيدنا إلى الفرضية

(١) الألبومين مادة عضوية ازوتية لزجة تنحل في الماء وتتخثر بالحرارة محتواة في آح البيض والبلازما واللبن ، والأوروبيلين صباغ صفراوي من المركبات الملونة للبول . (م)

Scanned with CamScanner

التي انطلقنا منها أي فكرة أن احتياز الوعي بالعامل المناشئي هو جزء أساسي من فن العلاج . ويشمل هذا الافتراض أيضاً معظم النظرية القديمة للرض النفسي. ومما لا ريب فيه أن لأعصبة عديدة أصلاً رضياً لكني أعترض على أن يكون الأمر كذلك لكل الأعصبة فليس منشؤها جميعاً تجارب طفولية مضنية معاشة ومن بعدُ حاسمة . ولئن كنت أهاجم هذا التصور فلأنه يحث الطبيب على تركيز انتباهه على الماضي وعلى التسلسل السببي وعلى تثبيت ذهنه على الأصل مهملاً غاية الأشياء التي لا تقل عنه أساسية وذلك غالباً مقابل ضرر شديد يصيب المعاوِد الذي يُكرَه على التفتيش طوال سنين أحياناًعن خبرة طفولته الراضّة المفقودة فيما هو يهمل أموراً مباشرة الأهمية . إن موقفاً محض سببي لموقف شديد الضيق لا يلبي طبيعة الحلم ولا طبيعة العصاب ؛ كذا فإن في مقاربة حلم بالانشغال بالعامل المناشئي وحده إنما هو إجحافُ خطير بعمله التحضيري وانغلاق دون ما هو الأكثر خصوبة فيه . إن المثال المذكور أعلاه يكشف عن المناشئية بوضوح لكنه بالإضافة إلى ذلك يشكل على هيئة توقّع إنذاراً ويقدم إشارة علاجية ولنتذكر حشد الأحلام الابتدائية التي لا تنبس ببنت شفة عن المناشئية إنما تتناول مسائل أخرى بالكلية من نحو الموقف بإزاء الطبيب مثلاً . هاكم على سبيل المثال ثلاثة أحلام لمريضة واحدة استشارت على التوالي ثلاثة محللين ويحدد كل حلم بداية معالجة أحدهم . وهاكم الحلم الأول :



يجب علي أن أجتاز الحدود لكني لا أجدها في أي مكان ولا أحد يستطيع أن يخبرني بمكانها .

ولقد انقطعت هذه المعالجة غير المثمرة بعد مدة وجيزة . وهاكم الثاني :

يجب عليّ أن أجتاز الحدود لكن الليل مخيم بظلامه ولا أجد ديوان الجمرك وبعد بحث طويل أكتشف بصيص ضوء في البعيد ويتبادر إلى ذهني أن الحدود موجودة هناك ولكن بلوغها يتطلب اجتياز وادٍ وغابة مظلمة أفقد فيها الاتجاه ويتبين لي عندئذٍ حضور أحدهم يتشبث بي فجأة كالمجنون وأستيقظ غارقة في الكرب .

انقطعت هذه المعالجة في غضون بضعة أسابيع بعد أن تسبب تواحد خافٍ بين المحلّل والمحلّلة في تيه كلي .

Scanned with CamScanner

أما الحلم الثالث فقد وقع في بداية معالجتنا وهاكم هو :

عليّ أن أجتاز حدوداً أو بالأصح فقد سبق أن اجتزتها والفيت نفسي في بناء من أبنية الجمارك السويسرية وليس معي إلا مِثْبنتي واظن بأن لديّ ما أصرح عنه غير ان الجمركي يدخل يده في مثبنتي ويُخرج منها لشدة انذهالي فراشين كاملين .

لقد تزوجت المريضة إبان معالجتنا التي كانت تحس في بدايتها بمقت لا يقاوَم للزواج ولم تتحدد مناشئية مقاومتها العصابية إلا بعد شهور طوال بدون أن يكون ثمة أدنى إشارة في الأحلام الثلاثة المذكورة إليها ، وثلاثتها بلا استثناء تُمثّل مسبقاً للمصاعب التي ستنشأ بالتماس مع المعالج الموافق .

تبين هذه الأمثلة التي يمكن الإكثار منها أن الأحلام كثيراً ما تكون توقعات تفقد كل معناها لدى فحصها من وجهة نظر محض سببية وهذه الأحلام تشي عن الوضع التحليلي بمعلومات لا تُدحض وإأن تقديرها حق قدرها لهو من الأهمية العلاجية بمكان . فالطبيب الأول وقد فهم الوضع فهماً دقيقاً وجّه المريضة إلى الثاني وعنده استخلصت المريضة بنفسها عواقب حلمها وقطعت المعالجة ؛ أما عني فقد خيب تفسيري أملها[1] ، لكن عبور الحدود الذي أُنجز وفقاً للحلم كان عوناً عظيماً لها على المثابرة على الرغم من كل المصاعب .

إن الأحلام الابتدائية غالباً ما تكون ذات وضوح وشفافية مدهشين بيد أن هاتين المزيتين سرعان ما تضمحلان أما إذا استمرتا استثناءاً فبالوسع الاطمئنان إلى أن التحليل لم يؤثر بعد على جزء رئيسي من الشخصية . فالأحلام بعامة تصبح بعيد بدء المعالجة أشد إبهاماً ولبساً الأمر الذي يزيد كثيراً من مصاعب التفسير ولا سيما أنه إذا كانت الظروف مساعدة سرعان ما يتم بلوغ صعيد لن يعود الطبيب فيه في الحقيقة مسيطراً على الوضع . وحسبنا دليلاً على ذلك إبهام الأحلام المتزايد المزعوم هذا ، وهي بيّنة محض ذاتية من جانب الطبيب . لا شيء مبهم في نظر من يفهم ووحده عدم الفهم يجعل الأشياء تبدو مستغلقة غامضة. فالأحلام بحد ذاتها واضحة بطبيعتها اي أنها بالدقة على ما يجب أن تكون عليه بمقتضى الظروف الآنية.

(١) إن يونغ للأسف لا يحدد اي تفسير كان تفسيره . (ر.ك.)

Scanned with CamScanner

وعندما يعاد فيما بعد النظر عند طور أكثر تقدماً من أطوار المعالجة أو بعد بضعة سنين في هذه الأحلام فإن المرء يضع رأسه بين راحتيه متسائلاً كيف عمي عن هذه النقطة . وعندما يصطدم مع تقدم التحليل بأحلام هي بالمقارنة مع الأحلام الابتدائية الساطعة من الإبهام بمكان فإن على الطبيب أن يحترس من رمي الأحلام باللبس أو المريض بمقاومات متعمدة إنما يجب عليه بالحري أن يرى في ذلك إشارة تحدد لديه بداية مرحلة من مراحل عدم الفهم . (وفي نسق مماثل من الأفكار على الطبيب النفسي الذي يسم حالة مريضه الذهنية بـ «اللبس» أن يعترف بارتكابه خَلْعاً ويقر بأنه هو نفسه ملتبس عليه لأن فهمه في الواقع هو الذي يمسي ملتبساً بسلوك معاوده الغريب) . وبالإضافة إلى ذلك فإن من الأهمية العلاجية بمكان أن يقر المرء في الوقت المناسب بعدم فهمه فإن ما من شيء أقل نفعاً للمريض من أن يكون مفهوماً دائماً.ومهما يكن من أمر فإن المريض جد ميال إلى تفويض أمره إلى علم الطبيب الخفي والإيقاع به في شرك زهوه المهني والاستقرار تماماً في فهم المحلل «العميق» و«الواثق من نفسه»؛وبذلك يفقد كل حس بالواقع الأمر الذي هو من الأسباب الرئيسية للتحويلات المعنّدة والتعوقات الطارئة على نجاح الاستشفاء .

غير أنه كثيراً جداً ما يُنسى أن الفهم إنما هو فعل ذهني ذاتي للغاية وقد يكون أحادي الجانب إذ يفهم الطبيب وليس المريض ، وفي هذه الحالة يعتبر الطبيب أن من واجبه إقناع المريض ؛أما إذا رفض المريض الاقتناع فلسوف يأخذ عليه مقاوماته . على أنه والحالة هذه أي عندما يكون الفهم من جانب واحد فإني أوثر الكلام بلا وجل عن عدم الفهم لأن فهم الطبيب في واقع الأمر ليس مهماً للغاية . وبالمقابل فإن الكل متوقف على فهم المريض أو عدم فهمه لذا ينبغي للسعي أن يكون سعياً إلى **وفاق متبادل تام** ثمرة افتكارات مشتركة أكثر منه سعياً إلى فهم ؛ فالخطر لدى فهم وحيد الجانب هو في أن يصدر الطبيب على المنام ابتداءاً من تصوّر مقرر سلفاً حكماً موافقاً لاتباعية هذه العقيدة أو تلك أو حتى للحقيقة الأساسية إنما التي لا تحوز على موافقة المريض العفوية والتي تكافىء عملياً خطأ ، وبخاصة لأنه يستبق تفتحه وبذلك يشلّه ؛ فإن الأمر ليس أمر تلقين المريض حقيقة (فبذلك لا يصاب إلا الرأس أي الكائن المفكر !) لأن **المريض نفسه على العكس هو الذي يجب عليه فيما هو يتفتح أن يرتقي إلى هذه الحقيقة الأمر الذي يصيب القلب ويحرك**



Scanned with CamScanner

الكيان ككل ويتمتع بنجاعة مختلفة كل الإختلاف .

لئن كان التفسير الوحيد الجانب للطبيب ليس إلا على وفاق مع نظرية احلامية أو أية عقيدة أخرى مقررة سلفاً فإن إقناع المريض المحتمل ومعه شيء من النجاح الاستشفائي يقومان أساساً على **الإيحاء** suggestionالذي يحسن بالمرء ألا ينخدع به . ولئن صح أن التأثير الإيحائي بحد ذاته ليس فيه ما يُذَم لا يقل صحة أن لنجاحاته حدوداً معروفة جيداً وهو يتسبب على المدى البعيد في عواقب ثانوية على استقلال الطبع بما يجعل المرء يندم على استخدامه . فكل من يعالج بالتحليل يؤمن بحكم ذلك ضمنياً بمدى وقيمة احتياز الوعي الذي بفضله توضع أجزاء من الشخصية ظلت خافيّة حتى ذلك الحين تحت سيادة الوعي واختياره ونقده،وبذلك يلفي المريض نفسه مطبقاً عليه بمشاكله التي يجب عليه أن يبت فيها بمحاكمة عقلانية وقرار واع : ليس في ذلك ما يقل عن تحريض مباشر للوظيفة الأخلاقية التي تحتكم بنفسها إلى الشخصية ككل وبذلك يتوضع التدخل التحليلي بالنسبة إلى الشخصية ونضجها على صعيد أرفع صراحة من صعيد الإيحاء كضرب من الوسيلة السحرية تفعل في الظل بدون أن تلتمس من الشخص أدنى مُتطلَّب من نسق أخلاقي . فالإيحاء دوماً وسيلة خداعة أو حيلة بسيطة ينبغي بما هي مؤتلفة مع مبدأ المعالجة التحليلية اجتنابها في حدود الإمكان ، على أنها بالطبع يجب ألا تُستبعد إلا عندما يعي الطبيب خطر تدخله الكامن في شؤون مريضه ولن يبقى خافياً بعد إلا تأثير إيحائي مفرط !

فهم ثنائي للحلم

على كل من يبتغي اجتناب الإيحاء الواعي أن يعتبر أن تفسير حلم ما لا قيمة له ما دام هذا التفسير لم يحز على قبول المعاود .

ويَبدو لي التقيّد بهذه الوصية الأساسية لا غنى عنه لدراسة الأحلام التي المعت إليها اعلاه والتي ينذر عوصها بأنها ستظل مستغلقة على الطبيب والمريض على حد سواء . وإنه ليجب على الطبيب النظر في هذه الأحلام دوماً بوصفها **بدعة** ومصدراً لمعلومات تتصل بشروط مجهولة عليه أن يتعلم منها بقدر ما على مريضه أن

Scanned with CamScanner

يفعل ـ فمن الطبيعي أن يقلع الطبيب كل مرة عن كل حكم نظري مسبق وأن تحثّه الرغبة في اكتشاف نظرية أحلامية جدّ جديدة ، فههنا ينفسح مجال شاسع من التقصيات أمام روّاد المستقبل . إن الادعاء بأن الأحلام ما هي إلا تحقيق رغبات مكبوتة هو تصور متهافت منذ زمن بعيد وإن كان ثمة قطعاً أحلام تحقق بداهة أماني أو توجسات ، ولكن أي شيء ليس بالوسع الوقوع عليه فيها فوق ذلك ! فقد تكون الأحلام منسوجة من حقائق لا مفرّ منها ومن حكم فلسفية ومن أوهام ومن تخلّقات مشوّشة ومن ذكريات ومن مقاصد ومن استباقات لا بل ومن رؤى تخاطرية ومن خبرات صميمية لا عقلية وكل ما تشاء أيضاً ، فإن ثم شيئاً ينبغي ألا يغيب عن الأنظار قط ألا وهو أن نصف حياتنا أونحوه يجري في حالة من اللا وعي ممعن فيها إلى حد ما . والأحلام إنما هي الاستظهارات النوعية التي تنبثق في الواعية ؛ فللنفس مظهر نهاري ألا وهو الواعية بيد أن لها أيضاً مظهراً ليلياً ألا وهو النشاط النفسي الخافيّ الذي يذعن لتصوّره بوصفه مشابهاً لأطياف fantasmes خيال حالم ؛ على أن قوام الواعية ليس من رغبات ومخاوف وحسب إنما من أشياء أخرى لا تُحصى أيضاً كذلك فإن نَفْس مناماتنا تخفي غنى من الإمكانات الحيوية التي تضاهي أو حتى تتفوق على إمكانات الواعية التي ترادف بطبيعتها التركيز والتحديد والقَصْر .

ليس من غير المبرر ضمن هذه الشروط بل إن مما لا غنى عنه عدم حصر معنى حلم ما مسبقاً على نحو عقائدي . فعديدون هم الأناس كما ينبغي أن يُعلم ممن يحاكون حتى في أحلامهم اللغة الاصطلاحية الفنية أو النظرية لطبيبهم بحسب الحكمة القديمة : **الكلب يحلم بالخبز والصيّاد بالسمك** الأمر الذي لا يستتبع أن السمك الذي يحلم به ا لصياد هو دائماً سمك وحسب[1]. فليس من لغة إلا وبالإمكان الإسراف فيها ، وبأي سهولة يقع المرء في الحيرة هنا ! حتى ليقال إن للخافية شيء من النزوع إلى عرقلة الطبيب في نظرياته حتى لو أدى ذلك إلى الاختناق . لذا فإني اتنصل في التحليل الأحلامي بقدر الإمكان من كل نظرية لكن ليس بالكلية حقاً لأن حداً أدنى من النظرية لا بد لنا منه لتصوّر الأشياء بوضوح . وبذا فإن من

(١) يمكن لاتفه الكلمات بحسب مؤداها الرمزي أن تضطلع بمعانٍ غير متوقعة لأول وهلة ؛ فلنتذكر مثلاً المرمى ا لرمزي لـ «السمكة» في المسيحية في بداياتها . (ر ك)

Scanned with CamScanner

الانتظار النظري الاعتقاد بأن الحلم يجب أن يكون ذا معنى الأمر الذي لا يمكن البرهنة عليه لكل الأحلام لأن منها ما لا يفهمه لا المريض ولا الطبيب . بيد أنه لا مندوحة لي من الاعتقاد بهذه المصادرة التي أستمد منها الشجاعة على التريّث عند الأحلام.وإن نتفة نظرية مصادَر عليها بالضرورة هي أن الحلم يضيف معلومة لا غنى عنها للمعرفة الواعية وأن حلماً لا يلبيها غير مفسر بالتالي بما يكفي.وهذه الفرضية هي الأخرى لا مفر منها لأنها ، مبينةً أو مضمرةً ، تبرر جهودي التحليلية . وبالمقابل فإن كل الفرضيات الأخرى المتصلة بوظيفة المنام وبنيانه على سبيل المثال إنما هي مجرد قواعد حرفية ويجب أن تبقى دوماً قابلة لتحسينات لاحقة ، فيجب ألا يغيب عن النظر قط إبان هذه الأعمال أن المرء يتحرك على رمال متحركة حيث اليقين الأوحد هو عدم الأمن ؛ فلولا مخافة المفارقة لنوشد محل الأحلام «ألا يغالي في السعي إلى الفهم !» ...

تحديد سياق الحلم

إن ما ينبغي القيام به بادىء ذي بدء أمام حلم مبهم ليس الفهم أو التفسير إنما **تحديد السياق بعناية** وليس المقصود بذلك ممارسة «التداعيات الحرة» التي انطلاقاً من صور الحلم تضيع في اللا نهاية إنما فحص جاد وئيد للصلات التداعوية التي تتحلق بلا قسر حول الحلم . وعلى غالبية المرضى أن يتربّوا على هذه المهمة لأنهم يكابدون شأن الطبيب النزوع الذي لا يُقهر إلى توخّي الفهم والتفسير على الفور وبخاصة عندما يحصّلون بفضل قراءات أو تحليل سابق انقطع فجأة بلا نتيجة شيئاً من الإعداد formation غالباً ما يترادف والتشويه déformation من حيث إنهم يربطون على نحو نظري (أي كما أشرت لتوّي بالاجتهاد في الفهم والتفسير) بدون التوصل على الأغلب إلى تخطي هذه المرحلة ؛ فهم كالطبيب يرغبون في الحال أن ينتزعوا من الحلم سرّه معتبرين الحلم واجهة خداعة تخفي معنى حقيقياً . بيد أن الواجهة المزعومة في معظم الأبنية ليست زخرفاً خداعاً ومشوّهاً إنما تتوافق ومجموع الصرح الذي تشي بمخططه للوهلة الأولى ؛ كذا فإن الصورة الظاهرة للحلم هي هي الحلم وتنطوي على معناه كله . فعندما نجد سكراً في البول فإنه سكر فعلاً وليس واجهة تخفي البومينا . أما ما يدعوه فرويد بـ «واجهة الحلم» فهو

Scanned with CamScanner

غموضه أي إسقاط عدم فهمنا في الواقع ؛ فلا يجري الحديث عن واجهة حلم إلا حين يستعصي مغزاه لذا يحسن بنا أن نقول إن الحلم يشبه نصاً غامضاً عويصاً وعندئذٍ نستغني عن فكرة الواجهة ولا حاجة لنا بعد إلى أن نعزو إليه معاني مستورة بل يجب أولاً أن نتعلم قراءته .

إن أفضل ما نقوم به من أجل ذلك هو تحديد سياق الحلم وإن الطريقة المسماة بطريقة **التداعيات الحرة** لتقود إليه بمقدار ما تسمح بحل رموز رقيم حثّي ! فالتداعيات الحرة بالطبع تفصح عن مركّباتي كلها لكن لا حاجة لي للنهوض بذلك إلى الحلم قط.ومثل ذلك كمثل الانطلاق من لافتة أو جملة ما في صحيفة ! إن التداعيات الحرة «تسلّم» مركباتي لكنها لن تقود نحو معنى الحلم إلا استثناءً ؛ فلفهم الحلم عليّ أن أتمسك بهذه الصور ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . عندما يحلم أحدهم بـ «طاولة تنّوب» لا يكفي أن يربط المرء بها طاولة عمله مثلاً لسبب جد بسيط هو أن هذه غير مصنوعة من خشب التنوب في حين أن الحلم يشير قصداً إلى «طاولة تنّوب».ولئن افترضنا أنه لم يخطر في بال الحالم أي ربط آخر فإن لهذا التوقف مغزى موضوعياً بما هو يشير إلى أن في الجوار المباشر للصورة الأحلامية إبهاماً معيناً قد يطلق للتفكير العنان بينما يربط ثالث بـ «طاولة التنّوب» عشرات الأشياء ؛ وإن غياب التداعيات لدى المريض لذو مغزى بحد ذاته وفي هذه الحالة فإن ديدني أن أقول لمريضي : «هب أني جاهل لما هي «طاولة تنوب» فصف لي طبيعتها وقصّتها بحيث أفهم الأمر[1] .»

وبذلك نتوصل إلى تحديد تقريبي كامل لصورة أحلامية ومتى تم ذلك على الحلم برمّته باتت المجازفة بتقديم تفسير ممكنة .

تسلسل الأحلام

كل تفسير فهو فرضية ومحاولة لفك رموز نص مجهول وإنه ليندر أن يذعن حلم مهما قل إبهامه وانعزاله للتفسير بأدنى يقين لذا فإني لا أقيم وزناً كبيراً

(١) فيما يتعلق بـ «التداعيات الحرة» راجع ايضاً اعلاه ، ص ٢٣٣ . (رك)
راجع علم النفس المركب ، ص ١١٧ . (م)

Scanned with CamScanner

لتفسير حلم واحد ، فإن التفسير لا يبلغ ثقةً نسبية إلا كحلقة ضمن سلسلة من الاحلام تقوّم فيها الأحلام اللاحقة الأغلاط التي تسربت إلى تفسير الأحلام السابقة ؛ ومن مزايا ذلك أن المباحث والبواعث الأساسية تكتسب ههنا رونقاً أنصع بكثير لذا فإني أحض مرضاي على تدوين يوميات أحلامهم وتفاسيرها تدويناً دقيقاً وأحضهم أيضاً على تهيئة أحلامهم كما أشير إلى ذلك أدناه (ص ٢٣٥) بحيث يأتون إلى العيادةُ مجهزين بأحلام مكتوبة وبسياقها ؛ وفي مرحلة اكثر تقدماً أكلفهم ايضاً بإبداء تفسير وبذلك يتعلم المريض التحالف مع خافيته بدون معونة من الطبيب .

لو لم تكن الأحلام إلا مصادر لمعلومات تتعلق بعناصر مناشئية هامة لما كان من مانع من العهد إلى الطبيب بكل الأعمال التي يقتضيها تفسيرها ، أو أيضاً لو لم تكن الأحلام تصلح للطبيب إلا مُعيناً ينهل منه إرشادات مفيدة أو افتكارات نفسانية لكانت طريقتي هذه بالتأكيد حشواً ، لكن بما أن ثمة ما يدعو إلى الاعتقاد كما تؤيد أمثلتي بأن الأحلام تنطوي على أكثر مما من شأن الطبيب أن يستعمل لمساعيه فإن تحليلها يتطلب من الحالم نفسه انتباهاً خاصاً جداً لأن المسألة أحياناً مسألة حياة أو موت . وهاكم مثالاً مؤثراً بقي في جملة أمثلة أخرى كثيرة عالقاً في ذاكرتي : كان يحلو لأحد زملائي الأطباء أسن مني بقليل عندما نلتقي أن يتندّر علي «هوسي بتفسير الأحلام» وإذ صادفني ذات يوم في الشارع سألني : «كيف حالك ؟ أما زلت غارقاً في الأحلام ؟ بالمناسبة رأيت مؤخراً مناماً سخيفاً فهل يعني شيئاً هو الآخر ؟» وهاكم ما حلم به :

إني أتوقّل قمة شاهقة وألفي نفسي على كتلة منحنية من الثلج المتحجب أواصل دائماً صعودي والجو بديع وكلما صعدت تنامى شعوري بالسعادة حتى أني أفكر : آه ! ليته كان بوسعي أن أصعد هكذا أبداً ! وعندما أبلغ الذروة تستخف بي السعادة وإحساسي بالامتلاء من ا لقوة بحيث أشعر أن بمقدوري أن أواصل التحليق في الفضاء فأجازف بذلك وأرتفع في الأجواء . واستيقظت رالانخطاف قد بلغ بي اقصاه .

أجبته : «يا زميلي العزيز ، بما أني أعرفك متسلق جبال لا يرعوي ينبغي عليّ في الأقل أن أناشدك الإقلاع في المستقبل عن الرحلات بمفردك فعندما تذهب متسلقاً

Scanned with CamScanner

فلتجنّد مرشدين تعدهما بشرفك بطاعة مطلقة» . فضحك وصاح بي وهو يستأذن بالانصراف : «أنت أنت لم تتغير !» ولم أره قط بعدئذٍ . بعد ذلك بشهرين حدث بغتة الحادث الأول : فإبان رحلة تنطّح لها بمفرده فوجىء بحادور ثلجي غطّاه تماماً ولولا أن دورية عسكرية كانت مارة من هناك لما نجا . وبعد ذلك بشهرين كانت النهاية : ففي أثناء رحلة قام بها بلا مرشد بصحبة صديق أصغر منه سناً قام عند النزول ، كما لاحظ مرشد كان تحت ، بفشخة في الفراغ تماماً وتهالك على الصديق الذي كان يتقدّمه فسقط الإثنان كلاهما في الهاوية حيث تحطّما ، وذلك كان الانخطاف بعينه بالمعنى التام للمصطلح[1] .

إني ما استطعت قط على الرغم من كل الارتياب والانتقادات المضطرمة فيّ أن أقتنع بألا أرى في الأحلام إلا كمية مهملة فهي عندما تبدو لنا غير معقولة فإننا نكون حمقى مجرّدين على الأرجح من حدة الذهن الضرورية لفك رموز رسائل كينونتنا الليلية الملغزة . فعلى علم النفس الطبي أن يلتزم بإعمال نباهته بأعمال منهجية على الأحلام ولا سيما أن نصف حياتنا النفسية في الأقل تتخذ كياننا الليلي مسرحاً ، ومثلما أن الواعية تمد فروعها حتى ليالينا كذلك تنبثق الخافية في حياتنا النهارية . ما من أحد يرتاب في أهمية الحياة الواعية وخبراتها فلم الارتياب إذن في مغزى **المجريات الخافية** ؟ فهي أيضاً حياتنا وفيها تنبض بمقدار ما تفعل في حياتنا النهارية إن لم يكن أكثر في بعض الأحيان وهي أخطر منها تارةً وأشفى طوراً .

ecstasy
extacy
esstacy

(١) يقدم معجم Larousse التعريف التالي بكلمة انخطاف extase : «من اليونانية ekstasis التي تعني استطارة ؛ فإنما الانخطاف نشوة للنفس التي تجد نفسها وكأنها قد استُطيرت خارج الجسم» .
من الواضح من وجهة نظر اتقاء الحوادث وحدها أن شخصاً معرّضاً لجمحات انخطافية من هذا النوع من شأنها أن تغرقه في نشوة مصحوبة بغيبة مؤقتة يجب ألا يعرض نفسه لمواقف تتوقف فيها الحياة على أقل حركة ساهية على الرغم من الجذب الذي يؤثر به الجبل على المرء وهو جذب مضاعف عشر مرات بمقتضى شدة أشواقه النفسية العميقة .
يمثل حلم من هذا الضرب علامة خطر حقيقية تلحف على المرء أن يدركها ويجدر به أن يفعل . (رك)

Scanned with CamScanner

والأحلام إذ تطلعنا على الحياة الصميمية والسرية للمعاود وتكشف لنا عن مركّبات شخصية مسؤولة في الحياة النهارية عن أعراض عصابية يصبح من المتعذر علاج مريض في الواعية وبها وحسب ، والركون إلى الخافية يصبح أمراً لا مفر منه وهو ركون لا يبدو قابلاً للتحقق ضمن حالة معرفتنا الراهنة إلا على هيئة تمثّل للمضامين الخافية في **الواعية إلى أقصى حد ممكن** .

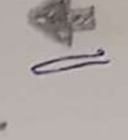
ومن كلمة «تفسير» ينبغي أن يُفهم هنا مفاسرة المضامين الواعية والخافيّة وليس التقويم والقهر والمَسْخ الوحيد الجانب للمضامين الخافية من قبل الطغيان الواعي كما يُظن ويمارَس بعامة . فهو ينشر عن قيمة المضامين الخافيّة ومغزاها أشد التصورات بطلاناً : فإن **المدرسة الفرويدية** كما هو معلوم تنظر إلى الخافية بعين سلبية للغاية مثلما أنها تعتبر الإنسان البدائي هولة ؛ فلقد أفلحت حكايات مرضعاتنا التي تقص علينا فظائع الإنسان البدائي المرعبة بالإضافة إلى نظرية الخافية الطفلية المنحرفة والمجرمة بتشويهها ذلك الشيء الطبيعي في الجوهر الذي هو الخافية في تقديمه على هيئة هولة مريعة وكأن ترصيع كل ما هو خيِّر وعاقل وجميل وكل ما يجعل للحياة قيمة وقف على الواعية ! أفلم تُزِل الحرب العالمية بموكب فظائعها[1] الغشاوة عن أبصارنا بعد ؟ ألم ندرك بعد أن واعيتنا أكثر شيطانية وضلالاً بكثير من الكائن ابن الطبيعة هذا الذي هو الخافية ؟

ولقد أُخذ على نظريتي في تفسير الخافية مؤخراً تقويض الثقافة وإسباغ قيمها السامية على البدائية غير أن تفسيراً كهذا لا يمكن أن يتأسس إلا على نظرية وحشية الخافية الضالة كل الضلال . **وهذه الفرضية عينها تصدر عن الخشية المستشعرة امام الطبيعة والواقع العاري** . لقد اخترعت النظرية الفرويدية لتحرير الإنسان من البراثن الخيالية للخافية مفهوم التصعيد ، على أن ما هو موجود حقاً يتملص بما هو كذلك من كيمياء التصعيد وما يبدو مذعناً للتصعيد لم

(١) إشارة إلى حرب ١٩١٤ـ١٩١٨ وذات حقيقة أكثر أسفاً ايضاً بعد الحرب العالمية الثانية بفظائعها التي «لا تُتخيل» . (رك)

Scanned with CamScanner

يكن قط ما جعله تفسير مغلوط يبدو عليه .



ما الخافية بهولة شيطانية إنما هي بنية طبيعية غير منحازة من وجهة النظر الأخلاقية والجمالية والفكرية لا تغدو خطرة حقاً إلا عندما يكون موقفنا الواعي بإزائها مغلوطاً بإياس ،فكلما كبتنا في أنفسنا تجلت أكثر المخاطر التي نتجشمها من جراء الخافية . وحالما يبدا المعاود بمماثلة المعطيات التي ظلت حتى ذلك الحين خافية تقل المخاطر.ويخف تفكك الشخصية والفصل الدقيق الوَجِل بين كياننا الليلي وكياننا النهاري كلما تقدمت لمماثلة . إن ما يتوجس منه ناقدي ـ سيطرة الخافية على الواعية ـ يتم على العكس على نحو انتخابي عندما يحال بالكبوت الناهية والتفسيرات المغلوطة والانتقاصات الطائشة دون الخافية ومشاركتها في الحياة .

عندما يُنظر إلى طبيعة الخافية فإن الغلط الأساسي التالي يُرتكب عموماً ألا وهو الافتراض بأن مضامينها **لا لبس فيها** ومزودة بعلامة دلالية أو معامِل ثابت. بيد أن هذا التصوّر برأيي المتواضع مفرط في السذاجة فالنفس ، مثلها في ذلك مثل منظومة ذاتية الانضباط ، متوازنة مثلما أن الحياة البدنية متوازنة . فعلى كل إسراف سرعان ما تجيب بالضرورة معاوضات ليس بدونها ثمة أيض ولا منظومة نفسية سويان ، وبهذا المعنى يمكن التصريح بأن **نظرية المعاوضات** قاعدة أساسية للسلوك النفسي وأي قصور في نقطة يوجد إفراطاً في أخرى . كذا فإن الروابط بين الواعية والخافية هي الأخرى ذات طبيعة معاوِضة وهذه عبارة عن واحدة من القواعد الفنية التي أثبت التحليل الأحلامي صحتها كأحسن ما يكون ، وإن لفي طرح سؤال : ما هو الموقف الواعي الذي ينحو الحلم نحو تعويضه ؟ فائدة دوماً في ممارسة التحليل الأحلامي .

إن المعاوضة ليست فقط عبارة عموماً عن التحقيق الوهمي لرغبة ، فهي علاوة على ذلك واقع كلما كُبت فإنه يتأكد أكثر ؛ فالظمأ لا يرتوي بقمعه ! لذا فإن ثمة ما يدعو أولاً إلى أخذ مضمون الحلم على مأخذ الجد وإضفاء شرف الواقع عليه واستقباله في الموقف الواعي كعامل الحسم ، والامتناع عن ذلك يديم الموقف الواعي المتحول عن مركزه والشاذ الذي سبق له أن استحث المعاوضة الخافية ؛ ومنذئذٍ تصبح طريقة بلوغ المرء مفهوماً سديداً عن النفس وسلوكاً متزناً لحياته أمراً لا يُعقل مطلقاً .

Scanned with CamScanner

ولئن لذّ لبعضهم - ويُخشى بالدقة أن يدفع نقدي إلى ذلك - أن يضع المؤدى الخافيّ محل المضامين الواعية فإنه يكبتها كبتاً طبيعياً وهي عملية تعاود في إثرها المضامين الواعية آنفاً الظهورَ معاوضةً في الخافية. وبذلك قد تغيّر الخافية وجهها بالكلية فتصبح صعبة المراس وعاقلة ومعارضة كأكثر ما يمكن صفعاً لما كانت عليه سابقاً. ولا يُظن عموماً في الخافية القدرة على هذا الانقلاب ولو أنه متكرر ويستجيب لواحدة من وظائفه الأولية[1] لذا فإن كل حلم عامل إعلام وتحكّم وبالتالي أكثر المساعدين فعالية في بناء الشخصية.

إن الخافية بحد ذاتها لا تخفي مواد متفجرة ما لم تقم واعية معتدة أو خسيسة بمراكمة مثل هذه المواد فيها وهذا سبب إضافي لعدم الحياد عنها بدون الحذر من ذلك.

لكل هذه الأسباب أتقيّد عند كل محاولة تفسير أحلامي بالقاعدة الإفرسكية[2] heuristique التالية: أتساءل عن **الموقف الواعي الذي يعاوَض بالحلم** وبذلك أحدد علاقة كأشد ما تكون وثوقاً بين الحلم وبين الوضع الواعي للحالم بل إني أذهب حتى الزعم بأن من المتعذر تفسير حلم حتى بتقريب فظ عند الجهل بالوضع الواعي، **فوحدها معرفة الوضع الواعي تجيز تحديد اللواء الذي يجب وضع المضامين الخافية تحته** فإن الحلم ليس حدثاً معزولاً منفصلاً عن الحياة الصاحية وعن سجاياها، ولئن بدا لنا كذلك فمن جراء عدم فهمنا وهو وهم ذاتي محض؛ ففي الواقع تسود بين الواعية والخافية سببية صارمة واشتباك من العلاقات هما من الدقة بمكان.

يتطلب التقدير الصحيح للمضامين إجراءاً هاماً وصعباً، ولنقدم مثالاً عليه. عرض علي شاب الحلم التالي:

(١) نشر بيير جانيه (Pierre Janet, **Médications psychologiques**, Alcan, 1928, pp. 85-6) ملاحظات توضح الظاهرة جيداً باسم «السرحان النومي التام» somnambulisme complet. (رك)

(٢) من اليونانية euriskein تعني heuristique ما يرمي إلى الكشف أو ما ينحو نحو التفتيش. (رك) - ونضيف بأن الكلمة اليونانية تشير إلى طريقة تربوية تسدد خطى الطلاب فيكتشفون الأشياء بأنفسهم. (م)

هذا المثال يشرح الفرق بين فرويد ويونغ في طريقة النظر للاحلام وتفسيرها.

يغادر والدي المنزل في سيارته الجديدة لكنه يقود برعونة عظيمة وهذه الحماقة تغيظني : فهو يسير على نحو متعرج ثم يعود القهقرى ويكاد يتلف السيارة وينتهي بتحطيم جدار ساحقاً السيارة . أصرخ فيه وقد تولاني غضب شديد بأن يتصرف بتعقل وعندئذٍ يقهقه والدي فأتبيَّن بأنه ثمل تماماً .

إن الحلم لا يقوم على أي حدث واقعي من هذا النوع وإن الحالم واثق من أن أباه حتى وإن كان ثملاً ما كان ليتصرف على هذا النحو قط فهو نفسه سائق شديد الحذر وجد معتدل من جهة الكحول وبخاصة عندما يجب عليه أن يسوق ولا شيء يسخطه مثل السائقين الرعناء والأجنحة المهشمة ؛ والروابط بين الأب وابنه كأحسن ما تكون ، فالحالم معجب بأبيه الذي نجح في حياته أيّما نجاح . وبدون بذل مجهود يذكر للتفسير يبدو واضحاً للعيان بأن الحلم يرسم صورة عن الأب غير مؤاتية كأكثر ما يمكن . فما المغزى من هذا الحلم في نظر الابن ؟ وبأي معنى يُجاب على هذا السؤال ؟ أتكون علاقاته مع أبيه جيدة في الظاهر وحسب ؟ أو يجب ألا يُرى فيها في الواقع إلا مقاومات معاوَض عنها ؟ وبهذا الخيار يشتمل مضمون الحلم على إعلمة إيجابية ويجب القول : «هاك في الواقع أي علاقات هي العلاقات بينك وبين والدك .» غير أن العلاقات الحقيقية بين الأب والابن إذ لا تشهد بأي لبس عصابي فليس من المبرر تكدير مشاعر الشاب بتصور بمثل هذا التخريب . فقد يكون ذلك من وجهة النظر العلاجية خطأً فاحشاً .

ولكن إذا كانت العلاقات بين الأب والابن حسنة حقاً لِمَ يتعين على الحلم أن يختلق قصة مستبعدٌ وقوعها كهذه كفيلة بإخزاء الأب ؟ وهذا الحلم لا يمكن إلا أن يلبي نزوعاً قائماً في خافية الحالم ، فهل ثمة رغم كل شيء بعض المقاومات قوامها الحسد أو أي سبب دنيء آخر ؟ قبل أن نصمم على اتهام واعية الشاب الأمر الذي لا بد أن يؤدي لدى الشباب الحساسين إلى عواقب خطرة أحياناً فلا نتساءلنّ «لأي سبب» بل «بأي قصد» حلم الحالم بما حلم ؟ قد يكون الجواب على هذا السؤال الثاني : إن خافية الحالم تزعم علناً الحط من الأب وإذا كان هذا الانتقاص واقعاً معاوضاً ضرورياً حالياًفإن الخلاصة التي تفرض نفسها هي التالية : إن العلاقات بين الأب والابن ليست حسنة وحسب بل **هي مفرطة في الحسن** . على أن حالمنا في الواقع هو من يسميه الفرنسيون «ابن أبيه» fils à papa ممّن يمعن في العيش تحت الكنف الأبوي ما أدعوه **حياة مؤقتة** ؛ فههنا يكمن له خطر محدد : فمن فرط الحماية الأبوية يجازف الشاب بعدم تمييز طبيعته وتفويت حقيقته الخاصة لذا فإن



Scanned with CamScanner

الخافية تعمد إلى هذا التجديف العجيب الذي ينتقص من شأن الأب ويرفع من شأن الحالم وهي طريقة لا أخلاقية بحق ! والأب القصير النظر قد يرى فيها سبباً للتشكي ومع ذلك فإن الحلم عبارة عن معاوَضة شافية للغاية من حيث إنه يخلق بين الأب والابن معارضة لا يحتاز الابن بدونها وعياً بنفسه .

ولقد كان هذا التفسير الأخير هو الصائب له وقع حسن أي أنه حاز بعفوية على موافقة الحالم بدون أن تتأذى بذلك أية قيمة حقة وهامة لا عند الابن ولا عند الأب. بيد أن هذا التفسير لم يكن ممكناً إلا باستنطاق متتابع لمختلف عناصر الظواهرية الواعية المحدِّدة للعلاقات بين الأب والابن . فلولا معرفة الموقف الواعي لبقي معنى الحلم الحق معلقاً .

إن لمن الأهمية بمكان بقصد مماثلة المضامين الأحلامية ألا تتأذى أية قيمة حقة من قيم الشخصية الواعية فكيف بدمارها ؟ فإنه **إذا قُلِّصت الشخصية الواعية لا يبقى أحد إن صح التعبير ليكون قادراً على المماثلة** . وليس للاعتراف بالخافية من شيء يشترك فيه مع واحد من هذه القلاقل الاجتماعية التي تمجّد أوضع ما كان فيها وبالعكس معيداً بذلك إلى نصابها تلك الحالة عينها التي قصد تحسينها . ويجب السهر بدقة على بقاء قيم الشخصية الواعية من حيث إن المعاوضة بالخافية ليست ناجعة إلا بالتعاون مع واعية تتمتع بسلامتها . وإبان المماثلة ليس الأمر أبداً أمر البديل : إما هذا وإما ذاك ، بل دائماً أمر **تقريب هذا وذاك** .

رموزية الأحلام

لا غنى لتفسير حلم ما عن امتلاك معرفة صحيحة بالموقف الواعي الذي يقابله ؛ كذلك لا يقل عما سبق أهمية لسبر رموزيته أخذ القناعات الفلسفية والدينية والأخلاقية للفرد الواعي بعين الاعتبار . ومهما أوصينا بعدم النظر في رموزية الحلم في ا لممارسة من حيث الدلالات الرموزية أي بعدم رؤية علامات أو رموز ذات مدلولات ومزايا ثابتة في الأحلام فإننا نبقى مقصرين ؛ فرموز الحلم بما هي رموز حقيقية هي التعبيرات عن مضامين لم تعقلها الواعية بعد ولم تحصرها في

Scanned with CamScanner

صياغة مفهوم ما . وعلاوة على ذلك فإنه يجب النظر فيها من منظور نسبيّتها بمقتضى الموقف الواعي الآني ولقد قلت إن من المفضل التصرف هكذا في الممارسة ؛ أما نظرياً فثمة رموز مغزاها يكاد يكون ثابتاً إنما ينبغي الاحتراس بعناد إبان التفسير من الربط بينها وبين أشياء معلومة ومفاهيم منحوتة سلفاً ؛ على أنه لولا وجود مثل هذه الرموز ذات المغزى الثابت من حيث المبدأ لتعذر علينا تحديد أي شيء عن بنيان الخافية ولما تمكنت جهودنا في التمييز من التعلق بأي شيء مستقر .

قد يستغرب المرء كوني أعزو حتى إلى الرموز الثابتة نسبياً مضامين ذات طابع غير متعيّن ؛ فلولا عدم التعين هذا لما كانت هذه الرموز رموزاً إنما علامات أو أعراض . وإن المدرسة الفرويدية كما هو معلوم تفرض وجود «رموز» جنسية جامدة (أي في هذه الحالة علامات[1]) وتعزو إليها بتة واحدة مضمون الجنس الواضح في الظاهر . لكن مفهوم الجنس بالدقة عند فرويد ذو قابلية للامتداد لا حد لها وهو بالتالي من الإبهام والغموض بحيث يمكن للمرء أن يُدخل فيه كل ما يشاء . إن للكلمة قطعاً صدى معروفاً لكن الشيء الذي تومىء إليه يبقى مع ذلك مجهولاً مغرياً يتعذر تحديده يتنوّع بين أقصيي نشاط غدّي طبائعي وبين اللوامع الجليلة لأرفع روحية . لذا أفضل الوقوف عند فكرة أن الرمز يومىء إلى كيان مجهول يصعب اكتناهه ، وفي آخر المطاف ليس قابلاً للتحديد بالكلية قط ، على الاستناد إلى قناعة عقائدية مشيدة على وهم أن مصطلحاً تألفه الأذن يشير بالضرورة إلى شيء معلوم . ولنأخذ مثالاً على ذلك الرموز المسماة بالقضيبية التي لا تومىء على حد زعمهم إلا إلى العضو المذكر غير أنه من وجهة نظر المنظومة النفسية يبدو الذكر نفسه رمزاً لمضمون آخر يصعب تحديده[2] ، يوضح ذلك كون الأقدمين والبدائيين الذين كانوا يستعملون الرموز القضيبية بسخاء كبير لم تخطر لهم في بال قط فكرة الخلط بين القضيب phallus بما هو رمز طقسي[3] وبين الذكر أو الأير ؛ فلقد أومأ

(١) نذكّر بأن العلامة signe ظاهرة مدرَكة تفصح عن ظاهرة غير مدرَكة بحيث أن الدخان المرئي علامة على النار غير المرئية . (عن : E. Baudin, op. cit.) (رك)

(٢) بيّن ذلك كرانفلد Kranefeld في مؤلف حديث :

Komplex und Mythos in C.G. Jung, **Seelenprobleme der Gegenwart**, Rascher, Zurich, 1931.

(٣) القضيب Phallus: «تمثيل للعضو المذكر كان يُحمل في موكب أعياد أوزيريس في مصر وذيونيسوس في اليونان الخ . كان القضيب شعاراً للقوة الخالقة للطبيعة .» تلكم هي المعلومات

Scanned with CamScanner

القضيب منذ أقدم الأزمان إلى «المانا» mana الخلّاق «الخارق النجاعة» بحسب تعبير لِهْمن Lehmann وإلى القوى المخصّبة والطبابية المعبَّر عنها أيضاً على نحو مكافىء بالثور والحمار والرمانة واليوني Yoni[1] والتيس والبرق وحدوة الحصان والرقص والمواقعة السحرية في الحقل والحيض وأيضاً كما في الحلم بحشد من المقايسات الأخرى.ففي أصل هذه كلها ومن جراء الجنس أيضاً تظهر صورة عينية ثابتة ذات طابع يصعب التعريف به ويبدو رمز «المانا» البدائي الخاص به أقرب ما يكون منها من الوجهة النفسانية .

إن هذه الرموز كلها ثابتة نسبياً بدون أن يكون لنا من أجل ذلك أمام حالة عيانية اليقينُ البدري بواجب تفسيرها هكذا في الممارسة حيث يمكن للضرورات أن تكون من نسق آخر تماماً . فإذا كانت مهمتنا تفسير حلم على نحو نظري أي بالغوص في عمق الأشياء بكل حيل العلم ينبغي علينا أن نربط بين هذه الرموز وبين أعيانها الثابتة.غير أن هذا قد يكون في الممارسة غلطاً بالدقة إذ ربما تطلّب الوضع النفساني الآني للمعاود إجراءات مختلفة بالكلية عن استطرادات حول النظريات الأحلامية . لذا يجب التوصية بأن يؤخذ في الممارسة بعين الاعتبار المغزى من الرموز المتصل بالموقف الواعي أي باستعمالها وكأنها ليست مستقرة على حال ، وبعبارة أخرى **فلُيتخلَّ عن كل علم مسبق وليُحذر من كل اكتفاء معصوم وليُفتّش عما تعنيه الأشياء للمريض** ! وبذلك فإن التفسير النظري بالطبع يدور في مجال ضيّق ولا يجاوز عموماً بداية وجلى.ولكن إذا أسرف الطبيب في الانقياد لتدبّر رموز ثابتة فإنه يتحجر في الدواليك وفي عقائدية مرعبة تحجب عنه مراراً واقع المريض الحي.وإني لآسف لأني لن أستطيع أن أعطي مثالاًقد يتطلب من التفاصيل الشاملة ما لا أطيق أن أثبته في إطار هذا العمل ومن ثم فإني قد تناولت هذا الموضوع في منشورات أخرى[2] .

غالباً ما تتسم بداية المعالجة بحلم يكشف للطبيب برنامج الخافية بكل سعته ، إنما لأسباب من نسق عملي يتعذر تماماً جعل المريض يستشف المغزى

yoni

التي يقدمها مثلاً قاموس Quillet . (رك)

(١) كلمة سنسكريتية تعنى العضو المؤنث أو المهبل ، ويقابلها اللنغم Lingam (القضيب) . (م)

(٢) انظر بخاصة اعلاه ، ص ٢٣٤ .

Scanned with CamScanner

العميق لهذا الحلم ؛ فالاعتبارات العملية ههنا أيضاً هي التي تقيدنا وإن معرفة الرموز المستقرة نسبياً هي التي يدين لها الطبيب بفهمه للحلم من حيث لا يدري مريضه ، وقد تكون لهذا الفهم قيمة كبرى من أجل التشخيص والإنذار . ولقد استُدعيتُ يوماً إلى قرب فراش فتاة في السابعة عشرة من عمرها وكان اختصاصيٌ قد تحدث عن ضمور عضلي متدرّج في بدايته بينما مال آخر إلى الهستيريا الأمر الذي حدا إلى استدعائي مستشاراً . لقد كانت الحالة تبرر جسمانياً كل الشكوك غير أنها كانت تبدي أيضاً أعراضاً هستيرية وعندما استجوبت المريضة عن أحلامها سرعان ما أجابتني : بلى ، إني أرى أحلاماً مريعة وقد رأيت لتوي فيما يرى النائم ما يلي :

أؤوب ليلاً إلى البيت حيث يخيم صمت الموت ؛ باب غرفة الاستقبال مشقوق فألمح أمي مشنوقة إلى الثريا تتأرجح طوع الريح الباردة الداخلة من النافذة ثم أحلم بأن ضوضاء مرعبة تترجع في البيت ليلاً وإذ أستخبر عما يجري أكتشف بأن حصاناً ممسوساً يعدو في الشقة وعندما يجد أخيراً باب الرواق يندفع من نافذة ممر الطابق الرابع إلى قارعة الطريق وأراه هلعة ممدداً على الأرض محطماً .

إن طابع هذه الأحلام المشؤوم بحد ذاته ليلفت الانتباه ويحذّر ولكن منذا الذي لم ير كوابيس عند الحاجة ؟ فلندرس عن كثب مغزى الرمزين الرئيسيين رمز «الأم» ورمز «الحصان» فلا بد أن الأمر متعلق بكيانين متكافئين بما أن كلاهما يسلك على نحو مشابه منتحراً . إنما الأم عين ثابتة تستحضر الأصل والطبيعة والخلق المنفعل passive (ومن هنا المادة matière من materia[1]) وبالتالي أيضاً الطبيعة المادية والبطن (الرحم matrix) والمظهر الغريزي المحرّض والجانب الطبائعي والجسم الذي نقيم فيه ويحتوينا ، فإن «الأم» وعاء وشكل مجوّف (كالبطن) يحمل ويقيت وهي إذن تجسد أيضاً الاشتغال النبوتي végétatif (الذي تترأسه) وبعبارةنفسانية الخافية بما هي أسس الوعي . وإن جوانية الثمرة

(١) في اللغات الهندو أوروبية تشتق كلمات materو materia و metrum من الجذر السنسكريتي –ma (–matr) . وفي السنسكريتية نفسها يعطي هذا الجذر mata (أم) و maya (العالم الطبيعي ـ الوهم) .

وإن معنى هذا الجذر المشترك –ma هو «القياس» أو «الإحصاء» ، بما يعطي مصطلح maya معنى «العالم بوصفه مقاساً» ، أي بوصفه مقسماً إلى أشياء وأحداث أو أنساق قابلة للإحصاء . (م)

Scanned with CamScanner

المحتواة في الأم لتستحضر علاوة على ذلك الظلام الليلي المكرب (الضيق). وهذه الإلماعات كما نرى تنطوي على جانب لا يستهان به من التطور الأساطيري والاشتقاقي لمفهوم «الأم» أو حتى على جزء أساسي مما تسميه الفلسفة الصينية الينْ Yin[1]. وهذا لا يمكن أن يكون مكتسباً فردياً لهذه الفتاة ذات السبعة عشر عاماً من حيث إننا نقع على ميراث جماعي لا يزال حاضراً وحياً في اللغة من جهة وممثلاً من جهة أخرى في البنيان الوراثي للمنظومة النفسية وإننا لنقع عليه بالتالي لدى الشعوب قاطبة في كل الأزمنة.

تبدو كلمة «أم» هذه ذات الصدى المألوف جداً مرتبطة بالأم التي يعرفها المرء كأحسن ما تكون المعرفة أي بالأم الفردية أي بـ «أمي» غير أنها بما هي رمز تضرب بجذورها في خلفية تتفلت بإصرار من كل صياغة مفاهيمية ولا يسع المرء أن يستشفها إلا على نحو مبهم على هيئة **وجود جسداني قريب من الطبيعة وسري** هو تورية هي أصلاً من الضيق بما يستبعد العديد من المظاهر البليغة التي لا غنى عنها. فإن **الواقعة النفسية الأصلية المؤسِّسة هي من التعقيد المذهل بحيث** لا يمكن استشفاف هذا التعقيد إلا بتمثيل حدسي ذي سعة هائلة، **وهذا بالدقة ما يتطلب وجود الرموز**.

إذا أحلنا إلى المنام المغزى الذي وجدنا لرمز الأم حصلنا على التفسير التالي: **الحياة الخافية تدمّر نفسها بنفسها** وتلكم هي الرسالة الموجهة إلى الواعية وإلى كل ذي عينين للنظر وأذنين للسمع.

أما الحصان فهو عين ثابتة وواسعة الانتشار في الأساطيريات والتراث الشعبي وبما هو حيوان فإنه يجسد النفس غير الإنسانية وما دون الإنساني أي الحيوان فينا وبالتالي النفسانية الخافية لذا فإن خيول التراث الشعبي بصيرة وسميعة وحتى متمتعة بالنطق أحياناً.والخيول بما هي حيوانات حمّالة وثيقة الصلة

(١) يعزو التراث المشرقي الأقصى في جانبه الكوني أهمية رئيسية للمبدأين اللذين يشار إليهما فيه بإسمي يَنْغ yang ويِنْ yin: كل ما هو فاعل أو موجب أو مذكر فهو ينغ، وكل ما هو منفعل أو سالب أو مؤنث فهو ين. وهذان المبدآن مرتبطان رمزياً بالنور والظلمة؛ فالجانب المضاء من كل شيء هو ينغ والجانب المظلم منه هو ين؛ لكنهما، بما أنه لا يكون أحدهما بدون الآخر قط، متكاملان أكثر منهما متضادان. (م)

Scanned with CamScanner

بالعين البدئية للأم (الفلكيري Walkyries التي تحمل البطل الصريع إلى الفلهلا Walhalla ، حصان طروادة ، الخ .) والحصان بما هو حيوان يمتطيه الإنسان يستحضر البطن والبواعث الغريزية التي تنقضّ علينا ، والحصان إنما هو زخم ومَرْكبة ويقصد غايةً كالغريزة على حد سواء ، لكنه كالغرائز معرض للفزع بما أن الملكات النبيلة للواعية تعوزه ؛ والحصان قريب النسب بالسحر أي بالفعاليات اللا عقلية والتعاويذ وبخاصة الخيول السود بما هي خيول ليلية منذرة بالموت .

«الحصان» كما نرى مكافىء لـ «الأم» باستثناء فارق واحد يتمثل بانتقال المغزى من «الحياة الأصلية» (الأم) إلى «الحياة محض الحيوانية والجسدانية» (الحصان) . وبإحالة هذا المعنى إلى الحلم ينتج تفسير هو : **الحياة الحيوانية تدمر نفسها بنفسها .**

يُسمعنا المبحثان إذن رنين جرس يكاد يكون واحداً حيث يعبر الثاني عن نفسه كما هي عليه الحال عموماً على نحو أكثر نوعية. فلنلاحظ حصافة الحلم البالغة : **إنه لا يتحدث عن موت الفرد** ؛ فمن المشهور أن المرء يحلم بموته هو بسهولة ، وعندئذٍ لا يكون الأمر خطيراً . أما عندما تتعرض حياة المرء للخطر فإن الحلم يتكلم بلسان آخر .

يشير قسما الحلم إذن إلى مرض عضوي خطير وخيم العواقب ، وسرعان ما تأيّد هذا الإنذار .

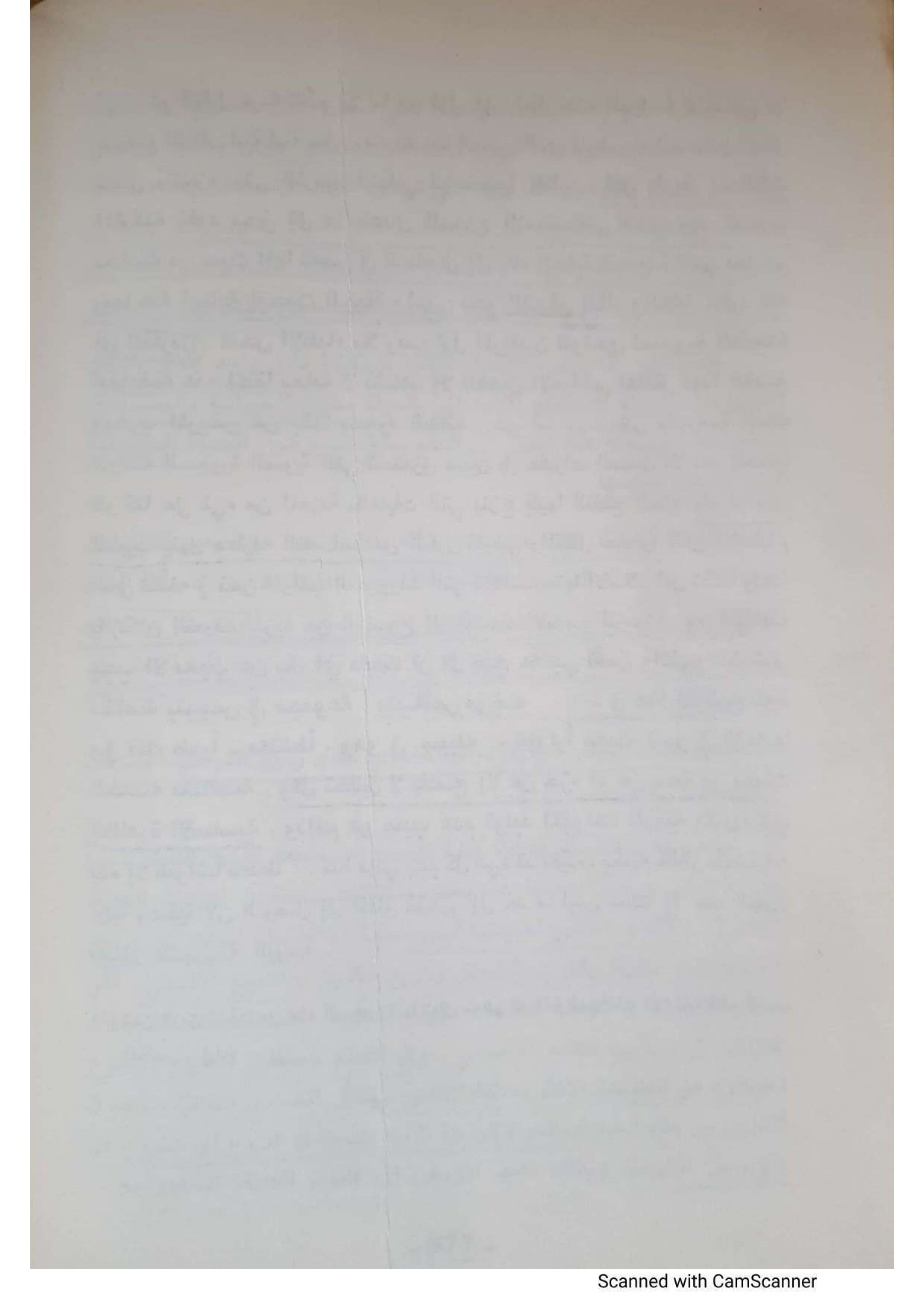
بوسع هذا المثال أن يعطينا فكرة تقريبية عن طبيعة الرموز الثابتة نسبياً وهي لا تحصى ويتميز بعضها عن بعض بانتقالات حاذقة في الفوارق الطفيفة والمعاني ، والإثبات العلمي لطبيعتها ليس ممكناً إلا بفضل أبحاث تُجرى على الأساطيريات المقارنة والتراث الشعبي وتاريخ الأديان والتاريخ الألسني . ففي الحلم أكثر مما في الواعية تتكشف طبيعة المنظومة النفسية، جملةُ التنضدات المتراكبة إبان تاريخ التفتح الإنساني . **وفي الحلم تُستَظهر الصور والمنازع الصادرة عن الطبيعة الأكثر بدائية للنفس** ،وبتمثّل المضامين الخافيّة نساهم في التقريب بين هذه الطبيعة والحياة الواعية الآنية المسرفة في النزوع إلى الخروج على النواميس الطبيعية **وبذلك نعيد المريض إلى قانون الحياة الخاص به .**

Scanned with CamScanner

لم أتناول فيما تقدّم إلا ما هو أولي فإن إطار هذه الدراسة لا يسمح لنا بتجميع اللبنات لبنة لبنة حتى يعاد تشييد الصرح الذي تنهض به الخافية إبان كل تحليل وتنجزه حتى الترميم النهائي للشخصية الكلية . **فإن طريق المماثلات المتتالية تقود بحق إلى ما يتعدى النجاح الاستشفائي الذي يهم الطبيب بخاصة من حيث إنها تفضي في الحاصل إلى تلك الغاية البعيدة التي بما هي ربما علة أصلية أوجبت الحياة وأعني نحو التحقق التام والكامل للفرد كله أي التفرد. فنحن الأطباء بلا ريب أول المراقبين الواعين لسيرورة الطبيعة الغامضة هذه لكننا بعامة لا نشاهد إلا الفصل الأمراضي المقلق لهذا التفتح ويغرب المريض عن بألنا بمجرد شفائه** . على أنّا لن نحظى بالفرصة الحقة لدراسة السيرورة السوية التي تستغرق سنين بل عشرات السنين إلا بعد الشفاء فلو كنا على شيء من المعرفة بالغايات التي ينزع إليها التفتّح الخافيّ ولو لم يكن الطبيب ينهل معارفه النفسانية من الطور المرضي والمقلق حصراً لكان الانطباع الذي تخلّفه في ذهن المراقب السيرورات التي تتكشف عنها الأحلام أقل تفككاً ولغدا بالإمكان التعرف بمزيد من الوضوح إلى المقصد الأسنى للرموز . **وبرأيي أنه يجب ألا يغيب عن بال أي طبيب أن كل نهج علاجي نفسي والنهج التحليلي بخاصة ينبجس في مجموعة ، بتناقص موجّه - في هذا الموضع تارة وفي ذلك طوراً - مكتشفاً ، وهو في سبيله ، أطواراً معينة تبدو في نزعاتها الخاصة متناقضة . وكل تحليل لا يفصح إلا عن جزء أو عن سمة من سمات الظاهرة الأساسية ، وذلكم هو سبب عدم توليد المقارنات الذمّية بادىء ذي بدء إلا شواشاً مقنطاً**[1] . كذا فإني رغم كل شيء قد تقيّدت بطيبة خاطر باعتبارات أولية وعملية لأن التوصل إلى اتفاق مُرْضٍ إلى حد ما ليس ممكناً إلا عند الجوار المباشر للتجريبية اليومية .

(١) نحن الذين نشدّد على هذه السطور لأنها تعلل معظم الفرقة والصراعات الداخلية لعلم النفس المعاصر . (رك)

Scanned with CamScanner



٨

من الحلم إلى الأسطورة

١[(١)]

الخافية الشخصية

ثمة إلى جانب منهاج التداعيات[(٢)] مناهج أخرى تسمح أيضاً بالوصول إلى الخافية وأولها كما رأينا قد يسّر لنا ولوج طبقة سطحية نوعاً ما هي خافية نسبية إذا صح القول أو لنقل **خافية شخصية**.فالمريضة التي اختطفت الحمى التيفية ابنها[(٣)] كان بوسعها إلى حد ما ـ ولا يتمالك المرء نفسه من الاعتقاد بذلك ـ أن تعي دوافع فعلها . تبيّن لنا هذه الحالة ما ينبغي علينا أن نتصوّره بمفهوم الخافية الشخصية من حيث كونها تشكل طبقة نفسية قوامها عناصر يمكن لها بالمثل أن تكون واعية لكنها لأسباب محددة ذات طبيعة جد متنوعة تبقى خافيّة . إن امتصاص الخافية الشخصية هذا لأحداث من حياتنا لهو عملة دارجة في أثناء عمرنا ، فعندما نركز انتباهنا كله على عمل ما يحتكر الطاقة النفسية المتوفرة فإننا لا نستطيع في الوقت نفسه أن نفكر في شغل آخر ، فهذا الشغل يتوارى عن أفقنا

(١) Introduction à la psychologie analytique (3ème partie)

للاطلاع على الجزئين الأول والثاني راجع ص ص ٥٩ و ١٠٥ .(رك)

(٢) المحاضرة الرابعة (تتمة) .

(٣) راجع ص ١١٥ . (رك)

Scanned with CamScanner

الآني إلى حد أنه عند تذكره مجدداً قد يُحدث ما يشبه الصدمة فينا؛ ويعود هذا التواري التام والمتكرر إلى كون طاقتنا النفسية عاجزة عن المحافظة بدرجة كافية من الوعي على عدد كبير من العناصر. فيتعيّن علينا أن نستعمل كمون الطاقة النفسية الذي في حوزتنا لإضاءة مالا غنى عنه إضاءة شديدة بحيث يبقى الإضافي في الظل حيث بمرور «الزمن الذي يسكب على كل ظل ظلاً أشد سواداً»[1] لا نميزه بعد وحيث يُركن في زاوية النسيان. إن هذا المجال المظلم أو «تخم الوعي» هذا كما يسميه و. جيمس هو الذي يلجه اختبار التداعيات. على أن من البداهة ألا يكفي في حالات عديدة إظهارُ العناصر النفسية التي يمكن لها أن تكون واعية بالمثل تماماً. ففي أحد أمثلتنا وهو مثال الأرملة ذات السنين الست والخمسين اكتشفنا[2] بفضل اختبار التداعيات أن هذه المرأة تبكي رحيل ابنها وبذلك لم نلج إلا مجالاً بوسع أشخاص متعقلين ومستبطنين أن يتوجهوا شطره ولكن ليس قط إلى ما يتخطاه، لكن ما جعل اختبار التداعيات ضرورياً في هذه الحالة أن الأمر كان متعلقاً بامرأة كلها طمع لم تكن تريد أن تعترف لنفسها بأنها كانت متسلطة على ولدها. فإنه من المضني عند أشخاص يحيرهم الضعف المعنوي ويغلب عليهم الخوف من الحقيقة أن يُرغَموا على الإدلاء بمثل هذه الاعترافات ومصارحة أنفسهم بها، بيد أن الحس المشترك لا يسعه إلا أن يقول في نفسه بأن المريضة كانت تستطيع أن تعي بواعث محنها؛ فإن اختبار التداعيات لايجعلنا ننفذ من وجهة النظر العلاجية بما يكفي من العمق لأنه يجب دوماً طرح التساؤل الجوهري حول معرفة ما يتوارى خلف هذه التعقيدات «البشرية المفرطة في البشرية». لقد كانت هذه المرأة قطعاً قد أمعنت في حصار ولدها وكانت تتمنى في قرارة نفسها أن تبقى المالكة الوحيدة لهذا الابن - العاشق، ولكن ما الذي كان يحفز فيها هذا التعلق المفرط؟ إذا وجبت عليّ معالجة هذه المريضة ليس يكفي قولي لها إنها قامت بنقلة وجدانية وإن ابنها كان يلعب في نظرها دور العاشق البديل فهذا قد لا يسعفها علاجياً في شيء يذكر؛ فحتى تُجديها

(١) V. Hugo, Oceano nox. (رك) - هذا البيت من قصيدة ليل المحيط لفكتور هوغو من مجموعته الأشعة والظلال Les Rayons etles Ombres. (م)

(٢) انظر ص ١٣٩ . في المناقشة المنقولة التي حلت محل تجربة بحصر المعنى لعبت كلمة Noël (مولد المسيح - م) دور الكلمة الحاثّة. (رك)

Scanned with CamScanner

محادثاتنا نفعاً يتعيّن علي أن أكون على بصيرة من طبقات نفسها حيث تقيم البواعث التي طوّعت موقفها والتي وحدها تفسّر لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد . على أن اختبار التداعيات بعامة لا يلج عمقاً كافياً للإتيان بالتوضيحات الضرورية ؛ فلعل هذه المرأة كانت تعاني أصلاً من مركب أبوي قديم ؛ فهذا قد لا يظهر بوضوح في اختبار تداعيات عندما تُختبر لأن المركبات المتعلقة بالإبن هي المتحيِّنة actuels على الصعيد الأول وليس المركبات المتعلقة بالأب،لذا فإن تصريحات الاختبار تعود أساساً إلى الإبن فيما يبقى المركّب الأبوي أولاً في الظل بحيث قد لا نستشفّه إلا في اختبار لاحق بمجرد أن تُصفّى المشاكل المتعلقة بالإبن فلا يتاح لنا تبيُّنه إلا حينئذٍ . غير أني لست راغباً في القطع بأن هذا ما سيحدث.لكن هذا الاحتمال هو الأرجح والأكثر مؤاتاة مع أنه يتطلب آجالاً طويلة قبل أن يتحقق . لكن الوقت والحالة هذه عامل أساسي ؛ لذا فإن العلاج النفسي قد وجّه أنظاره باكراً حتى قبل فرويد بوقت طويل إلى الأحلام .

كان أطباء العصور القديمة يعلقون وزناً كبيراً على الأحلام فكانوا يفترضون أن بوسع هذه أن تدلي عند الاقتضاء بإفادات عن طبيعة المرض وبذلك فإن عدداً كبيراً من أحلام العصور القديمة قد وصلنا من نحو الأحلام التي جمعها «الأُساة» Thérapeutes الذين كانوا يشكلون نحلة تقطن في أغوار الأردن وعلى ضفاف البحر الميت ولقد وصلنا بعض أنبائهم ؛ فقد كانوا يستشارون عادةً عندما كانت تفرغ جعبة العرافين الرسميين في البلاطات أو لا يقدّمون خوفاً من المسؤوليات إلا تفسيراً محلّى . ولقد كان هؤلاء الأساة يجترحون أشفية عديدة بفضل العلاج النفسي كما يهتمون بالأحلام اهتماماً دقيقاً وأغلب الظن أن القديس يوحنا المعمدان كان واحداً منهم .

توازي الأحلام والمركبات

إنما الأحلام تجليات فيما لو نُظر إليها عن كثب تقابل المركبات ، فالحلم ينبثق في اثناء النوم الذي يلقي بنا في لا وعي ظاهري لكنه يترك لنا مع ذلك بقية من النشاط النفسي تقوم بأود سياق التخيّل الأحلامي وبتثبيته الغامض حقاً بذكرى

Scanned with CamScanner

ما ؛ بل إن شيئاً من التعقل ليس بالغريب عن الحلم ففيه ينقاد المرء للافتكار متسائلاً عن مغزاه وعن مصدره وعما تنشده الصورة التي يدركها حيث تكفي البقية الباقية من الوعي في أثناء النوم بالمناسبة كل هذه العمليات . وإن الأحلام لتتفجر في حالة الوعي الشفقي الناجمة عن النوم مثلما تتفجر المركبات في الوعي التام ؛ وهذا التوازي المسجل بين الأحلام والمركبات والحاث على تقريب بعضها من بعض ليتوضح كذلك بالوجدانية القوية التي غالباً ما تتسم بها الصور الأحلامية والتي هي بالمثل كما رأينا من صفات المركبات ؛ فهذه علاوة على ذلك متى داهمتنا لا تَمْثُل في ذهننا قط بهيئتها التامة ووحدها بضع قليلة منها تبلغ الواعية . فإذا كانت ذكرى أحد الأحداث تتعقبنا فإن نتفاً من النقاش مثلاًهي التي تخطر في بالنا : «قالت عندئذٍ .. فأجبتها ...» فهكذا يدبّج مركب حواراً على النحو الذي جرى أو كان يمكن أن يجري في الواقع ، كذلك بعيد جدل يواصل المرء وحده مناقشته طوال ساعات مقابلاً بين الطرائح والنقائض . وليس هناك كبير فارق بين المسعى الخاص بالحلم الذي يصمّم جزئياً منشآته بمعونة عُدد مكتسبة سابقاً بعد أن تكون بعض القواعد الأحلامية بحكم توسّطها قد أتت لتقحم بين الحلم والحياة النهارية انقطاعاً أو تصدّعاً يفتح الباب على تنوع زاهٍ . فليعش المرء في النهار فصلاً مؤثراً وليكن متأكداً حين تكون الحالة النفسية جيدة أنه سوف يحلم ليلاً - إذا حلم - بشيء مختلف بالكلية . كذا فقد لوحظ بأن الخطيبين قلّما يحلم واحدهما بالآخر وإذا حدث ذلك فغالباً ما يكون إعلمةً بوضع إشكالي من حيث إن الأحلام تبعد عموماً الصور التي تستدعي انفعالات قوية جداً . وها كم أمثلة أخرى على الانقطاع المعتاد بين الحياة النهاريةَ والصحو : لقد لاحظت ، وقد دوّنت كل أحلامي في أثناء بعثتي إلى أفريقيا ، بأني لم أحلم بزنجي قط إنما فقط بأناس بيض ولم أسجّل إلا الاستثناء التالي :

قدم عليّ زنجي حاملاً مكواة ضخمة للشعر ونصح لي بتقصير شعري وتجعيده وكان يرتدي سترة بيضاء .

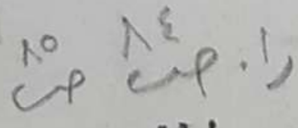
ولدى استيقاظي تساءلت عن المكان الذي اتفق لي أن رأيت فيه هذا الرجل ؛ لقد كان هذا في الولايات المتحدة وكان حلاّقي المعتاد ! لقد شوهد في أثناء الحرب أن الجنود ما داموا يحلمون بأوطانهم فإن كل شيء كان على ما يرام وبالمقابل كان من

Scanned with CamScanner

المعلوم أنه يحسن سحبهم من الخطوط الأمامية حالما يطفقون يحلمون بالحرب والانفجارات ؛ وبالفعل فإن غالبية المقاتلين ، ما ظلت حالتهم النفسية مُرضية ، كانت تحلم بمنازلها وبالحياة المدنية وليس بالحرب قط ؛ وهذه الأمثلة تشهد على الانقطاع الذي يعارض سوياً المد غير المشروط في الحلم للأحداث والمركبات المعاشة في الحياة الواعية .

مهما يكن من أمر فإن بوسعنا القول إن الأحلام بالطريقة التي تظهر بها تشي بقرابة فريدة بالمركّبات إذ يمكن لحلم مزعج أن يتعقبك طوال اليوم التالي مفسداً عليك مزاجك ويومك أو حتى أنك قد تستيقظ في غمرة حلم يتركك نهباً لأوجاع الرأس أو اشمئزاز غير معلل الخ . فالأحلام في الواقع ليست قط بهذا القدر من السخافة الذي يزعمون عادة . ولقد ولع فرويد بالأحلام لأنه استشف بأنها تحتوي على عُدد تتعلق بالمركبات وتُقارن بها فلم يأل جهداً في صوغ فن ييسّر بلوغها هو **منهاج التداعيات الحرة** وهو عبارة عن التقاط مختلف صور حلم ما واحدة إثر واحدة وجمع فيما يتعلق بكل منها كافة الأفكار التي تحضر على ذهن الحالم بالارتباط مع هذه الصورة ، ولقد كان من الممكن للمنهاج أن يكون ممتازاً لولا أنه تسربت إلى تطبيقه مصادرات نظرية ما يزال يتعين علينا مناقشتها[1] ولو أُخذت كذلك بالحسبان الوقائع التالية : إذا حدد المرء بدءاً من منطلق ما سلسلة من التداعيات فإنه يتوصل حتماً إلى مركب بدون حاجة إلى حلم لهذا الأمر ، ولقد اختبرنا ذلك باستعمالنا كلحمة للتداعيات أتفه الموضوعات كتحذير بلدي مثلاً : «ممنوع تحت طائلة المخالفة ...» وحتى كتابة روسية فما إن تُذكر بضع حلقات تداعوية إلا ويُتَعثّر في المركبات التي لا جدوى من الأحلام لكشفها . لقد كان هم فرويد المركزي منصبّاً على الوصول إلى مركبات ولقد استعمل الأحلام لهذا الغرض

(١) لقد أدت نظرية الجنسية وغيرها من المصادرات النظرية الأخرى إلى إرهاق التحليل النفسي الفرويدي وغدت ما أدركه الجمهور منها بخاصة ، أما إنزال فرويد هذه المصادرات منزلة العقائد فيعود في نظر يونغ كما قال لنا إلى أن فرويد كان امرءاً من نمط العاطفة ـ أي رجلاً كانت العاطفة لديه هي الوظيفة الأثيرة إليه ـ وهي عاطفة ما فتئت طوال حياته تصاب بجروح . أما الفكر فلم يكن لدى فرويد إلا وظيفة تابعة الأمر الذي يفسر تجاهله لعبة الفرضيات من حيث إن الفكر متى كان تابعاً تلطّخ وهو يخطر على الذهن بكل الصفات الخاصة بالكشوف أي أنه يتّسم بطابع بداهة داخلية تجعل كل مناقشة لها من قبيل الحشو . (ر ك)



استعمالنا للتحذير البلدي بدون أن يتساءل في الواقع عن مغزى الأحلام التي كان يستعملها بحد ذاتها.ولقد كان بوسعه كما قلنا أن يستعمل بالمثل ورق اللعب أو صفحة معجم الخ . ذلك أنه يمكن للتداعيات الحرة أن تهمل مضمون الحلم كل الإهمال وتغوص في المركبات التي ليست أساسية بالضرورة . نحن هنا بالفعل في مجال مُعجِز الغنى بإمكانات الوقوع في الغلط وإن ضلالة ممكنة هي التدرّع بمركبات صغرى بغية ستر أخرى أشد إضناءً فيقر المرء بمركبات يعرف أنها هينة في الحقيقة إلى حد ما ـ الخطايا العرضية [1] ـ فيما يصمت عن الشيطنة المقصودة فعلاً . فثمة قوم يبوحون لك بطيبة خاطر بكدسة من السواد قائلين لك : «هاك أيَ امرىء أنا!» بحيث لا يكون هذا الاعتراف غالباً إلا ذريعة لستر رجس ـ خطيئة مميتة حقاً ـ يسعى إلى صرف المراقب عنه . أما الأحلام فتتناول وقائع أساسية ونوعية وناجعة وراء ما يمكن أن تتصف به طبيعة كل امرىء من ا لخرع والإثم إجمالاً.لذا فإن الهدف الذي يجب أن ترمي إليه التداعيات الحرة التي أتفق معها فيما عدا ذلك كل الاتفاق هو تفسير حلم وليس بلوغ صهارة المركبات الهاجعة في كل حالم [2] ، وبالتالي فإن على التداعيات أن تُقنَّى محدودة بالمحيط المباشر للحلم أي بالعناصر التي ترتبط به ؛ لذا ينبغي التقيّد بمبدأ عدم الاحتفاظ إلا بالعُدد التي تتجمع حول التمثيل الأحلامي الواجب تبيانه والتي تشكل سياقه وليس بالعدد القابلة رويداً رويداً للامتداد إلى اللا نهاية إذ يجب غض الطرف عن التداعيات التي تفيض عن مضمون الحلم.فعندما يتحدث الحالم وقد حلم بقاطرة مثلاً عن خط حديدي ثم يعبر إلى سيبيريا فإلى البلاشفة وصولاً الى عصبة الأمم فهذا في غير محله ولا يعني شيئاً بعدُ بالنسبة إلى الحلم لأن لكلٍ أن يفعل مثل ذلك انطلاقاً من أي شيء ؛ فما أرغب في معرفته هو ما تعنيه القاطرة للحالم شخصياً ولذلك فإن على تداعياته ألا تغالي في الحياد عن هذه القاطرة فإني لا أخشى سؤال الحالم مثلاً : قل لي إذن ما تذكّرك به قاطرة .

(١) المقصود بها الخطايا غير المميتة ـ والتعبير تهكمي كما هو واضح . (م)

(٢) على المعالج النفسي في الممارسة أن يجتهد أقل في جمع شهادات جديدة من حالة معطاة لصالح مركبات ـ توجد في الجميع بدرجات متفاوتة ـمنه في السعي إلى معرفة ما تفعل خافية معاوده بالمركبات التي فيه وما يتحضّر فيها .

Scanned with CamScanner

ـ لقد رأيت مؤخراً واحدة ضخمة جداً وهذا ما يخطر في بالي .

ـ هب أنني لا أعرف البتة ما هي القاطرة فاشرح لي ما هي وما هو رأيك فيها .

الحلم ليس واجهة[1]

قد يحدث عندئذٍ أن يروي لكم الحالم قصة ممتعة وأن يعطيكم تعريفاً يتضمن عرضياً المغزى الذي تحمله القاطرة في حلمه من حيث إن القاطرة في الحلم قاطرة بحق وهذا التوكيد يشكل أيضاً **فارقاً أساسياً بين تصوري وبين تصور فرويد عن الأحلام** ، فالحلم كما تقول القبالة Qabbalah[2] حلم بحق ويحمل مغزاه في ذاته والحلم هو ما هو وبالكلية وفقط ما هو ؛ فالحلم ليس واجهة وليس شيئاً مصنوعاً أو متكلَّفاً وليس تمويهاً بل هو بناء مُنجَز[3]. وعندما تُعتمد فرضية أن الحلم هو ما هو هذه وأنه يتماسك في ذاته ككل يمكن الوقوع في كل حالة خاصة على التحديد الضروري للتداعيات الحرة وهو تحديد سيبقينا دوماً ضمن سياق الحلم وضمن لحمته وضمن جواره المباشر[4] .

بدلاً من أن أخوّض في التجريد أفضل أن أبين بمثال عملي طريقة الدنو من أحد الأحلام ، والحلم الذي أنوي التعليق عليه قد سبقه حلمان آخران سبق لي أن رويتهما في فصل آخر من هذا الكتاب فليتفضل القارىء بالعودة إليهما في **الاستعمال العملي للتحليل الأحلامي** (ص ٢٠٥ ، الفقرة : «يأتيني رجل رفيع المنزلة الاجتماعية ... حتى ص ٢٠٦ ... بحيث أن الكارثة المستشفة أصبحت واقعاً») .

لقد استغرق الادّكار anamnèse ورواية هذين الحلمين تقريباً كل الاستشارة الأولى التي حاولت حوالى نهايتها إبلاغ المعاود بتصوري الذي لم يحظ برضاه وقد

(١) راجع ايضاً علم النفس المركب ، ص ٧٧ . (م)

(٢) باطن الموسوية او التصوف الإسرائيلي . (م)

(٣) إن فكرة ان الحلم يواري شيئاً ما فكرة تشبيهية anthropomorphique!

(٤) راجع ايضاً بصدد «التداعيات الحرة» : اعلاه ص ٢١٤ . (رك)

Scanned with CamScanner

شعرت بأنه كان يظن أنه يعلم خيراً مني بكثير ما ينبغي فعله ، لكن موقفاً كهذا لدى مريض لا ينال من هدوئي فاكتفيت بقولي له : «يمكن بالطبع أيضاً تصور الأشياء من زاوية أخرى ؛ أتمنى لك نوماً هنيئاً وهضماً جيداً!» عالماً حق العلم مسبقاً بأن شيطانه الشخصي لن يعفيه من الأمر عند هذا الحد وأنه سيحمله بنخسه على إعادة النظر في آرائه لذا فإن كل ما كان بإمكاني أن أضيف سيكون حشواً ؛ قلت لنفسي إن خافيته سوف تلحف في مطاردته وتضايقه في معاقله الحالية على نحو أرقّ بما لا يُقاس من أجمل أحاديثي . ولكن فلنصل إلى الحلم الذي نريد تحليله بالكلية :

يلفي الحالم نفسه في مزرعة فلاحة مجهولة فيحكي لها بأنه يعتزم النهوض برحلة طويلة حتى لا يبزيغ.يجب أن يقوم بها مشياً وترمقه الفلاحة بعينين كبيرتين معجبتين الأمر الذي يروق له.وفي هذه اللحظة ينظر من النافذة ويتأمل الحقول حيث كان الحصادون في غمرة العمل وفجأة في خلفية هذا المشهد . بينما كان الحالم في الخارج ظهر إربيان[1] ضخم أو عظاية ضخمة وعندئذ يواجَه بالوحش الذي يتوجه أولاً يساراً ثم يميناً بحيث يحس الحالم بنفسه محاصراً في زاوية هاتين الحركتين كما لو بين فرعي مقص.ويقترب الوحش ببطء ويتساءل الحالم عما ينبغي فعله.وإذّاك يتبين أنه يمسك بيده عصا سحرية فيضرب بها الوحش الذي ينفق تواً ويقف الحالم أمام الجثة ويتأملها مطولاً بشدة ويستيقظ إبان هذا الخشوع المديد .

منهاج تحليلي أحلامي

إن صور هذا الحلم بسيطة وواضحة للغاية فكيف يمكن الدنّو منها؟ أتصرف على النحو التالي : أقسم صفحة إلى ثلاثة أعمدة فأسجل الحلم على عمود اليسار[2] مباعداً بين أطواره المتوالية وعلى عمود الوسط ـ وهو أعرض قليلاً ـ أدوّن السياق

(١) الإربيان حيوان قشري ذو ملقطين وذيل ، أحمر اللون ، يعيش في المياه العذبة ، من مرتبة عشاريات الأرجل بما يميّزه بالقدرة على السير إلى الأمام والخلف ويمنة ويسرة على حد سواء . ونشير ههنا إلى أن اسمه ورد في ترجمة أخرى لنا (بودوان : **علم النفس المركب**) مترجماً بـ **القريدس** تارة **والسرطان** طوراً ، لكننا فضلنا عليهما تسمية إربيان لأن القريدس لا ملاقط له والسرطان لا ذيل له . (م)

(٢) نذكّر هنا بأن الكتابة بلغة المؤلف تتم من اليسار إلى اليمين . (م)

الأحلامي (المُنْشَأ بمساعدة التداعيات الحرة كما قلنا أعلاه) وعلى عمود اليمين ترد أخيراً الاستنتاجات التي يمكن استخلاصها من المجموع. ونحن بذلك نعامل الحلم كما كنا لنفعل بكتابة مجزّأة جرى استخراجها تواً وليس بوسعنا فك رموزها ونحاول جعلها مقروءة بالاستناد إلى معلومات ومتممات مستقاة من مجالات أُخر، وإنه لينبغي علينا بفضل متوازيات أن نقوم بتفسيرات. أما العمود الثاني الخاص بالسياق فيجب أن يُغذى بمواد يأتي بها الحالم نفسه لأنه وحده القادر على وصف ما تعنيه أشياء محدّدة فيه بينما يتعذر علينا أن نعلم من الخارج الوظيفة التي تضطلع بها صورة معطاة في نفسيته. فإن مراقباً خارجياً ليس بوسعه أن يبت بَدَرياً في أي شيء يستجيب له كائن ما وكيف، ولذلك فإن **رموز الحلم من طبيعة فردية في الأساس**. يتعين علينا أن نجد في نفسية الحالم السياق أي الجملة التي انفصلت عنها الصور الأحلامية والجو الذي كانت متغلغة به، فبمجرد أن يتحدد السياق يظهر بنيان الحلم بوضوح أكبر بكثير وبذلك نستطيع المجازفة بتقديم استنتاجات؛ فلنفترض بأنه سبق لنا أن دوّنا حلمنا على عمود اليسار ولنتصدّ لمسألة السياق.

لو سألتكم عما تذكركم به «مزرعة وفلاحة» لكنت متأكداً بأنه سيخطر في بال العديدين منكم أن المراد بهما المسكن الأمومي والأم **غير أن سؤالي إنما هو مثال على الطريقة التي يجب عدم المباشرة بها** لأن هذا الربط ليس ربط معاودنا فإن هذه المزرعة تستحضر لديه شيئاً آخر تماماً ألا وهو مأوى القديس يعقوب حيث مات ١٥٠٠ متحالف عام ١٤٤٤ ميتة الأبطال[٢]. وهو ذا ما يستحضر في ذهن الحالم بيت حلمه وما كان لأحد منا أن يخطر له هذا الاستحضار في بال ووحده فقط كان

(١) يشكل هذا الفصل حدثاً بارزاً في التاريخ السويسري ولقد تم ضمن الظروف الآتية: كان هؤلاء الرجال الألف والخمسمائة يؤلفون طليعة الفرق السويسرية التي كانت تلقت أمراً مشدّداً بعدم الهجوم بل بالانتظار ريثما تلحق بها القوات الأساسية غير أن الأوامر المتلقاة انتُهكت وحالما أصبح العدو على مرمى النظر انقضت الطليعة عليه وأوقفت تقدمه بهذه التضحية لكنها عرضت نفسها بذلك للذبح حتى آخر رجل وإننا لنقع ههنا على فكرة الاندفاع إلى الأمام التي تجر عواقب وخيمة وهي فكرة سبق أن عُبِّر عنها في الحلم الثاني حيث يحتم انسعار الآلاتي على رأس القطار الخروج عن السكة.

Scanned with CamScanner

يستطيع أن يأتي به ولسوف يتعيّن علينا فيما تبقى أن نأخذ هذا الربط البليغ بالحسبان .

أما «الفلاحة» فهي لا تذكّره قط بأمه بل بمؤجرة غرف للسكنى هي أرملة قليلة الثقافة يثرثر معها بين حين وآخر .

«الرحلة الكبرى إلى لايبزيغ» تذكره بالمشروع الكبير الذي يعتزم القيام به (أي إلى توقّل القمم الشاهقة الذي هو أصل دوار الجبال المجازي الذي أصابه) فهو يأمل بالفعل أن يُعيَّن أستاذاً في لا يبزيغ وفي هذا يكمن طموحه الفائق .

«عليه أن يذهب إلى هناك مشياً» أي كما يقول بوسائله الخاصة بمعونة جداراته الشخصية وليس بفضل من الحظ .

«دهشة المرأة الساذجة» تعني في نظره أنه يتحرك في وسط شديد التواضع[1] .

«صورة الحصادين» تستحضر في ذهنه لوحة موجودة لديه هي نقش على الحجر يمثل فلاحين يخزنون التبن وهذا كل ما في الأمر و«هوذا أصل هذا المشهد في حلمي[2]» . [الحلم في الصغر كالنقش على الحجر]

وهو يرتبط بـ «الإربيان» كونه ضرباً من الوحوش هو حيوان هجين وخرافي يتميز بكونه يسبح إلى الوراء ، ومن الواضح أن الحيوان في الحلم يفتش عن طريقه متوجهاً أولاً إلى اليسار ثم إلى اليمين ، واليسار[3] بالطبع ليس مؤاتياً له واليمين ليس كذلك بالمثل بما أن الحيوان يقضي نحبه فيه نافقاً بضربة العصا السحرية . والحالم يشدد على الزاوية التي يوجد فيها المشكّلة بالاتجاهين اللذين يتبعهما الوحش[4] .

(١) عندما يظن امرؤ نفسه أطيب مما ينبغي بالنسبة إلى محيطه الذي يحكم عليه بفرط الدونية فالأمر على الأغلب أمر دونية يحملها الفرد فيه ويخلعها على عالمه الخارجي إلا أن بالوسع القول إنه لمن قبيل الحذلقة أن يُلوِّح أمام شخص قليل الثقافة هذا التعيين المحتمل في جامعة لايبزيغ .

(٢) لكأني بالحالم يقول لي : ليس للحلم أهمية أكبر من أهمية لوحة على جدار ولن أوليه من الاهتمام أكثر مما أولي هذه .

(٣) باللاتينية : sinister ؛ والكلمة تشير إلى كل ما هو مشؤوم ومنذر بالشر والهلع . (م)

(٤) إنه يفسر الوضع بحسب العقيدة الفرويدية بوصفه رغبة رَهَقية فيكون الوحش أمه والزاوية

Scanned with CamScanner

«القتال مع الوحش» يستحضر لديه صراع البطل والتنين .

«العصا السحرية» تفطّنه بعصا عجيبة هي عصا جنية .

أما سبب «خشوعه المديد» فيبقى خافياً عليه، فلقد تعين عليه أن يتأمل الوحش الميت لكنما تعذر عليه أن يقول لماذا وأي مغزى يمكن أن يكون لذلك هي ذي المواد . عندما يُكتشف نقش ويُسلّط عليه الضوء فإن التراب الذي خبّأه لا يقدم ترجمته وكذلك هو شأن الحالم وسياقه. فالترجمة في كلتا الحالتين تبقى مهمة الذكاء الإنساني الذي في حوزته قطيعات ونتف لكنْ مع بقاء المجموع إشكالياً عليه ؛ فحتى يُعزى إلى الحلم معنى معقول يجب وضعه في ميزان عناصر الموازنة المتوفرة بفضل السياق . وحلمنا من وجهة نظر معينة يندرج على وجه رائع في السلسلة التي سبق لها أن بدأت ، فالحلمان السابقان يستلفتان النظر إلى عودة إلى الشباب وإلى المعاش البسيط وإلى التبصر اللازم الذي كان سيسمح باجتناب الخطر المحتمل بإطلاق العنان للقاطرة والانتظار ريثما يتواصل كل شيء على خير ، وأخيراً إلى العجلة المؤذية التي لا طائل تحتها ، والعديد من هذه الأفكار متكافىء . وفي هذا الحلم الثالث يُردّ الحالم من جديد إلى مسكن بسيط أمام فلاحة أمومية الصورة إلى حد ما بيد أنه يستكره كما رأينا أن يذكره شيء بنسبه المتواضع[1] فهو يستحي قليلاً بوالديه الفلاحين ويؤثر أن يكون ابن إحدى الشخصيات العظيمة .

فههنا في بداية الحلم يُردّ الحالم بلا ريب إلى أصله المتواضع بتذكير مباين لتصّوره ونمط حياته الحاليين ويستحضر أيضاً أمه على نحو غير مباشر وهذا ، بالدقة ، لأن لدى الحالم من الأسباب الذاتية لستر منبته ما يحدونا إلى إدراج هذا المنبت في اللوحة الإجمالية وأخذ حالة الأمور هذه بالحسبان ؛ فبداية الحلم هذه تخفي فصلاً من الماضي بفضل مأوى القديس يعقوب حيث أدى قتال غير متكافىء ضد تفوق ساحق إلى ميتات بطولية . وهذا الاستحضار يعلن قبل الحالة النهائية ممثلة للساقين اللتين يتوضع بينهما مولوداً لتوّه أو توّاقاً للعودة إلى طور ما قبل الولادة .

(١) انتم ولا شك على اطلاع على رواية بول بورجيه : **المرحلة(Paul Bourget : L'étape)** وموضوعها أن الفرد يبقى دائماً مشدوداً إلى أصله المتواضع الأمر الذي يفرض حدوداً ضيقة إلى حد ما على إمكانات الارتقاء الاجتماعي هذا .

Scanned with CamScanner

القتال الذي سيواجه فيه البطل التنين وهو ينبىء بخيالات شبيهة بالخيالات التي انطرحت في أساطير الأبطال الأعراقية وهي خيالات ستكون مسؤولة عن السهولة التي سيملك بها حالمنا ناصية أمر الوحش وهذه الخيالات ، وتلك السهولة في التخلص من وحش مكرب لتنطوي بالتأكيد على عنصر معاوض : فالحالم بما هو صاحب المنبت المتواضع جداً الذي يسعى جهده لنسيانه مدفوع بل محمول على أن يصبح مثالاً عظيماً مقتدى أو ضرباً من البطل من حيث إنه كان للأبطال دوماً في مخيلة الشعوب نسبان أحدهما بشري من جهة والآخر فوق بشري من جهة أخرى بما أنهم كانوا ينهلون إبان طفولتهم من لبن الخلود.وبذلك يعوّض معاودنا شعوراً معيناً بالدونية يعود إلى أصله ، ومن هنا مباهاته أمام صاحبة مسكنه التي تجسد بساطته والتي يشعر أمامها بالحاجة إلى توكيد قدراته الشخصية كما والمستقبل المجيد الذي يأمل به ؛ ولما كانت صاحبة السكن هي أيضاً الأم التي تستحضر بالطبع الطفولة والماضي فإن عليه أن يؤكد أمام ماضيه جمحاته إلى البطولة وطموحاته الفائقة الحد التي ينهمك فيها انهماكاً لا نظير له .

وفي هذه اللحظة يظهر الحصادون وهم عمال الأرض الذين يؤدون العمل البسيط الذي كان عمل أجداده والذين يعيشون حياة أهل الريف المتحدة .

على أن هذه الصورة تمر سريعاً مطرودة إذا جاز التعبير بصورة أشد تأثيراً بكثير ستغوص بنا في الأساطيريات ، فإن صدعاً عميقاً أو صلة مقطوعة تفصل بين هاتين الصورتين للحلم الذي كان يتحرك حتى الساعة في مجال المنظومة النفسية الشخصية أي في مجال الذكريات والنزاعات الخاصة بالحالم . بيد أن الجدل يعبر فجأة إلى صعيد أرفع ويبلغ الأبعاد الأساطيرية فلا يعود الأمر بغتة متعلقاً بصراع طموح مغالٍ يرمي إلى كرسي فخري ينازعه فيه منبت متواضع وأهلية توحي بالمزيد من الاحتراس ؛ إذ فجأة يتلاشى كل أثر لذلك **ونشهد انتقالاً على الصعيد الأسطوري** يصبح بعده أستاذنا سيغفريداً آخر لا يعود مهتماً بالذهاب إلى ليبزيغ بل بصرع الوحش ، وهكذا يظهر عنصر جديد متعذر شرحه على الحالم الذي يلفي نفسه فجأة منقولاً إلى عالم جنيات . ويتفتح الحلم على أفق أوسع ممتداً إلى طبقات أعمق من النفسية psychisme وبذلك فإن قَدَراً فردياً بشرياً بل مسرفاً في البشرية ليتوسع إلى أبعاد مسألة أساطيرية ووصف أسطوري ، وذلك شيء غريب وغير

Scanned with CamScanner

مألوف عندنا ؛ غير أن الطبابة القديمة كطبابة المصريين على سبيل المثال كانت على بيّنة من هذه المسألة وكانت حريصة دوماً على رفع المرض على هذا الصعيد الأعلى باعتبار المرض حالة الدونية التي تنقضّ على الكائن البشري . فلنفترض على سبيل المثال أن مصرياً من العصور القديمة شبيهاً بزيد من الناس اليوم ذهب في نزهة ولدغته افعى الرمال في رجله ، فعندنا أن زيداً حين تلدغه افعى يرى في الأمر حادثاً مكدّراً وينبغي اللجوء بلا إبطاء إلى مداواة ما ، اما الطبيب المصري الذي كان في الوقت نفسه كاهناً فكان يتدبر الأمر من أجل الشفاء على نحو مختلف كل الاختلاف إذ كان يجتهد في نقل الحادث المعين على الصعيد الأساطيري بالرجوع إلى نص مقدس ما يحكي كيف كان إله الشمس العظيم يجوب إقطاعاته وكيف وضعت الإلهة الأم على طريقه حية سامة خبأتها في الرمل سراً فكان الإله يدوس عليها فتلدغه فيصرخ وجعاً ، عندئذٍ كانت الآلهة الأخرى جميعاً تشفق عليه فتتوسل إلى الإلهة الأم -التي كانت خلقت الزاحف السام أن تخلق أيضاً الترياق الناجع فكانت الإلهة تتنازل وتشفي الإله المتوجع ، وهو ذا النص الذي كان الكاهن الطبيب يقرؤه على المريض وعليه تقتصر المعالجة التي لا نُوفق إلى فهم معناها إلا أنه يتعين علينا حتماً أن نقر بأن هذه الرواية كانت على المستوى النفسي الذي كان مستوى مصر آنذاك عبارة عن نهج علاجي بحق ؛ فعلى هذا المستوى فعلاً كان لا يزال بوسع الإنسان بسهولة أن يغوص في الخافية الجماعية برواية بسيطة كانت صورها تستولي حينئذٍ على كينونته كلها بقدرة هي من الحَوْل بحيث أن جهازه الدوراني وانضباطاته المزاجية كانت تعيد التوازن المختل إلى نصابه . فهذا ما يفسر على وجه العموم **القيمة الاستشفائية للطبابة السحرية على المستوى البدائي** بينما لا نتصور إمكانية نجاعات من هذا الضرب إلا في **المجال الأخلاقي** على أبعد تقدير . فهناك نشهد فعلاً أفعالاً مشابهة ونتمسك بأشكال مجانسة . فعندما تعاني مثلاً من دونية معنوية ما أو من أي نزاع نفسي أو هم عظيم فإنك تذهب إلى الكنيسة وتستمع إلى النص المقدس والكلمات المنقذة التي ترفع معاناتك الشخصية إلى منزلة معاناة الجماعة على مستوى أسطوري حيث لا تعود بعد كائناً فريداً إنما تجسد في الوقت نفسه كلية الإنسانية المعذّبة وبذلك تنحلّ مشكلتك على نحو ما ؛ وإنه ليُتضرع بهذا الصدد إلى النعمة الإلهية في حين أن المشكلة في الواقع قد رُفعت إلى صعيد أسطوري حيث ليس من مشكلة إلا ولها حل ، ذلك أن أساطيرية الخافية الجماعية

هذه تتسم بضرب من السيلان يفجّر مبحثاً جديداً من موضوع في سبيله إلى الانتهاء.وإننا لا نصادف في أي مكان منها ركوداً فعلياً ، فكل الأوضاع الصعبة تبلغ فيها أوجها وتنحل عقدتها لتولد أوضاع جديدة وهكذا يصدح فيها لحن الحياة اللا نهائي شأنه شأن مُزْنة شافية يلفي المرء نفسه غائصاً فيها مؤقتاً . فليستسلم هنيهة لهذا الدفق السنيّ ولا بد له أن يخرج منه بموقف مصوَّب الأمر الذي يعينه على الشفاء من الوجع المعنوي الذي يعاني منه[1] .

نزعة الشر

لقد طُرح عليّ سؤالان يتعلّق الأول بتلك الأم التي فُجعت بقتل طفلتها[2] .

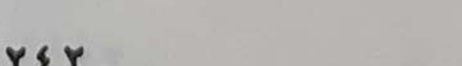
والسؤال هو الآتي : «كيف كانت هذه المرأة لتسلك لو أنها وعت النزعة التي كانت تجتاحها وكانت تدفعها إلى قتل طفلتها ؟» .

الجواب : يُحتمل والحالة هذه ألا تقع الكارثة فإن علماً تكون عليه المريضة بنزعتها الضمنية المقتالة إذ يجابه كيانها الأخلاقي كان لا بد أن يولد نزاعاً أو يعلّق في الأقل انقيادها غير المشروط أو يحثها على مصارحة زوجها بها أو أي شخص موضع ثقة ، أو حتى كان يمكن لنزاعها الداخلي أن يُنزِل بها ربما عصاباً من الشدة بحيث تصبح المعالجة لا بد منها ؛ وباختصار فإن من المحتمل للغاية بصورة أو بأخرى أن الجريمة والذهان كان يمكن تجنبهما .

على أن بوسعنا أن نعمّم المسألة ونتساءل عما يمكن فعله عندما تظهر نزعات كهذه في أحدهم . كيف يحدث أن يستشعر المرء بغتة نزوعاً لتنفيذ فعل هو جريمة ؟ فهذه الجمحات هي أبعد ما تكون عن الندرة الاستثنائية ، فثمة بين كل قوم نسبة مئوية من القتلة الحقيقيين ، لكل إنسان على هامشهم أيضاً نصيب من النزوع إلى الشر وكل إنسان بنسبة مئوية ما ـ هي النسبة الإحصائية تقريباً ـ فيه شَبَه بالسفّاح ؛ ولهذا يجب علينا أن نحذر الغلو في الافتخار بفضائلنا التي تترافق دوماً

(١) راجع علم النفس المركب : العلاج بالأسطورة ، ص ص ١٨٥ ـ ١٨٧ . (م)

(٢) راجع أعلاه ص ١١٦ . (ر.ك.)



بالظل الذي تُسقطه الإحصاءات البشرية . ذلك أننا جميعاً بشر حاملون للشر الذي هو من خصائص الإنسان المطلقة . وإن لبمستطاع الشر أن يبسط بما يتعدى الحد سلطانه على الحياة الداخلية لدى بعض الأفراد من ذوي الاستعداد . وهؤلاء إذا قاوموه باتوا نهباً للنزاع وإذا استسلموا له تحولوا إلى الجريمة ؛ ومن حسن طالعنا نحن الأطباء ألا ندخل بتماس مع هذه الحالات العسيرة إلا فيما ندر فإن الخبرة تبيّن بالفعل أن النزعات إلى الشر لدى الأشخاص المستعدين بطبيعتهم للسقوط في الجريمة - وهي نزعات طبيعية لديهم للغاية - لا تحتم أعصبة قط . ففي المراكز التهذيبية الكبرى في أمريكا حيث ، ظناً بأن وحدها التربية المتينة نقصت الأطفال المنحرفين يُربى هؤلاء الأطفال أملاً بإقلاعهم عن ذلك ، أجري الاختبار التالي : الأطفال الذين لم يسقطوا في الإجرام الطفلي إلا عن تخلٍ معنوي أو نكبة أصابت وسطهم يستفيدون بما يرضي عموماً عندما يُنقلون إلى جو أخلاقي .أما الآخرون بالمقابل ممّن حبتهم الطبيعة دعوة إلى الشر هم مرغمون على تجسيدها فإنهم ينمون في مناخ تربوي نمواً ضئيلاً ويعانون من نوم مضطرب وصداع ويهستررون ؛ فعندما يصطفي القدر كائناً ليحيا الشر فما من أحد يستطيع أن يثنيه عنه إذ على الأشرار أن يمتثلوا للإرادة المبدعة الخاصة التي تستوطنهم مثلما أن على الأخيار أن يحققوا إرادة الخير التي فيهم ؛ لذا ليس ثمَّ جسيمُ خطرٍ في سقوط كائن طيب المعدن في الدنايا ويستهويه الشر لأن الشر في الواقع يأباه عقله إلى حد أنه عندما يحتاز وعياً بمداه يحجم عن القيام به . أن يعاني من جراء ذلك نزاعاً أو أن يستبد به كرب فهذا ممكن لكن كل شيء لا بد أن يعود إلى نصابه مهما قل الصبر اللازم وإذا خصه الباري حقاً من الخير بنصيب ؛ وبعد فليس في الطيبة من قليل الجدارة إلا بمقدار ما في الشر من الرذيلة أو الخطيئة فنحن في ذلك لسنا إلا ناهضين بالأدوار التي عهد بها إلينا وهذا ما تعبر عنه الحكمة المشرقية بقولها : «ستقوم بدور ملك أو دور متسوّل أو دور مجرم بحسب مشيئة الآلهة» .



علم النجوم

يتعلق السؤال الثاني بعلم النجوم astrologie ولقد كان من المستغرب ألا يُطرح على بساط البحث ألا وهو :

Scanned with CamScanner

سؤال : «إذا كانت منظومتنا النفسية على حد زعمكم تنخلع على الأشياء وتحييها بمعطياتها الخافيّة الخاصة كيف لـ **علم النجوم** وغيره من «علوم الغيب» أن تكون له أهمية في نظر الإنسان المحسوب واعياً ؟» .

جواب : لعلم النجوم أهمية كبرى وأنا أبعد ما أكون عن الاستخفاف به لكن هذا لا يعني وجوب الافتراض بأن الأبراج الخالدة مسؤولة عن طباع كل امرىء وخصوصياته ؛ فالأبراج تفيدنا أساساً في تحديد موقعنا في المكان وفي قياس الزمن إنما لا نكونن مثل هاوي الفلك الشهير الذي كان مولعاً به بلا تبصّر من حيث كونه يسمح بتحديد أوزان النجوم وتركيبها الكيميائي وخصوصاً باكتشاف أسمائها ! فهي لا تحمل أسماء تملكها بَدَرياً بل الأسماء التي أطلقناها عليها والتي تفيدنا جزئياً كسمات في الزمن وههنا تبدأ مشكلة التنجيم الكبرى. إذ كيف لعصر أو لفترة معينة أن تتصف بصفات تنعكس في الأشياء والكائنات التي قطعتها أو وُلدت فيها وهي صفات تيسر الاستدلال بالمقابل على العصر الذي تولّدت فيه هذه الأشياء ؟ تبدو هذه المسألة من وجهة نظر فلسفية معقدة للغاية بينما هي في الممارسة جد بسيطة ؛ عندي مثلاً خزانة قديمة قد يفيدني خبير كفؤ بأنها صنعت عام ١٧٢٠ في هذا المكان أو ذاك ، فأنى له معرفة ذلك ؟ ذلكم علم عالم العاديات الجيد ! كذلك فإن خبيراً أريباً بالخمور يستطيع أن يحدد عام ومنبت وقبو هذه العيّنة أو تلك ، فهو يعرف أن خمرة تلك السنة وتلك التلة قد اكتسبت من جراء الشروط المعينة السائدة آنذاك مذاقاً يميزها عن الخمور التي قدمتها هذه الكروم عينها في الأعوام الأخرى ؛ ويصح ذلك على البشر فنحن قد ولدنا في لحظة معينة في مكان معين ونتصف شأننا شأن منابت الخمر الشهيرة بصفات العام والموسم اللذين شهدا مولدنا ، وعلم النجوم لا يزعم أكثر من ذلك .

العلم في الصدور
وليس في السطور

٢ (١)

مثال في تفسير الأحلام

لقد شرعنا كما لاحظتم في بحث مسألة صعبة فما إن ندنو من حلم - وذلك يشق عليّ ولكن لا بد منه - لا يطول بنا الأمر حتى نصطدم بإبهام ما حيث تتكدس المصاعب ، ولقد فتشت طويلاً في مجموعتي عن حلم بسيط مؤات للعرض الذي كنت أعتزم تقديمه وافتكرت في الأمر ملياً والحلم الذي رويته لكم هو أبسط ما وقعت عليه . إن ثمة بالتأكيد أحلاماً شديدة البساطة في المظهر إنما تتكشف بمجرد السعي إلى فهمها عن كونها أعقد بكثير مما كان يُظن فيجب على المرء أن يوطن نفسه على فكرة أن مثل التنطح لتفسير حلم كمثل الخوض في الظلمة ، فإنه مهما تكن خبرته في هذا المجال لا يعفيه ذلك من النظر في كل حلم كشيء جديد بالكلية ومجهول ، وإني لا أدنو من دراسة حلم قط بدون اتخاذ هذا الموقف فإن ظهور الحلم بمظهر غير المفهوم تماماً لا يعني أبداً الاستسلام لشعور بالدونية ، لا بل إن من المهم أن يصارح المرء نفسه بأن ثمة مسائل تتعدى فهمنا لذا فإني قد عوّدت نفسي على أن أرى في الحلم أولاً شيئاً عصياً على الفهم وهذا يمنحني الشجاعة والقوة على طرح أسئلة كثيراً ما تكون بلهاء وصبيانية المظهر لكنها يمكن أن تجلب إيضاحات كبيرة. وهذه الأسئلة الساذجة بالفعل لا يجازف بها المرء إلا متى تأثر تأثراً عميقاً بالغموض الذي يكتنف الحلم ، ومن الأحلام البسيطة للغاية لأول وهلة ما يقود بالفعل سريعاً إلى ظلال شاسعات . ففي حلمنا مثلاً ما شأن هذا الإربيان ؟ كم كان الحلم أيسر فهماً لولا ظهوره ! على أن للحلم إلى ذلك الحين ظواهر يسيرة المنال جداً : فهذا الرجل المعقّد المغترّ بأهميته بمقدار ما كانت عليه بداياته من التواضع الذي يظن نفسه أرفع بكثير من وسطه الأصلي - هذا الرجل المعجب بنفسه جداً يلفي نفسه مستدعى من قبل ماضيه المتواضع ، ولقد كشفت لنا تداعياته عن أشواقه وأمله بأن يُعين أستاذاً في ليبزيغ ووهم قيمته الشخصية الذي

(١) المحاضرة الخامسة .

Scanned with CamScanner

يحمله على التواجد مع الألف وخمسمائة سويسري الذين صدوا الأرمانياكيين في القديس يعقوب.وفجأة وسط هذه الجملة من المعطيات الممكن تعيينها والمفهومة من الوجهة الإنسانية يبرز هذا الإربيان الذي تتملص علة وجوده من فهمنا تماماً.وإن مثلنا إلى حد ما كمثل مزارع الغرب ذاك الذي إذ يقدم إلى نيويورك للمرة الأولى يحدق في حديقة الحيوان في شَبْنم casoar ـ وهو طائر بلا جناحين[1] ـ فيعبر عن استغرابه بالملاحظة التالية : «اللعنة ، محال أن توجد طيور كهذه !» وهذا التعجب قد يكون بالأولى تعجبنا نحن لأن ما ثمة حقاً إربياناً أو سحلية أو وحوشاً حيوانية بهذه الأبعاد العملاقة فهو تخيّل محض إلا أنه ينبغي علينا أن نلاحظ بأنه إذا كان الواقع يجهله فلا تخلو منه الأساطيريات . فلدينا مثلاً في بال وحش كهذا هو مُلَيْكة basilic في حين أن ما من بالوي صادفه في حياته قط . غير أن مثل هذه الخرافات تعج بها مخيلاتنا ونفوسنا التي هي أصل كل أسطورةفالأساطيريات ما لها من مصدر خارجي وليست واقعة تجريبية . فبما أن هذه الوحوش أو هذه الكيانات المتخيّلة غير موجودة في العالم الخارجي لما اكتشفناها قط لو لم تكن تقيم فينا . فهذه الصور ما كانت لتُنحت وهذه الوحوش ما كانت لتفيد تعبيرات رمزية لو لم يكن ذلك يلبي حاجة ما فينا . أفما كان حلمنا ليستطيع أن يتحدث بالمثل عن دب أو عن أسد ؟ يبدو أنه ما كان ليستطيع ذلك ! فذلك ما كان بلا ريب ليكفي ووحده حيوان معقدّ وغير واقعي بوجه خاص كان يستطيع أن يعبّر على ما يبدو عن عنصر نفسي غريب هو الآخر عن الواقع العياني . إن لدى البدائيين تعابير خاصة للتعبير عن الظواهر التي كانت تبدو لهم فظة ولا تُعقل على حد سواء والتي هي في نظرهم دائماً من طبيعة سحرية ، فعندما يتصرف حيوان على نحو غير مأنوس ويخرج عن عاداته المألوفة كأن يظهر دب نامل مثلاً في وضح النهار في حين أنه لا يُلمح عادة إلا ليلاً فإن البدائيين يستشعرون من جراء ذلك اهتياجاً رهيباً وكأن البيرس[2] يرتقي الجورا «أو التراسك وادي الرون»[3] . وهذا قد يكون منذراً فعلاً وإخلالاً خطيراً بنظام الطبيعة وهذا ما يستشعره البدائي في حالة الدب النامل ؛ فهذا يجب أن

(١) ضرب من الطيور الأوسترالية العدّاءة التي تذكّر بالنعامة . (رك)

(٢) Birse نهر ينحدر من جبل جورا Jura ويصب في الراين في بال . (رك)

(٣) ما بين اقواس من تدخل رولان كاهن . (م)

Scanned with CamScanner

يضحى به وينبغي القيام بطقوس تطهيرية لإزالة الفظاظة التي قد تؤدي إلى كارثة ما . ولقد حوكم فيما مضى في بال ديك كان باض بيضة وهو أمر فظ ومشؤوم على حد سواء لأنه كان يُعتقد أن البيضة إذا حضنتها ضفدعة أبصرت النور مُليكة جالبة معها الطاعون الكبير !

وها هوذا يظهر في حلمنا حيوان خرافي فظ عملاق الحجم أي منغّص فظيع يخرق كل العوائد على نحو غريب وغير متوقع على حد سواء . تصوروا الحالة الذهنية العادية لبرجوازينا الصغير المتفوق بنجاح : إنه يعيش في أكثر العوالم تعقّلا تسوسه حكومة موافقة يمكن فيها الطموح مع السنين إلى صعود درجات سيرة مهنية لامعة ، ولعله قد امتهن التدريس أولاً ثم واصل دراساته وهو يعمل وحصل على وظيفة صغيرة وأصبح أستاذاً مساعداً في الجامعة ثم أستاذاً فوق العادة وأخيراً أستاذاً عادياً . فلم لا يستمر الصعود بما أن الباري البصير شاء ذلك لأصحاب الطموح ؟ فهكذا يجب على الأشياء أن تتم في عالم البشر الوعاة المنظمين الذي يعتزم أن يعيش فيه والذي لا مكان فيه للخارق للعادة ؛ كذا هو أستاذنا والرجال من هذه الطينة يُعتبرون عموماً أناساً طيبين كادحين يشكلون للدولة أعمدة مطمْئِنة ؛ لكنْ هوذا رجلنا على حين غرة فريسة لاضطراب معضِل ، فمم يمكن لهذا الضرب من دوار الجبال أن ينشأ ؟ لقد استشار بالطبع جمهرة من الأطباء لعل بعضهم ـ وكان مخلصاً ـ قال له : «إنك يا سيدي العزيز تعاني ببساطة من عصاب ولن تجديك الأقراص نفعاً ويجب البحث عن شيء آخر .» وأخيراً يجنح عندي ويتعين علي أن أقول له : «بلى إنك تعاني حقيقة من عصاب ومن اضطرابات في النفسية .» بيد أنه لم يُبْتل قط بمثل هذا المرض ففي عالمه هناك موضع لسيرة لامعة وليس لعصاب وهو فظاظة تنتمي إلى غير المألوف والخارق للعادة ؛ فلو خرجتَ في نزهة في لَنْغن ـ إرلن[1] ورأيت وحشاً كهذا نصفه إربيان ونصفه سحلية يبرز لك فجاة مقترباً على نحو متعرج لما استشعرت دهشة وحسب بل كرباً أيضاً ولظننت بأنك ترى كابوساً أو بأنك قد جننت أو لأوجست في الأقل خطراً وشيكاً ! لكن هذه ليست حالة حالمنا الذي بما أنه أصبح في حلمه بطلاً وبالتالي أصبح خدين التنانين لأن كل من يزهو بحسبان نفسه بطلاً يتحدى بزهوه نفسه التنين الذي

(١) Langen-Erlen غابة في ارباض بال . (رك)

Scanned with CamScanner

سيتعين عليه أن يصارعه . فإن تقديره المفرط لنفسه قد راكم في نفسه مخاطر نفسية كبرى فإن شيئاً ينبغي أن يحرض خشية حالمنا ينتصب أمامه غير أنه يستخف بالخطر ويصرع الوحش بضربة واحدة من عصاه السحرية وبما أنه يتوفق بسهولة واضحة إلى إبعاد الخطر الداهم الذي كان يتهدده فإننا نتوقع انتصاراً من جانبه وأن يقول : «لم يكن الامتحان مرعباً إلى هذا الحد بل كان ترّهة !» بيد أن الأمر ليس كذلك والحلم يُختتم بهذه الملاحظة الغريبة بأنه تعيّن عليه أن يتأمل الحيوان الميت طويلاً ؛ فماذا يمكن لهذا أن يعني ؟ وما رأيكم فيه ؟ ولم هذا التفكر الطويل في حضرة جثة ؟ لم يضيف الحلم هذا الملحق الذي يبدو تافهاً ؟ .

جواب أحد المستمعين : «هذا يدل على بداية الشفاء .»

- الأستاذ يونغ : «إنه ليس بداية شفاء .»

- **جواب مستمع آخر** : «من الواضح أن هذا الوحش حيوان شاذ فثمة ربما ما يوجب الاعتقاد بأنه يتعين عليه أن يتأمل الجثة طويلاً ليرى أي نوع من الحيوان هو .»

الأستاذ يونغ : «هذا أقرب ما يتبادر إلى الذهن ولكن بالنظر إلى السهولة التي صرع بها الوحش فإن تصوراً آخر يخطر بالبال .»

- **جواب مستمع آخر** : «لقد كان الامتحان من السهولة بحيث أنه لبث متفكّراً بدون أن يستطيع منه فكاكاً .»

- **الأستاذ يونغ** : «إنه بالفعل يتفلسف ويتفحص الموقف ملياً . الحلم يقول له : «افتكر فيما فعلت لتوّك وما يعنيه قتلك هذا الحيوان .» وهو **يستيقظ**وسط هذه الافتكارات وإننا لنستيقظ بنهزة حلم - بغض النظر عن المزعجات الخارجية - لحظة يبلغ معناه الذروة وعندما يضع الحلم وقد استنفد موضوعه سمة ختامية على سياقه ولعل الاستيقاظ يعود إلى الانقطاع المفاجيء للانبهار الذي يسببه الحلم وإلى كون الطاقة المنطلقة على هذا النحو محرضة لاسترجاع الوعي من جديد وكل يعرف بأن المرء يستيقظ مذعوراً أحياناً عند نهاية بعض الأحلام[1] .»

(١) يرى ك . غ . يونغ في هذا **الاستيقاظ المذعور** في أعقاب حلم هدفاً نفسانياً يتمثل في إجبار الوعي على الاطلاع على الحلم وعلى مضمونه من حيث إن هذا الاستيقاظ المباغت يحدث كما تبيّن الخبرة في أعقاب أحلام يجب الا تمر ، بالنظر إلى اهميتها للحياة الواعية ، بدون التفطن إليها . (رك)

Scanned with CamScanner

كذا فإن نهاية هذا الحلم[1] يجب أن تحثنا على الافتكار ؛ فعندما أحلل حلماً من هذا النوع أحاول دائماً أن أتشرب جوّه وأضع نفسي في منظوره ومن أجل ذلك افترض أني في وضع الحالم وأني قد صرعت لتوي الوحش بسهولة وأني واقف هنا متفكراً مع مريضي أمام الأمر الواقع ؛ وإذ أواصل التخيل أتساءل : «ما المقصود بالأمر في الحقيقة ولماذا صرعت هذا التنين ولماذا جرى ذلك على هذا النحو وليس على نحو آخر ؟» إن حل عقدة الحلم لينطوي على لغز يتطلب افتكاراً فلم لا تؤخذ هذه الدعوة اللبقة بالحسبان ؟ إذّاك أجتهد في تلبيتها فأبقى مع مريضي إذا جاز القول في حضرة الوحش وأجول معه حوله وأراقبه ونشرع في مناقشة طويلة حول التنانين وتأثيراتها وقدراتها ومعانيها حتى نلج رويداً رويداً معنى هذا الفصل .

فهلّا فعلنا ههنا بالمثل ؟ بما أن الحلم قد جرّنا إلى عدة استطرادات فلنراجع بادىء ذي بدء الخلاصة : في حلم أول يُردّ الحالم إلى القرية مسقط رأسه الأمر الذي يشكل بوضوح تذكيراً بنسبه المتواضع ، وفي الثاني يطلق الآتي القطار العنان للقاطرة ويتسبب بذلك في كارثة ، وفي الثالث أخيراً يكون الحالم في البداية في منزله ويظهر بوضوح أن مشاريعه الضخمة إنما هي تشدّقات وضرب من ذر الرماد في العيون يرمي إلى إبهار الذين ليس في مكنتهم فرز الغث من السمين ؛ وهذا من جانب الحالم ومن حيث لا يدري موقف سلبي جداً لكنه يصرف النظر عنه وعندئذ يبرز هذا الوحش الذي يشكّل بلا ريب خطراً داهماً غير أن الحالم يردّه أولاً بأبسط السبل بفضل ضربة بسيطة بالعصا السحرية لكنما بعدئذٍ يتعين عليه أن يفتكر في فعلته . أوَيعني لكم ذلك شيئاً على نحو محض حدسي ؟ وبالضرب كشحاً عن كل علم بي فضول إلى معرفة ما إذا كانت فكرة ما تخطر لكم في بال.غير اني لا أكتمكم بأن هذا الجزء من الحلم تطلب مني جهداً كبيراً ، فأي خطر عظيم باستثناء العصاب يمكنه أن يداهم امرءاً في وضع كهذا ويعبر عن نفسه في حلم على هذا النحو ؟

- **جواب أحد المستمعين** : «خطر افتراس الوحش له .»

- **الأستاذ يونغ** : «وماذا يعني هذا ؟ قد يعني خطر الانطواء في جوف التنين خطر ابتلاع الخافية له ولكن ماذا يعني بدوره أن تبتلع المرء خافيتُه ؟ ماذا يحدث

(١) ما دعاه يونغ بعدئذٍ «حل» lyse الحلم أو انفكاك عقدته . (رك)

Scanned with CamScanner

عندئذٍ ؟ يصبح المرء مجنوناً وغير واعٍ وتائهاً ويفقد كل تماس مع نفسه ومع العالم المحيط وذلك بالطبع خطر جسيم غير أن معاودنا باستثناء عصابه سوي جداً ومن قليل الاحتمال أن يُبتلى بالجنون يوماً فيتعين علينا إذن أن نفتش عن شيء آخر . فهل من إمكانية أخرى أيضاً ؟ .

ـ **جواب أحد المستمعين** : «قد يكون الوحش بالإضافة إلى المخاطر التي يجسدها مفعماً أيضاً بإمكانيات الشفاء» .

ـ **الأستاذ يونغ** : «بلى هوذا فالتنين في الوقت نفسه إمكانية شفاء أو إمكانية ولادة جديدة . عندما يبتلع تنين أحد الأفراد فليس ثَمّ حدث سلبي وحسب ؛ فحين يكون الشخص المبتلَع بطلاً حقيقياً يبلغ حتى جوف الوحش ، وتقول الأساطيريات بأن البطل يبلغ بزورقه وسلاحه معدة الحوت وهناك يجتهد بحطام زورقه الصغير في تهشيم الجدران المعدية وهو غارق في ظلمة دامسة والحرارة من الشدة بحيث يفقد شعره ثم يشعل ناراً في جوف الوحش ويسعى إلى بلوغ عضو حيوي هو القلب أو الكبد الذي يقطعه بسيفه وفي أثناء هذه المغامرات يسبح الحوت في بحار المغرب باتجاه المشرق حيث يجنح ميتاً على الشاطىء وإذ يتبين البطل ذلك فإنه يفتح خاصرة الحوت ويخرج منها شأنه شأن المولود الجديد في اللحظة التي تشرق فيها الشمس ؛ لكن هذا ليس بعد كل شيء فإنه لا يغادر وحده الحوت الذي يعثر في جوفه على والديه المتوفَين وعلى أرواح أسلافه وأيضاً على القطعان التي كانت مال أسرته فيعيدهم البطل جميعاً إلى النور وإن هذا رجوع إلى الأصل للجميع وتجديد كامل للطبيعة ، وذلكم هو مضمون أسطورة الحوت أو التنين .»

إذا نظرنا في حلمنا من المنظور الذي تتيحه هذه الأسطورة فإنه يعني أنه إذا ابتلع الوحش معاودنا فقد يلفي نفسه في وضع بطل حقيقي الأمر الذي قد يكون مسلكاً نحو انبعاثه ؛ فذلك هو الموضوع الأسطوري للولادة الجديدة أو القيامة بما هي موضوع كل الأسرار البدائي منها والمسيحي .

إن التمثيلات المتجسمة في هذه الأساطير لا تُستخلص بطبيعة الحال من خبرة خارجية وهي تتوافق وحاجات النفس البشرية وهي حاجات تختلق لنفسها هذه التعبيرات الفريدة.وإننا لنبلغ هنا منطقة لا تلقي عموماً تداعيات الحالم فيها

Scanned with CamScanner

بعدُ بأي ضوء . فلنستعن بالترسيمة ٤ (انظرص ١٠٠) حيث تمثل أكثر الدوائر برانية على هذا النحو سطحنا الخارجي الذي ندخل بفضله في تماس مع محيطنا وموضوعاته ؛ فهي «وظيفة الإحساس» لدينا ، فلو عدمنا الإحساسات لما عرفنا أياً من معطيات العالم الخارجي . لقد كانت هِلِن كِلّر صماء بكماء وعمياء ولم تكن تستطيع الدخول في تماس معه إلا باللمس.[1]

فلو عدمت حس اللمس الفائق هذا هو الآخر لغرقت في لجة رهيبة ولما كان في مكنة شيء أو أحد أن يبلغ الى حيث هي . فنحن رهن لخطوط التوصيل القليلة التي تشكلها حواسنا من حيث إنها كالعبَّارات الملقاة بين العالم وبيننا وهي عبَّارات خارجية بالنسبة الى الوعي الذي ليس محيطياً إنما راسخ في جسمنا كأعمق ما يكون ويغتذي بالإحساسات التي تنقلها إليه النهايات العصبية الحواسية ؛ والحق أننا إذا .بَرَزت لنا المقارنة نحيا في ضرب من الفضاء المظلم تماماً ليس متصلاً بالعالم الخارجي إذا جاز القول إلا ببضعة خطوط برقية . فكما تمثل لها الترسيمة تنحصر الأنا أو مركب الأنا (ب ، رقم ٥) في داخل وظائفها العلائقية مع العالم الخارجي (أ ، الأرقام ١ و٢ و٣ و٤)[2] بل إن الأنا نفسها مكونة من ذكرياتها ووجداناتها ، (ج ، الأرقام ٦ و٧ و٨ و٩) التي تشملها . ثم إذ نواصل هذا الترتيب من الداخلية المتنامية نصادف منطقة مظلمة فينا يعلمنا اختبار تداعياتها بأنها تحتوي على عناصر ومركبات شخصية قد تكون واعية بالمثل (١٠) . ويُعتقد عموماً بأن مثل هذا التعداد يستنفد الاصطلاحات النفسية ؛ فإن علمي النفس الفرويدي

(١) هلن كِلّر حالة شهيرة ؛ فبتربيتها تربية بصيرة ومُحبة توصلت إلى تنمية ملكاتها الفكرية تنمية رفيعة ؛ وقد روت خبراتها في مؤلف عظيم الأهمية استُقيت منه مسرحية **معجزة في الباما** . (رك)

ثمة حالة مماثلة في دمشق لرجل ، رب عائلة ، اسمه فاروق الطحان ، أصم أبكم وأعمى ، يتمتع فقط بحاسة اللمس والحديث عن طريق اللمس ، ويفهم الكتابة بالإصبع على يده . كما استطاع بجهده وتصميمه إنشاء مطبعة خاصة به . وبإمكانه ان يصلح جميع الأعطال أياً كانت في آلات الطباعة (انظر جريدة تشرين ص ٦ تاريخ ١٩٩٢/٦/٧) . (م)

(٢) الوظائف العلائقية إذن بحسب ك .غ .يونغ هي وسائط تشغل فيما هي تتعلق بالأنا مثلما يتعلق محور اسطواني sylindraxe بخليته الام - مع كونه خارجياً عنها - إذا جاز القول «الأرض الحرام» no man's land الواقعة بين الأنا واللا أنا . (رك)

Scanned with CamScanner

والأدلري مثلاً يتصوران بأنهما يخلُصان إلى أعماق النفس عندما يجعلان معاودهما يحتاز وعياً بهذه الطبقة من الخافية الشخصية التي لا يتبينان فيما يتعداها بعد أي شيء ؛ بيد أن الوقائع النفسية لا تبلغ هناك أقصاها ، وبلغة الفلسفة نستطيع أن نعبر عن ذلك كما يلي :

تصوَّروا الفضاء في امتداده اللا نهائي ؛ فإذا كنا انطلاقاً من الطبقة الأكثر خارجية من ترسيمتنا نشع باتجاه الخارج فإننا نقع على فضاء اللا متناهي في الكبر أما إذا ولجنا المنطقة د من المنطقة ج متوجهين نحو المركز غصنا في اللا متناهي في الصغر. وهو لا متناه في الصغر ليس لنا أن نعين له حدوداً بالنظر إلى أننا لا نقدر في الفضاء الكوني وعلى نحو مطلق على تحديد ما هو كبير وما هو صغير لذا فإنه ليس من قبيل التناقض في المصطلحات تحديد موقع امتداد غير محدد في اللا متناهي في الصغر في هذه المنطقة المركزية د وهو امتداد يكتسب فيما إذا قُذف في الفضاء التخيلي أبعاداً هائلة ؛ فإذا ولجنا ونحن قادمون من عالمنا نحن هذه المنطقة المركزية د بدا لنا أنها تصغر دائماً أكثر حتى إذا أوغلنا في الولوج تكشفت فجأة عن أفق شاسع من الحماقة أن يراد استصغاره فهو يظهر مثلاً عندما يرى أكثر الأفراد عامية حلماً يشي بتمثيلات وجُمَل تخيُّلية عبثاً يفتش عن أثرها وأصلها في خبرته الشخصية ، إنما ما كانت دهشتي بالقليلة عندما وقعت عليها في أساطير أو نصوص قديمة لم يكن الحالم مع ذلك على معرفة بها قط .

وفي الحالة التي نحن بصددها بوسعي أن أؤكد لكم بأن فكر معاودنا لم يكن متوجهاً على الإطلاق إلى الأساطير والتنانين والوحوش الأمر الذي لم يحل دون هذه التمثيلات والانطباع فيه بما هي ملازمة للجنس البشري بأسره : فما من قبائل أو شعوب أو أعراق إلا ويوقع فيها عليها ؛ فنحن هنا بإزاء طبقة نفسية يشترك فيها البشر جميعاً مصنوعة لدى الجميع من تمثيلات متشابهة ـ تجسَّمت عبر العصور في الأساطير ـ وهي طبقة أسميتها لهذا السبب **الخافية الجماعية** . فهذه ليست نتاجاً لخبرات فردية إنما نحن مفطورون عليها مثلما نحن مفطورون على المخ المتمايز الذي نولد به وهذا يؤكد ببساطة أن بنياننا النفسي شأنه شأن تشريحنا المخي يحمل الآثار الأنسالية لبنائه الوئيد الموصول الذي امتد على ملايين السنين . إننا نولد إذا جاز القول في صرح عريق في القدم نبعثه من جديد ويقوم على أسس

Scanned with CamScanner

الوفية ؛ فلقد قطعنا مراحل السلم الحيواني كلها وجسمنا يحمل العديد من مخلفاته : فالجنين البشري لا يزال يبدي غلاصم على سبيل المثال ولدينا جملة من الأعضاء ليست إلا ذكريات أسلافية ، فنحن على صعيد التعضي مفصصون كالديدان التي مازلنا نمتلك جهازها العصبي الودي . وبذلك نجرُّ فينا في بنيان جسمنا وجهازنا العصبي تاريخنا الأنسابي برمَّته ؛ وهذا يصح أيضاً على نفسنا التي تفصح بالمثل عن آثار ماضيها وصيرورتها الأسلافية ، وإن لفي مقدورنا نظرياً أن نعيد بناء تاريخ البشرية انطلاقاً من جبلّتنا النفسية لأن كل ما وُجد ذات مرة ما يزال حاضراً ومتأصلاً فينا ؛ فالودي هو أكثر من ذكرى عاطفية لحياة فردوسية إنما هو جهاز موجود وحي فينا ما زال حياً يشتغل ويعمل كما كان يفعل منذ ماضٍ سحيقٍ . والخافية الجماعية في الفلك النفسي مصنوعة من جملة من المخلفات ، ولئن لم يكن من فرد إلا ويسمع قطعاً بالتنين فهل في ذلك ما يكفي لكي يحلم معاودنا به ؟ فحالمنا ما كان ليكلف نفسه في أثناء نومه عناء تخيُّل هذه القصة كلها وعلى وجه الدقة قصة وحش نصفه إربيان ونصفه الآخر عظايةلو لم تكن هذهتعني له شيئاً ما ! وإننا لنشهد هنا حصيلة جديدة صُنعت بمعونة كنوز أسلافية هي تركيبة تتبرر بعفويتها العضوية وتفضي إلى تنين حديث ، تنين هو في الوقت نفسه تنازل لزماننا .

لكن ما هو المغزى من الوحش في ذاته ؟ إن ما يباغتنا باديء ذي بدء هو الارتياب فيما يتعلق بطبيعة الوحش الحقة . أهو إربيان أم هو سحلية عملاقة أو عظاية ؟ وما هي خصائص هذين الحيوانين بالمقارنة مع الإنسان ؟ كلاهما يستطيع أن يعيش في الماء فللإربيان بالإضافة إلى طبعه المائي سمات أخرى تميِّزه : فهو حيوان ذو ذَبْل (= درع) ، وهذا يميِّزه تماماً عن العظايا التي تعدمه إنما التي إذ تبدي بالمقابل عموداً فقرياً ونخاعاً شوكياً فإنها تنتمي بلا ريب إلى أسرة أرقى من حيث الرتبة الأنسالية . ولقد أجرت الطبيعة اختبارين كبيرين فأبدعت أولاً حيوانات ذات ذَبْل هيكلُها العظمي خارجي يحمي جرماً داخلياً رخواً . ثم وجدت ذلك غير كافٍ ويبدو أنها ارتأت أن من الخَرَق بمكان فقدان الحيوان درعه كل عام والبقاء مدة ما عارياً تماماً ورخواً وعرضة لكل المخاطر وهو ظرف قليل المؤاتاة لتفتح وثقافة أرفع ؛ إذّاك فقد وضعت الطبيعة المادة القاسية في الداخل مع بقاء الخارج رخواً وهكذا وُلدت ذوات الفقار . والعظايا على كونها من الفقاريات فإنها تشترك

Scanned with CamScanner

والإربيان في كونها من ذوات الدم البارد وبذلك يبقى الفارق الأساسي بينهما أن للعظايا مخ ونخاع شوكي بينما ليس للقشريات إلا جهاز عصبي ودي ؛ هي ذي النقاط التي يجب ألا تغيب عن بالنا . أما **الجهاز العصبي البشري** فله ثلاثة تقسيمات تحتانية هي المخ مقر الوعي والنخاع الشوكي الحسي والحركي والودي الذي هو جهاز عصبي خاص ، وبذلك نكون في آن معاً إربياناً (بالودي) وعظاية (بالنخاع الشوكي) ، لكننا لا نعيش إلا الطبقة العليا من نفسنا مثلنا كمثل كائنات جُبلت على الوعي وحده أشبه ما نكون بملائكة صغار قُلصت جسمانيتهم إلى رأس وجناحين وكأن ما تبقى من جسمنا وبنيتنا النفسية غير موجود بينا هو في الواقع ليس إلا حراماً tabou .

إن هذا الإربيان يواجه حالمنا بالجزء السفلي من نفسه وهي مواجهة ليس منها بد على ما يبدو ولا سيما أن حالمنا بما هو شخصية مرموقة بكل منطق واعٍ لم يكن حتى الساعة قد حقق وعاش إلا الجزء العلوي من كيانه وهذا الموقف الوحيد الجانب قد جعله يعيش في ضرب من العالم ذي بعدين يسوده بلا منازع الورق المطبوع ، هو عالم أُقصي عنه البعد الثالث أي بعد العمق ، العمق المظلم ، وذلكم كان أصل عصابه الذي تفجَّر بالدقة عندما ألفى نفسه في مواجهة الوجه الثاني للإنسان أي الوجه المظلم من الطبيعة البشرية الذي يعود إلى أزمنة سحيقة القدم وحتى العظايا ما قبل التاريخية ؛ ولقد كانت نفسه بمقدار ما كانت متوضعة في نخاعه الشوكي ووديّه بما يمكن أن ندعوه «نفسيته النخاعية» و«نفسيته الودية» خافيّة عليه خفاء أي واحد آخر . لكننا عندما نأخذ بسلوك لا ينال موافقة الفقاري البدائي والحيوان ذي الجهاز العصبي الودي اللذين فينا فإن عصاباً يعتلن . إن غالبية حالات **الهستيريا** تمتُّ من قريب أو من بعيد بصلة إلى اضطرابات بطنية. وإن «نفسيتنا النخاعية» و«نفسيتنا الودية» تحافظان على سلوكنا الممكن في نطاق ضيق ، غير أن الجسم يتمرَّد عندما يتجاهلهما الإنسان الحديث الذي يمسك بزمام مصير حياته بتبوّء عرش الطوابق العليا وسط الوعي ويتعداهما بإسرافاته ، لكن كان صاحبنا يتخيل أن بمقدوره أن يفرض إكراهات طموحه كافة ببهلوانيات إرادته لكن الأمر لم يعد كونه خرافة وكان يعيش بدون أن يبالي بمعرفة ما إذا كان الكائنان الآخران اللذان يتشكل منهما تحت يتبعانه في مسيرته الحثيثة ؛ فلقد كان مثله كمثل طليعة جيش اندفعت بدون أن تبالي بعد بالقوات الأساسية الأبطأ والأقل قابلية



Scanned with CamScanner

للحركة بما لا يُقاس **وإننا لننسى دوماً أن وعينا ليس إلا طليعة كياننا النفسي** ، فإن الحلم الثاني عن القطار ليبيِّن على نحو ما العظاية أو السحلية المخيفة وهذا التقريب بلا شك هو الذي يجعل القطار «يتلوَّى» لدى خروجه من المحطة بينما تطلق النفس الآلاتية التي تترأسه العنان مُخرجة ذيل الركب عن سكّته ومنذئذٍ فإن جسم الحالم يتفلت من سيطرته وتشتغل أحشاؤه مستقلة كل الاستقلال بدون أن تلقي بعد بالاً إلى المجموع لذا تنتابه إقياءات واختلاجات ودوارات وتخونه عضلاته الخ .

من هنا يتعين علينا أن نأخذ بالحسبان معظم جيشنا أي العظاية التي فينا والتي كان حالمنا قد ضرب كشحاً عنها تماماً ولهذا السبب يتعيَّن عليه الآن وقد صرعها لتوِّه أن يفتكر في عواقب فعلته . **فالمرء يصيبه عصاب لاستخفافه بالنواميس الأساسية للجسم الحي وابتعاده عنها** والجسم عندئذٍ يتمرد ويظهر على هيئة مفزعة الغرض منها التأثير بعمق على المرء الذي لا يبدو مبالياً البتة بهذا العامل الجسيم الخطر ويحيِّده بفضل **عصاه السحرية** ؛ فما هذه الأخيرة ؟ وما ماهية سحر الوعي وكيف يستطيع أن يفتن ؟ الوعي يستطيع أن يتخيل ! فنحن نستطيع أن ننكر شيئاً بالفكر ونمتنع عن أخذه بعين الاعتبار وأن نجزم ونقرر بأنه تافه ونضرب من حوله طوقاً من الصمت ونستطيع بذلك عند الاقتضاء أن نوصد على أنفسنا دون واقع نزعم تنحيته إلى زمرة القضايا المبتوت فيها . وإن لفي وسعي أن أروي لكم على ذلك حشداً من الأمثلة كبيرة وصغيرة ؛ **فالتواطؤ على التفاهة إنما هو العصا السحرية بما هي الخاصية الخطرة والإلهية للوعي وهي خاصية خلاقة يمكنها على الخاطر أن تمحق عالماً وتبدع سواه** ؛ أما الخطر المعتلن الصادر عن الوعي على الحياة فهو في كونه يستطيع أن يُنشىء أو يبطل أو ينقل على هواه هذا الشيء أو ذاك مما يستغرق المرء ، فهكذا تتولد الأوبئة الذهنية وغيرها من الظواهر المنضوية تحت هذا الباب ؛ فمن الخير أن لديناجهازاً ضابطاً فينا هو «نفسيتنا النخاعية» و«نفسيتنا الودية» اللتين من شأنهما عند الاقتضاء أن ترفعا الاحتجاجات . فعندما يشيد فيلسوف مذهباً أو يبشر مؤسّس دين بديانة تُحدث لديه أوجاعاً بدنية كأن يُصاب باضطرابات معدية فهذا في نظري أقسى تكذيب يُنزل به إذ لا بد أن شيئاً ما فيه يتناقض وحقائق الطبيعة الأزلية لذا أسأل دوماً : «أهو معصوب أم لا ؟» فإذا كان معصوباً فإن أشد توكيداته أبَّهة تبطل بذلك ويتلقى

Scanned with CamScanner

تكذيباً عليها حتى عندما يكون المنطق حليفه : فالوحش يقول له : «كلا !».عندما أريد أن أعرف إذا كانت حقيقة ما صالحة وشافية أي إذا كانت حقيقة صحيحة فإني أتمثّلها أوقل أزدردها ، فإذا كانت مؤاتية لي وإذا تعاضدت وسط بنيتي متناغمة مع عناصر نفسيتي الأخرى ، وإذا واصلت الاشتغال على نحو سليم وظلت صحتي جيدة وإذا لم يتمرّد فيَّ شيء على الدخيلة قلت لنفسي إن هذه حقيقة صالحة وإنها ليست ضارة وإنها لا تسيء إليّ . ولقد خبرت أن الأشياء الصحيحة حقاً التي هي في قامة الإنسان حقاً تكون له من الملاء بحيث أن كيانه بأسره يجد التعبير الكامل عن نفسه فيها.فإن الحقيقة العظيمة تولّدفي من يميزها شعوراً عاماً من الانبساط والتفتّح ، وهذا ما أراده القديس بولص عندما أكد بأن البرايا بأسرها تنتظر معنا التجلّي ، ذلك التجلّي الذي يحل ويجدِّد كل شيء[1] . أما الحقيقة التي لا تغري إلا فكري وتطير صوابي بدون أن تأخذ العظاية والإربيان الهاجعين في بالحسبان فهي حقيقة تافهة أبتاعها بثمن بخس لأنها لا تساوي شيئاً يُذكر ؛ وإنما الوحش الذي رأيناه يبرز في الحلم حيوان ذو أبعاد هائلة حقاً على مقياس كوننا وهذا الوحش يجسّد ناموساً عاماً ليس بالإمكان مخالفته بدون تعدّ خطير على الطبيعة البشرية .

ها قد بلغنا بذلك خاتمة تفسير حلمنا وإني لم أبلّغه إلى الحالم بكل تفاصيله بل أوجزته له بلغة أكثر فكرية . يسألني مستمع عما يمكن أن يكون **المدى العملي لتفسير كهذا** وإنه لسؤال حقاً أن نعرف ما إذا كان للتحليل الأحلامي مدى عملي وما إذا كان الحلم الذي تحدثنا عنه لتوّنا مثلاً يبرره تطبيق . ليس لكلٍّ بالتأكيد نصيب من جبلّة فلسفية تجعله يلتذ بأفكار شبيهة بالتي أتينا عليها لتوّنا وينهل منها مادة غزيرة من شأنها أن تتسبب في تحولات عميقة في واقعه فإن غالبية الأفراد تفضل على هذه الاعتبارات شيئاً أكثر عيانية وتلكم أيضاً كانت حالة معاودنا ؛ فقد كان ممّن يقولون بأن كل ما يوجد في الإنسان موجود أساساً لخدمة مآربه بما يشبه اعتقاد عالم العصر الوسيط ذاك الذي كان يشكر الله على نعمة إمراره نهراً من خلال كل مدينة كبيرة.وهذه على كل حال وجهة نظر لا تستحق على الرغم من سذاجتها أن يُستخف بها .

(١) ورد مثل هذا الكلام في رسالة القديس بولص إلى أهل روما ١٩ :٨ ـ ٢٢ . (م)

Scanned with CamScanner

أود الآن أن أبين لكم الكسب الذي جناه معاودنا من حلمه أو على وجه أدق الذي كان بوسعه أن يجنيه منه وما حصل في الواقع . فلقد رأى أن بالوسع بالتأكيد النظر إلى الحلم على الوجه الذي وصفته له إنما بأن لا شيء يبرهن على أن هذا الوجه هو بالدقة الوجه الصحيح وقد أجبته : «لا ، هذا ليس مبرهناً عليه بل هو تصوّر وحسب أو وجهة نظر أو فرضية ويتعيّن علينا أن نرى الآن على افتراض أن هذا التفسير يوشك أن يكتنه المغزى من الحلم أي تأثير سيكون تأثيره عليك وأي عمل سيتيحه فيك .» ولا ينتظرنّ المرء مني أن أستطيع إعطاء مريض وصفة جاهزة وأن أقول له : «إفعل كذا أو كذا !» فذلك ليس هدفي عندما أعيّن معالجة لأن من شأن ذلك إبقاء المعاود في كَوْنه ذي البعدين حيث ليس للإنسان كما كنا نقول أعلاه على سبيل المجاز إلا رأس وجناحان وهو الكون الذي تحرك فيه حتى الساعة والذي ليس الكون الحق . فعالم كهذا عالم طفولي أو عالم صبياني المعقولية من حيث إن العالم الحق قوامه السببية ونواميس الطبيعة الكلية والخضوع لهذه النواميس وقبول الحقائق العامة القسرية لكنه يجهل الوصفات الجاهزة . فلو قلت لمريضي : «يتعيّن عليك الآن أن تلجم نفسك وأن تحد من طموحاتك» لاستسخف ذلك لأنه صنوي من حيث الذكاء ويزعم بأنه يعرف ما يفعل وفي عالمه حيث عاش سيرة لامعة حسب المرء أن يرغب فعلاً في شيء حتى يناله بحسب الشعار الشهير الذي اتخذه لنفسه : «حيثما توجد إرادة هنك أيضاً سبيل !» ومن هنا استصعابه قبول تصوري الذي لا يعني له شيئاً يستحق الذكر والذي يستبعده عملياً لأنه يجد أن من المنافي بشدة للحداثة أن يكون المرء مكتوفاً ولا يكون في مقدوره أن يفعل ما يرغب فيه . إنه يفكر في سره : «هل تظن أنني بسبب هذا الحلم الغبي سوف أخمِد كل أشواقي ولن أكتب البحث الكبير في عشرة مجلدات الذي أحضّر له ؟ من حقي أن أفعل ما يحلو لي ولن يمنعني أحد من ذلك .» تلك هي ردة فعل نفسه الواعية : فبضربة من العصا السحرية قضى على الوحش المزعج . وبالفعل تصرف في تتمة مناقشتنا وكأن الوحش ـ الصعوبة فيه ـ قد قُتل أو تبخر ففي دخيلته لا يكترث بكل ما قلت له مفكراً : هذا ليس مثبتاً وليس علمياً وليس إلا عبارة عن هذياناتٍ لبقة صانعها الأساسي هو الصدفة ! على أن العلم لا يجيز لنفسه أن ينبذ بلا شرط ما لا يتساوق مؤقتاً مع مسلماته فهو يعلم أن العبور من العلل إلى المعلولات يتطلب وقتاً وأنه يجب قبل البت انتظار النتائج لذا فقد أردفت بدوري للحالم : «ليكن كما تريد ولست

Scanned with CamScanner

أود الآن أن أبين لكم الكسب الذي جناه معاودنا من حلمه أو على وجه أدق الذي كان بوسعه أن يجنيه منه وما حصل في الواقع . فلقد رأى أن بالوسع بالتأكيد النظر إلى الحلم على الوجه الذي وصفته له إنما بأن لا شيء يبرهن على أن هذا الوجه هو بالدقة الوجه الصحيح وقد أجبته : «لا ، هذا ليس مبرهناً عليه بل هو تصوّر وحسب أو وجهة نظر أو فرضية ويتعيّن علينا أن نرى الآن على افتراض أن هذا التفسير يوشك أن يكتنه المغزى من الحلم أي تأثير سيكون تأثيره عليك وأي عمل سيتيحه فيك .» ولا ينتظرنّ المرء مني أن أستطيع إعطاء مريض وصفة جاهزة وأن أقول له : «إفعل كذا أو كذا !» فذلك ليس هدفي عندما أعيّن معالجة لأن من شأن ذلك إبقاء المعاود في كَوْنه ذي البعدين حيث ليس للإنسان كما كنا نقول أعلاه على سبيل المجاز إلا رأس وجناحان وهو الكون الذي تحرك فيه حتى الساعة والذي ليس الكون الحق . فعالم كهذا عالم طفولي أو عالم صبياني المعقولية من حيث إن العالم الحق قوامه السببية ونواميس الطبيعة الكلية والخضوع لهذه النواميس وقبول الحقائق العامة القسرية لكنه يجهل الوصفات الجاهزة . فلو قلت لمريضي : «يتعيّن عليك الآن أن تلجم نفسك وأن تحد من طموحاتك» لاستسخف ذلك لأنه صنوي من حيث الذكاء ويزعم بأنه يعرف ما يفعل وفي عالمه حيث عاش سيرة لامعة حسب المرء أن يرغب فعلاً في شيء حتى يناله بحسب الشعار الشهير الذي اتخذه لنفسه : «حيثما توجد إرادة هنك أيضاً سبيل !» ومن هنا استصعابه قبول تصوري الذي لا يعني له شيئاً يستحق الذكر والذي يستبعده عملياً لأنه يجد أن من المنافي بشدة للحداثة أن يكون المرء مكتوفاً ولا يكون في مقدوره أن يفعل ما يرغب فيه . إنه يفكر في سره : «هل تظن أنني بسبب هذا الحلم الغبي سوف أخمِد كل أشواقي ولن أكتب البحث الكبير في عشرة مجلدات الذي أحضّر له ؟ من حقي أن أفعل ما يحلو لي ولن يمنعني أحد من ذلك .» تلك هي ردة فعل نفسه الواعية : فبضربة من العصا السحرية قضى على الوحش المزعج . وبالفعل تصرف في تتمة مناقشتنا وكأن الوحش ـ الصعوبة فيه ـ قد قُتل أو تبخر ففي دخيلته لا يكترث بكل ما قلت له مفكراً : هذا ليس مثبتاً وليس علمياً وليس إلا عبارة عن هذياناتٍ لبقة صانعها الأساسي هو الصدفة ! على أن العلم لا يجيز لنفسه أن ينبذ بلا شرط ما لا يتساوق مؤقتاً مع مسلماته فهو يعلم أن العبور من العلل إلى المعلولات يتطلب وقتاً وأنه يجب قبل البت انتظار النتائج لذا فقد أردفت بدوري للحالم : «ليكن كما تريد ولست

Scanned with CamScanner

أؤكد شيئاً وكل ما طرحت ليس إلا عبارة عن اقتراح على أمل التوصل إلى تحسّن وليكن لك رأيك فيه ولست أمانع ألا ترى فيه إلا أضغاث أحلام ولكن إهتم بحلمك المقبل ولنر ما سيقوله عن الوضع !».لو كان المريض سلم بصحة كلامي ولو كلف نفسه مشقة الافتكار فيه لخلص إلى القول : «إني أخالف مبادىء أساسية للطبيعة البشرية وهذا يكافىء تحدي قدرة تخضعني لها ولا طاقة لإرادتي عليها ويجدر بي أن أنتبه إلى هذه العقبة وأن آخذ حذري.أما صرف النظر عن الفكر فلن يجديني فتيلاً بما أن الافتكار على العكس جائز .» ولا شك أنه كان أيضاً سيتساءل : «أي خلاصة سأخرج بها من هذا النزاع مع قدرة يتعين عليّ شئت أم أبيت أن أحسب لها حساباً ؟ إن وضعي أو موقفي الحالي لا ييسر لي إلا القليل من الترضيات فيتعين علي أن آخذ بمسلك يلائم كياني ككل ملائمة أفضل وينفحني الشعور بالرضى عن نفسي والثقة بأني أشغل مكاني الشرعي .» ولعلّه كان سيفكر إذن بأن من الخير له أن يولي أسرته من زوج وأولاد شيئاً أكثر من الاهتمام لأنه هناك أيضاً كانت الأمور تسير عرجاً ؛ فزوج الرجل بالفعل بحكم أصلها المتواضع بالمثل لم تكن هي الأخرى على مستوى طموحات زوجها التواق إلى العظمة ، كذا فإن حياتهما الزوجية لم تكن لتخلو من التوتّر ، والحق أن مريضي كان قد استسلم لطموحه على أمل أن يقع فيه على شيء جديد لأنه لم يكن قانعاً لا بما يملك ولا بما كان إيّاه إذ كانت حياته محرومة من كل مِيناء عاطفي يعيد فيه الانبساطُ والهدوءُ الرائق السلامَ إلى قلبه، فلقد كان يبدو قاعداً «بين كرسيين»[1] وهو وضع لايبعث على السرور وعسير للغاية ، ولو أنه أعار ما قلت له أذناً صاغية لفهم بأن مرد ذلك في حالته لم يكن مع ذلك إلى زوجه أو أسرته أو كرسيّه فلا يبزغ بل إن المراد له أن يتناغم مع القدرة العلوية التي أشارت عليه بإلحاح في الأحلام الثلاثة المروية بأن يوقف عدوه ؛ وإن المراد له أيضاً أن ينجز أوبة إلى نفسه وأن يفتكر في أركان كيانه حتى يعود على وفاق مع النواميس العامة للطبيعة البشرية ، فلعله كان من شأن افتكار أو تأمل في نفسه وفي جوهر الحياة وفي دوافع استيائه أن يحمل إليه السلام ؟ فبالتنقيب في أعماقه قد يبلغ تلك الطبقة المتميزة بالعظاية وهي هاتيك الأنحاء حيث ينضح دفق من الحياة الأبدية وهو دفق يتخلل الطبيعة ويتم فيه وبه كل نمو ملائم وحيث يتم كل شيء على

(١) تعبير فرنسي يشير إلى الارتياب والتردد والحيرة . (م)

Scanned with CamScanner

نحو هو من الكمال بحيث لا يتبقى لا اشتهاء ولا شطط. وإن غطسة كهذه في الذات أو مثل هذه الأوبة إلى النفس معروفتان جيداً في المشرق وتُعلَّق عليهما أهمية عظمى وأود أن أمثل لذلك لكم بقصة قصيرة رواها لي صديقي المرحوم رتشارد ڤلهلم الذي عاش طويلاً في الصين[1].

لما نزل قحط شديد بمقاطعة كياوتشاو بلغ الأمر بالسكان حد اليأس فسار الكاثوليك في تطوافات استغفارية كما خصص البروتستنت هم أيضاً صلاة الأحد الصغيرة للإستسقاء ولم يتردد الصينيون أخيراً في تقديم سهم ناري قرباناً لكن كل هذا لم يجد نفعاً ؛ وعندئذٍ قرر المجلس الإقليمي أن يرسل في طلب خبير أو «صانع مطر» من مقاطعة من الداخل هي شانتونغ وقد استجاب الخبير للدعوة واستُقبل بحفاوة عند أبواب المدينة حيث سئل : «ماذا نستطيع يا معلم أن نفعل من أجلك وماذا تبتغي ؟» فأجاب : «أعطوني بيتاً صغيراً خارج المدينة حيث لا يزعجني أحد .» وقد اختلى في البيت المحاط بحديقة صغيرة ومكث فيه متوارياً عن الأنظار طوال ثلاثة أيام . وفي صباح اليوم الرابع هطل الثلج ندفاً ضخمة الأمر الذي فاق في ذلك الفصل أكثر التوقعات تفاؤلاً فاشتدت الحميّة وهتف الناس في الشوارع : «إنه صانع المطر ، إنه صانع المطر !» وقد قام رتشارد ڤلهلم الذي كان ماراً بالمدينة بزيارة لهذا الرجل وسأله أن يتلطف بأن يشرح له كيف صنع المطر فأجابه الصيني بكياسة :

- لم أصنعه البتة .

- فلم يدعونك إذن «صانع المطر» ؟

- آه ! أستطيع أن أخبرك عن السبب فالأمر بسيط : قدمت من شانتونغ حيث كان المطر يهطل بصورة طبيعية كما ينبغي وحيث كان كل شيء في نظام وإذن فقد كنت أنا أيضاً في نظام على أني قدمت إلى كياوتشاو حيث يسود القحط الأمر الذي ليس في نظام بما يجعل هذا البلد في غير نظام ويجعلني أنا القادم إليه في غير نظام بعدُ أنا الآخر ، لذا فقد احتجت إلى بيت صغير أستطيع فيه أن أكون خالي البال وأستطيع أن أستغرق في الطاو[2] . ثلاثة أيام بلياليها عملت على نفسي حتى بلغت أخيراً الطاو

(١) راجع العمل المشترك الذي نهض به رتشارد ڤلهلم مقدماً ومترجماً ويونغ شارحاً ومعلقاً للنص الطاوي سر **الزهرة الذهبية** ، بترجمة نهاد خياطة ، دار الحوار ، اللاذقية ١٩٨٨ . (م)

(٢) Tao مصطلح لا يقبل الترجمة إلى اللغات الأوروبية . يشير الطاو من جهة إلى حالة استغراقية

Scanned with CamScanner

من جديد وعندئذٍ بصورة طبيعية حين رُد الطاو إلى نصابه انهمر المطر!

لا أدري ما إذ كنتم تتصورون كل عمق هذه القصة القصيرة، فإذا كنتم تتصورونه فهمتم توّاً المقصود من ظهور الإربيان: فهذا الوحش حيوان مسعود يريد على نحو ما ابتلاع حالمنا كيما يتفتح من جديد على التوازن أي أن يسترجع «الطاو» وتتلقى حياته الداخلية بعد القحط المدمر الذي أصابها على نحو مجازي مزنة شافية لكن الذكاء في حالمنا يحرم على التنين كل نشاط إذ لا يتسامح إلا مع نشاطه هو وحسب ولهذا لا يحدث شيء. فإن مريضي من فرط ذكائه لا يجد السبيل إلى أعماقه وهو منوّم بكلية قدرة الإرادة المزعومة وبينما كان يمكن لكل شيء بعد أن يعود إلى نصابه إلا أنه لا يستسلم فيصرع الوحش مضراً بنفسه من حيث إن هذا الوحش يجسّد جهازه العصبي السفلي أو غريزته التي يقتلها بذلك فيه. فالإنسان وقد تجرد من الغرائز أشبه ما يكون بفراشة ثملة ترفرف على غير هدى ولقد كان هذا لسوء الحظ مصير معاودنا: فهو إذ ردّ تحذيراتي وجد اقتراحي بانتظار الأحلام التالية قليل الإثارة للاهتمام. لقد كان توقع في سره أن أزيل عصابه بحيلة أو تعزيمة ما الأمرُ الذي كان سييسر المثابرة على أشواقه الطموحة. ولما لم أفعل شيئاً من ذلك ارتأى أنني كنت أنا الآخر عديم الأهلية وطفق يطبق المرسوم الذي كان توقعه مني في سره: إهمال عصابه ومواصلة دربه بفضل بذل المزيد من الجهد الإرادي. لقد قلت له: «إن أحلامك لتتضمن تحذيراً فأنت تسلك بالدقة كالآلاتي المصاب بجنون السرعة أو كالسويسريين الذين انقضوا على العدو بإقدام جنوني. فإذا تصرفت مثلهم ستصل إلى كارثة!» لكنه صمّ اذنيه عن كل شيء ومضى من جديد الأمر الذي نجم عنه بكل أسف خسارته بعد ثلاثة أشهر لمنصبه واضطراره إلى قبول منصب أوضع وبذلك وضع حداً للسيرة اللامعة التي كان يطمح إليها. لقد كانت حالة مثمرة جداً، **الحالة الدائمة للإنسان صاحب النجاح الذي يغالي في الانتفاخ فتعارضه خافيته؛ وتعبر المعارضة عن نفسها أولاً في الأحلام فإذا لم يقبلها المرء فعلى عاتق الواقع تقع مهمة فرض هذا القبول بكل الصدمات**

counter effect

يتم بلوغها بالتأمل أسّها بالدرجة الأولى التوازن الداخلي وإلى حالة ميتافيزيائية او نظام عميق للأشياء. راجع بهذا الصدد: **سر الزهرة الذهبية**، المصدر المذكور. (رك)

Scanned with CamScanner

المحتومة التي يقتضيها ذلك ![1]

ارجو أن تكونوا رأيتم الآن ما هو تفسير الأحلام في نظري . إن التفسير المفهوم على هذا النحو بالطبع معقّد ويحتمل العديد من الالتواءات لكن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك من حيث إن الإنسان يحلم بحسب ما هو إيّاه وبمقتضى طبيعته العميقة ؛ فالبسطاء بسيطو الأحلام والمعقّدون ذوو الأمخاخ الأكثر تمايزاً معقدو الأحلام وبصرف النظر عن ذلك تشترك الأحلام جميعاً في كونها تسبق إذا جاز القول وعي من يحلم بها . وإني لا أفهم أحلامي من أول وهلة أحسن مما يفهم اي كان أحلامه لأنها تفوق دوماً توقعي ومداي وأعاني معها صعوبات اي كان عينها ، فالعلم ليس ميزة مطلقة للمرء متى تعلق الأمر بأحلامه هو حتى أن أحلام الأطفال قد تكون ذات عمق مذهل ، وإن لفي وسعي أن أروي لكم منها ما هو ببساطة من الإعجاز بما يدفع المرء إلى التساؤل وهو «ينتف شعره» كيف يمكن لطفل أن يحلم بمثل هذه الأشياء التي لم يسمع بها بالتأكيد قط . وتشاهد ضمن هذا النسق من الأفكار ظواهر شبيهة بسياق الأمراض الذهنية حيث تنبثق تكراراً بغزارة تمثيلات يتطلب فهمها معارف معمّقة ؛ **فشأن الأحلام شأن الطبيعة بعامة** التي تشهد على ما يبدو بحذاقة لا نهائية بينا هي في حقيقة الأمر من البساطة بحيث لا نتمكن من فهمها . كيف يمكن للحباحب مثلاً أن تصنع ضوءاً بدون أن تخسر حرارة ؟ كيف يمكن للآلات التي تستخدمها الطبيعة أن تعمل بدون خسارة بينما ليس لأحسن آلاتنا من المردود العملي إلا ما يتراوح بين أربعين إلى خمسين بالمئة ؟ علينا أن نقر صاغرين أننا بمجرد أن نقارن منجزاتنا بإبداعات الطبيعة لسنا إلا أطفالاً ؛ ففي حوزة الطبيعة معارف رائعة وهذا يصح بالمثل على نفسنا بما هي من خلق الطبيعة وطبيعة هي نفسها بما يجعلها مؤتَمنة على معارف مذهلة جُبلت عليها برمتها وتنطوي عليها بدون أن تعرف عنها شيئاً.هي معارف نستطيع مع ذلك أن نحتاز بها وعياً بإيلاء العمليات النفسية كل الانتباه والجدية اللذين تستوجبهما مثابرين مثلاً على دراسة الأحلام من النوع الذي علّقنا عليه وبذلك يغوص بصرنا أعمق فأعمق في الخلفيات حيث نباغت وقائع ما كنا لنجرؤ على تخيّلها قبلاً .

(١) نذكّر بأن يونغ كتب هذه السطور النبوية عام ١٩٣٤ ! (رك)

Scanned with CamScanner

بما أني أجتهد في جعلكم تدركون على الطبيعة فن تحليل الأحلام وتفسيرها فلنعد إلى نقطة تُركت حتى الساعة في الظل . إن من اليسير تفسير حلم تفسيراً سطحياً بحسب ما نشعر به نحوه لكننا عندئذٍ لا نقع فيه قط إلا على ما نحن مستعدون لرؤيته فيه ؛ بالمثل فإننا عندما ننظر إلى الطبيعة بسطحية قائلين : هذه ليست إلا حصاة أو هذه ليست إلا سحلية فإننا لا نكتنه فيها شيئاً يذكر في حين أننا إذا راقبناها بمحبة وإذا أوليناها انتباهنا كله لاستشفينا السر البديع الذي تشكله هذه السحلية عينها المبتذلة فيما سبق . فإذا اتخذتم هذا الموقف الأخير للدنوّ من حلم لتبينَ لكم بأنه يعج حرفياً بالمعاني وبأنه مترع بأشياء مذهلة ؛ إنما فلنكرر أيضاً : لن يكون الأمر على هذا النحو إلا إذا أوليتموه الانتباه الضروري من حيث إن الحلم لا يبوح بسره ما لم نشبعه تأملاً كما لو بنسغ . فلقد كان من السهولة بمكان علينا أن نجوز بلا مبالاة عن هذا الوحش الأخرق المزعج لكننا ما كنا عندئذٍ سنتعلم من الحلم شيئاً ! إن بوسع الحلم متى دُرس على النحو الذي فعلناه أن يُظهر عند الاقتضاء ويطرح عل البساط المشكلة الأساسية الحاسمة للفرد الذي يرفع النقاب عن أعماقه مستمداً منها الجوهر ومحيّناً في مرافعة عليا تصوره للأشياء . وإن أحلاماً بمثل هذا الكشف أقل تواتراً بالطبع لدى أناس يفكرون ببساطة مع أنه قد سبق لي أن صادفت أحلاماً لأشخاص ذوي طريقة في التفكير جد بسيطة تعبر بلغة على غاية من البساطة عن أفكار عميقة للغاية وبهذا الصدد فقد حكيت لكم قصداً قصة «صانع المطر» لأنها فعلاً من حيث الظاهر أكثر القصص التي يمكن تخيُّلها سذاجة وتواضعاً الأمر الذي لا يحول دونها والانطواء على سر المشرق العميق برمته .

كذا فإن الحلم الذي تحدثنا عنه بكل هذا الإسهاب يوحي أيضاً بمسألة أخرى . إن لحالمنا من العمر اثنين وأربعين عاماً وعصابه قد ابتدأ وهو في السابعة أو الثامنة والثلاثين أي في بداية النصف الثاني من العمر في تلك اللحظة الحرجة التي تستدير فيها النفس وقد تسنمت ذروتها أو يجب أن تستدير نحو غروبها لكي تنزل المنحدر الذي سبق لها توقّله.لكن الإشارات التي تدعو إلى ذلك تغيب بسهولة عن كل من يعيش حياة محض مخية وطائشة منزلاً ما تبقى من كيانه مرتبة ملحقات معيقة ؛ لهذا نرى كل هذه الأعصبة تتفجر لدى الإنسان بين الأربعين والثانية

Scanned with CamScanner

والأربعين عند الرجل وبين الخامسة والثلاثين والأربعين عند المرأة في تلك الفترة من الحياة التي يقال إن حياة جديدة تبدأ فيها هي حياة ما بعد ظهيرة العمر التي تنحو فيها غالبية المعطيات الأساسية للفترة السابقة إلى الانقلاب ؛ فإن مطامح الشباب العليا لا تعود حقيقية تماماً وتخلي المكان لأشواق أخرى . بيد أن هذه أمور تجهلها غالبية الناس لأننا لا نملك من وجهة النظر هذه ، على العكس من المشرق ، تربية ولا ثقافة . فلقد شرعت ذات مرة في تقصٍّ أوحى به إليّ بعض اللاهوتيين يتعلق بالمسألة التالية : هل يفضل الأشخاص المعانون من آلام معنوية أن يبوحوا بأوجاعهم الصميمية إلى طبيب النفس أم إلى الكاهن ؟ ولقد وقع استبياني مصادفة بين يدي صيني أجاب ببساطة : لو كنت شاباً لأوكلت أمري إلى الطبيب ولو كنت كهلاً لتوجهت إلى حكيم .

وفي حلمنا يتحلّى الوحش الذي يتقدم نحو اليمين تارة ونحو اليسار طوراً أيضاً بأهمية خاصة من حيث إنه يتوجّه ضد الحاكم أي ضد الموقف الواعي المتخذ وضد تيار الحياة الحالي وهذا كان يجب أن يرغم الحالم على الإقرار بوجود قدرة تسير بخلاف واعيته وهو اعتراف بالطبع جد مستكره لأننا لا نريد أن نقر بأن ثمة فينا قدرات تختلف أفعالها الإرادية عن أفعالنا وتتطلب أخذها بعين الاعتبار ؛ أما كُنه هذه القدرات فنجهله لكننا ندنو منها بريبة لا تُعاند وبدون أن ننظر إليها عن كثب نقمعها ، على أن ثمة العديد من الأشياء النفسية التي تبدو لنا للوهلة الأولى ضئيلة وتافهة ، ولكن ، «شريطة أن يبعث الله فيها الحياة» وأن نوليها انتباهاً كافياً وأن نتيح لها الوقت الكافي للنمو ، يمكن للشرنقة الكريهة أن تتفتح عن فراشة بديعة . لم آت مع مريضي على ذكر هذا الجانب من المسألة لأنه بسبب من موقفه الذهني ما كان ليلقى منه أي ترحيب .

Scanned with CamScanner

٣(١)

تفسير حلم عظيم

سيتاح لنا ونحن نفسر حلماً جديداً أن ندنو من عدد من المفاهيم الأساسية كمفهوم **العين الثابتة** مثلاً بما هي تعبير يشير إلى صورة أصلية موجودة في **الخافية** . فالعين الثابتة هي أيضاً ضرب من المركب إنما على العكس من المركبات التي درسناها حتى الآن ليس ثمرة الخبرة الشخصية بل هو مركب فطري . إنما العين الثابتة بؤرة مشحونة بالطاقة ؛ فالتنين مثلاً عبارة عن واحدة من هذه الصور الأصلية العينية الثابتة[٢] . فإذا لم ألاقِ إبان حياتي التنين الذي فيّ وإذا عشت حياة تبقى خلواً من هذه المواجهة لانتهى بي الأمر إلى الشعور بالضيق وكأني



أقتات دائماً بأغذية خالية من الفيتامينات أو من الملح . إنما لا بد لي من لقاء التنين لأنه شأن البطل بؤرة مشحونة بالطاقة فإذا لم يتم اللقاء سيؤدي هذا العوز مع تقدم السن إلى ضيق أشبه مايكون بالضيق الذي يتسبب فيه إهمال حاجة من حاجات الإنسان الطبيعية . قد يبدو هذا من قبيل المفارقة لكن هذه الصور الأصلية ـ التي يوجد حشد منها يحمل كل منها شحنته النوعية التي لا نفيد منها ما دمنا إذ لم نقع عليها بعد لم ندرجها على نحو ما في نسيج حياتنا . أما اللقاء مع التنين فقد يتم وفق كيفيات مختلفة المهم فيها أن تكون ثمة مواجهة ولعلي مُفهِمكم قصدي على وجه أفضل بقولي إن المرء لا يشعر بالارتياح كل الشعور ما دام لم يلتق مع نفسه بل ما دام لم يواجه نفسه فإذا لم يتعثر المرء بمصاعب داخلية لبث على سطحه . عندما يصطدم امرؤ مع نفسه فإنه يكابد من جراء ذلك بعدئذٍ شعوراً شافياً يكون مجلبة للارتياح .

ثمة أعيان ثابتة جوهرية من شأنها أن تستدعي تعديلات أساسية في حياة

(١) المحاضرة السادسة .

(٢) تدلي خبرة يونغ هنا بدلو جدي في نظرية فطرانية بعض الأفكار وهي نظرية ظل علم النفس الرسمي يصم آذانه عنها حتى الساعة . (رك)

Scanned with CamScanner

الإنسان ؛ فالمنطقة د المحيطة بالمركز من الترسيمة ٤[1] عالم أساطيري وخرافي هو عالم سفلي أو عالم علوي إذا شئت مُشكَّل من نوى ذات كمون طاقي وهذه تملأ حياتنا والكائن المجرد منها يتصف بلا مبالاة غير إنسانية .

لقد قلنا أعلاه إن رموز الحلم من طبيعة فردية أساساً وأن من المفيد بخاصة تفسير سلسلة من الأحلام الأمر الذي يضفي على التفسير أماناً أكبر بما لا يُقاس مما لو كان يتناول حلماً معزولاً لكني فيما يلي ـ أقلّه ظاهرياً ـ سأناقض نفسي وأكسر القواعد المعمول بها حتى الساعة : سوف أفسر حلماً معزولاً لا ينتمي إلى سلسلة ولا أعرف صاحبه ولسوف أفسر هذا الحلم «اعتباطياً» لكن طريقتي في العمل لن تكون مع ذلك غير مبررة . يصدر الحلم الذي سنتحدث عنه بالفعل عن الخافية الجماعية وقوامه من حيث الجوهر قوام أساطيري.فإذا كان حلم مشكَّلاً من مواد شخصية افترض تفسيره معرفة تداعيات الحالم التي لا يستطيع المحلل أن يضيف عليها البتة شيئاً يذكر من حيث إن كل شخص في فرديته بالدقة مختلف جوهرياً عن كل شخص آخر ؛ أو ليس لكل فرد حياته الخاصة وصوره وتمثيلاته الخاصة ؟ لكن هذا الذي يشكل عماد الخافية الشخصية لا يعود صحيحاً على المواد الصادرة عن الخافية الجماعية ففي مواجهة عين ثابتة يمكن للمحلّل ويجب عليه أن يبدأ بالتفكير لأنها تتعلق ببنيان تشترك فيه البشرية قاطبة ولا تقل تداعياتي بالنسبة إليه صحة عن تداعيات الحالم وبوسعي عندئذٍ أن آتي بالمتوازيات والمواد المقارنة وباختصار بالسياق على أن أملك علماً وافياً وحسب . ففي الحلم الذي جئنا على ذكره لتونا استطاعت معارفي أن تسهم في إظهار المغزى الشامل للوحش وهذا يصح إلى حد ما على أي شخص لأننا جميعاً قد سمعنا بالقَصص والحكايات والأساطيريات .

صدر الحلم الذي انوي أن أقصه عليكم عن شاب كان آنذاك قد بلغ المرحلة المنذرة بذهان هوسي خَوَري psychose maniaco-dépressive[2] . إن بداية الأعصبة والذهانات غالباً ما تتسم بظهور أحلام ذات مدى عظيم بحكم الإشارات التي تنطوي عليها إلى أسباب الاضطراب الذي سيتفجّر ومغزاه ؛ ويبدو أننا نشهد هنا

(١) راجع ص ١٠٠ .

(٢) ذهان يتصف بتتالٍ من حالات الاهتياج والخَوَر . (رك)

Scanned with CamScanner

محاولة أخيرة من جانب الخافية لكي ترفع بوثبة فائقة حتى واعية المرء الرموز التي قد تشير عليه في اضطرابه باتخاذ مسلك ثمين ؛ فإن تفجّر عصاب أو ذهان يتسم دوماً بفترة وحالة من القلقلة يبدأ في أثنائها الشعور بالأمن الملازم للحياة السوية بالاختفاء . وإن الهلع والتقلّب الناجمين عنه تؤثر بعمق في الخافية التي تتمرد على الاضطراب أو وحدانية الجانب أو انقلاب[1] الواعية وهو تمرد يحرض من جانب الخافية حلماً هو رسالة ظرفية بحق . وبالمثل فليس من النادر رؤية ظهور اضطرابات عصبية لدى أفراد في عهد من حياتهم يتصورون فيه أنهم بلغوا أمناً خاصاً تماماً بينما هم على سبيل المثال قد تبنوا قناعة تبدو لهم غير قابلة للدحض، لكنها إذ تظهر لخافيتهم معوجّة فإنها تحرض تمرّدها وتجعلها تبعث إلى الواعية بحلم أساسي ؛ والمنامات التي تشاهد في بداية عصاب أو ذهان تشكل مع أحلام الطفولة الأولى أكثر الأحلام التي يمكن الوقوع عليها إثارة للاهتمام .

ولنشدد أيضاً بمثابة تمهيد على أني لم أكن أعرف الحالم فإن واحداً من أصدقائي هو طبيب عقلي في مستوصف ، إذ وجد الحلم ذا مغزى بصفة خاصة ، أطلعني عليه . كان مريضه فرنسياً في الثانية والعشرين من عمره حاد الذكاء ومتذوقاً للجمال . وكما سترون فإن تعابير الحلم وروايته عامين تماماً ولا يتطلبان إذا جاز القول أي تداعٍ شخصي من حيث إن الرموز التي يستعملها من النوع الذي يترك المعاودين عادة محرومين من التداعيات . والأفراد الذين يرون هذا الضرب من الأحلام يبقون تحت تأثير غرابتها ويجهلون من أين استطاعوا أن يستمدوا مثل هذه المصوَّرة . ومن جهة أخرى فإني قد اطلعت على المواد التداعوية المرتبطة بالإلماعات الشخصية القليلة المتضمنة في الحلم بحيث أننا قادرون على فهمها.ولنضف بأن الحالم قد سافر إلى إسبانيا وبأن التمثيلات التي تلعب دوراً في الحلم إسبانية في معظمها ولدى عودته تفجّر خَوَر شُخِّص بكونه ذهاناً هوسياً خورياً، وفي غضون ستة أشهر أمكن إطلاق المريض من المستوصف لكنه انتحر بعد ذلك ببضعة أشهر وكان يبدو آنذاك أن خوره قد شُفي عملياً وقد وضع حداً لحياته في حالة هادئة ومعقولة على ما يبدو وإن حلمه لسوف يُفهمنا لماذا انتحر . وهاكم هو :

(١) يُرجى من القارىء هنا أخذ مصطلح «انحراف» perversion خصوصاً بمعناه الاشتقاقي أي بمعنى الانقلاب . (رك)

Scanned with CamScanner

يوجد تحت كتدرائية طليطلة صهريج مملوء ماءً يتصل عبر نفق بالتاج[1] وهذا الصهريج عبارة عن حجرة صغيرة مظلمة ويوجد في الماء ثعبان ضخم جداً تلتمع عيناه كأنهما حجران كريمان وبالقرب منه كأس ذهبية تحوي خنجراً وهذا الخنجر هو مفتاح طليطلة ويسبغ على الحاصل عليه السلطان على المدينة. وكنت أعلم أن الثعبان كان صديق وحامي المدعو السيد ب .ك . وهذا كان معي أولاً في الحجرة المظلمة ووضع رجله الحافية في فم الثعبان الذي كان يلعقها بكل ود وكلاهما يجد لذة في ذلك وبذلك لم يكن ب .ك . يخاف من الثعبان لأنه كان طفلاً لا خبث فيه ففي الحلم بالفعل لم يكن ب .ك . راشداً إنما في السابعة من عمره فقط . ثم الفيت نفسي وحدي في الحجرة المظلمة وتحادثت مع الثعبان الذي شعرت نحوه باحترام عميق خلو من أي خشية. وقد قال لي الثعبان بأن إسبانيا ملك لي بما أني من أصدقاء ب .ك . ورجاني أن أعيد إليه الطفل الأمر الذي امتنعت عنه لكني وعدته بالمقابل أن أنزل بنفسي إلى حيث هو وأقبل ملاطفاته ولكن بدلاً من ذلك قررت فجأة أن أرسل إلى هناك صديقي س . (المتحدر من المغاربة الإسبان تشهد بذلك بشرته السمراء وشعره الأسود) على أن هذا النزول يتطلب منه أن يعثر قبل كل شيء على قوى عرقه الأسلافية. لذا أقول له بأن يستولي على السيف الأحمر المقبض الموجود في مصنع الأسلحة على الضفة الأخرى من التاج وهو سيف قديم كان ملكاً لأثينيي أو فوقيي[2] مسّيليا ـ مرسيليا اليوم ، فمضى هذا الصديق يحضر السيف ونزل إلى الصهريج حيث أمرته بأن يُنفذ السيف في راحة يده اليسرى ففعل لكنه لم يقو على البقاء في حضرة الثعبان. وإذ قهره الألم والخوف شحب لونه وعاود صعود الدرج مترنحاً بدون أن يستولي على الخنجر وبذلك لم يستطع أن يملك على طليطلة واضطررت إلى تركه هناك كما كنت لأفعل بزينة .

هذا ما يمكن للبدائيين الذين يحكمون على طبيعة الأحلام بالكثير من النباهة أن يسموه حلماً عظيماً أما الأحلام الأخرى العادية فلا يُعتد بها في نظرهم بينما إذا رأى أحدهم «حلماً عظيماً» حدس على الفور مغزاه الجماعي الذي يُشعره بالحاجة إلى قص الحلم على جواره كله كما لو أن في ذلك التزاماً أخلاقياً بإزاء

(١) بالإسبانية : تاخو Tajo ؛ أطول نهر في شبه الجزيرة الإيبيرية ، ينبع في إسبانيا ويمر بطليطلة ويجتاز البرتغال ويصب في الأطلسي . (م)

(٢) نسبة إلى فوقيا Phocée ، مدينة في آسيا الصغرى أصبحت منذ القرن السابع ق.م مركزاً تجارياً مرموقاً وكانت مرسيليا من الوكالات التابعة لها في الغرب . (م)

Scanned with CamScanner

القبيلة ، وعندئذٍ يلتئم شمل الرجال الذين يقتعدون الأرض ويصغون إلى سرد الحالم . وإن بعض اللهجات البدائية لتمتلك تعبيراً للحلم العادي وآخر للحلم العظيم وهذا السلوك الغريب لا يميز البدائيين وحسب وإننا لنصادفه أيضاً في أوروبا في روما حيث استمر حتى نهاية الجمهورية ؛ فإننا نعرف مثلاً أن ابنة شيخ روماني ، ظهرت لها منيرفا في المنام ، مَثُلَت أمام مجلس الشيوخ لتطالب على ذمة حلم بترميم معبد مكرس لمنيرفا تُرك حتى تهدّم .ولقد تأثر مجلس الشيوخ فأجاز المبالغ المطلوبة . إن هذا السرد ليعبر تعبيراً واضحاً عن الحدس القديم بالخاصية الجماعية للحلم العظيم الذي لم يكن ملكاً لمن يحلم به إنما للجماعة وللشعب ولكلية الموجودات فإذا نجح تفسير حلم كهذا أفاد منه الجميع الأمر الذي لا يصح على الأحلام الصغيرة التي تُشاهَد عادة .

فلأطلعكم على سياق هذا الحلم المؤثر . لقد أقام الحالم كما قلت لكم في إسبانيا وبخاصة في طليطلة لفترة طويلة ، وطليطلة مدينة ذات مسحة لا تُنسى .أما جوهرة المدينة فهي كثدرائيتها القوطية التي هي واحدة من أجمل كثدرائيات أوروبا. ولقد خلفت أثراً عميقاً على حالمنا ؛ فكل من دخل كثدرائية قوطية استشعر إلى أي حد ما زال العصر الوسيط المسيحي وروحانيته حيّين يفرضان نفسيهما على الزائر. وتحت هذه الكثدرائية اي على نحو ما تحت العالم الروحاني والمشع للعصر الوسيط يبدو صهريج يتصل ماؤه المظلم بالتاج والتاج يطوق طليطلة من ثلاثة جوانب وككل مجرى مائي يرمز إلى دفق الحياة الجارية ، ذلك الدفق الأبوي ؛ فنحن نقول مثلاً : «والدنا الراين» (Vater Rhein) ! إذا وقفتم يوماً على ضفاف نهر يجري هادئاً بين غابتين وتأملتم مجراه الدائم المنتظم أدركتم القيمة الرمزية التي يمكن أن تكون للتاج في حلمنا ؛ والنهر متصل بنفق بالصهريج الذي يشكل بذلك طبقة مائية معزولة عن مياه الحياة العجلانة .

ما فتئت طليطلة اليوم مدينة حصينة وقد كانت في الماضي من أشد حصون إسبانيا مناعة وإذ ظلت طويلاً عاصمة كاستِيّا كان تعداد أهلها منذ العصر الوسيط ۲۰۰۰۰۰ نسمة وكانت تشرف عليها قلاع مغربية وإن مثل هذه المدينة المطوّقة بالأسوار والأبراج لتفعم المسافر بشعور لا ينسى من التماسك والوحدة والتصلب الأنوف ضد كل المؤثرات القادمة من الخارج ؛ إنها القوة السنيّة مجسّدة ؛ لذا

Scanned with CamScanner

ظلت المدينة منذ اقدم الأزمنة رمزاً للكلية الكاملة القادرة بحولها على فرض نفسها بإزاء كل المؤثرات المفكِّكة ورمزاً للوجود الابدي من نحو اورشليم السماوية التي تجسِّد ملاء السموات وحالة ديمومة لا يطالها الزمان .

اما الصهريج فهو كهف يقع تحت الكنيسة ؛ فتحت كنائس العصر الوسيط عموماً يوجد دِيماس لا يزال عندنا مكاناً للدفن كانت تتم فيه فيما مضى الأسرار المقدسة.وفي ماء الصهريج يسبح ثعبان والثعبان كما قلنا بصدد الحلم السابق حيوان من ذوات الدم البارد وفقاري يجسِّد النفس الدنيا أي النفسية المظلمة أي الخافية وما هو نادر ومبهم ومخيف وما يمكن أن ينتصب فينا عدواً لنفسنا وقادراً مثلاً على إصابتنا بمرض مميت ، وللثعبان عينان تومضان كالأحجار الكريمة الأمر الذي كان منذ قديم الزمان - والمواريث التي تؤكد ذلك لا تنقصنا - من صفات الثعبان السحري ، والحجران الكريمان شأنهما شأن الكأس الذهبية يشددان على كل ما هنالك من نفيس ، فالكأس تمثل كنزاً وتحوي خنجراً هو في الوقت نفسه مفتاح المدينة وذلكم هو الكنز الذي يُعهد دوماً إلى تنين بحراسته.وإن كلمة dragon [تنين] آتية من كلمة draco اللاتينية التي تعني ببساطة «حيَّة» . والثعبان بما هو رمز للنفس الغريزية والدنيا يعتبر في الغرب حيواناً مشؤوماً بينما يُعتبر في المشرق حيواناً مسعوداً وفي الحكايات السويسرية مثلاً تتردد التنانين دائماً على ضفاف المياه وكثيراً ما تكون حارسة للينابيع جد متوعِّدة أحياناً وتظهر على الأغلب ذات صلة بكنز ما ينبغي اقتناصه منها هو هنا مفتاح المدينة الذي يُعهد إلى البطل صديق الحالم أن يستولي عليه ؛ لكن هذا المفتاح ليس مفتاحاً عادياًفهو خنجر في الوقت نفسه ، وإذ اندغم تمثيلا الخنجر والمفتاح واحدهما في الآخر أو أصاب واحدهما الآخر بالعدوى شكّلا معاً كلاً واحداً أو وحدة عجيبة ؛ **فمن الشائع في الأحلام ان تتكثف معانٍ متنوعة في غرض واحد يعبر عنها جميعاً** . فما تقصد الخافية صياغته بهذا المفتاح - الخنجر لا يُعبَّر عنه لا بالخنجر وحده ولا بالمفتاح وحده ، فهذان الغرضان يعرَّفان بمظهرين مختلفين من مظاهر مسلمة واحدة لا يعبَّر عنها بواحد من تمثيلينا بمفرده ، وإن لمن مهام الذهن الواعي أن يجد القاسم المشترك بين هذين الغرضين المتباينين فـالخنجر سلاح أبيض ينضوي بهذه المثابة تحت باب السلاح العام المشتَمل عليه هو نفسه بمفهوم الأداة الأعم ،

Scanned with CamScanner

والخنجر مثله مثل السيف أو الرمح أو السهم قطعة مُطرَّقة لغرض محدد استجابة لقصد وإرادة تسمها بسمتها ؛ فكل أداة تتعلق بقصد أو بإرادة محدَّدة تجسّم وسائلها على هذا الشكل ؛ فالمنظار الفلكي يعبر عن إرادة بانيه بأن يميز الأشياء القصية والخنجر عن إرادة الاختراق ؛ فإرادة الاختراق قد تحققت في هذا الغرض المطرّق مدبباً . إنما الخنجر يريد بلوغ مرماه وهو يستحضر الاختراق باتجاه محدّد الأمر الذي يقرّبه على نحو وثيق من تلك الأداة الأخرى التي هي المفتاح ، فالمفتاح هو الآخر يريد الولوج ، ونية فتح قفل ، الأمر الذي تعجز عن تحقيقه الأصابع المجرّدة ، قد تجسمت في مفتاح . يقول غوته Goethe محقاً في فاوست : «المفتاح سيشتمّ المكان المقصود فاتبعه في الأعماق يقدْك إلى حيث الأمهات .»

إن فاوست جاهل بالدرب المؤدي إليهن لكن المفتاح بما هو قصد موجّه يعرفها ويجد نقطة ارتكازه المؤاتية .

وضمن هذا النسق من الأفكار لا يفكر البدائيون في سلاحهم بأنهم يستعملونه بمهارة خاصة إنما يعزون إليه ، وكأنه كائن سحري ، نَفْساً تعرف الهدف المقصود ، فإذا أصاب رأس الخنجر قلب الخصم فلأنه يفتش عنه ولأنه يريد الولوج هناك من حيث إن الخنجر هو الذي يقود يد المقاتل وليس المقاتل الخنجر وبالفعل فإن الأداة غير المتمايزة بعد في نفسانية البدائيين عن القصد الذي تترجمه تفيد وعاءً لإسقاطه[1] .

تكشف هذه التعليقات عما يشترك فيه الخنجر والمفتاح : فكلاهما يشتم النقطة المؤاتية ويقود إلى تحقيق هدف والحلم بالطبع لا يقول ما هو العنصر النفسي

(١) بعض اللغات البدائية لا يستعمل أدوات التعريف (le, la, les) وحسب بل تعبر بالإضافة إلى ذلك عن كون كل غرض حياً أو جماداً فالبدائي لا يستطيع أن يغفل كون الغرض ميتاً أو حياً شأننا في جنسه . ففي أواسط أوستراليا ـ وتلكم ظاهرة من النسق نفسه ـ تعيش قبائل بدائية جداً على قناعة صميمية بأن ما هو ملك لأحد الكائنات لا يمكن بحكم استحالة عقارية أن يكون ملكاً لسواه وبذلك فإنهم لا يعرفون السرقة ويجهلون جشع البلاد الأجنبية : لذا فإن غزوها غير منصوح به من حيث إن الأراضي النائية تطوّق نفوساً غريبة ؛ فإذا اتفق لزعيم أن يقود قبيلته إليها لوضعت النسوة أطفالاً كاذبين ورثة نفوس أسلاف كاذبين وبذلك يكون بداهة من الخطر على هذه القبائل أن تقيم في بلاد غير بلادها ولذلك فإنها تمتنع عن كل مشروع للغزو .

Scanned with CamScanner

فينا مرموزاً إليه بالمفتاح الخنجر الذي يحيط علماً بالطريق الواجب اتباعها ففي حالة المعالجة علينا أن نفتش عنها .

هلم ننتقل إلى صديق **حالمنا هذا السيد ب. ك.** الذي اتخذ الثعبان جنياً حامياً وخديناً ؛ فكثيراً ما كان الجني الفردي في العصور القديمة يمثَّل بثعبان كان غالباً يجسّد مثلاً نفس الأبطال وهذا التمثيل يتأسس على تصور بدائي فالبدائيون إذ يدفنون واحداً منهم كانوا يراقبون تلة التراب البليل الذي تغطيه بحيث يُعلن أول حيوان يجازف بوطئها مؤتمناً على نفس المتوفى ولسوف يُكرّم بكل تبجيل ؛ وصديق حالمنا صديق طفولة عرفه وهو في حوالى السابعة من العمر وتوثقت بينهما عرى صداقة حميمة وصداقات الطفولة هذه غالباً ما تكون ذات طبيعة مشبوبة إذا نظر المرء إليها عن كثب متسائلاً عما يشكل قوامها وجد على الأغلب بأن كلاً من الصديقين يخلع على الآخر أنبل وأنفس عناصر حياته الداخلية أي كنزه الجواني وتعبير «يا ذخري !» في لغة الحب ليعود إلى هذا الأصل. **ولا ريب أن أجمل أسرار الصداقة لهو الظن بأن الصديق قادر عند الاقتضاء على ما لا يجرؤ المرء على أن يترجّاه من نفسه** . وصداقات الطفولة هذه غالباً ما تقوم على سر ، على الحدس الطفولي بقيم لا تُثمّن وكنز عظيم مخفي لعل الصديق يستطيع بلوغه وأنتم تتذكرون من حياتكم المدرسية بلا شك بأن من بين زملائكم من كانوا يُحسبون «أبطالاً» فهم كانوا ذوي طبيعة موهوبة أو وقورة بصفة خاصة وكانوا محبوبين بحنوّ وتُظن فيهم القدرة على إنجاز الأعاجيب ؛ وهذا السيد ب .ك . كان لحالمنا الصديق المشيَّد مثالاً على هذا النحو ففي نظره كان محسوباً ممن يجهلون الخوف ويقدرون على عظائم الأمور وبكل نقاء كان يعتبره طفلاً لا خبث فيه . لذلك يمكنه أن يضع رجله في فم الثعبان بما أن الرجل هي الجزء من الجسم المخصصة تقليدياً ـ كما سبق وقيل لكم في التعليم الديني ـ للدغات الأفاعي. وطفل حلمنا يستطيع أن يجازف بدخول وكر الثعبان الذي يكن له مشاعر الود بل يكون له حامياً ؛ وإننا لنصادف ههنا مجدداً تمثيلاً بدائياً وأصلياً : فالسحرة الأفريقيون يُحسبون في أنظار قبيلتهم مرافَقين من الجن الذين يتخذون هيئة الزواحف فيما تُحسب النفس أفعى. فعندما يتساءل زنجي حائراً عما يجب عليه فعله يقول مبتعداً : «سأنصرف لأكلم حيّتي» ويعني بذلك أنه سيتحادث ونفسه . والثعبان في حلمنا لا يظهر في جو غير مشؤوم

Scanned with CamScanner

وحسب بل يبدو بشيراً بفأل حسن جداً فهو يحب الصُبَيّ وهذا يبادله بوضوح حبه بحب . وإننا لنقع على الموضوع عينه في أسرار إلفسيس Eleusis الكبرى ممثلاً على إناء جنائزي شهير حيث يلاطف المسارَر initié ثعبانٌ ذيمترا أم الأرض . وبالمثل نجد في الأساطيريات الجرمانية القصة القائلة بأن كل من يتمكن من تقبيل الحية يبدل هيئتها إلى فتاة جميلة ، وحكاية ملك الضفادع (der Froschkönig) تصدر عن خيال مشابه ؛ فوحده الطفل الذي لا خبث فيه أو الرجل غير المرتاب لا يفزعه حضور ثعبان بينما يستشعر غيره من البشر جميعاً بإزائه رعباً عميقاً . ذلكم سر من أسرار الطفولة يذهب بذهابها : فالكائن إذ يكبر ينسى سر كلّيته الطفولية ، سر الطفل الذي يعرف كيف يدع عالماً بأسره يحيا فيه بدون أن يشلّه بالافتكارات والأحكام والإدانات ؛ الطفل الذي يحيا في ضرب من رياض الجنان حيث تنمو كل الكائنات جنباً إلى جنب بسلام وإذ يضمحل هذا السر مع تقدم السن بوسعنا القول إن وحده أبله كامل مَن شأنه أن يستشعر لاحقاً هذه الكلية الهاربة وأن يواجه بلا خوف جنيّه الداخلي ؛ فبفضل من صديقه الشاب يقول الثعبان للحالم بأن إسبانيا بأسرها ملكه . والبلاد برمّتها تعني من جديد فكرة الكلية وملكية إسبانيا أو البلاد برمّتها ترمز إلى الكلية المشمولة ضمناً في السلطان على طليطلة ؛ فلأن الثعبان يذود عن كلية الكينونة ينبغي تبعاً لرغبته النزول إلى حيث هو . إنه يلحف على الحالم في السؤال أن يرد إليه الطفل وبعبارة أخرى وبالانتقال إلى العام تتوق النفس الدنيا المتوضعة في النخاع الشوكي أو الغريزة العميقة فينا إلى العثور من جديد على الطفل . لكنما بدلاً من ذلك تُغدق عليها بسهولة قسراً نصائح تُعتبر معقولة . بيد أن الثعبان يطالب بصراحة بالطفل المِراح الذي لا خبث فيه لأنه لا يستطيع أن يتفاهم إلا معه وليس مع الراشد بما هو الواعظ الأخلاقي المتمحّك الذي لا يعرف البتة إلا أن يتبجح من علياء وعيه . مهما يكن من أمر فإن الكيان الواعي للحالم يشعر أمام الثعبان بتجلّة يشهد وجودها وحده بصفات يندر وجودها يتحلى بها مريضنا فهو يكلم الثعبان باحترام ولكن بلا خوف ولعله كان من الخير له أن يحس بالخوف ! فهذا النزول إلى وكر الثعبان الذي يمثل قضية مركزية إنما هي هي الأخرى انبعاث لتراث ثقافي أسلافي ؛ فالمسارَرة initiation بالفعل قد تُخُيِّلت دائماً بوصفها مسلكاً أو نزولاً إلى الكهف حيث ترقد الأسرار التي سيُسارَر المرء بها وبذلك فإن مثل حلمنا كمثل استذكار أسرار المسارَرة القديمة . الرجل المعمور بالخبث لا يطيق الاشتراك

فيها لأنه يعرّض نفسه بذلك لخطر اللدغ والتسمم ؛ وتلكم هي علة إيثار الحالم استخدام الحيل فهو يعد الثعبان زوراً بأن ينزل إلى حيث هو ـ وهذا ما ينبغي أن يقوم به ـ لكنه بدلاً من ذلك يفوّض الواجب الواقع على عاتقه صديقاً آخر في سن الرشد ؛ ويروي الحلم عن هذا الصديق الجديد بأنه يتحدر من المغاربة الإسبان الذين كانت طليطلة ملكاً لهم فيما مضى وهؤلاء المغاربة لم يكونوا مسيحيين بل كانوا على العكس ألد أعداء الكنيسة المسيحية في العصر الوسيط ومنذئذٍ لا يصح لواحد من أعقابهم أن يكون مسيحياً حقاً ، فهو يبقى في أعماق كيانه كافراً محمدياً وخصماً لدوداً للكنيسة.وهذا الشاب أسمر البشرة وأسود الشعر الأمر الذي يدل على أصوله كل الدلالة وفي كل الأحوال يعزو إليه الحالم محقاً معرفة كافية بالإسبانية والعربية ـ أو اللهجة المناسبة ـ بما يسمح له بالشروع في مناقشة مفيدة مع الثعبان . هذا الصديق الأسمر البشرة يرمز إلى ظل الحالم. فمن الأمرين أحدهما : إما أن نعرف ظلنا أو لا نعرفه ، وفي هذه الحالة الأخيرة كثيراً ما يكون لدينا عدو شخصي نخلع عليه ظلنا الذي نحمّله إياه مجاناً فيحتفظ به في نظرنا وكأنه ظله ويتحمّل مسؤوليته كاملة ؛ إنه «بعبعنا» الذي نحقّره ونؤاخده على كل المعايب وكل الفظائع وكل الرذائل التي لا تخص إلّانا ! إن علينا أن نأخذ على عاتقنا جانباً كبيراً من المآخذ التي نرهق الآخرين بها ! لكننا بدلاً من ذلك نتصرف وكأن بإمكاننا على هذا النحو أن نتحرر من ظلّنا : إنها قصة القشة والخشبة المستمرة[1] . فعلى الشاب الأسمر السحنة بما هو حامل ظل الحالم أن ينجز في الحلم بدلاً عنه ما يتطلّبه القدر منه.فالحالم يؤثر أن يعفي نفسه من هذا النزول إلى العالم الزواحفي الواقع تحت الكنيسة المسيحية ويحمّله صنوه المظلم يرمز إليه الآخر ذو الجلد الملون الذي يعود فسقه المؤكد إلى أصله الكافر . ويفكر الحالم : «فليكن الثعبان شغله الشاغل» آملاً بذلك خداع الزاحف بيد أن الحالم إذ يخشى أن يدع صديقَه المظلم قوى قومه الأخلاقية تنهار فلا يستطيع أن يجتاز الامتحان بنجاح فإنه يلجأ إلى طقس خاص لكي يسلّحه بالقوة والشجاعة فينصح له في سبيل النجاح بالاستيلاء على سيف محفوظ في مصنع للسلاح الأبيض يقع على الضفة الأخرى للتاج ، ومصنع السلاح الأبيض هذا ما يزال موجوداً ويعمل حتى أيامنا هذه

(١) راجع الحاشية (١) ص ١٩١ . (م)

Scanned with CamScanner

والسيف المحفوظ فيه بحسب الحلم كان ملكاً للاثنيين أو للفوقيين وهو بالتالي عريق الأصل . وللسيف بالطبع من حيث الجوهر معنى الخنجر نفسه لكنه أكبر ويشكل هنا «السيف السحري» بامتياز أي السيف الذي لا يستغني عنه بطل قط . خذوا على سبيل المثال سيغفريد[1] ! فالسيف ههنا أداة ثقافية ترجع إلى أقدم العصور وما قلناه عن الخنجر من أنه يشير إلى قصد ليصح كذلك على السيف من حيث كونه الإرادة محقَّقة ، أو بالحري القابلة للتحقق ، من الإنسان الذي يدافع بفضله عن حياته ويغزو الأراضي . فإنما الإرادة مغنم ثقافي قديم تتزامن ولادته أساساً مع أصل الثقافة فما دامت الإرادة غير موجودة لا يصح الحديث عن ثقافة أيّاً كانت لذا فإن من الحمق كما لا يخفى الإصرار على تلقين الثقافة للزنوج فإن الإرادة لم تولد وتقوَ إلا عبر آلاف السنين ولهذا يُرمز إليها دوماً في الأحلام بصورة أداة منقولة من قديم الزمان أو كنز أو سلاح موروثين عن الأسلاف وهذا التراث الثقافي الأسلافي الذي يجب على صنو double الحالم أن يستولي عليه لا بد أن يمنحه قوة سحرية يكابد بفضلها امتحان الثعبان منتصراً . وبالإضافة إلى ذلك على الصديق لكي يقوى أن يُنزل بنفسه جرحاً ليس إلا جدعاً سحرياً أو قرباناً طقسياً نقع عليه في كل مكان بأشكال متنوعة للغاية ؛ دونكم التمثيل بأودين[2] Odin المعلق على شجرة فلعلّكم تعرفون المقطع اللافت للنظر حيث يقول : «طوال ليالٍ تسع مطعوناً بحربة بقيت معلقاً على شجرة تهزني الرياح أضحية لأودين ، جسدي نفسه أضحية لنفسي .» إن طقس الجدع ليس مسيحي الأصل بل هو من وحي وثني محض ومقطع حلمنا يتطلب هو الآخر أن يُفهم من هذا الجانب : فالحلم إذ يستدعي تمثيلاً وثنياً بالتقليد يسهل تصور أن الوثني الهاجع في قلب حالمنا هو الذي يجب أن يتكفل بالنزول إلى حيث التنين لكنه من أجل هذا بحاجة إلى معونة كان الأقدمون يملكون سرها وصارت نسياً منسياً ؛ فلعله لو كان السر بحوزته كان تحلى بالشجاعة الضرورية للامتحان ؟ للجدع قصد سحري كونه يرمز إلى تضحية بالنفس شفاعية تستبق إذا جاز القول كارثة متوعِّدة لكي تحرفها . وهذا التمثيل ما يزال عند البدائيين راسخاً وقوياً للغاية تشهد بذلك الحكاية التالية : رأى

(١) سيغفريد Siegfried بطل أسطوري جرماني («أغنيات نبلونغن» Nibelungen) . (م)

(٢) الاسم الاسكندنافي للإله الجرماني فوطان Wotan . (م)

Scanned with CamScanner

زنجي ذات ليلة كابوسا أبصر فيه نفسه ملاحقاً ومقبوضاً عليه ومحروقاً من قبل أعدائه وعند استيقاظه سرعان ما جمع كل أقاربه وتوسل إليهم أن يحرقوه حياً حتى ينجو من أعدائه فأبوا أن يفعلوا شيئاً من ذلك لكن إثارة الزنجي لم تتوقف إلا عندما وافقوا على شد وثاقه وإشعال نار تحت رجليه ولقد كانت حروقه من الشدة بحيث أنه ظل طوال تسعة أشهر عاجزاً عن المشي وظلت رجلاه مشوهتين ما تبقى من عمره بيد أن زنجيّنا كان راضياً من حيث إن الكارثة التي كانت تتهدده قد استُبقت وتم تحاشيها في ذهنه بفضل تشويه رمزي.

وفي الحلم على الصديق الذي هو في الوقت نفسه صنو الحالم وظلّه أن يثقب يده رمزياً كيما يتحاشى خطر التنين وهو ينصاع لهذا الإيعاز ويثقب يده اليسرى من حيث إن الجانب الأيسر هو دائماً الجانب غير المؤاتي. (ومن هنا المعنى المزدوج لكلمة sinister اللاتينية[1]؛ فالجانب الأيسر هو الجانب المظلم والخافي بينما الجانب الأيمن هو الجانب الواعي وإن اليد اليمنى هي اليد التي يُعصِبها الوعي بخاصة من حيث إن اليد اليسرى هي التي تستأثر بالمرافقة.) بيد أن الألم والخوف على الرغم من هذه الاستعدادات كلها أقوى من أن يستطيع الصديق المغربي قهرها فلا ينجح في الامتحان ويتوقل الدرج بدون أن يفلح في الاستيلاء على الخنجر مفتاح المدينة التي تصبح منذئذٍ عصية على حالمنا.

ها قد وصلنا الآن إلى نهاية الحلم الغريبة: يهجر الحالم الصديق هناك بمثابة زينة والزينة قد تكون لوحة معلقة على الحائط أو طرفة أو تمثالاً من الجص الخ. أي أن الحالم يهجر الصديق بصفة زينة أي بوصفه شيئاً تافهاً لا جدوى منه في وضعية متكلّفة لا حياة فيها وبذلك تُستل من الصديق علة وجوده ويغدو ضرباً من صنم الملح التزييني المحض والغريب تماماً عن دور البطل المرصود له. وهي ذي خاتمة الحلم: لم ينجز الحالم المهمة الموكولة إليه وحنث بوعده بالنزول بنفسه إلى حيث الثعبان فانتدب له باحتيال صديقاً، وقد تخلى عن مباشرة مشكلته الحيوية لجانب خافٍ من شخصيته وكأنه خاطبه على انفراد قائلاً: «تدبر أمرك فلا حيلة لي وإنني لنافض يدي من الأمر» ولقد سبق لنا التعليق على هذا الموقف بصدد الحلم السابق فعندما تلحف علينا مشكلة مضنية نشهر في وجهها عصا

(١) راجع الحاشية (٣) ص ٢٣٨. (م)

Scanned with CamScanner

العقل السحرية التي تطردها خارج فكرنا وبذلك تجيِّر المشكلة تلقائياً للآخر الذي فينا ، لشيطاننا أو ظلّنا ، لجزء خافٍ ما من كياننا عليه أن يتحمل عبئها وهو يحاول حلها فعلاً إنما الله أعلم كيف ! هل سبق لكم أن شاهدتم فيلم **طالب براغ** ؟ إنه يصف على وجه رائع هذه النفسانية كلها . فالقصة قصة طالب يتعثر بمصاعب مالية فيظهر إبليس في حياته ويعرض عليه مبلغاً ضخماً من المال شريطة أن يملكه كل موجودات غرفته الصغيرة ويوافق الطالب على الصفقة لأن ما يملكه من مرآة مثلمة وسرير بال منقوب وحسام قديم للمبارزة وبعض التوافه الأخرى يستطيع أن ينزل عنها للشيطان بطيب خاطر ! لكن الشيطان يرجوه أن يتمرّى هنيهة وفيما هو ينظر إلى نفسه في المرآة يشير الشيطان إلى صورته بأن تختفي وتتبعه . غير أن ذلك لا يقلق الطالب كثيراً وإن كان يجد أن من المزعج ألا يستطيع رؤية نفسه في المرآة عند الحلاق لكن فقدان صورته لا يجلب عليه في البداية مضايقات أخرى بيد أنه كان لا بد للحظة الحرجة من أن تأتي : فقد خطب الطالب ود إحدى الفتيات ودخل في شجار مع أحد أقربائها وقد رجاه حموه المقبل ، إذ لم يعد من المبارزة بد وكان طالبنا مجلّياً في استعمال السيف ، بألا يقتل الخصم وبالطبع فقد أقسم الطالب بشرفه ألا يمسه إلا بخدش طفيف وإذ حان يوم المبارزة بينما كان ذاهباً خارج المدينة إلى المكان المتفق عليه انكسرت إحدى عجلات عربته فاضطر إلى مواصلة طريقه على قدميه عبر الغابة وتأخر فأغاظه ذلك ، وقبيل وصوله لمح بين الأشجار شخصاً قادماً نحوه وبيده سيف وإذ اقترب تبيّن صنواً له يمسح بالعشب نصل السيف الذي كان يقطر دماً ، وإذاك حدس ما جرى فاندفع نحو فرجة الغابة . لقد كانت المبارزة قد تمت وكان الخصم ممدَّداً في دمه قد مات وبذلك حنث بوعده . لماذا ؟ لأنه قد رهن ظله للشيطان . لذا يستحسن دوماً أن نعرف ماذا يحل بظلنا لكيلا يستولي عليه «الشيطان» .

هي ذي في حوزتنا الآن مواد وافية تشكل سياق الحلم وتيسر لنا تصوره بوصفه أسطورة التنين على هيئة شخصية . لئن لم يكن الحالم عالماً متضلعاً في الأساطيريات فإنه في طفولته ككل امرىء هُدهِد حتماً بالقصص والحكايات لكنه ما كان ليخطر له في بال راشداً أن يختلق أسطورة كهذه وما كان ليتوقع ملاقاة مثلها في خياله غير أن الحلم قد تمّ حقاً فيه أي أن خافيته عبرت بمعونة مواد الحالم

وعلى هيئة شخصية عن اللوحة الكاملة لأسطورة التنين بكل مآثرها وبذلك فإن الموقف الواعي وقد تزعزع بلْوَر فيه الخطوط العريضة لهذه الأسطورة . فأي رأي هو رأينا في ذلك ؟ هذا يعني : «أنت واقف على مفترق طرق حيث كثيراً ما وقف الكائن البشري قبلك كلما حاول أن يحيا مدار حياته كاملاً وإن الموقف الذي هو موقفك اليوم قد وُقف إبان عشرات القرون عدداً لا يُحصى من المرات .» وهذا ما تبرهن عليه أسطورة التنين التي نقع عليها في البشرية قاطبة المنتشرة في المسكونة بأسرها بلا تمييز بين مناخ أو إقليم إذ ما من شعب إلا ويملكها هي أو أية صورة نظيرتها . ففي كل مكان نصادف بطلاً يقوم بمهمة استثنائية وإن عمومية هذه الصورة العينية الثابتة تجيز التأكيد بيقين بأنها توافق خبرة يعيشها الإنسان تكراراً وتتكرر إلى ما لا نهاية عبر العصور ، وكلما اصطدم المرء بوضع لا يتمكن من السيطرة عليه ترتكس الخافية استجابة لتمثيل مهمة يتعذر حلّها أو حاجة متعذرة التنفيذ - بما يجعلها بذلك تنبثق دائماً من جديد - باستنساخ الصورة المسعِفة لأسطورة التنين . ولهذه الصور العينية الثابتة - كما سبق ورأينا بصدد الحلم السابق - مدى هو حكر عليها : فهي تفيد في إدراج الحالة الشخصية الخاصة التي تبدو فريدة ويتعذر حلها في إطار عام يتخطى الفرد . فهي تبيّن في الوقت نفسه بأن ألم كل واحد هو أيضاً ألم الجميع وبأن الوضع الخاص المعقد عبارة عن مسألة إنسانية عامة بإطلاق ؛ فثمة ههنا مكسب أكيد : الشوكة الموجعة التي يغرسها كل وضع استثنائي والشعور بالعزلة الذي يتسبب فيه يبطلان ويتواصل الفرد مع الإنسانية بأسرها ؛ لذا كان الكهنة الأطباء الأقدمون - كما قلنا أعلاه - يستعملون هذه الصور العينية الثابتة كوسيلة شفاء فكانوا يجعلون مرضاهم يستشفّون هذه الصور المعزّية التي كانت تكشف لهم في عزلتهم وإهمالهم عن كون الإنسانية بأسرها دائماً أبداً قد شاركتهم آلامهم ، وهذه الاستحضارات تحرك شعورنا وتهزّ شيئاً فينا يقول لنا بأنّا حقاً لسنا وحدنا بعد والفلسفة اليابانية تعبر عن أحد أوجه هذه الفكرة بقولها : «عندما تكون بمفردك وتظنك قادراً على فعل ما تشاء فلا تنسَ الحكيم الشيخ المقيم في قلبك .» هذا الحكيم الشيخ هو التجسيد الحي فينا للصور العينية الثابتة وهو الإنسان القديم قدم العالم الذي عاش طوال مليوني عام الحياة البشرية بكل أتراحها وأفراحها وخزّن في نفسه الصور الأساسية لا يجود والذي

Scanned with CamScanner

ينتدب باسم خبرته الأزلية صورة تجعل كل وضع فردي فريد في الظاهر يتواصل مع الأرض البشرية ، وتطبيق العين المناسبة في الوقت المناسب ليس فن رجل الطبابة البدائي medicine-man وحكمة الكهنة الأطباء الذين خلفوه وحسب بل وفن مرشدينا أيضاً من حيث إن آلام البطل الرمزي التي يقوم عليها الدين المسيحي برمته لهي أيضاً صورة عينية ثابتة من هذا النوع ترفع الام كل إنسان إلى مستوى آلام الكل وبذلك تذيبها . فمم يتكون الفعل المسكّن لهذه الصور ؟ إن العذاب الكبير أو التزعزع المعنوي ينأى بنا عن أسس الوجود والغرائز ، والفرد المصاب يكابد عندئذٍ تخصيصاً مفرطاً وعزلة وتَوَهاناً ومن شأن هذه الصور الشافية أن تبيّن للنفس المعذّبة أية حالة هي الحالة التي يكابدها الكائن وأي فصل من فصول حياته يحياه فإذا كان قادراً على استشعار ما تستحضره فسوف يفيد منها بصورة فائقة الحد.وإن الحياة اليومية لتشهد على ذلك فإننا نستعمل فيها - بدون أن تكون في حوزتنا بالمقابل سبل توسيع مماثلة - طريقة مشابهة ؛ فعندما تنزل بأحد المقربين إلينا نازلة تتركه نهباً للجزع جرينا على أن نقول له : «لا تأخذ الأمر كثيراً على هذا المحمل المأساوي» أو : «إنها الحياة وكلّنا لها !» أو أيضاً : «تعيش وتأكل غيرها !» الخ . وبذلك بدون أن يحتاج المرء إلى اللجوء من حيث يدري إلى أعيان ثابتة يمكن لحزن عظيم أن يوضع على صعيد عام الأمر الذي يجعله أخف وطأة و«سوء متقاسَم ليس إلا نصف سوء» كما يجري المثل الألماني فثمة ههنا أثر شافٍ يصدر عن الأعيان الثابتة .

إن صاحب حلمنا فريسة لبلبلة عميقة أو تخصيصاً أو تيهاً من الشدة بحيث يعجز عن إيجاد طريقه وهو لا يشعر بالإعصار الذي يتعاظم وينذر ؛ لكن الخافية تقول له عندئذٍ : «أنت تواجه مشكلة عبرت عنها منذ القديم أسطورة التنين .» بل إن الحلم يستعمل لغة أكثر نوعية تجدد على نحو تاريخي الصور البدائية القديمة بأن الحق بها كثدرائية طليطلة لا بل إن المرء ليكاد يستطيع أن يترجم هذا الحلم على هيئة حوار أو حكاية حكمية فالحالم مثلاً يزور الحكيم الشيخ الذي تكلمنا عنه أعلاه ويسأله : «ماذا يحدث لي ؟ لم أعد أفهم نفسي !» .

- «من أين أتيت ؟ لقد ذهبت إلى طليطلة ودخلت الكثدرائية فماذا تأملت فيها ؟ واي شيء فيها ترك فيك أعمق الأثر ؟» ومن شأن الحكيم الشيخ أن يجعله

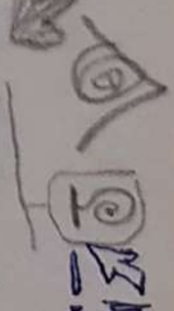
Scanned with CamScanner

يحتاز وعياً بوضعه : «ولقد رأيت فوق ذلك تحت الكثدرائية أشياء عجيبة حقاً منها صهريج حيث كان يوجد تنين وثعبان بحرس كأساً من ذهب تحوي مفتاح المدينة .».
لكن الشاب لا يفهم البتة هذه اللغة الملغزة فلو كان يستطيع أن يوجز كل المشاعر التي انتابته في طليطلة ـ والتي لا نستطيع أن نتخيلها إلا بمشقة إذا لم نذهب إلى هناك ـ لقدّم بالتأكيد وصفاً حياً ومؤثراً للعهد الوسيط في جلاله وحوله ولهذه المدينة التي كانت مقر التفتيش بعد أن كانت مركز العلم العربي وفيها يقع المرء على مزيج عجيب بين ثقافتين الثقافة المسيحية والثقافة الإسلامية والوثنية وهذا الاندماج يطلق بالتأكيد لدى امرىء مثقف تداعيات قوية تتجمع حول تصوره عن الأشياء بعينه وترفد اهتماماته التي تخص العالم المسيحي من جهة وتخص من جهة أخرى عالماً مختلفاً يناظره ؛ فالعالم المسيحي إنما هو عالم الحالم ، العالم العلوي في حين أن العالم الوثني عالم ديماسي تم قهره إذ أفلح ألفونس السادس في فتح إسبانيا من جديد وإخراج المغاربة منها.فقد نُحّيَ الثعبان وحُبس في القيعان الأمر الذي يؤلف صورة رؤيوية فطر عليها الكائن المسيحي حتى في غياب كل تربية دينية.وإننا لنتصور دوماً بأن المسيحية عبارة عن جهر محدد بالإيمان وعن الانتماء للكنيسة، والواقع أن المسيحية هي عالمنا وكل ما نفكر فيه إنما هو ثمرة العصر الوسيط المسيحي ؛ فعلمنا نفسه وباختصار كل ما يتحرك في أمخاخنا متشكل بالضرورة بهذا العهد التاريخي الذي يحيا فينا وتشربناه الى الأبد وسوف يشكل حتى أقصى العصور طبقة من طبقات منظومتنا النفسية مثلما أن جسمنا يحمل آثار تطوّرنا الأنسالي ، وإن عقليتنا برمّتها وتصوراتنا عن الأشياء شئنا أم أبينا قد تمخض عنها العصر الوسيط المسيحي.و«قرن الأنوار» لم يمح شيئاً فإن سمة المسيحية ليقع المرء عليها حتى في الطريقة التي أراد بها الإنسان أن يعقلن العالم . والرؤية المسيحية للعالم هي بالتالي مسلّمة نفسانية تتملص من التفاسير الفكرية فهي ماض سيكون في آثاره وعواقبه ككل ماض آناً دائماً ونحن ممهورون بصورة نهائية بسمة المسيحية وإن كان لا يقل عن ذلك صحة أننا نحمل بالمثل سمة ما سبقها . إن عمر المسيحية سيبلغ قريباً ألفي عام وإن هو في تاريخ العالم إلا هنيهة قصيرة إذ سبقه تراكم من القرون وآلاف من السنين كانت الأمور فيها على غير ذلك والعصر التاريخي لا يعود إلى أكثر من أربعة آلاف سنة قبل المسيح وقبله انقضى ما بين مئة وخمسين إلى مئتي ألف عام في حياة قبلية بدائية هي حياة رسخت

Scanned with CamScanner

تقاليدها في الكائنات وما زلنا متشربين إياها وهذا الموروث لم يضع بل يواصل حياته فينا لا بل إن بالإمكان بسهولة تبيان أنه انصهر عضوياً في مسيحيتنا إذ شُيدت الكنيسة الكاثوليكية على أساس توفيقية وثنية . بيد أن الاستمرارية التاريخية تنقطع بشق يعبر عن نفسه خارجياً بكون المسيحية بحسب التعليم الديني الذي تلقيناه جميعاً قد برزت في التاريخ مجرّدة من كل ماضٍ مثل ومضة برق في سماء صافية ، وهذا التصور كان بلا شك ضرورياً لكنني واثق بأنه مغلوط لأن ما من شيء إلا وله تاريخه وللمسيحية هي الأخرى بالضرورة - وإن ادعت بأنها وحي فريد هابط من السماء - صيرورتها الخاصة ؛ زد على أن بداياتها ذات وضوح فلا بعض شعائر القداس ولا بعض خصوصيات الملابس الكهنوتية فقط مستعارة من الماضي الوثني بل إن لأفكار المسيحية الأساسية هي الأخرى سابقاتها التاريخية. والصدع وسط الاستمرارية لا يعود كما أسلفنا إلا إلى الانطباع العميق الذي خلّفته الفرادة المزعومة للمسيحية وهو انطباع استسلم له العالم بأسره وشيد على نحو ما كثدرائية فوق هيكل وثني ظلت بقاياه مستورة إلى حد أن طوى وجودَه النسيانُ . هكذا يوجد تحت كثدرائية طليطلة صهريج عبارة عن تمثيل نمطي لموضع المسارَرة القديم حيث يكمن الثعبان الشافي . وتمثيل الثعبان هذا في الديماس المعتم صورة وثنية استمرت حتى في عقر الموروث المسيحي وفي حوزتنا وصف لها بليغ يعود إلى القرن الخامس بعد الميلاد .

ماذا نستخلص من كل هذه التقريبات ؟ يلوح أن حلمنا يقول : تحت التصور المسيحي للأشياء ما تزال موجودة بما لا ريب فيه بقايا الموروث الوثني وهي بقايا تعوز الموروث المسيحي بالطبع لأن هذه المخلفات سفلية ومعتمة إذ ترجع إلى النفس البدائية أو «النفسية الشوكية» أو الكائن المجبول على الغرائز . ولئن كانت هذه العناصر تعوز الجزء العلوي من النفسية في الكثدرائية المسيحية فلا يعني أنها ليست راسخة في القيعان . لقد كان على الصور الأساطيرية لحلم الحالم أن تلفت انتباهه إلى كون الكائن العاقل والحاسّ بمعنى العقيدة المسيحية قد بلغ مفترق طرق حيث كان عليه أن يحتاز وعياً بسر غير مستشف حتى تلك الساعة هو سر الحية القديم . والصداقة التي كانت تجمع الحالم بهذا السيد ب .ك . الذي كان يعرف كيف يخادن الثعبان كان ينبغي أن تدله على الموقف الواجب عليه اتخاذه لكي يخرج





Scanned with CamScanner

من دنوّه من التنين بفائدة . فأي سر كان التنين يحرس ؟ وما الذي أوصدت الكنيسة المسيحية بابها دونه ؟ وما الذي غاب عن النظر ونُسي وغطّته القرون وكان الأقدمون ما يزالون على علم به ؟ هو السر الأرضي للنفس الدنيا أو الإنسان الطبيعي الذي لا يعيش على نحو مخي محض إنما الذي ما زال مسموحاً للنخاع الشوكي والودي لديه بإبداء رأيهما ؛ ولقد جرت مساعٍ للتنقيب عن هذا السر وتشريحه على نحو عقلاني وزُعِمَ بأن ماهيّته هي هذه أو تلك أو بأنها الجنس أو حتى أشياء أخرى لكن السر يتملص من هذه المحاولات لأنه يتضمن في الوقت نفسه مسألة تصور الأشياء ويبقى عصياً على كل من لا يتخذ موقفاً دينياً[1] ولا يتوقف عند الرموز . فإن اكتناه هذا السر يتطلب هذين الأمرين ولا يمكن التعمّق فيه بلغة المنطق وحدها وبالاكتفاء بمخاطبة المريض على هذا النحو مثلاً : «إفعل كذا وكذا» أو «هذا الشيء جيد وذاك سيء» أو حتى «ألا تستحي ؟ ادخل إلى نفسك وتبْ» . كل هذا يذهب أدراج الرياح ومثل هذه المخاطبة لا تبدل في حالة المريض الحقة شيئاً . ماذا يتمنى أحياء اليوم ؟ كل شيء إلا المواعظ الطنانة التي يعرفون لازمتها منذ زمن بعيد لذا فإنهم يستشيرون الطبيب الذي يأملون أن يجدوا لديه قليلاً من الفهم الإنساني وشيئاً من معرفة الحياة ؛ وإن مبادرتهم لمفهومة لأن أول ما يرغبون فيه هو أن يُفهموا وأن يختلج فيهم شيء ما شرعي يعصى محاولات النبذ الأخلاقي بما هي محاولات مارسوها حتى التخمة منذ أمد طويل حتى أضرت بهم كل الضرر وأودت بهم إلى حافة الهاوية . إن نزاعات هذه طبيعتُها لا يمكن أن تُحَل بمساعدة المنطق العاقل وحده لأن حلها على العكس يتحيّن - وبأي إصرار يبيّن لنا العلاج النفسي الحديث ذلك - على نحو خفي للغاية في سيرورة نمو نفسي تعضدها الرموز ، وهذه العملية تتخطى ملكتنا المدركة فعلاً ؛ ولو كنا ولدنا صينيين لفهمناها بغير عناء لكن تفكيرنا من الاختلاف ومن التوضع في الطوابق العليا حصراً بحيث أننا لا نتمكن من تصور ما يمكن أن يكونه نمو رمزي أو استحالة métamorphose غير محسوسة ؛ فإننا لا نثق إلا بالوعي الذي يسّر لنا السيطرة على الفضاء الخارجي والسيادة على الطبيعة المحيطة التي جعلها معقولة لنا لكنه لم يكن لنا حتى الآن عوناً كبيراً في سبر أغوار طبيعتنا الجوانية أي عالم اللا متناهي في الصغر الذي

(١) المقصود بالموقف «الديني» هنا المعاني المتضمنة في كلمة religio اللاتينية من نحو «الربط» و«الاتحاد» و«الجمع» ، أي كل ما يرمي إلى تحقيق التكامل في النفس الإنسانية . (م)

Scanned with CamScanner

يهجع فينا (انظر المنطقة د من الترسيمة ٤ ،ص.١٠٠) ويشكل السر الذي يستشعره كياننا الداخلي استشعاراً مبهماً بينما-لا يفقه منه وعينا شيئاً ؛ لذا فقد جهرتُ دائماً بضرورة التصدي لهذه المجالات من زاويتها اللا عقلانية والتحري أولاً-عما بوسع الخافية أن تخبرنا عنها . فلو قيضت لي معالجة هذا المريض لابتدأت محادثاتنا بطرح الرؤية المسيحية للعالم على بساط البحث ولقلت له : «أنت بالتأكيد صاحب مناقبية رفيعة لكنك تعيش في تصور عن الأشياء غيّب عن بصرك بحكم تعقُّله المفرط رؤية الثعبان . وبالطبع فإن ضميرك المسيحي الاتباعي يزين بأنه إبليس نزيل الأغوار وبأن الحية التي تجسده يجب أن تبقى منفية في الأقبية وكأنها نديم خطير ينبغي اجتناب معاشرته **لكننا عندما نكون على مشارف ذهان لا ريب أن ثمة ما يدعو أخيراً إلى الاهتمام بالحية التي كان الحكماء الشيوخ يعزون إليها أيضاً خواصاً شافية** .» فلأن هذه المعرفة قد ادلهمّت فيما بعد اضطر الحلم إلى اللجوء إلى أداة المعرفة القديمة أي السيف المميز الذي طرّقه الأقدمون لأنفسهم[1] .



لقد نسيت أيضاً شيئاً : إن مقبض السيف أحمر والأحمر هو لون الدم وعندما يمس الأمر الدم يمسي الوضع خطيراً والأعذار الواهية تكون قد استُنفِدت . فما الغلط الذي يرتكبه مريضنا ؟ إنه لا يشتبه في الوضع الذي هو فيه ويجهل لماذا تعثّر فيه وهو يجهل أيضاً أن المشكلة التي يعاني منها لا تخصه وحده بل هي داء عصر ؛ فما **المشكلة المعاصرة** ؟ إن القول عن مشكلة بأنها عامة ليَعْدِل القول بأنها موجودة في أمخاخ العديد من البشر ، وهؤلاء ينتخبهم القدر بحكم طبيعتهم الجوانية لكي يعانوا من تنافر خطير أمسى حاداً في العالم الحديث ويرفعوه إلى منزلة المشكلة المستوجبة حلاً ، فإن أفراداً مصطفين واحداً واحداً ممن يكابدون إشكالية كامنة يُستدعون للاستجابة لها والإسهام في الحل باحثين لها ، بما أنهم لا يستطيعون اجتنابها ، عن حل في حياتهم هم ، والشاب صاحب حلمنا واحد من المدعوين الذين يجب أن يجدوا جواباً على أسئلة : «ماذا يعوزنا اليوم ؟ ماذا أغفلنا ؟ ماذا يتعين علينا أن نعرف بعد ؟» ؛ المدعوين المنوط بهم مد جسر بين المعاصر والسلفي حتى نتخطى الهاوية الفاغرة فينا بين طبقات نفسيّتنا العليا

(١) لعل هذا ما قصده ابو تمام بالبيت الذي استهل به قصيدة فتح عمورية :
السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب . (م)

Scanned with CamScanner

المصنوعة من أفكارنا ومشاعرنا العقلانية والطبقات السفلى الموجودة من قديم الزمان . فمن العبث أن نقول : «يجب أن يكون الأمر على غير ذلك» لأن الأمر على ذلك ! على أن هذه الصيغة المقَوْلبة نسمعها دائماً حالما يتعلق الأمر بمصاعب في نسق ما مع أنها لا تشكل إسهاماً جديداً في المشكلة المطروحة بما أن الجميع على علم مسبق بها ! فمثل هذا كمثل قولنا لمريض تيفي بأنه يجب الا يصاب بالحمى التيفية التي يعاني منها حصراً وهي داؤه كله ! علينا ان نجتهد في التخلص من عادة السرمدي : «ينبغي .. !» فهذه الوصفة الهزيلة لم تعد تجدي نفعاً البتة إذ لا يكفي المريض الذي يأتيني مشاوراً أن أقول له : «دعك من التعلق بمثل هذه المشاكل !» لأنه يحملها فيه ويتعيَّن علينا أن نحسب لها حساباً ، فمجرّد اللجوء إلى تعلّات وجمل جوفاء يضيّع بالطبع كل شيء فيبقى المريض في ظلمته ولن نعرف قط موضع الشوكة التي تخزه ولا أين مكمن الحية .

عندما شوهد حلمنا هذا منذ سنوات عديدة خَلَت لم يكن في مكنتي أن أفهمه. على أن شعوراً انتابني بعد أن درست أحلاماً عديدة من هذا النوع بأنه لو قُيِّض لي حتى في تلك الفترة أن أتولّى الحالة لأمكنني أن أساعد الشاب الذي ما كان ربما انتحر ومنذئذٍ عاينت حالات عديدة مشابهة . وإن الفهم الحق لحلم كهذا ليساعد في إحداث تحول في حياة إنسان ؛ فمع الحساسين والمرهفين من البشر فنانين وأذكياء يجب الانتباه إلى أقصى حد والترهات لا تجدي نفعاً بل يجب بالحري على المرء أن يكون جدياً ويغوص حتى عمق الأشياء . فالحالم قد اختار طليطلة وجهة لسفره وموضوعاً لحلمه في آن معاً لأسباب خاصة[1] .

لقد نسينا بكل سذاجة أن تحت عالمنا العاقل عالماً آخر مدفوناً ولا اعلم كل ما ستضطر البشرية إلى مكابدته بعدُ قبل ان تعترف لنفسها بذلك ! إذ يبدو مثلاً باننا لا نشتبه اننا نحن مَن صنع الحرب وما زلنا نتوهم بانها اتت من تلقاء نفسها لكن الأمر ليس على هذا القدر من البساطة ! فلو فهم شابنا معنى

(١) نجد بقلم موريس بارّس Maurice Barrès في غريكو او سر طليطلة Greco ou le secret de Tolède الجملة التالية : «إنه واحد من هذه المساجد المحولة إلى كنائس تذكرنا بأن روحاً مسلمة ما تزال اسيرة في اسس طليطلة .» وليس بالوسع فيما اظن الإتيان بشهادة افضل لصالح تفسير ك. غ. يونغ ! (رك)

Scanned with CamScanner

حلمه لوجب عليه أن يقول لنفسه : «أنا فريسة لشيء يأسرني إذ يضيّق عليّ أفقي يوصدني دون إدراكات أُخَر ويُظهرها لي غريبة عني فلقد حاذيت سراً .» فما هو ؟ إنه لينطوي على مفتاح هو الأداة الأساسية لدخول المدينة وبفضله تتحقق الإمارة على المجموع . وما المجموع ؟ إنه الشخصية الكلية أو النفس التامة وليس بعدُ واحداً من أجزائها وحسب . ويتعين عليه أن يعيد الوحدة إلى البلاد والتكامل إلى المجال النفسي . وحده سيكون سيداً على الكل من يتحلى بالجسارة للاستيلاء على المفتاح الذي يتطلب الفوز به أن يكون المرء خالياً من الخبث أي كالطفل مثل الصُبَيّ الذي كانه الحالم[1] ولقد كان هذا الشرط متحققاً في صديقه ب .ك . لأنه لم يكن خائفاً من هذا السر وكان يدانيه بكل سذاجة . أو لا يزال عند الطفل الذي لم يطأ بعد عالم الوعي إلا برجل واحدة ولم ينضغط فيه ويتخرّب من الحذاقة الضرورية ما يؤهله للتحادث ودياً مع «الحيوان الذي فيه» . إن هذه العبارة الأخيرة تثير في أذهاننا اشمئزازاً عميقاً بيد أن «هذا الحيوان فينا» ليس فيه إلا كل ما هو طبيعي وليس أشنع من الحيوانات التي تعيش في الطبيعة المحيطة وتخلص في تحقيق مشيئة الباري الأمر الذي لا نقدر أن ندّعيه نحن الذين نسعى دائماً بنزواتنا وانعطافاتنا إلى مراوغتها . إن طموحنا لا يرمي إلى تحقيق كلية كياننا ـ فمثل هذا الطموح غير مريح وغير مستحب أما الحيوانات فهي ما هي حقاً . إن الحيوان والنبات هما عندي رمزا الكائن التقي وكلنا بحاجة إلى الاقتداء بهما فهما يعيشان كلية كيانهما مثلما يحيا الطفل كلية كيانه[2] . أما مملكة البشر فهذا الملاء اللا واعي قد اختفى منها بالطبع . ولكن لماذا يقول المسيح : «كونوا وادعين كالحمام وحاذقين كالحيات»[3] ؟ إن النصف الثاني من هذه الحكمة : «حاذقين كالحيات !» لتؤذي أسماعنا . كذلك عندما يقول : «أحبب قريبك ...» نجد هذه الخاطرة جميلة جداً ... لأنها تعفينا من الاهتمام بأنفسنا ؛ لكنه عندما يضيف : «أحبب قريبك كنفسك !»[4] لا نوافق بعد على هذه الإضافة ونزعم أن محبة النفس

(١) هذا بوجه ما مؤدى قول يسوع : «احمدك يا ابت ، رب السموات والأرض ، على انك أخفيت هذه الأشياء على الحكماء والأذكياء ، وكشفتها للصغار» (انجيل متى ١١:٢٥) . (م)

(٢) إن لفي اشتقاق كلمتي «حياة» و«حيوان» من أصل واحد دليلاً على ذلك ! (م)

(٣) انجيل متى ١٠ : ١٦ . (م)

(٤) انجيل مرقس ١٢ : ٣١ . (م)

Scanned with CamScanner

هي من قبيل الأنانية . محبة النفس ! لم يكن من الضروري وعظ الأقدمين بذلك لأنهم كانوا يعملون بها بصورة طبيعية . واليوم ؟ يحسن بنا أن نولي هذه الـ «كنفسك» كل العناية . إذ كيف يمكنني أن أحب الغير إذا لم أحب نفسي ؟ كيف يكون المرء غيرياً إذا أساء معاملة نفسه ؟ عندما نعامل شخصنا بالكرامة التي تليق به وعندما نحب نمضي من اكتشاف إلى اكتشاف ونفهم ما نحن إياه وما ينبغي أن نحب ، وهذا الأمر لا يقل عن وضع الرجل بين شدقي التنين في شيء وكل من يعجز عن الحب سوف يعجز عن تحويل هذا الأخير ولسوف تواصل الأشياء مسارها القديم . فلقد **نسينا أن تحت الكثدرائية المسيحية يوجد حَرَم مسارَرة قديم يعيش فيه ثعبان هو الحارس الأمين للكأس الذهبية التي تحتوي على مفتاح الكلية** ؛ فيجب عدم الخلط بين الذات التي يجب أن نحب وبين شخصنا الصغير أو أنيّتنا التي لا نحبها لنفسها بل من أجل الكأس الذهبية ومن أجل طليطلة ومن أجل المدينة برمتها والبلاد بأسرها بكل قاطنيها . فإن «الذات» التي يجب علينا أن نحبها وتتجلى فينا من خلال وجودنا الفردي تختلف عن الأنا . الذات هي كليتنا النفسية التي قوامها الوعي وبحر النفس اللا نهائي الذي يطفو على سطحه : **إنما ذاتي هي نفسي ووعيي ، ذاتي التي أنا متضمَّن فيها كالجزيرة بين المياه وكالنجمة في السماء** . كذا فإن الذات أوسع من الأنا بما لا يقاس وحب الذات إنما يجب أن يكون حب تلك الكلية التي من خلالها نحب الإنسانية بأسرها . فمحال أن يحب المرء أياً كان إذا كان يكره نفسه . لذا يكابد المرء ضيقاً في حضرة دعيّ فضيلة ، إذ يُنزل بنفسه العذاب يحوّط نفسه بجو من الشهادة ، فإن فضيلة كهذه تشبه الرذيلة بصورة غريبة من حيث إن شيئاً طيباً في الأصل قد صار شيئاً لم يعد كذلك بل صار تعلّة . وفي أيامنا هذه غدا بوسع أول خسيس قادم أن يتظاهر بمحترمية عظيمة بالذهاب إلى الكنيسة و«محبة قريبه» . إن ثمة هنا حالة باطلة للغاية وعالماً مصطنعاً .

لقد استولت هذه المسائل على شابنا وإن قوة خلّاقة تقيم فيه يكشف عنها حلمه الحسن السبك الذي ينبغي أن يسعفه في حل المسألة ؛ عليه أن يكون البطل النازل شخصياً إلى عالمه الديماسي ، إلى قبوه المعتم الغامض حباً بالكأس الذهبية التي تحوي المفتاح المؤدي إلى الكلية فإننا لن نبلغ كليتنا قط ما لم نحمل على عاتقنا

Scanned with CamScanner

الظلمات التي فينا لأن ما ثم جسم لا يُلقي في كليته ظلاً وهذا ليس بموجب بواعث معقولة بل لأن الأمر كان كذلك دوماً ولأن العالم هكذا . الإنسان بمفهوم ما ليس خيّراً وهو ليس كذلك على الرغم من كل ما يمكن أن نزعم بصدده لذا يحسن بالمرء منذئذٍ أن يعي ذلك ويتساءل عن كيفية يُدرج بها على نحو رشيد هذا الجانب من الطبيعة البشرية في كلّه . فإن الوقائع حاضرة دائماً حتى إذا لم يكن يجب تفسيرها إلا باستشفاف أوجهها المظلمة . فكيف يمكن لأب طيب مثلاً أن ينجب إبناً خسيساً أو ابنة بغيضة ؟ لا يملك الآباء إلا أن يصرخوا : «يا للأولاد المساكين ، كيف اعتراهم ذلك ؟ ...» وإلام مرد أن نسبة مئوية مفاجئة من أبناء القسس يعانون من **خبال معنوي** moral insanity أو انحراف في حس القيم ؟ مردّه ببساطة شديدة إلى أن ذويهم المتظاهرين بالجهل قد أُجبروا على محترمية ملعونة كانت من حيث لا يدرون أكبر من أن تحتملها طبيعتهم ، فلو استطاعوا أن يكونوا ما هم إيّاه لما اضطروا إلى خلع خطاياهم على أولادهم بعد أن ظنوا أنهم قد خنقوها نهائياً في أنفسهم . ثمة ههنا حقيقة كبيرة ومأساوية لأنه محال أن تُغفر للمرء خطايا لم يرتكبها .

وتبقى هذه المسألة كما ترون من أعقد المسائل ، والتمحّك فيها لا يفيد شيئاً ؛ فإننا رهن إلى حد كبير جداً لنعمة الخافية وحسن نيّتها في دلنا على الطرق التي يجب عبر متاهة النفس أن تقودنا إلى مرفأ الأمان . فلو فهم حالمنا حلمه لتعلم منه أن من واجبه أن يهتم بلا إبطاء بالعالم المظلم والمستور والمغطى بضميره الأخلاقي المسحيي . لكنه ماذا فعل بدلاً من ذلك ؟ لقد ألقى بإشكاليّته كلها إلى الخافية وشخصية البطل التي كان عليها أن ترشده قُلِّصت إلى منزلة الزينة ونجم عن ذلك أن كل الحماسة وكل الحمية البطولية الضروريتين لمعالجة المشكلة وأن كل التوتّر الطاقي تبدّد أخلاطاً وتذبذبات دائرية وأن الحالم غدا ضحية ذهان هوسي خَوَري .

Scanned with CamScanner

خاتمة

ها قد استعرضت مفاهيم نفسانيتي الأساسية في هذا الكتاب ولن يفوت القارىء أن يتبيّن ـ تعينه على ذلك ترجمة السيد ر. كاهن ـ سلابيل الفهيمة للغاية ـ أن علم النفس هذا لا يقوم على مصادرات مدرسية إنما على خبرة الإنسان صحيحاً ومعتلاً وذلكم سبب كونه لم يطق الانحصار في دراسة الوعي بمعطياته ووظائفه واضطر إلى الانكباب على ذلك الجزء من المنظومة النفسية الذي يدعى الخافية. وكل ما قلناه عن هذه الأخيرة يجب أن يُفهم مع تعديل في النكهة لأن الأمر بصددها يخص إثباتات غير مباشرة من حيث إن الخافية تتملص من الملاحظة المباشرة. والتصورات التي نكوّنها عنها ما هي إلا استنباطات منطقية للمؤثرات الصادرة عنها. وهذه الاستنباطات ليس لها إذا طُلب عمق الأشياء إلا قيمة الفرضية لأن هذه من جهة معرفة ما إذا كان بمقدور تمثيلات الوعي أن تدرك طبيعة الخافية وتصوغها بصورة ملائمة مسألة تتخطى الذهن البشري. ولقد تبلورت تصوراتي عن الخافية رويداً رويداً إنْ باجتهادي في إيجاد القاسم المشترك الذي يقرب في علاقة منطقية أكبر عدد ممكن من الوقائع الملاحظة وإنْ بمحاولتي التكهّن بالتطور اللاحق المحتمل لحالة نفسية معطاة محددة بدقة الأمر الذي هو أيضاً منهاج لامتحان صحة فرضيات معينة : فإن من المعلوم أن تشخيصات طبية عديدة تكاد لا تُعلَّل لحظة يصوغها الطبيب الممارس ولا تتأيّد إلا بالسير المتوقع للمرض.

وإني لعلى يقين بأن الدراسة العلمية للنفس هي علم المستقبل. فعلم النفس هو أحدث العلوم الطبيعية سناً وتطورّه لم يجتز بعد طور الخطوات الأولى لكنه يبقى مع ذلك أكثر العلوم ضرورة لنا إذ يتبدى بالفعل بوضوح يزداد سطوعاً بأنه لا المجاعة ولا الزلازل ولا الجراثيم ولا السرطان بل الإنسان هو بحق الذي يتهدد الإنسان بأعظم الأخطار، وسبب ذلك يسير : ليس ثمة بعد أية حماية ناجعة من

Scanned with CamScanner

الأوبئة النفسية وهذه الأوبئة أكثر تدميراً بما لا يُقاس من أسوأ كوارث االطبيعة ! والخطر الأعظم الذي يتهدد الكائن الفرد والشعوب على الإجمال على حد سواء هو **الخطر النفسي** . والعقل بإزائه قد أبدى عجزاً تاماً يُفسَّر بكون حججه تفعل في الوعي لكنَّ في الوعي وحده بدون أن يكون لها أي تأثير على الخافية . وبالتالي فإن الخطر الأكبر على الإنسان يصدر عن الجماهير التي تتراكم وسطها مؤثرات الخافية مكمَّمة عندئذ وخانقة دعاوى الوعي المعقولة . وكل تنظيم جماهيري عبارة عن خطر كامن شأن كومة من الديناميت لأن منه تتفلّت مؤثرات لم يُرِدها أحد إنما ليس بمقدور أحد أن يعطّلها ! لذا يجب أن نتمنى بحرارة أن ينتشر علم النفس ومعارفه وفتوحاته على مدى هو من الاتساع بحيث يخلص البشر إلى فهم مصدر المخاطر العظمى التي تحوّم فوق رؤوسهم . فليس بالتسلّح حتى الأسنان كلٌّ لحسابه ستتمكن الأمم على المدى البعيد أن تتّقي الكوارث المريعة التي هي الحروب الحديثة . إن الأسلحة المكدّسة تطالب بالحرب ! أو ليس من الخير على العكس في المستقبل الاحتراس واجتناب الشروط - المقتفى أثرها الآن - التي تحطم فيها الخافية سدود الواعية وتسلبها معرّضة العالم لخطر دمار هائل ؟

أرجو أن يسهم هذا الكتاب في توضيح هذه المسألة الجوهرية للإنسانية .

كوسنخت - زورِخ ، كانون الثاني ١٩٤٤ .

ك.غ. يونغ

Scanned with CamScanner

فهرس مواضيع الكتاب

لهذا الفهرس أهميته إلى جانب الفهرس العام للكتاب ؛ فهو يتتبع أفكار يونغ أولاً بأول مشيراً إلى الصفحات التي وردت فيها على مدار الكتاب بحيث نستطيع القول إنه يشتمل عليها كلها .

وهو مخصص بوجه التحديد إلى الباحثين والطلاب بحيث يستطيع المنقب منهم أن يمسك بفكرة أو بمصطلح فيستجلي كل الأشكال والسياقات التي وردت فيها مشكلاً بذلك بحثاً قائماً بذاته قد يتطور إلى موضوع لأطروحة . وبإمكانه أيضاً أن يربط هذه الأفكار مع غيرها مما ورد في مؤلفات يونغ الأخرى من خلال فهارس المواضيع التي نثبتها في نهاية كل كتاب نترجمه .

هذا وإن كل مؤلفات يونغ متبوعة بمثل هذه الفهارس ، غير أن ما أضفناه في الترجمة العربية هو وضع عناوين لنصوص الفصول بحسب الأفكار أو المواضيع المعالجة الأمر الذي ييسّر على القارىء متابعة آراء المؤلف ومقارنتها وصولاً إلى تكوين فكرة دقيقة شاملة .

وبإمكان المنقب ، لدى بحثه عن كلمة ، أن يجدها في كل الصفحات المذكورة وغالباً أكثر من مرة . غير أنه قد تكون بعض الكلمات ـ وهي قليلة جداً إذا وجدت ـ قد فاتتنا فلا يجدها حيث يشير رقم الصفحة إليها . وذلك يعود إلى الدقة التي رافقت إعداد هذا الفهرس وما اقتضاه من جهد وتأنٍ .

وقد أرفقنا عموماً الكلمة العربية ، وخاصة تلك الكلمات المتميزة في علم النفس المركب ، بمرادفها الأجنبي تسهيلاً لتحقيق المعنى . غير أننا سوف نقدم ، في مستقبل ليس ببعيد ، معجماً للقسم الأهم من المصطلحات النفسانية مع الشروح والحيثيات التي دعت إلى اختيار مصطلح دون آخر .

ونذكر هنا بأن أعمالنا في الترجمة وما يرافقها من شروح وخدمة ترجمية وتحقيق للمصطلحات إنما تندرج في إطار توفير مراجع قيّمة تساهم في تهيئة أساس مكين لعلم نفسٍ عربي أصيل .

من هنا فإننا نرحب بأي اقتراح أو فكرة أو مناقشة تصب في مجرى هذا الهدف .

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ح

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

د

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ز

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ص

ض

ط

Scanned with CamScanner

ظ

Scanned with CamScanner

ع

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

غ

ف

Scanned with CamScanner

ل

م

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ن

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

هـ

و

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

ي

الفهرس

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

Scanned with CamScanner

كتب صدرت للمترجم



« علم النفس الجديد وطرقه المدهشة »

هذا الكتاب : واحد من الكتب الشهيرة للعالم النفسي التحليلي ، بيير داكو ، الذي احتلت كتبه الصدارة في لائحة المبيعات العالمية لكتب علم النفس .

يختلف عن الكتب السابقة .. فيه مواقف إزاء الوجود والناس والأشياء والذات .. ويتكلم عن التبدلات والتغييرات التي تحدث في العالم على مستوى الجماعات والأفراد ... وعن النزاعات والحروب ومنطلقاتها النفسانية .. عن الحظ والنجاح والفشل .. عن الحب والبغض .. والتربية .. والأحلام ، إضافة إلى الكيمياء والفيزياء الحديثة ، والمادة ، والروح ، والتقمص ...

مفتاح واحد يقدمه المؤلف لمن يبتغي ارتياد الحياة والوجود ، وتفعيل القوى الكامنة وعوامل الإبداع والجمال ، وتحقيق الإنسانية فرداً وجماعة ، في واحة كوكبنا الأرضي الصغير .

دار الغربال

Scanned with CamScanner



من السجون إلى الحرية

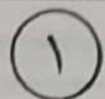
الحرية هي أولاً حرية داخلية. اكتسابها أمرٌ ممكن وهي خارجة عن معظم المعايير المألوفة.

ثمَّة سجونٌ كثيرة يجب الخروج منها أولاً: نفسانية واجتماعية وأخلاقية كبَّلت الفرد على مدار السنين منذ الطفولة وحتى سن الرشد.

في هذا الكتاب يعرض لنا بيير داكو وسائل فعالة استقاها من خبرته التحليلية مع فئاتٍ عديدة من كافة الشرائح الاجتماعية. وهي وسائل جديرةً بأن تؤدي إلى تحريرٍ للشخصية الإنسانية خاصةً أنَّ المؤلِّف يعوِّل كثيراً على الذكاء الذي يقدمه لنا في تصورٍ جديد شيِّق وغير مألوف.

Scanned with CamScanner

سلسلة أعمال يونغ:



علم النفس المركب *LA Psychologie Complexe*

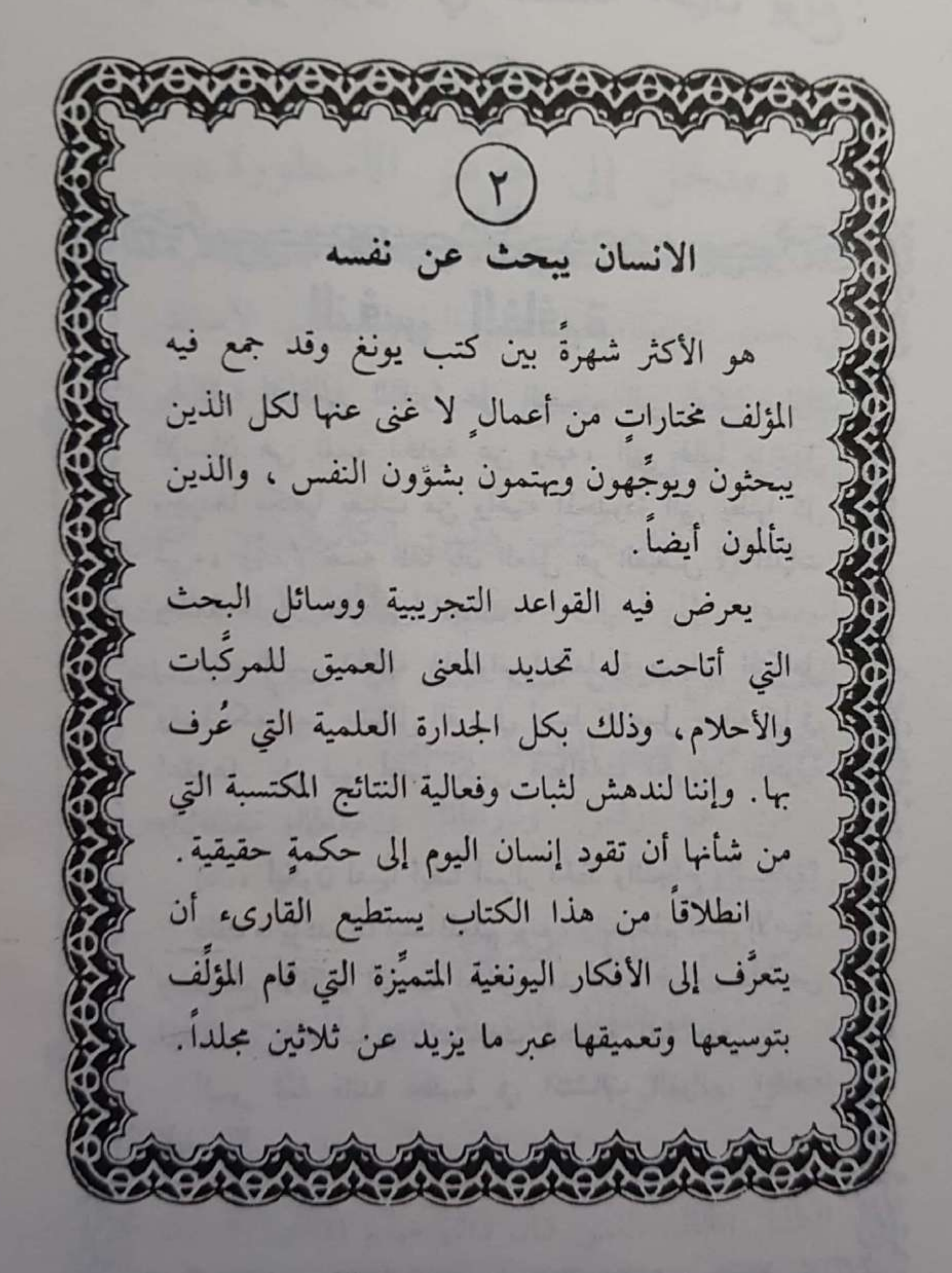
Oeuvre de Jung

هو من اهم الكتب التي ظهرت لعرض وتفسير اعمال المحلل النفسي العظيم **غوستاف يونغ**، تلك الأعمال التي جاوزت الثلاثين مجلداً، المؤلف **شارل بودوان**، هو من مريديه ومن المتابعين لنهجه ومؤسس هو ايضاً لمعهد دولي لعلم النفس التحليلي في سويسرا.

هذا الكتاب هو الأول من نوعه باللغة العربية.

ترجمة : سامي علام

Scanned with CamScanner



٢

الانسان يبحث عن نفسه

هو الأكثر شهرةً بين كتب يونغ وقد جمع فيه المؤلف مختاراتٍ من أعمالٍ لا غنى عنها لكل الذين يبحثون ويوجِّهون ويهتمون بشؤون النفس ، والذين يتألمون أيضاً.

يعرض فيه القواعد التجريبية ووسائل البحث التي أتاحت له تحديد المعنى العميق للمركَّبات والأحلام، وذلك بكل الجدارة العلمية التي عُرف بها. وإننا لندهش لثبات وفعالية النتائج المكتسبة التي من شأنها أن تقود إنسان اليوم إلى حكمةٍ حقيقية.

انطلاقاً من هذا الكتاب يستطيع القارىء أن يتعرَّف إلى الأفكار اليونغية المتميِّزة التي قام المؤلِّف بتوسيعها وتعميقها عبر ما يزيد عن ثلاثين مجلداً.

ترجمة : سامي علام وديمتري أفييرينوس

Scanned with CamScanner

كتب تظهر قريباً في سلسلة أعمال يونغ:



النفس الخافية

القوة العظمى القادرة على التغيير، التي تحكم سلوك الإنسان هي نفسه الخافية عن وعيه، التي غالباً ما يجهل وجودها مكتفياً بفتاتٍ من واعيته المحدودة التي يظنها كل شيء، ويخدع نفسه ظاناً بأن العقل هو الفيصل في الملمّات والمنقذ المعوَّل عليه في المهالك.

هذه النفس الخافية لها قوانينها العلمية وبنيانها المتكامل وفيها يكمن سرُّ مشاكل الفرد في أبسط تفاصيل حياته كما في أعقدها. بل فيها أيضاً تكمن منطلقات الحروب الكونية والإقليمية والأهلية.

إذن، أيكون لديها أيضاً أسرار الحظ والنجاح والسعادة؟

ذلك ما يؤكده لنا أيضاً المعلِّم يونغ، رائد علم نفس الأعماق ومستطلع الأقاليم النفسية الخافية بعد خبرة خمسين عاماً من المعالجات النفسانية والاكتشافات العلمية المتلاحقة.

أليس ثمّة فائدة عظيمة في اكتشاف القوانين الخافية لأنفسنا؟

ترجمة: سامي علام

Scanned with CamScanner

(٤)

« مدخل إلى جوهر الأسطورة »

دراسة عظيمة متميزة قام بها عالمان مشهودٌ لهما كلٌ في مجال اختصاصه؛ عالم النفس وعالم الأساطير: يونغ وكيريني. موضوع الدراسة: «الطفل الإلهي» و«الفتاة الإلهية».

الكون كله يكتنف هذين الكائنين من أقصى السموات إلى أعماق الجحيم. إنهما أكثر عرضة لقوى الطبيعة من أطفال البشر ذلك أن عليهما استدماج الكثير من قوى الطبيعة نفسها.

من هو زفس ونارايانا وأبولون وهرمس وديونيسوس؟

من هو الطفل اللقيط؟

ثم مَن هو الطفل الذي لا يُقْهَرْ؟ المزدوج الجنس؟ البدئي والنهائي؟

ترى ما هو سرُّه؟ وأين هو الإنسان من ذلك الطفل الخالد الذي كان دائماً حلم الأجيال؟ أيكون هو الولدُ التام المتوقع ظهوره باستمرار؟

ترجمة: سامي علام وديمتري أفييرينوس

Scanned with CamScanner

٥

« الشفاء النفساني »

لا تقوم مناهجية يونغ على شفاء النفس الإنسانية من أمراضها وحسب، ولكن أيضاً على ربطها بالكون وقوانينه التي انقطعت عنها إثر ظروفٍ متعدِّدة ففقدت بذلك سعادتها.

النفس السعيدة لها قانونها الذي يجعلها تؤدي وظيفتها وهدفها على نحوٍ مريحٍ لا تعثر فيه. من هنا فإن مناهجية يونغ تقوم على إعادة الوحدة الداخلية إلى الإنسان ثم جعله يكتشف علاقته الوثيقة بالنظم البيئية والبشرية والطبيعية والكونية.

تلك خصوصية هذا الكتاب الذي يشكل مرجعاً تطبيقياً هاماً لعلماء النفس وكل المهتمين بمعالجة أشكال السلوك البشري وفهم تجلياته.

ترجمة : سامي علام

Scanned with CamScanner

(٦)
الأنماط النفسانية

ثمّة جملة من الأفكار والاتجاهات والقرارات ؛ وأنواعٌ من الأمراض النفسية والبدنية تندرج في خانة هذا النمط أو ذاك . .

هناك أنماط في الأدب والفن والشعر ؛ وأنماط في السياسة والقيادة ؛ وأنماط في الحياة الزوجية والصداقات . .

فرويد وأدلر نمطان متعاكسان . . .

النمط هو الاستعداد الداخلي ؛ الموقف الكامن ؛ الذي سيعطي الفعل صورته . إنه متجذر على حدود الأحيائي والنفسي .

الإنسان المنبسط هو ذاك المنفتح أولاً على العالم الخارجي وأحداثه ؛ والمنطوي هو المشدود أولاً إلى العالم الداخلي ومجرياته .

أيّ من العالمين يغريك ؟ الداخلي أم الخارجي ؟ الأمر ليس سهلاً ، فكلاهما غنيان سخيان . وجديرٌ بك أن تعرف البحار التي تقف على شواطئها وتستهويك أعماقها ؛ والحقول التي تسرّح ناظريك في أقماحها ؛ والكروم التي تلذ لك أعنابها .

في كتاب يونغ هذا ، تجد السبيل إلى بقاع وأقاليم كانت إلى الآن تبدو مستغلقة ؛ ومفتاحاً لفك الكثير من الطلاسم وفهم أسرار التاريخ وحبكات الأحداث المستحكمة هنا وهناك في حياة البشر كافة .

ترجمة : سامي علام وفايز بشور

Scanned with CamScanner

⑦

علم النفس والتربية

يضم هذا الكتاب آراء واتجاهات يونغ في شؤون التربية .

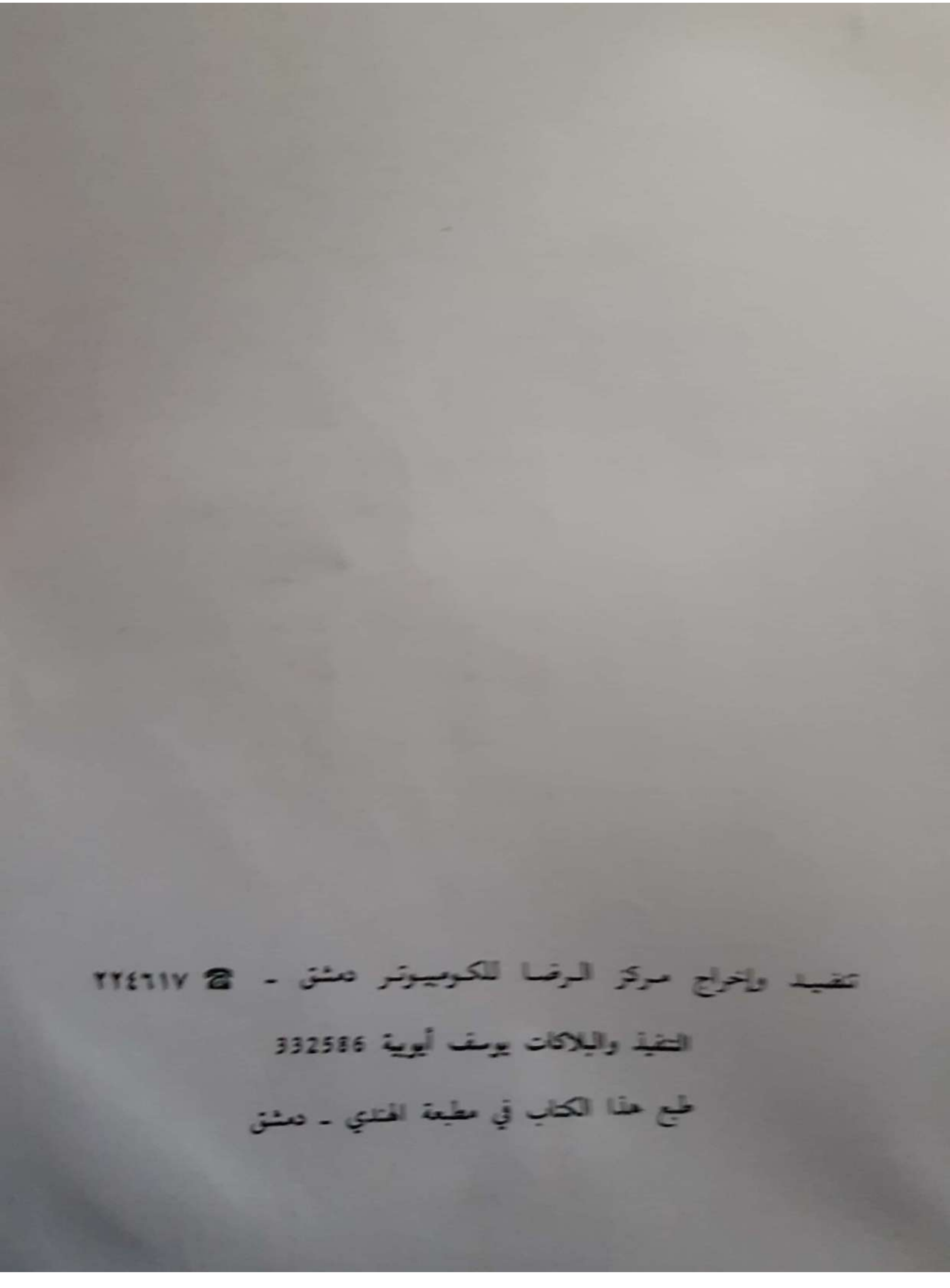
تربية الطفل تعني أيضاً توجيه الإنسان الراشد الذي يطوِّع الطفل إلى حدٍ بعيد . . .

ليست التربية مهمَّة سهلة . إنها تقتضي مرونة وذكاء وخاصة معرفة الراشد لنفسه قبل أن يطبق المبادىء الموضوعية على الطفل .

إنها رؤية جديدة ، عميقة ، وشاملة تقوم على معرفة القوانين السلوكية ، يقدمها لنا العالم النفسي العظيم يونغ ، بعد خبرة جيلية من البحث والملاحظة والمعالجات النفسية .

ترجمة : سامي علام

Scanned with CamScanner



تنضيد وإخراج مركز الرضا للكمبيوتر دمشق - ☎ ٢٢٤٦١٧

الفلم والبلاكات يوسف أيوبية 332586

طبع هذا الكتاب في مطبعة الفتاني - دمشق

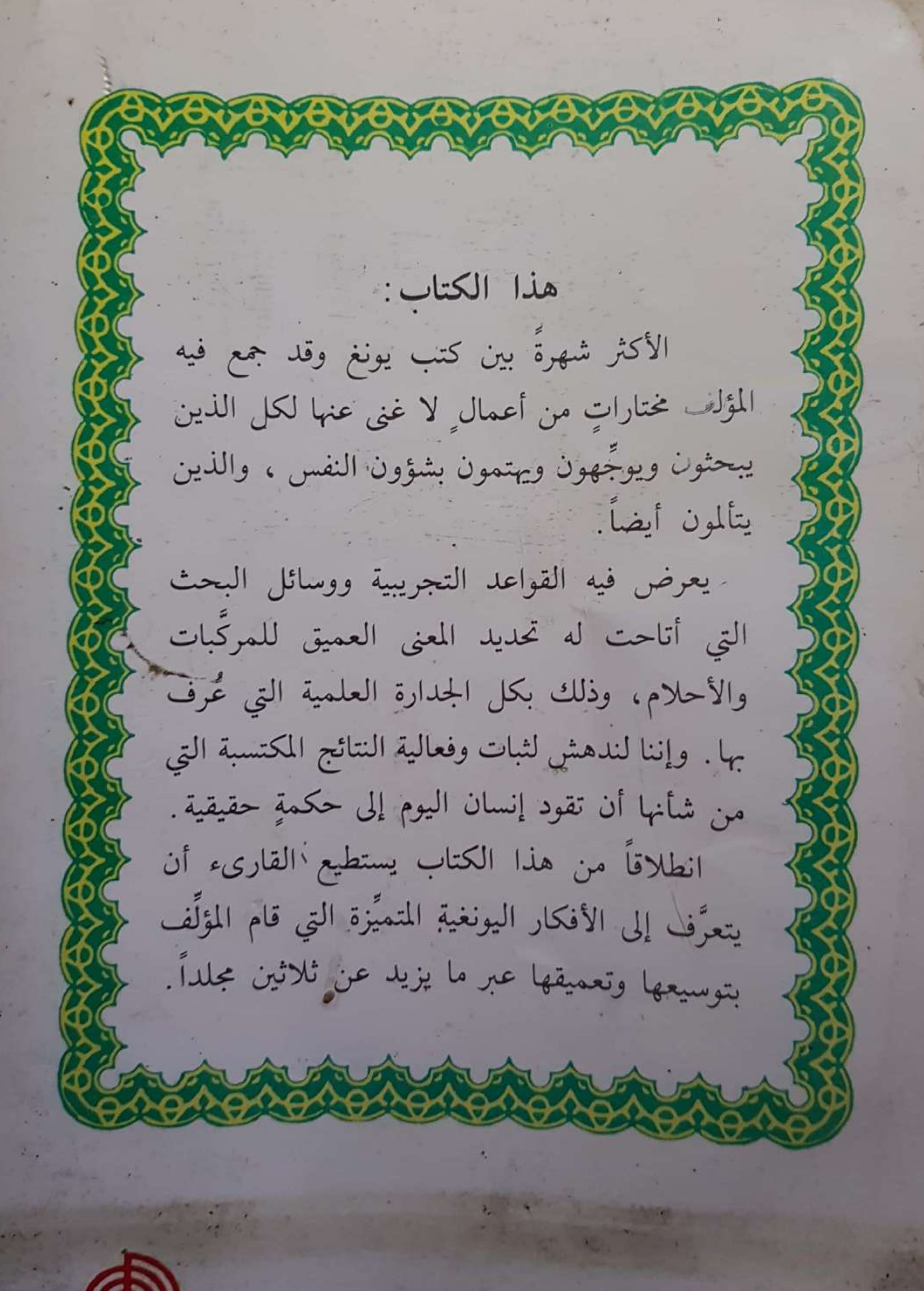
Scanned with CamScanner



Scanned with CamScanner



Scanned with CamScanner



هذا الكتاب:

الأكثر شهرةً بين كتب يونغ وقد جمع فيه المؤلف مختاراتٍ من أعمالٍ لا غنى عنها لكل الذين يبحثون ويوجِّهون ويهتمون بشؤون النفس، والذين يتألمون أيضاً.

يعرض فيه القواعد التجريبية ووسائل البحث التي أتاحت له تحديد المعنى العميق للمركَّبات والأحلام، وذلك بكل الجدارة العلمية التي عُرف بها. وإننا لندهش لثبات وفعالية النتائج المكتسبة التي من شأنها أن تقود إنسان اليوم إلى حكمةٍ حقيقية.

انطلاقاً من هذا الكتاب يستطيع القارىء أن يتعرَّف إلى الأفكار اليونغية المتميِّزة التي قام المؤلِّف بتوسيعها وتعميقها عبر ما يزيد عن ثلاثين مجلداً.

دار الغربال

Scanned with CamScanner